سياحة الفكر

مقالات في التفسير

تأليف

بسّام جرّار

بسم الله الرحمن الرحيم

بسّام نـهاد جرّار

نون للأبحاث والدراسات القرآنية

مركز نون للدراسات والأبحاث القرآنية

البيرة – فلسطين

ص.ب: 3763

هاتف: 2402088

فاكس: **2401346**

البريد الالكتروني: noon@p-ol.com

الصفحة الالكترونية: www.islamnoon.com

الطبعة الأولى

1435 هـ ــ 2013م

فهرس

- المقدمة... **11**
- القرآن ومنهجيّة التفكير..15
- القرآن يصحح 25
- طالوت 31
- يحيى يوحنا 35
- يحيى عليه السلام 38
- تشابه مُلهِم 42
- يونس، عليه السلام، فرضية قد تصبح حقيقة 46
- سلام على إل ياسين 57
- إبراهيم عليه السلام 62
- إسماعيل عليه السلام 65
- يعقوب 74
- أحمد 80
- سورة 83
- سليمان عليه السلام 87
- الزبور 90
- الصرح 94
- الصافنات الجياد 98
- الإيمان 102
- الغيب 1 105

- الغيب 2 108
- وما هو على الغيب بضنين 111
- الآخرة 114
- الظنّ 117
- التقويم 121
- الفضل 124
- الشهيد 127
- الوكيل 130
- الآل والأهل 133
- الأرض المقدّسة 137
- الأرض المباركة 140
- الأقصى 143
- المسجد الأقصا 146
- الروم 150
- أم القُرى 154
- المدينة 158
- الكعبة 162
- عرفات 166
- الحج 170
- طواف الوجود 173
- السبت 176
- التابوت 180
- بنو إسرائيل 184
- الشجرة الملعونة 187

- السامري 194
- يا أخت هارون 198
- فرضية تتعلق بكيفية خلق المسيح 202
- هما كلمتان 207
- ثلاثة إعلانات للمسيح، عليه السلام 210
- سليمان وأيوب 214
- لا ينبغي لأحد من بعدي 217
- وتماثيل 221
- إنما نحن فتنة 225
- من المس 234
- مسألة حول الطوفان 236
- لما كذبوا الرسل 240
- إنك لغوي مبين 244
- ولملئت منهم رعباً 251
- ذلك من آيات الله 254
- إني فاعل ذلك غداً 257
- فأتبع سببا 261
- في مفهوم القرب 265
- مسألة في الاستواء 267
- سنفرغ لكم أيها الثقلان 270
- بورك من في النار.................................. 275
- مثل نوره 279
- الذي استوقد ناراً 287
- الإنسان ذلك الكائن!! 290

- وليس الذكر كالأنثى 296
- إنزال الأنعام 299
- إلا الموتة الأولى 304
- أمة الرحمة المكتوبة 309
- الإيمان والعمل 312
- مسألة في التوبة 315
- ولو تقوّل علينا 318
- فوق الذين كفروا 321
- الضالون المكذبون 327
- وليقترفوا ما هم مقترفون 330
- والنهار إذا جلّاها 334
- ما جعل اللهُ لرجلٍ من قلبين 338
- فضحِكَت 342
- أكاد أخفيها 346
- كما أنزلنا على المُقتَسِمين 351
- الذنْب والسيّئة 357
- كما أنشأكم من ذريّة قوم آخرين 361
- وحُرِّمَ ذلك على المؤمنين 377
- مفاتح الغيب 382
- ولِتُصنَعَ على عيني 385
- لئلا يعلمَ أهلُ الكتاب 388
- وعلّمَ آدمَ الأسماء 393
- زُيّنَ للناس 396
- فهل من مُدَّكِر 399

- يأجوج ومأجوج 403
- وكيف تصبر 409
- لأَقْتُلَنّك 412
- ثمّ ادعُهُنَّ 415
- إن لبثتُم إلا عشراً 419
- القِوامة حقّ للمرأة 422
- إذ تسوَّروا المحراب 425
- نظرات في سورة يوسف 430
- الرؤى تصنعُ الأحداث 431
- وقطّعنَ أيْدِيَهُنَّ 435
- وأعلمُ منَ الله 440
- ونحنُ عُصْبة 443
- اجعلني على خزائنِ الأرض 447
- وجاء بكم من البدو 450
- ألفاظ ودلالات 454
- من أسرار البلاغة القرآنيّة 458
- الخاتمة 463
- المراجع 465

المقدّمة

هي نظرات في كتاب الله الحكيم حرصنا أن نلخّصها في مقالات قصيرة قدر الإمكان، لعلمنا أنّ أغلب الناس ينفرون من المطولات ويرغبون في الوصول إلى المعاني والدلالات بسرعة. ولكننا في المقابل ننصح القارئ الكريم أن يقرأ بتركيز، يساعده في ذلك البعد عن التطويل والإسهاب واستقلال كل مقال بفكرته.

هي تجميع لسلسلة تهدف إلى تقديم منهجيّة في تدبّر النص القرآنيّ الكريم، وتُقدّم أمثلة متعدّدة ومتنوّعة نأمل أن تفتح آفاقاً لمن يتدبّر كتاب الله الحكيم. وهي تستهدف بالدرجة الأولى أولئك الذين يجدون مسرّتهم في الفكرة، وتستهويهم المنهجيّة، وتستفزّهم الجدّة، وتشدّهم الأصالة.

هي سياحة الفكر فيما استشكل بعيداً عن الجدل. تستنطق ملابسات الاستشكال، وتتوسّل بالعربيّة المصطفاة، وتستمدّ من وَصْلِ الرسول عليه السلام، ثمّ هي أولاً وأخيراً تستلهم اللفظة القرآنيّة في سياقها المبين.

هي محاولات لإعادة النظر في تفسير بعض الآيات الكريمة، لعلمنا أنّ ما جاء فيها من تفسير لم يشف الغليل، ولعلنا نثير الدافعيّة لدى المسلم المستنير أن يكون حلقة في مسيرة المفسرين الكرام، التي لا تتوقّف حتى يأذن الله تعالى ببلوغ خلافة الإنسان في الأرض مداها.

كانت البداية مقالات في الصحف، ثمّ دوّنت هذه المقالات في كتاب:

من أسرار الأسماء في القرآن الكريم، حيث كان الاسم هو المدخل لفهم وتدبّر كتاب الله العزيز. ثمّ كان كتاب: **نظرات في كتاب الله الحكيم**، ثمّ تلاه كتاب: **حصاد النظر: مقالات في التفسير**. وأنت تجد هذه الكتب الثلاثة هنا بعد إعادة النظر فيها، مع ما أضيف بعد ذلك من مقالات في التفسير، تمّ تنزيلها جميعاً في صفحة مركز نون الالكترونيّة. وأغلب هذه المقالات كانت دروساً ومحاضرات على مدار ثلاثة عقود منذ بداية عقد الثمانينات من القرن الماضي.

في الشهر الثالث من عام 2011م، كانت فكرة تصوير درس التفسير الأسبوعي، الذي يُعقد يوم الأحد، ما بين المغرب والعشاء، وذلك في مسجد العين في مدينة البيرة. ويتمّ تنزيل هذا الدرس على اليوتيوب أسبوعياً. ويمكن للمتابع أن يلحظ أنّ درس التفسير هذا أتاح لنا أن نُفصّل في معاني المفردات اللغويّة لتحديد ما تتميّز به كل مفردة عن مرادفاتها، على اعتبار أنّه عند التحقق نجد أنْ لا ترادف في القرآن الكريم. وقد ساعد هذا النهج في استكشاف المعاني، التي تتجلّى لك في اللفظة والجُملة والآية والسياق.

ولكن هذا كان على حساب الاستمرار في تدوين التفسير في صيغة كتب ومقالات، لأنّ تدوينه صورةً وصوتاً يجعلنا مطمئنين إلى حفظه ثمّ انتشاره وتعميمه، إضافة إلى ما يتميّز به التفسير الحيّ من وضوح وتفصيل وتجلية للمعنى بما تعجز عنه الكتابة. أما كمال البلاغ فنراه في صيغة الكتاب. ونسأله تعالى أن يوفقنا جميعاً لما يحبّ ويرضى.

الثلاثاء- 1 محرم 1435هـ الموافق 5 تشرين ثاني 2013م

القرآن
ومنهجيّة التفكير

القرآن الكريم يزيد قليلاً عن **77** ألف كلمة، وهذا يعني أنّه يعادل كتاباً من **300** صفحة تقريباً. ومثل هذا الحجم لا يتضمن ، في العادة، الكثير من المعلومات والمعارف والخبرات. وعلى الرغم من ذلك فقد أحدث القرآن الكريم تغييراً هائلاً وجذريّاً في مسيرة البشريّة الفكريّة والسلوكيّة، مما يجعلنا نتساءل عن سر الانطلاقة الفكريّة التي حدثت بعد نزوله. **وظاهر الأمر أنّ السّر لا يكمن في الكم الهائل من المعلومات، لأنّ مقدار 300 صفحة لا يكفي في العادة لإعطاء إلا القليل من المعلومات. والذي نراه أنّ السّر قد يكمن في المنهجيّة التي يكتسبها كل من يتدبر القرآن الكريم.**

عند تَصفُّح أي كتاب نجده في الغالب يتسلسل في الفكرة والمعلومة من البداية حتى النهاية، ويرجع هذا الأمر إلى رغبة الكاتب في إعطاء القارئ المعلومات والخبرات. ولكن من يتصفّح القرآن الكريم يلاحظ أنّ اكتشاف التسلسل يحتاج إلى تفكّر وتدبّر. من هنا نجد أنّ غير العرب يشعرون عند قراءة ترجمة القرآن الكريم بأنّه غير مترابط في كثير من المواضع. ويرجع هذا إلى أنّ القرآن الكريم يخالف في صياغته مألوف البشر، ثمّ إنّ كلماته المعدودة تحمل المعاني التي لا نزال نعتقد

أنّها غير محدودة. ولا ننسى أنّ إعجازه بالدرجة الأولى يرجع إلى لغته، وبيانه وإيجازه...وأنّ فهمه يحتاج إلى تدبّر. ويُلحظ أنّ من يعتاد تدبّره تنشأ لديه منهجيّة في التفكير والاستنباط. وإذا وُجِدت هذه المنهجيّة أمكن أنْ يوجد الإنسان المبدع. وكل من يتعمق في تدبّر القرآن الكريم ودراسته يلمس الترابط بين معاني كلماته، وجُمله، وآياته، بل وسوره. ولا يزال علماء التفسير يشعرون بحاجتهم إلى التعمق أكثر من أجل إبصار معالم البنيان المحكم للألفاظ والجمل القرآنيّة.

الدارس لتاريخ الفكر الإسلامي يلاحظ أنّ ظهور علم أصول الفقه، وعلم أصول الحديث، وعلم الكلام، وعلم النحو والصرف، كل ذلك كان قبل ظهور علوم مثل؛ الطب، والصيدلة، والكيمياء، والبصريات... وغيرها من العلوم. من هنا فقد ظهر العلماء والفقهاء واللغويون من أمثال مالك، والشافعي، والخليل بن أحمد، قبل ظهور الرازي، وابن سينا، وجابر بن حيّان، وغيرهم. وهذا أمر بدهي؛ فعلم أصول الفقه هو علم في منهجيّة الاجتهاد والاستنباط. وعلم أصول الحديث هو علم في منهجيّة البحث التاريخي. وعلم النحو هو علم قائم على منهج الاستقراء. وعلم الكلام هو الأساس الفلسفي للفكر الإسلامي.

فيما بعد أدّى التطور في منهجيّة التفكير لدى المسلمين إلى ظهور العلوم المختلفة؛ فكانت البداية تتعلّق بالأسس المنهجيّة، وكانت الثمار تتمثّل بالعلوم المختلفة، ومنها العلوم الكونيّة. ويمكننا اليوم أن نقسّم تاريخ الفكر البشري إلى مرحلتين؛ **مرحلة ما قبل الإسلام، ومرحلة ما بعد الإسلام**، حيث تميّزت المرحلة الثانية بمنهجيّة مستمدة من القرآن

الكريم، أدّت إلى نهضة فكريّة وعلميّة هائلة، أفرزت في النهاية الواقع العلمي المعاصر؛ حيث من المعلوم أنّ الغرب قد تتلمذ على المسلمين، وعلى وجه الخصوص في الأندلس وجامعاتها، إلى درجة أنّهم لم يعرفوا سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وغيرهم من الفلاسفة الغربيين، إلا من خلال ترجمات علماء المسلمين.

إذا كان القرآن الكريم قد طوّر منهجيّة التفكير لدى الصحابة والتابعين وأتباعهم...فلماذا لا يؤثر اليوم في منهجيّة التفكير لدى كثير من المسلمين، والذين يتلونه صباح مساء؟!

للإجابة عن هذا التساؤل نقول: اللافت للانتباه أنّ الغالبية الساحقة ممن يقرأ القرآن الكريم اليوم لا تزيد على أن تتلوه بصوت مسموع، أو بشفاه متحركة، ويندر أن نجد من يقرؤه متدبراً لمعانيه، متفكراً في مُشكلاته؛ **إذ لا تتشكّل منهجيّة التفكير لدينا إلا عند تسريح الفكر في معانيه، وتراكيبه، وأساليبه، وتصريفاته**...

والدارس لتاريخ التفسير والفقه، ومناهج المفسرين والفقهاء، يدرك أنّ هذه المنهجيّة قد تجلّت لدى المفسرين والفقهاء المجتهدين؛ أي لدى الذين تعاملوا بعمق مع النص القرآني الكريم. وحتى يتحقق الأثر المنشود على مستوى مناهج التفكير، لا بد أن نضيف إلى تلاوة القرآن الكريم التدبّر، بل لا بد من تقديم التدبر على التلاوة، والفهم على الحفظ. ولا شك أنّ المتدبّر الحافظ هو أقدر من غيره على النظر بشمول إلى القرآن الكريم، وهو الأقدر على تفسير القرآن بالقرآن، ثم هو الأقدر على

الملاحظة والربط، إلا أنّ مداومة النظر في القرآن الكريم قد تغني عن الحفظ، مع إقرارنا وتأكيدنا أنّ الحفظ هو من مقاصد التربية القرآنيّة.

الصحابة والتابعون، رضوان الله عليهم، وهم أهل اللغة والبيان، عندما كانوا يتدبّرون القرآن الكريم، فيُشكِل عليهم، يأخذ ذلك حظاً من تفكيرهم، ويلجأ بعضهم إلى بعض يتشاورون؛ فهذا معاوية، رضي الله عنه، يدخل عليه عبد الله بن عباس، فيقول معاوية: "**لقد ضربتني أمواجُ القرآن البارحة، فلم أجد لنفسي خلاصاً إلا بك**"، ويعرض عليه آية من الآيات التي استشكلها، فيبيّنها عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما. وهذا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وفي أكثر من موقف، يجمع الصحابة ويناقش معهم معنى آية كريمة أو أكثر. أما اليوم فيكتفي الكثير من الناس بالرجوع إلى كتابٍ من كتب التفسير عند استشكال معنى آية من الآيات، ويندر أن يتمّ الرجوع إلى أكثر من كتاب في التفسير، ويندر أيضاً أن تتم مناقشة ذلك مع آخرين للتوصل إلى فهم أفضل. فلا عجب بعد ذلك أن لا تتشكل عند الكثيرين منا المنهجيّة المأمولة. في المقابل لا عجب أن يتأثر الصحابة والتابعون بالقرآن الكريم، ثم تتشكّل لديهم المنهجيّة في التفكير، فيظهر أثر ذلك فيما تحصّل من تطوّر سريع ومتصاعد على مستوى الفكر، والمعرفة، ومناهج البحث، والعلوم المختلفة، حتى بلغ كل ذلك أوجهُ في القرن الرابع الهجري.

ويجدر في هذا المقام أن نشير إلى تجربتنا في **ندوة نون**، حيث يُكلّف كل شخص من المشاركين في الندوة أن ينظر في عدد من كتب

التفسير، ويتفكّر في معاني آيات معيّنة، ويكون ذلك في مدى أسبوع. فإذا كان عدد المشاركين عشرة أشخاص، مثلاً، فإنّ ذلك يعني أنّ المجموع قد اطلعوا على ما لا يقل عن ثلاثين تفسيراً. وقد يرجع الشخص الواحد إلى أكثر من عشرة تفاسير. وفي يوم الندوة تتم مناقشة الآيات الكريمة، ويكون التوقّف طويلاً عند الآيات التي تُشْكِل. ويتاح لكل شخصٍ أن يطرح آراءه ووجهات نظره التي تُناقش، فتُعزز أو تُفنّد. وقد لوحظ أنّه، وفي كل جلسة، تتجلى معانٍ، وتتفتح مغاليق، بل وتبرز إبداعات في الفهم نأمل أن يكون لها شأن في تفسير القرآن الكريم. والمراقب للندوة يلاحظ تميّز المشاركين فيها بمنهجيّة في الاستنباط والتفكير.

تؤكد مسيرة التفسير عبر القرون الماضية على حرص المفسرين على اتخاذ فهم السابقين أساساً في بناء فهمهم الخاص؛ فليس بإمكان أحد أن يستغني عن فهم السلف في التفسير لأسباب من أهمها:

أ- أنهم أهل اللغة، وعنهم أخذنا علومها .

ب- حرصهم على نقل ما صحّ عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في تفسير القرآن الكريم، وكذلك ما صحّ عن الصحابة والتابعين.

قلنا إنّ عدد كلمات القرآن الكريم يزيد قليلاً عن **77** ألف كلمة، وهذا يعادل **300** صفحة. ويتضمن القرآن الكريم **114** سورة؛ منها السور الطويلة، والسور القصيرة، ولا تزيد أطول سورة عن **24** صفحه، في حال أنّ كل صفحة تتألف من **260** كلمة، في حين تتألف أقصر سورة من **عشر** كلمات. أما باقي السور فهي بين ذلك طولاً وقِصراً.

وتتألف كل سورة من عدد من الآيات، وإذا عرفنا أنّ متوسط عدد كلمات الآية الواحدة هو 12.4 كلمة، وأنّ بعض الآيات تتكون من كلمة واحدة أو كلمتين، تبيّن لنا أنّ هذا الأسلوب يختلف عمّا اعتاده البشر في كتاباتهم. وقد يكون هذا المنهج في العرض من أسرار تأثير القرآن الكريم. والمتدبّر يلاحظ أنّ الآيات المكيّة غالباً ما تتسم بالقصر، في حين أنّ الآيات المدنية، إجمالاً، تتسم بالطول النسبيّ. ومعلوم أنّ التركيز في المرحلة المكيّة كان على الجانب العَقَديّ، **وهذا يعني أنّ طرح العقيدة يحتاج إلى الأفكار المركّزة والسريعة، بعيداً عن التطويل والتفريع**. وهذا يرشدنا إلى اعتماد أسلوب الشِّعار في الدعوة إلى الأفكار والعقائد، فذلك أسرع في تبليغ الفكرة وتعميمها، وأسهل تناولاً. أما أسلوب الفلاسفة، فلا يصلح إلا لفئة قليلة متخصصة. **ومن ينظر في سورة الإخلاص، مثلاً، يلاحظ أنها شعار واضح، ورسالة سريعة وحاسمة، تجلجل بعقيدة التوحيد: "قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد"**. وهذا يرشدنا إلى المنهجيّة التي يجدر أن نتبعها عند مخاطبة عامّة الناس، وفي الدعوة إلى الفكرة والمبدأ، **ويدعونا إلى الاستفادة من منهجيّة القرآن المكي والمدني، لتوظيفها في مخاطبة الناس، بحيث يكون لكل مقامٍ مقال** .

في أكثر من مّرة أَعْرَضْنا عن شراء كتب نفيسة بسبب أسلوب العرض فيها؛ حيث السرد المتواصل، فلا تبويب، ولا فقرات، ولا علامات ترقيم... ولو عُرِضت علينا مثل هذه الكتب بالمجّان لترددنا في أخذها، لعِلمنا أنّها ستأخذ من مساحات رفوف المكتبة، ولعِلمنا بأنْ لا دافعيّة

لدينا لقراءَتها، بل إنّ القراءة فيها ضرب من المعاناة. وقد تُفاجأ بعد حين بمثل هذا الكتاب وقد طُبع بثوب جديد، وقُسّم إلى فُصول وأبواب، وازدان بالعناوين الواضحة، والفقرات القصيرة، ولوّنت بعض العبارات الهامّة، ووضعت الفواصل والحدود بين الفصل والفصل، والباب والباب، والفقرة والفقرة، والجملة والجملة... نعم، فبإمكاننا الآن أن نركّز على التفاصيل، وأن نُلمّ بكُلّ صغيرةٍ وكبيرة، فقد أصبح الوضوح نوعاً من الجمال الجذّاب، والمتعة الدافعة. فلا بُد من الفصل والتحديد، حتى يتسنّى للقارئ أن يركّز ويميّز. **ألا ترى أنّ القرآن الكريم يتألّف من 114 سورة، وكل سورة هي عدد من الآيات؟!** وكما أسلفنا لا يتجاوز عدد كلمات الآية الواحدة في المتوسط **12.4** كلمة. وهل من قبيل الصدفة أن تسمّى **السورة** سورة؛ فكلمة السورة تذكِّرُنا بالسُّور، الذي يفصل بين قطعة أرضٍ وأخرى، وبيتٍ وآخر. وهل من قبيل الصّدفة أن تسمّى **الآية** آية؛ فالكلمة تُذكّرنا بالعلامة الواضحة، والتي يُشكّلُ وُضوحها دليلاً هو في النهاية حجّة وبرهان.

قلنا إنّ الكُتّاب، في الغالب، يهدفون في كتاباتهم إلى تزويد الناس بمعلومات وخبرات جديدة، لذلك فهم يتسلسلون في الأفكار من البداية حتى النهاية، وكذلك تتسلسل الأبواب والفصول، ويكون ذلك واضحاً غاية الوضوح، وإلا عُدّ خللاً وقصوراً. وهذا أمر مفهوم في العمل الذي يُقصد به نقل المعلومة والخبرة. أمّا إذا أردنا الحثّ على التفكير والتدبّر، وخلق المنهجيّة السويّة في التفكير والبحث والاستنباط، فإنّ أسلوب العرض يجب عندها أن يختلف؛ فلا نعود بحاجة إلى

التسلسل الواضح، بل نكون بحاجة إلى التسلسل الذي يجتهد القارئ في اكتشافه.

عند تدبّر القرآن الكريم نقوم أولاً بتدبّر الآية، فإذا فهمنا معانيها يصبح من السهل علينا بعد ذلك أن نربط بين آيةٍ وأخرى. وبعدها يفترض أن نلحظ أنّ آيات السورة جاءت في مجموعات، فإذا فُهمت معاني المجموعة الأولى، ثم فُهمت معاني المجموعة الثانية...، أمكن بعد ذلك أن نربط بين معاني المجموعات. وبعد أن ننتهي من فهم سورة كآل عمران، مثلاً، نقوم بتدبّر سورة النساء، فإذا فهمناها؛ كلمات وجُملاً، وآيات، ومجموعات، أصبح بإمكاننا أن نربطها جميعاً بسورة آل عمران التي تسبقها. ولا يسهل علينا أن نربطها بسورة المائدة، التي تليها، حتى نتدبّر سورة المائدة أيضاً، وذلك في مستوى الكلمات، والجمل، والآيات والمجموعات؛ فكمال الفهم للسورة الأولى، و كمال الفهم للسورة الثانية، يؤدي إلى استكشاف الروابط والصلات بين السورتين، وهكذا... وتكون المفاجأة أن نكتشف أنّ القرآن يفسر القرآن، ويتجلّى لنا بناءً متكاملاً متراصّاً. وسيبقى الإنسان ينظر في تفاصيل هذا الكتاب العظيم في محاولتهِ لتصوّر البناء الكليّ في صورة أفضل، كما يفعل وهو يحاول أن يفهم الكون.

المتدبّر للقرآن الكريم يلحظ أنّ بعض القَصص القرآنيّ قد تكرر في أكثر من سورة. والذين يظنون أنّ القرآن الكريم نزل فقط ليزوّد الناس بمعلومات ومعارف يَرَوْنَ في التكرار ظاهرة غير إيجابيّة، وهم بذلك يذهلون عن حقيقة أنّ القرآن الكريم يُربّي الناس تربية شاملة، ومن ذلك

تـربيتهم علـى منهجيّـة التفكيـر. والملحـوظ أنّ القَصـص القرآنـي يختلـف جـذريّاً عـن القصـص البشـريّ، السـرديّ المفصّـل، بـل هـو، إن صـحّ التعبير، لقطـاتٌ قد تطول قليلاً وقد تقصُر، ولكنها إن طالت تبقى في إطار القصة القصيرة، بل القصيرة جداً. أما التكرار فهو ظاهري يتوهمه من يتلو القرآن الكريم من غير تدبّر. أما أهل التدبّر فيعلمون أن لا تكرار إلا فـي الشكل، أما فـي الجوهر فلا تكرار. من هنا نجد من المناسب أن نلفت الانتباه إلى الآتي:

1. القول بتكرار القصّة القرآنيّة لا يعني أنّه يتمّ تكرارها تفصيلياً، بل قد تزيد أو تنقص في بعض التفاصيل والحيثيّات.

2. تختلف السياقات التي يتكرر فيها القَصص القرآني، مما يعني أنّ المعنى المستفاد يختلف باختلاف السياق.

3. تُستبدل بعض المفردات أو الجُمل بغيرها، ويكون تقديم وتأخير في الألفاظ والجمل، ويختلف الجَرْس، وتختلف فواصل الآيات...

4. واضح أنّ أهداف القصّة القرآنيّة يغلب أن تختلف عن أهداف القصّة في كتابات البشر، من هنا تتعدد المقاصد عند تكرار القصّة.

5. إن مثل هذا الأسلوب في التكرار **يطوّر في منهجيّة التفكير** لدى المتدبّر، لأنّه يلاحظ الأنماط المحتملة، والصيغ التي يمكن أن تتعدد، ثم يلاحظ التغييرات المطلوبة لتحقيق الانسجام مع السياق؛ من حيث المعنى والجوهر، ومن حيث الشكل البلاغي، أي الثوب الذي لا بد أن تتجلى فيه المعاني. ثم هو يلاحظ البدائل الممكنة من أجل خطاب مؤثّر ومنتج...وحتى تتضح الفكرة نضرب مثالاً من الطبيعة:

تتألف المادة من إلكترونات وبروتونات ونيوترونات، ومجموع هذا يسمّى **ذرّةً**، ومجموع الذّرات يسمّى **جُزيئاً**، ومجموع الجزيئات يسمّى **مُركّباً**. ومن هذه الذرات، والجزيئات، والمركبات، تكون التنوعات التي تبدو لا متناهية. ولو أخذنا عنصر **البوتاسيوم**، كمثال، فسوف نجد أنّ اختلاف نسبة هذا البوتاسيوم في النباتات المختلفة يؤدي إلى اختلاف الأطعام. ولا يقال إنّ طعم الموز، مثلاً، هو نفسه طعم التفاح على اعتبار أنّ مردّه إلى البوتاسيوم؛ فقد أدّى اختلاف النسبة في البوتاسيوم إلى اختلاف كبير في المذاق. وإذا تعمّقنا أكثر نجد أنّ مكونات التفاحة هي في الحقيقة إلكترونات وبروتونات ونيوترونات. وهذه هي نفسها مكونات الحديد، والنحاس،...

فالتكرار في عالم المادة هو الأساس الذي يقوم عليه كل التنّوّع والثراء الذي يتصف به الوجود، وإذا كان تكرار الكلمة لا بد منه، وتكرار الجملة لا بأس به، فإن لتكرار القصّة فوائد كثيرة، حيث يؤدّي ذلك إلى ظهور أبنية جديدة، ويعطي صوراً متنوعة، ويُلْهم آفاقاً رحبة، ويكشف عن دروس غنيّة، ويخلق منهجيّه في التفكير والاستنباط. وعليه فإنّ المطلوب هنا أن نركّز الاهتمام من أجل محاولة استكشاف الأنماط التي تؤسس لمنهجيّة سويّة.

القرآن يُصحِّح

نصَّ القرآن الكريم، في سورة يوسف، على دخول يعقوب، عليه السلام، وجميع أبنائه مصر. والآيات الكريمة توحي بأنّهم قد سكنوها واستقرّوا فيها. **وليس هناك ما يشير إلى أنّهم لم يخرجوا منها حتى أخرجهم موسى، عليه السّلام.** ويقال إنّ المدّة بين يوسف وموسى، عليهما السلام، لا تقل عن أربعمائة وخمسين سنة. ومعلوم تاريخياً أنّ مُلك الهِكسوس، وكذلك الفراعنة من بعد، قد شمل بلاد الشام.

على ضوء ذلك من المتوقّع أن ينتشر أبناء يعقوب، أي **أبناء إسرائيل**، وأحفاده خارج القطر المصري، ولا مسوّغ للجزم ببقائهم جميعاً في مصر. وهذا يفسر ما ورد في لوح مرنبتاح ابن رمسيس، والمعروف عند المؤرخين بلوح إسرائيل، حيث ينصّ الفرعون مرنبتاح على إبادته لإسرائيل التي كانت تسكن بلاد الشام. والعبارة الواردة في اللوح هي: " **وإسرائيل أُبيدت ولن يكون لها بذرة** ". ويبدو أنّ قطاعاً من المستضعفين من بني إسرائيل قد تسرّبوا، فارّين من الاضطهاد الفرعوني، وانضموا إلى أقاربهم الذين سبقوهم إلى بلاد الشام، خلال السنين المتطاولة التي سبقت عصر الاضطهاد، مما جعل مرنبتاح يعمل على اجتثاث هؤلاء، حتى لا يكونوا بؤرة جذب لكل من يصبو إلى التحرر من عبودية الفراعنة. ومما يؤكّد ذلك ما ورد في بند من بنود معاهدة عُقدت بين أحد ملوك الفراعنة وملك الحيثيين، حيث ينص هذا

البند على تسليم الهاربين والمجرمين والمهاجرين من إحدى الدولتين إلى الأخرى.

جاء في الآية **83** من سورة يونس:" **فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم...** " وهذا يعني أنّ قلّة من الشباب هم الذين آمنوا لموسى، عليه السلام، أمّا بقيّة الشعب من بني إسرائيل فاختلفت مواقفهم؛ فمنهم من استمرأ الذل وركن إلى الواقع، ومنهم من هو على استعداد أن يلحق بالمؤمنين في حال هجرتهم. ولا يُتصوّر أن يخرج الشعب الإسرائيلي بالكامل، وعلى وجه الخصوص أولئك الذين ارتبطت مصالحهم بمصالح الفراعنة، ممن هم مثل قارون:" **إنّ قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم...**" **القصص:76.** بل إنّ هناك ملأ من بني إسرائيل كانوا يعملون لصالح نظام الفراعنة، بدليل قوله تعالى في آية سورة يونس:" **على خوف من فرعون وملئهم ...** " وكيف يمكن لشعب يُعدّ بالألوف، بل قد يكون أكثر من ذلك، أن يخرج خلسة، وأنّى لغير المؤمن منهم أن يثق بموسى، عليه السلام، فيخرج إلى عالم المجهول؟!

بهذا نكون قد خلصنا إلى نتيجة تقول: **هناك ما يدل على خروج بعض أبناء إسرائيل قبل مجيء موسى، عليه السلام، إلى مصر. ولا يوجد ما يُثبت خروج كل بني إسرائيل مع موسى، عليه السلام،** بل إنّ الأقرب إلى العقل ومنطق الأمور أن تبقى الأكثريّة في مصر وتخرج فقط الأقليّة المؤمنة ومن يواليها ويتبعها لسبب أو آخر.

هناك أدلة كثيرة تُثبت أنّ فرعون الخروج هو مرنبتاح بن رمسيس الثاني. ولا مجال هنا لتقديم هذه الأدلة، ولكن من اللافت أنّ **الوثائق الفرعونيّة تنصّ على حصول فوضى واضطرابات بعد موت مرنبتاح، بل نجد أنّ السلطة الفرعونيّة تتهاوى ويسيطر على العرش شخص يوصف بأنّه آسيوي سمّته بعض المصادر (أرسو)**. ومن يتدبّر الآيات القرآنيّة يدرك أنّه بعد غرق فرعون وجنده ورموز سلطته سيطر الشعب الذي ينتمي إلى طوائف شتّى، ومنهم شعب بني إسرائيل، على كل ما تركه الفرعون وأركان سلطته. انظر قوله تعالى:" **فأخرجناهم من جنّات وعيون، وكنوز ومقام كريم، كذلك وأورثناها بني إسرائيل، فأتبعوهم مشرقين**" الشعراء:(**57-60**). فبمجرد خروج الفرعون تمّ الإرث، بدليل استخدام الفاء في قوله تعالى:" **فأتبعوهم مشرقين** ".

ولم يكن شعب إسرائيل هو الوارث الوحيد، بل إنّ هناك شعوباً أخرى كانت في الطبقات الأدنى. انظر قوله تعالى:" **كم تركوا من جنّات وعيون، وزروع ومقام كريم، ونَعمة كانوا فيها فاكهين، كذلك وأورثناها قوماً آخرين** " الدّخان:(**25-28**). ويبدو أنّ بني إسرائيل كانوا في الدائرة الأقرب إلى القصور الفرعونيّة، بدلالة قوله تعالى في آيات سورة الشعراء:" **وكنوز ومقام كريم** ". أمّا الدائرة الأبعد، وهي الأراضي والسهول، فقد وقعت تحت سلطة آخرين، بدليل قوله تعالى:" **وزروع ومقام كريم... وأورثناها قوماً آخرين**" .

أمّا الذين خرجوا مع موسى، عليه السلام، وحكم الله تعالى فيهم أن يتيهوا في الأرض أربعين سنة، فربما أصبحوا في هذه المدّة بؤرة

جذب لبعض من بقي في مصر، ثمّ أورثهم الله تعالى الأرض المباركة، بدلالة قوله تعالى:" **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها..**" (الأعراف: 137). فالميراث الفوري كان لمن بقي في مصر، أمّا ميراث الأرض المباركة فكان بعد زمن التيه. وعلى هؤلاء من بني إسرائيل نزلت التوراة، أمّا البقيّة، قلّت أم كثرت، فقد اختلطت بالشعوب الأخرى وبالتالي لم تتميّز، لأنها لم تتهوّد.

جاء في الآية 32 من سورة الدخان:" **ولقد اخترناهم على علم على العالمين**". فخروج موسى، عليه السلام، بمن آمن له من بني إسرائيل، وتلقّيهم التوراة، كل ذلك كان باختيار ربّاني. وعلى الرغم من مفاسدهم وضلالاتهم وانحرافهم، فقد خرج منهم بعد حين دعاة هداة؛ جاء في الآية 159 من سورة الأعراف:" **ومن قوم موسى أمّةٌ يهدون بالحق وبه يعدلون**"، وجاء في الآية 168:" **وقطّعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك...**". فاختيارهم، إذن، واختيار الأرض المقدّسة لتكون المحضن والمنطلق، كل ذلك كان على علم وعن حكمة ربّانيّة؛ انظر ما ورد عن عهد طالوت، ثم انظر ما ورد عن عهد داود وسليمان، عليهما السلام، ثم انظر إلى اختيار الله تعالى لآل عمران، وانظر الأجواء التي عاشتها مريم، عليها السّلام.

صحّ في الحديث الشريف أنّ الله تعالى كان يبعث الرسل إلى أقوامهم خاصّة، حتى جاء زمن الرسالة العامّة المتمثلة في الإسلام. وخصوصيّة الرسالات السابقة تعني أنّها مرحليّة، وهذا ينطبق على التوراة التي كانت خاصّة ببني إسرائيل. من هنا كانت اليهوديّة قاصرة

علـى بنـي إسـرائيل. وقـد كـان خـروج اليهـود عـن تعـاليم التـوراة علـى صورتين؛ الأولـى بـالتحريف، والثانيـة بمقاومـة الإصـلاح والتصويب الذي كانت تأتي به الرسل والأنبياء. جاء في الآية **78** من سورة المائدة:" **لُعِن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بمـا عصـوا وكـانوا يعتـدون**". فاللعن إذن كـان للـذين كفـروا منـهم، وهذا يعني أنّ هناك فئة آمنت وصحّحت مسيرتها، وهذا ما كان يحصل في كلّ مرحلة. وعندما جاء الإسلام وجدنا منهم من يُسلم لله تعالى، واستمر ذلك إلى يومنا هذا.

بمـرور الـزمن، ونتيجـة لاسـتمرار الفـرز عبـر المراحـل المختلفـة، ونتيجـة لاعتنـاق أقوام متعددة لليهوديّة، فقد أصبحت اليهودية ديناً يضم أجناساً مختلفة. من هنا نجد أنّ علماء الأجناس يقولون: إنّ أكثر من **90%** من يهود العالم لا علاقة لهم اليوم ببنـي إسرائيل، بل إنّ الغالبية العظمـى من بنـي إسرائيل قد اعتنقوا الإسلام، وبالتالي لم يعد بالإمكان تمييزهم عن غيرهم من الأجناس. أمّا الادعاء الصهيوني بأنّ اليهود هم أبناء يعقوب، عليه السلام، فإنّه أسطورة سُطّرت لأهداف سياسية، ولا مكان لهذا الادّعاء في الدراسات التاريخيّة الجادّة. صحيح أنّ اليهودية نزلت إلى بنـي إسرائيل، وصحيح أيضاً أنّ الغالبية من بنـي إسرائيل قد صـوّبت مسيرتها مـع الأنبيـاء والمرسلين. أمّـا الـذين بقـوا علـى عنـادهم وقاوموا دعوات الإصلاح، وركنوا إلى الأساطير، وجذبوا إليهم أمثالهم من الأمم الأخرى، فهم الذين أفاض القرآن الكريم في وصفهم، وكشف

حقيقتهم، وبيّن خطورة موقفهم من دعوة الحق التي جاءت بها الرسل عليهم السّلام.

طالوت

جاء في الآية **247** من سورة البقرة: " **وقال لهم نبيُّهم إنّ الله قد بعثَ لكم طالوتَ مَلِكاً، قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحقُّ بالملك منه ولم يؤت سعةً من المال، قال إنّ اللهَ اصطفاه عليكم وزاده بسطةً في العلم والجسم...** ".

ورد في العهد القديم، في سفر صموئيل، قصة مطوّلة قد تصلح لإلقاء الضوء على ما لم تُصرّح به الآيات الكريمة المتعلقة بطالوت، الذي قاد بني إسرائيل في مواجهة أعدائهم، واستطاع أن يهزم جيش جُليات الفلسطيني، وفق عبارة العهد القديم، وتمّ لهم استرجاع تابوت العهد وإقامة نظام ملكي بعد أن كانوا قبائل متفرّقة يحكم كل قبيلة منهم قاض. وقد جاء ترتيب سفر صموئيل في العهد القديم بعد سفر القضاة.

في المقابل ينبغي الحذر عندما ننظر في العهد القديم، وذلك لما خالط الحقيقة من أوهام ومزاعم وأساطير، وحتى لا نقع فيما وقع فيه بعض أهل التفسير من القدماء، من التوسع عند الأخذ من الإسرائيليات من غير تمحيص.

لم يُصرّح القرآن الكريم باسم النبي الذي لجأ إليه بنو إسرائيل يطلبون مَلكاً يوحِّد كلمتهم ويقودهم في صراعهم مع أعدائهم من أهل البلاد

الأصليين. أما العهد القديم فقد صرّح بأنّه يُدعى صُموئيل. وفي الوقت الذي يُصرح فيه القرآن الكريم باسم الملك المختار:" **إنّ الله قد بعث لكم طالوت..** "، نجد أنّ العهد القديم يسمّيه شاؤل. وهذا، كما هو واضح، تباين كبير في الاسم. أما قائد الأعداء فقد صرّح القرآن الكريم بأنّ اسمه **جالوت**، وهذا قريب من الاسم جوليات الوارد في سفر صموئيل.

لقد أصبح مبتوتاً عند علماء التاريخ والآثار بأنّ العهد القديم لا يصلح كمستند تاريخي؛ لكثرة ما ورد فيه من أخطاء تاريخيّة تتعلق بالأماكن والأشخاص والأزمان والأحداث. ونحن هنا لسنا في مقام إقامة الحجّة على صدقيّة القرآن الكريم، وإنّما في مقام تنبيه المؤمنين إلى بعض أسرار العبارة القرآنيّة.

أليس من اللافت أن يكون اسم الملك الذي نُصِّب ليقود بني إسرائيل هو **طالوت**، وأن يكون اسم قائد الأعداء من الفلسطينيين القدماء هو **جالوت!؟**

يلاحظ أنّ الاسمين ينتميان إلى لغة واحدة، بل يتماثلان في الحروف، إلا الحرف الأول. وواضح أنّ كل اسم منهما يتكون من مقطعين المقطع الثاني مشترك بينهما، وهو الواو مع التاء أي: (طال+ وت) (جال+ وت).

فماذا يمكن أن يعني هذا التماثل!؟

تشير التقديرات التاريخيّة إلى أنّ بني إسرائيل أقاموا في فلسطين ما يُقارب القرنين من الزمان وهم قبائل يحكمها القضاة وتعيش مع السُكّان الأصليين من الفلسطينيين القدماء. وغني عن البيان أنّ علاقتهم مع السكان الأصليين كانت تتراوح بين السلم والحرب، مما يعني أن يتم التأثُّر والتأثير المتبادل، وهذا من بدهيات الاجتماع البشري. والظاهر أنّ الاسم طالوت كان اسماً فلسطينياً، وهذا يشير إلى تأثُّر الإسرائيليين بالفلسطينيين حتى على مستوى الأسماء، مما يدلل على التفوق الحضاري للفلسطينيين القدماء، وهو أمر متوقّع، لأنّ الإسرائيليين كانوا يعيشون المرحلة القبليّة بعد التيه الذي امتد أربعين سنة بعد خروجهم من مصر.

وهناك من يرى أنّ الأقليات الخائفة قد تعمد إلى أن تتسمى بأسماء الأكثريّة المسيطرة كنوع من الحماية وإخفاء الهويّة. وقد يعزز مثل هذا القول ما ورد في الآية **246** من سورة البقرة على لسان الإسرائيليين: " وما لنا ألا نقاتلَ في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا... "، ومثل هذه الحالة من الضعف هي التي دعت بني إسرائيل إلى أن يطلبوا من نبيٍّ لهم أن يدعو الله تعالى أن يبعث ملكاً يجمع كلمتهم، كما أشارت الآيات الكريمة من سورة البقرة.

تُزاد الواو والتاء في اللغة العربيّة للمبالغة في الصفة، مثل: الجبروت، الملكوت، الطاغوت... وهذا يقوّي احتمال أن يكون اسم **طالوت** مبالغة في صفة إيجابيّة اتصف بها مما جعله مؤهلاً فيما بعد لأن يملك ويقود.

وهذا يفتح الباب لاحتمال أن تكون صفته هذه قد طغت على اسمه الأصلي فسمّي بها، وهذا كثير في أسماء القدماء. ولا شكّ أنّ العبرة في الأسماء لما شاع وتمّ تداوله. أمّا ما يطلقه الأهل من أسماء فلا وزن لها إن هي توارت واندثرت. فأيّ الأسماء هو الأحق أن يُطلق على البطل المسلم فاتح الأرض المقدّسة، يوسف بن أيوب أم صلاح الدين الأيوبي**!؟**

قد يكون المدخل لفهم سر هذا الاسم هو ما ورد في الآية **247** من سورة البقرة:" **قال إنّ الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم ...**"، فقد كان ذا **طَوْل** في العلم والجسم. وما قيل في طالوت يُقال في جالوت، مع اختلاف في الصفة التي استحق ذلك الجبّار أن يوصف بها؛ فقد كان صاحب صولات وجولات في أرض المعركة، إلى درجة أن يقول الإسرائيليون عند اللقاء:" **لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده**"، فقد قدّموا جالوت في الذكر على جنوده، بل كأنّه في نظرهم نصف الجيش.

ويشغب على كلّ ما قلناه أنّ جالوت وطالوت في القرآن الكريم ممنوعة من الصرف، مما يدل على أنها أعجميّة. وعندما نعلم أنّ الدراسات المعاصرة تشير إلى أنّ اللغة العربيّة هي الأمّ لكلّ اللغات يصبح من الممكن أن تكون هذه الأسماء الأعجميّة ذات أصول عربيّة.

يحيى يوحنّا

نظرة في دلالة الاسم

جاء في الآية 7 من سورة مريم:" **يا زكريا إنا نبشّرك بغلام اسمه يحيى** ...". واللافت أنّ النبي **يحيى** بن زكريا، عليهما السلام، يُدعى في الأناجيل المعاصرة بـ **يوحنّا المعمدان**. وتذكر الأناجيل المعاصرة أنّ **يوحنّا** كان يُعمِّد الناس في نهر الأردن، وأنّه عمَّد المسيح، عليه السلام. ويبدو أنّ التعميد، الذي هو تغطيس في الماء كطقس ديني، يرمز إلى الصبغ بالصبغة الدينيّة. ومن هنا دُعي يحيى، عليه السلام، في الأناجيل بـ **المعمدان**.

لماذا هذا الاختلاف في التسمية في الوقت الذي نجد فيه أنّ أسماء مثل: إبراهيم، زكريا، يعقوب، يوسف، إسماعيل، إسحاق، ... تُذكر في القرآن والأناجيل المعاصرة والتوراة المعاصرة من غير اختلاف إلا في لهجة النطق بالاسم؟! وقد يكون مفتاح الإجابة في اسم **يحيى**، عليه السلام، عند الصابئة، حيث أنهم يُسمّونه **يحيى يوحنّا**. واللافت هنا أنّهم جمعوا بين الاسمين. أفلا يدعونا ذلك إلى محاولة اكتشاف السر؟!

يزيد عدد الصابئة في العالم اليوم على مائة ألف نسمة، يعيش معظمهم في العراق. وهم يؤمنون بأربعة أنبياء؛ أولهم آدم وآخرهم يحيى، عليهم السلام. وقد اختلف العلماء في معنى **الصابئة**. وربما يكون من

الأصوب أن نَرجع إلى لغتهم المسمّاة المندائيّة، حيث تلفظ الغين همزة، فبدل أن يقولوا **صبغ** نجدهم يقولون **صبأ**. فالصابئة هم إذن **الصابغة**، وسمّوا بذلك لأنّ مِن أهم طقوسهم الدينيّة الاصطباغ بالماء، أي التعميد بالمفهوم النصراني.

الحاء في اللغة العربيّة هي **هاء** في اللغة المندائيّة، لذا نجدهم يلفظون اسم يحيى، عليه السلام، هكذا: **يهيا يوهنا**. وإذا علمنا أنّ **حنّا** مأخوذة من **الحنان**، وإذا علمنا أنّ المقطع **يو** يأتي أحياناً، في بعض اللغات الساميّة (معلومة غير مؤكّدة)، بمعنى **ذو**، يصبح من السهل أن ندرك أنّ معنى لفظة **يوحنا** يُحتمل أن يكون **ذو الحنان**. وعليه يكون **يحيى** هو الاسم العلم و **يوحنا** هو الصفة، أي أنّه كان يُدعى، عليه السلام، **يحيى ذو الحنان**. وقد يفسر هذا لنا جمع الصابئة بين الاسمين، أو بمعنى أدق بين الاسم والصفة.

فالقرآن إذن يذكر الاسم العلم ليحيى، عليه السلام، والأناجيل المعاصرة تذكر صفته البارزة التي اشتهر بها. واللافت هنا أنّ القرآن الكريم لم يذكر **الحنان** إلا مرة واحدة، وذلك عندما كان يتكلم عن يحيى، عليه السلام، في الآيتين **12** و **13** من سورة مريم:" **يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا، وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقيا**"؛ أي آتاه الله تعالى الحكمة والحنان، وهو حنان من لدن الخالق. ويحق لكل أحد أن يسأل: إذا كان يحيى، عليه السلام، قد أُوتي **حناناً من لدن الخالق** فلا بد أن يبرز هذا الخُلق وهذه الصفة في سيرة يحيى بشكل جلي، فأين نجد ذلك في سيرة حياته، عليه السلام ؟!

نقول ببساطة: نعم، نجد ذلك في غَلبة الصفة على الاسم العلم عند النصارى، إلى درجة أن لا يُذكر الاسم العلم لديهم إطلاقاً، فهو عندهم يُدعى **يوحنا**. ونجد ذلك أيضاً في اقتران الصفة بالاسم العلم عند الصابئة فهو عندهم يُدعى **يحيى يوحنّا**...فتأمل**!!**

يحيى عليه السلام

يذهب جماهير أهل التفسير إلى أنّ **يحيى**، عليه السلام، قد قُتل. وهم يستندون في ذلك إلى القصّة التي وردت في الأناجيل. والعجيب أنّ ذلك قد أصبح عند الكثير من المفسّرين من الأمور المُسلّمة التي لا تحتمل النقاش، على الرُّغم من أنّه لم يصح في ذلك حديث. بل إنّ القول بمقتل يحيى، عليه السلام، يناقض ظاهر القرآن الكريم، وإليك بيان ذلك:

أولاً: جاء في الآية **15** من سورة مريم: " **وسلامٌ عليهِ يوم وُلِدَ، ويوم يموتُ، ويوم يُبعثُ حياً** "، فالآية القرآنيّة تُصرِّح بأنّ يحيى، عليه السلام، سيموت، وقد فرّق القرآن بين القتل والموت، ويظهر ذلك جلياً في قوله تعالى:" **ولئن قُتلتم في سبيل الله أو مُتّم..**" (آل عمران: **157**)، وفي قوله تعالى:" **وما محمّدٌ إلا رسولٌ قد خَلَت من قبلهِ الرسل، أفإن ماتَ أو قُتل...**" (آل عمران:**144**)، وفي قوله تعالى: " **ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً...**" (آل عمران:**169**)، بل إنّ الآية الأخيرة تنهى عن وصف من قُتِل في سبيل الله بأنّه ميّت. فكيف يصف القرآن الكريم يحيى، عليه السلام، بأنه ميّت إذا كان قد قُتِل في سبيل الله؟!

ثانياً: في قوله تعالى:" **وسلامٌ عليهِ يومَ وُلِد، ويومَ يموتُ...**"، دليل أخر على أنه، عليه السلام، لم يُقتل، لأنّ القتل يتناقض مع السّلام

الذي يحلُّ عليه من الله. فكيف يقول الله تعالى إنّ السلام عليه يوم يموت، ثمّ نقول نحن إنّه قد قتل؟!

ثالثاً: اشتهر عند أهل التفسير أنّ زكريا ويحيى، عليهما السلام، قد قُتلا معاً، أو في وقت متقارب. وهذا القول يتناقض مع ظاهر قوله تعالى من سورة مريم:" **وإنّي خِفتُ المواليَ من ورائي وكانت امرأتي عاقراً، فَهَبْ لي من لدنكَ وليّاً يرثني ويرثُ من آلِ يعقوب...**"، إذ كيف يكون يحيى، عليه السلام، وارِثاً لزكريّا وقد قتلا معاً، أو في وقتين متقاربين، والله تعالى يقول في سورة الأنبياء:" **فاستجبنا له ووهبنا له يحيى...**"؟! نعم، لقد طلب زكريّا، عليه السلام، في دعائه أن يهبه الله وليّاً يرثهُ ويرث من آل يعقوب فاستجيب له في يحيى، عليه السلام. وهذا يُشعر بطول لبث يحيى بعد أبيه، عليهما السلام.

رابعاً: " **يا زكريا إنّا نُبشّرُك بغلامٍ اسمهُ يحيى لم نجعلْ لهُ مِن قَبْلُ سَمِيّا** "، والسّميُّ هنا إمّا أن يكون مثيلاً في الاسم، أو مثيلاً في الصفة. فإذا كان السَّميّ هو المماثل في الاسم، فما ميزة أن يتفرد إنسان باسمٍ ما؟! وإذا كان السّميّ هو المماثل في صفة أو أكثر، فما هي هذه الصّفة، أو الصفات، التي تميَّز بها يحيى، عليه السلام، فكان هو أول من يتصف بها؟! وفي محاولة للإجابة عن هذا التساؤل نقول:

يستخدم الناس الأسماء لتمييز الأفراد بعضهم عن بعض، ولا يتم اختيار الأسماء عشوائياً، بل يعمد أغلب الناس إلى اختيار أسماء لها دلالات مُحببة لديهم، ومن ذلك أن يكون الاسم دالاً على صفة إيجابيّة. وعلى الرُّغم من ذلك فإنّ هناك الكثير من الأسماء التي لا تشير إلى

صفات. أمّا أسماء الخالق سبحانه، والتي سمّى بها نفسه، فإنّها أيضاً صفات، فكل اسم منها يدل على صفة؛ كسميع، وعليم، وحكيم...، ولا مجال هنا للفصل بين الاسم والصفة.

عندما يُسمّي الله نبياً من الأنبياء فعلينا أن نتوقّع أن يدل هذا الاسم على صفة. فعلى سبيل المثال، سمّى الله تعالى عيسى، عليه السلام، **المسيح عيسى ابن مريم**، ولا بد لذلك من سرّ. وسمّى سبحانه الرسول، عليه السلام، محمّداً وأحمد. وسمى يحيى، عليه السلام، بهذا الاسم قبل أن يولد ليدل على صفة بارزة فيه، كيف لا، والله تعالى يقول:" **لم نجعل له من قبل سميّا**"، واضح أنّ الآية تشير إلى تفرّده، عليه السلام، بصفة لم يسبقه إليها أحد من البشر، فما هي هذه الصفة، ولماذا أشار إليها القرآن الكريم؟

قد تكون هذه الصفة متعلقة بما ورد من أنّ يحيى، عليه السلام، لم يهم بمعصية قط. ولكن هذه الصفة لا تظهر في الاسم يحيى. والذي نراه أنّ الصفة التي تميّز بها، عليه السلام، ظاهرة في هذا الاسم الذي نزل به الوحي؛ فعندما سمّاه الله تعالى **يحيى** نتوقّع أن تتضمّن هذه التسمية الإشارة إلى السّرّ الذي يجعله، عليه السّلام، يتميّز عن غيره ممن سبقه. وإذا كان اسم كإبراهيم أو إسماعيل أو إلياس واضح العُجمة، فإن اسم يحيى لا يستشكل أنّه عربيّ، وعلى وجه الخصوص كصفة، وإن ذهب البعض إلى غير ذلك. وعليه فإنّ الصّفة التي تَميّز بها يحيى، عليه السلام، عن غيره ممن سبقه **أنّه يحيا** وتطول به الحياة، أو أنّه يقوم بعد الموت ويحيا. ومعلوم أنّه لم يُنقل أنّه طال به العمر. أمّا

قيامته فقد جاء في الإنجيل، الذي هو في أيدي النصارى اليوم، أنّ هيرودس شكّ أنّ يحيى، الذي يُسمّى في الأناجيل يوحنّا المعمدان، قد قام من الأموات:" هذا هو يوحنا المعمدان، وقد قام من بين الأموات...". وهذا الكلام لا يُركن إليه، ولكن ورودهُ يثير التفكير. وقد ورد في الأناجيل أيضاً عبارة عجيبة تُنسب إلى المسيح عليه السلام:" وإن شئتم أن تُصدّقوا، فإنّ يوحنّا هذا هو إيليا الذي كان رجوعه منتظراً، ومن له أذنان فليسمع!". إلا أنّه معلوم لدينا أنّ العُزير، الذي سبق يحيى عليه السلام بقرون، قد بُعث حيّاً، ومن هنا لا يتميّز يحيى، عليه السلام، عمّن سبقه بالرجوع إلى الحياة من بعد موت. وقد يُشكِّك البعض في صحة القول بأنّ الذي مر على قرية، وورد ذكرهُ في الآية **259** من سورة البقرة، هو العزير، وأنّه كان قبل زمن يحيى عليه السلام بقرون، ولكن لا مجال للشكّ في قيامة جماعة من بني إسرائيل في عهد موسىُ عليه السلام:" **ثمّ بعثناكم من بعدِ موتكم لعلكم تشكرون**" (البقرة: 56). وعليه لا يكون المقصود باسم يحيى أنّه الذي يقوم بعد الموت، لأنّ هناك من البشر من سبق له أنْ بُعث من بعد الموت، وهذا لا يجعل يحيى، عليه السلام، متميّزاً على غيره، كما هو ظاهر الآية الكريمة: "**لم نجعل له من قبل سميّا**". فما معنى يحيى إذن؟!

تشابه مُلهِم

في المقال السابق تحدثنا حول الاسم **يحيى**، ووضعنا القارئ الكريم أمام سؤال: ماذا يعني الاسم يحيى، وما السرّ في تسمية النبي الكريم بهذا الاسم؟! وقد يكون من التسرّع أن نبادر إلى إعطاء وجهة نظر في هذا الأمر، ولكننا في هذه العُجالة سنلفت الانتباه إلى بعض وجوه الشبه بين يحيى وعيسى، عليهما السلام، مما قد يساعد في الوصول إلى السّر من وراء هذه التسمية.

تُستهلّ سورة مريم بالحديث عن زكريا، عليه السّلام، وعن دعائه وطلبه أن يهبهُ اللهُ وليّاً يرثه في دعوته الصالحة. وتُصوّر لنا الآيات الكريمة دهشته عندما **بُشّر** بالولد الذي اسمه يحيى؛ جاء في الآية **8** من سورة مريم:"**قال ربّ أنّى يكونُ لي غلامٌ وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغتُ من الكِبَر عِتيّاً**".

واللافت هنا أنّ هذه الدهشة قد اعترت مريم أيضاً، عندما بُشّرت بعيسى، عليهما السّلام، جاء في الآية **20** من سورة مريم: "**قالت أنّى يكونُ لي غلام ولم يمسسني بشرٌ ولم أكُ بغيّاً**". ونلاحظ هنا التماثل في التعبير عن الدهشة:"... **أنّى يكونُ لي غلامٌ وكانت امرأتي عاقراً** ". وكذلك نلاحظ التماثل في الإجابة عن هذا التساؤل، جاء في الآية **9** من السّورة:" **قال كذلكَ قال ربّكَ هو عليَّ هيّن...**"، وجاء في الآية **21**:" **قال كذلِكِ قال ربُّكِ هو عليَّ هيّن...**".

جاءت البشرى أولاً بيحيى، فكانت مفاجِئة لزكريا، عليه السلام، وكانت التسمية مِن قِبلِ الوحي قبل ميلاد يحيى، عليه السلام. وكذلك الأمر في عيسى، عليه السلام؛ فقد جاءت البشرى بميلاده مفاجئة لمريم، عليها السلام، وكانت تسميته مِن قِبَل الوحي أيضاً.

كان ميلاد يحيى، عليه السّلام، مخالفاً للمألوف، فقد ولدته أمٌّ عاقر. وكان ميلاد عيسى، عليه السلام، على خلاف المألوف أيضاً، فقد ولدته عذراء لم يمسّها بشر. وهذا تشابه لافت متعلّق بميلاد أولاد الخالة.

جاء في الآية **10** من سورة مريم، على لسان زكريا، عليه السّلام: "**قال ربّ اجعل لي آية، قال آيتُكَ ألا تُكلّم النّاس ثلاث ليالٍ سويّا**"، وجاء في حق مريم، عليها السلام، في الآية **26** من السورة:" **فإمّا تَرينَّ من البشرِ أحداً فقولي إنّي نذرتُ للرحمن صوماً فلن أُكلّم اليومَ إنسيّاً**"، وجاء في الآية **11** من السورة:" **فخرجَ على قومهِ مِنَ المِحرابِ فأوحى إليهم أنْ سَبِّحوا بُكرةً وعشيّاً**"، لقد تمّ الأمر بإشارة ولم يتكلم زكريّا، عليه السلام. وكذلك الأمر في قصة مريم، عليها السلام. انظر الآية **29** من السورة:" **فأشارتْ إليهِ قالوا...**". وجاء في حقّ يحيى، عليه السّلام، وذلك في الآية **14** من السورة:" **وبرّاً بوالديه ولم يكن جباراً عصيّاً**"، وجاء في حقّ عيسى، عليه السّلام:" **وبرّاً بوالدتي ولم يجعلني جبّاراً شقيّاً**". وهنا نلاحظ الآتي:

1. ليس من أساليب المدح أن ننفي عن الممدوح الصفات السلبيّة، وهنا تمّ نفي الجبروت والعصيان والشقاوة. فلماذا؟

2. تاريخيّاً لم يتَّهم أحدٌ من النّاس عيسى أو يحيى، عليهما السّلام، بالجبروت، بل على النقيض من ذلك فقد وصف عيسى بأنّه رسول السلام، وكذلك الأمر فيما يتعلّق بسيرة يحيى، عليهما السّلام.

الذي نراه أنّ في ذلك نفياً لتُهم ستكون في المستقبل. وهذا مفهوم بالنسبة إلى عيسى وليس بمفهوم بالنسبة إلى يحيى، عليهما السّلام؛ فقد تواترت الأحاديث الدّالة على نزول عيسى، عليه السّلام، في آخر الزمان. وصحّ في الأحاديث أنّه يحكم أربعين سنة، وورد أنه لا يَقبلُ إلا الإسلام، وبالتالي لا يقبلُ الجزية من أهل الكتاب. ومثل هذا الأمر قد يَحمِلُ المخالفين على اتهامه بالجبروت، أي أنّ صورته عند غير المؤمنين ستختلف؛ فبعد أن كان عندهم رمزاً للسلام يُصبِح في نظرهم رمزاً للجبروت.

أما يحيى، عليه السّلام، فلم يمارس جبروتاً، فمن أين ستأتي هذه التهمة؟! ومثل هذه الملاحظة تجعلنا نعيد النظر في فهم صفة **الحَصُور** الواردة في حق يحيى، عليه السّلام. جاء في الآية **39** من سورة آل عمران:" **فنادتهُ الملائكةُ وهو قائمٌ يُصلّي في المحرابِ أنّ الله يُبشّرُك بيحيى مُصدِّقاً بكلمةٍ من الله وسيّداً وحَصُوراً ونبيّاً من الصالحين**". وكلمة حَصُور هي على وزن فعول. وقد ذهب الكثير من المفسرين إلى أنّها على معنى مفعول، أي محصور وممنوع من إتيان النساء. والذي نراه أنّ الأقرب إلى ظاهر اللفظ أن نقول إنّه حاصر لأعدائه، ويؤيّد هذا وصفهُ بأنه سيد:" **وسيداً وحَصُوراً** "، فهو يسود قومه ويحصر أعداءه،

الذين هم أعداء الحقّ. وهنا يثور سؤال: لم يُروَ في التاريخ أنّ يحيى، عليه السلام، قد حصر أعداءه، فمتى يكون ذلك إذن؟!

جاء في حقّ يحيى، عليه السلام:" **وبَرّاً وبوالديه**..."، وجاء أيضاً:" **وسلامٌ عليه يومَ وُلِد ويوم يموتُ ويوم يُبعثُ حيّاً** ". أمّا ما يُقابلهُ، مما جاء في حقّ عيسى، عليه السلام، فهو:" **وبَرّاً بوالدتي**..."، وجاء أيضاً:" **والسلام عليَّ يومَ وُلِدتُ ويوم أموتُ ويوم أُبعثُ حيّاً** ".

الدارس لأحاديث المعراج يلاحظ أنّ الرسول، صلى الله عليه وسلم، قد التقى في كلّ سماءٍ من السماوات السّبع برسول واحد إلا ما كان في السماء الثانية، فقد التقى فيها بعيسى ويحيى، عليهما السّلام. فلماذا هذا كلّه، وإلى ماذا يشير؟

لم نقصد هنا أن نعطي الإجابة عن هذه التساؤلات، وإنّما قصدنا إثارة الدافعيّة لدى القارئ ليتابع مثل هذه الملاحظات وغيرها، فالقرآن مليء بالحِكم والأسرار، وعندما نتدبّرهُ بمنهجيّة سويّة يعطينا من وافر حِكَمه وأسراره. ولعلنا، في مقام آخر، أن نقوم ببسط وجهة نظرنا في هذه المسالة الجليلة.

يونس عليه السلام
فرضيّة قد تصبح حقيقة

جاء في الآيتين **87، 88**، من سورة الأنبياء:" **وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظنّ أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنّي كنتُ من الظالمين، فاستجبنا له فنجّيناه من الغمِّ وكذلك نُنْجي المؤمنين**".

ذو النون هنا هو يونس، عليه السلام. وأكثر أهل العلم على أنّ النون هو الحوت، وتجمع على نينان. وقد ورد في سورة القلم:" **فاصبر لحكم ربّك ولا تكن كصاحب الحوت...**" القلم:48 ومعلوم أنّ الصاحب من المصاحبة، وقد حصل أنْ صاحَبَ يونسُ، عليه السلام، الحوتَ فترة من الزمن، فلا إشكال. أمّا **ذو** ففيها ملازمة كملازمة الصفة للموصوف. **والذي نرجّحه هنا أنّ نون ليس هو الحوت وإنما الحرف المعروف.** ويلزم من هذا القول أن نبيّن لماذا سمّي يونس، عليه السلام، بذي النون، ولماذا يسمّى الحوت نوناً؟!

جاء في مختار الصحاح للرازي في مادة **بلس:**" أبلس من رحمة الله أي يئس، ومنه سمّي إبليس وكان اسمه عزازيل". وهذا فيما نراه خطأ بيّن، لأنّ القرآن الكريم ينصّ على أنّ اسمه إبليس قبل أن ييأس من الرحمة؛ انظر قوله تعالى:" **إلا إبليسَ أبى أن يكون من الساجدين، قال يا**

إبليسُ مالك ألا تكون من الساجدين، قال لم أكن لأسجد لبشر خلقتَه من صلصال ..." الحجر 31-33. وكذلك الآيات **75 – 78** من سورة ص، تنصّ على أنّه خوطب بـ إبليس قبل أن يُطرد من الرحمة. وعليه نقول: إنّ أبلس من إبليس، لا أنّ إبليس من أبلس. فبعد أن أصبح إبليس يائساً من الرحمة، ووجدت البشريّة، ووجدت اللغة العربيّة، اشتُقّ الفعل أبلس من اسم إبليس. فالاشتقاق هنا إذن من الاسم. وما قلناه في إبليس نقوله في نون، فاسم يونس معناه كما سنرى هو ذو النون. وعليه فهناك احتمال أن يكون الحوت قد عُرف بـ نون بعد قصته مع ذي النون (يونس).

بالرجوع إلى الآية **88** من سورة الأنبياء نلاحظ أنّ كلمة ننْجي كُتبت في المصحف هكذا: (نجي)، على الرغم من أنّها تُقرأ فقط نُنْجي. فلماذا حذفت النون عندما كان الكلام عن ذي النون؟! ويصبح الأمر لافتاً بشدّة عندما نعلم أنّ سورة القلم تفتتح بقوله تعالى:" **ن والقلمِ وما يَسطرون**"، وقبل نهاية السورة يقول سبحانه:" **فاصبر لحكم ربّك ولا تكن كصاحبِ الحوت إذ نادى وهو مكظوم**". فلماذا إذن حذفت النون عندما وصف، عليه السلام، بذي النون، مع ملاحظة أنّ قصة يونس، عليه السلام، وردت أيضاً في سورة القلم، التي تُستهل بحرف النون، وملاحظة أنّه عليه السلام لم يوصف فيها بذي النون، بل هو فيها صاحب الحوت؟!

يُحتمل أن تكون هذه إشارة إلى أنّ النون هو الحرف وليس الحوت؛ ففي سورة الأنبياء حذفت النون التي هي حرف، وسورة القلم استهلت بنون

الـذي هـو حـرف، والقَسَـم فيهـا، كمـا هـو واضـح، بـالحرف والأداة والكتابة:"**نون والقلم وما يسطرون**".

إذا قرأتَ سفر **يونـا** في العهد القديم باللغة العبريّة تجد أنّه يتحدث عن قصّة النبي الذي التقمه الحوت وكان رسولاً إلى أهل نينوى. وهي القصة نفسها في التوراة المترجمة إلى العربيّة، وتجدها في سفر **يونـان**. أما في القرآن الكريم فهي قصة النبي **يونس**، عليه السلام. فهو إذن عند اليهود **يونا**، وعند النصارى **يونان**، وفي الإسلام **يونس**.

اللافت أنّ الاسم يونـان هـو أيضـاً اسم بلـد أوروبـي يقـع علـى البحـر المتوسط، وعندما بحثنا عن أصل التسمية وجدناها تتعلق بشخص لـه قدسيّة، بل رُفع عندهم إلى مرتبة الآلهة. ووجدنا أنّ البحر بالقرب من اليونان يسمى يونيوس، وهذه اللفظة قريبة جداً من لفظة يونس. وعندما نعلم أنّ السين في اللغة اليونانيّة هي علامة رفع للعلم المُذكّر، مثل: أرسطوطالس، ببندريوس، كرملّس... الخ، ندرك أنّ هناك احتمالاً راجحاً أن يكون الاسم **يونا** هو في اليونانيّة يوناس، ومعلوم أنّ الألف قد تُخفف في اللفظ لتصبح **يونس**.

وإذا عرفنا أنّ النون في اللغة اليونانيّة هي علامة نصب نُدرك أنّ يونـان هـي فـي الأصـل يونـا، فـإذا نُصـب علـى النـداء يكـون يونـان. وبمـا أنّ الأصل في العَلَم المذكّر أن يكون مرفوعاً فهو إذن يونس.

سبق أن أشرنا– عند مناقشة اسم يحيى– إلى أنّ المقطع (**يـو**) قد يـأتي فـي بعـض اللغـات السـامية القديمـة بمعنـى **ذو** (معلومـة غيـر مؤكـدة). وعليه يمكن أن يكون معنى الاسم يونا في الأصل السامي هو (ذو– نـا)،

ويكون معنى يونان في أصله السامي (ذو – نان) أي ذو النون. وبالتالي يمكن أن يكون معنى الاسم يونس هو ذو النون. والسين كما عرفنا علامة رفع تلحق العَلَم المذكر.

علاقة يونس باليونان علاقة مُرجَّحة

يظن البعض خطأً أنّ Greece هو الاسم الحقيقي لبلاد اليونان. والصحيح أنّ هذا الاسم هو وصف سلبي أطلقه أعداء اليونانيين عليهم. أما هم فيقولون إنّه اليونان نسبة إلى شخص له في الأساطير اليونانيّة مرتبة الآلهة. وتنص مقدمة سفر يونان في العهد القديم على أنّ النبي يونان هو من مواليد فلسطين، وقد دعاه الله ليحمل رسالة التوبة إلى مملكة أشور، التي كانت عاصمتها نينوى... وعندما تسلّم يونان الرسالة من الله أبت عليه روحه الوطنيّة أن يبشر بالخلاص أمّة وثنيّة، فحاول الهرب من الله على ظهر سفينة. ولكن بعد سلسلة أحداث طُرح يونان إلى أعماق البحر، فابتلعه حوت... وأخيراً أذعن يونان إلى أمر الرب فانطلق إلى نينوى ليبشّر أهلها بالخلاص...". **انظر كتاب الحياة ترجمة تفسيرية، ص 1088**

وفق العقيدة الإسلاميّة يُستبعد تماماً أن يرفض نبي كريم توبة أهل نينوى بعد أن أنذرهم العذاب، كما ينص سفر يونان. والملاحظ أنّ عدداً من المفسّرين قد تأثروا بسفر يونان هذا عند تفسيرهم للآية الكريمة.

ورد في السيرة أنّه عندما ذهب الرسول، عليه السلام، إلى الطائف أساء إليه الصغار والكبار إلا ما كان من عدّاس الذي هو من نينوى، فسأله الرسول، عليه السلام:" من مدينة الرجل الصالح أخي يونس بن متى؟".

فهذا الحديث– إنْ صح، وهو غير صحيح– لا يشير إلى أنّ نينوى هي البلد التي نشأ فيها يونس، عليه السلام، ولا يشير كذلك إلى أنّها البلد الذي آمن ليونس بعد إذ دعاهم. وعليه لا يبعد أن يكون يونس، عليه السلام، من نينوى ثمّ أُرسل إلى قومٍ آخرين بعد أن غاضب قومه. ولا يبعد أيضاً أن يكون من فلسطين ثم أُرسل إلى أهل نينوى. ولا يبعُد أن يكون من نينوى وأُرسل إلى أهلها. كل هذه الاحتمالات قائمة. وإذا لم يصح الحديث الوارد في السيرة فيمكن أن ينشأ لدينا احتمالات أخرى.

تشير الآيات الكريمة من سورة الأنبياء إلى أنّ يونس، عليه السلام، قد ترك المكان الذي كان فيه بعد مغاضبته قومه أو غيرهم. وتشير الآيات أيضاً إلى أنّ يونس، عليه السلام، ظنّ أنّ بإمكانه أن يغادر المكان الذي كان فيه لأنّ الله تعالى لم يُضيّق عليه في ذلك، وأنّ هذا الظن كان في غير محلّه. أمّا الآيات من سورة الصافات وفيها:" **إذ أبق إلى الفلك المشحون**"، فتشير إلى أنّ ذهابه كان كذهاب العبد الآبق الذي فرّ من سيّده. ولا نستطيع أن نجزم بأنّه كان نبيّاً عندما فعل ذلك، فالاحتمالات كثيرة، ولا يُبنى على الاحتمال، وإن كان الأليق بمقام النبوة أن نقول إنّ ذلك كان قبل النبوة.

بعد مغادرته مُغاضِباً، وبعد حصول قصته عليه السلام مع الحوت، أرسله الله تعالى إلى مدينةٍ يسكنها ما يقارب المائة ألف نسمة، كما نصت الآية **147** من سورة الصافات:" **وأرسلناه إلى مائة ألفٍ أوْ يزيدون**"، فالآية الكريمة لا تُصرّح، بل ولا تشير إلى أنّه رجع إلى بلده الذي غادره. ولو كان قد رجع إلى بلده وقومه لكان ظهر ذلك في النص

القرآني البليغ. وحتى لو ذهبنا إلى درجة تصديق ما ورد في سفر يونان، من أنّه رجع إلى أهل نينوى بعد أن أنذرهم، فإنّ ذلك لا يعني أنّه لم ينتقل إلى غيرهم.

أما قوله تعالى في الآية **147، 148** من سورة الصافات:" **وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون، فآمنوا فمتّعناهم إلى حين**"، فيشير إلى ضخامة البلد الذي أرسل إليه عليه السلام، كما ويشير إلى إيمان أهل هذا البلد. أي أنّهم تأثّروا به وسلكوا طريقه. والمعروف تاريخيّاً أنّ بلاد اليونان قبل الميلاد كانت تتألف من المُدُن الممالك؛ فكانت المدينة تتألف من عدد من السكان يكفي لتشكيل مملكة مستقلة قادرة على الدفاع عن نفسها. وإشارة القرآن الكريم إلى إيمان هذه المدينة يعني أنّهم قد تأثّروا بيونس، عليه السلام. ولا بدّ أن يظهر هذا التأثر في واقعهم؛ فأمّا على مستوى الأسماء فغلب اسم يونان على المنطقة، وحتى البحر فاسمه إلى الآن بحر يونيوس. وأما على المستوى اللغوي فأنت تجد أنّهم قد تأثّروا بالأبجديّة العربيّة، التي ترجع إلى أصل سوري أو عراقي، فهم لا يزالون يقولون: ألفا، بيتا، جاما، دلتا، ... بل إنّ سبعين في المائة من جذور اللغة اليونانية ترجع إلى أصول عربيّة، كما تشير بعض الدراسات المعاصرة.

إذن نحن بحاجة إلى تعميق الدراسات، فلعلنا نكتشف أنّ جذور النهضة الفكريّة اليونانيّة ترجع إلى عهد يونس، عليه السلام، كما ترجع جذور النهضة الفكريّة في عصور العباسيين إلى عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم.

وفق رواية سفر يونان يتّضح أنّ البحر هو البحر الأبيض المتوسط. ووفق المنطق الجغرافي نُرجِّح أنه فعلاً البحر الأبيض المتوسط، لأنّ أقرب بحر يمكن أن يوجد فيه حيتان كبيرة هو البحر الأبيض المتوسط، والذي هو أقرب إلى نينوى (الموصل) من بحر العرب. ثم إنّ فلسطين، الأرض المقدّسة، كانت مُهاجر إبراهيم، عليه السلام، وعليه فمن المتوقع أن يهاجر يونس، عليه السلام، إليها.

سورة يونس هي السورة العاشرة في ترتيب المصحف. واللافت أنها أول سورة في ترتيب المصحف سميت باسم نبي من الأنبياء. وقد جاءت سورة يونس تتصدر مجموعة السور التي تبدأ بالأحرف المقطعة **الر** هكذا: (يونس، هود، يوسف، الرعد، إبراهيم، الحجر)، واللافت أنها جاءت متسلسلة في ترتيب المصحف هكذا: **(10،11،12،13،14،15)**. فلماذا يونس أولاً، على الرغم من كون إبراهيم، عليه السلام، هو أبرز في النص القرآني، وكذلك يوسف وهود، عليهم السلام؟!

وإليك الآية الأولى من كل سورة:

يونس:"**الر تلك آيات <u>الكتاب</u> الحكيم**"،

هود:" **الر <u>كتاب</u> أحكمت آياته ثم فُصّلت من لدن حكيم خبير**"،

يوسف:" **الر تلك آيات <u>الكتاب</u> المبين**"،

الرعد:" **الر تلك آيات <u>الكتاب</u> والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون**"،

إبراهيم:" **الر <u>كتاب</u> أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد**"،

الحجر:" **الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين**"،

واللافت هنا أنّ الآيات الست، التي استهلت بها السور، قد أكدت على موضوع الكتاب. وقد يوحي هذا إلى أنّ ليونس، عليه السلام، دوراً بارزاً في مسالة الكتابة إلى درجة أن يسمى ذا النون أي ذا الحرف. أمّا لماذا النون دون باقي الحروف؟! فسيأتي الكلام إن شاء الله.

وردت الإشارة إلى قصة يونس، عليه السلام، في سورة الأنبياء وسورة الصافات وسورة القلم. واللافت أنّ القصة لم ترد في سورة يونس، بل لم يكن الحديث في السورة عن يونس، عليه السلام، ولكن جاء الحديث فيها عن قوم يونس؛ جاء في الآيات **98** من السورة:" **فلولا كانت قريةٌ آمنت فنفعها إيمانُها إلا قومَ يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين**"، فقط آية واحدة ذكرت قوم يونس، وعلى الرغم من ذلك فقد سمّيت السورة يونس!!

هذا يعني أنّ إيمان هذه الأمّة والمنفعة التي تحصّلت نتيجة هذا الإيمان هي امسألة المركزيّة التي لا بدّ من الانتباه إليها في قصة يونس، عليه السلام. واللافت أنّ الآية قد ختمت بقوله تعالى:" **ومتّعناهم إلى حين**"، أما الآية **148** من سورة الصافات فخُتِمت:" **فآمنوا فمتّعناهم إلى حين**". وفي هذا لفت الانتباه إلى أهميّة الحديث عن الفرصة التي حصلت لهم في الدنيا نتيجة إيمانهم، مما يعني أنّه قد يكون بإمكاننا أن نرصد ذلك تاريخيّاً. ويجدر هنا أن نلفت الانتباه إلى أنّ عدد الآيات التي تنتهي بحرف **النون** في سورة يونس هو **98** وهذا يوافق رقم الآية التي ذكر

فيها قوم يونس فسميت السورة يونس. وهذه الملاحظة تضاف إلى غيرها من الملاحظات المتعلقة بحرف النون وعلاقته بيونس، عليه السلام.

يُقدّر شُرّاح العهد القديم زمن النبي يونان (يونس) حوالي القرن الثامن قبل الميلاد. ومعلوم أنّ مثل هذه التقديرات لا يُركن إليها، فقد يكون زمنه أبعد من ذلك بقرون، ففي الوقت الذي يقدّر البعض زمن إبراهيم، عليه السلام، بـ **1800** ق.م نجد البعض الآخر يذهب إلى أنّ زمنه يقارب **3000** ق.م. وما نُلمح إليه هنا هو احتمال أن يكون يونس، عليه السلام، هو من وَضَع الأبجديّة- وما ترمز إليه من حساب- والتي تُعتبر من أهم الاكتشافات في تاريخ البشريّة. ومعلوم أنّ اليونانيين من أوائل من تأثّر بهذه الأبجديّة، بل أخذوها بترتيبها المعروف، وأخذوا ما ارتبط بها من حساب، وهو ما يُسمّى بحساب الجُمّل. ثم تأثرت باقي الأمم الغربيّة بهذه الأبجديّة؛ فأنت تجد، على سبيل المثال، أنّ ترتيب أبجديّة اللغة الإنجليزية يتوافق بنسبة مع ترتيب الأبجديّة العربيّة، انظر: (N،M،L،K) و (ك، ل، م ،ن) وانظر: (T،S،R،Q) و (ق، ر، ش ، ت). (B،A) و (أ،ب).

فالفرضيّة عندنا تقول: **إنّ يونس، عليه السلام، هو الذي وضع الأبجديّة التي أخذها اليونانيون عنه ثمّ نقلوها إلى غيرهم من الغربيّين، ومن هنا سمي ذا النون، على اعتبار أنّ النون ترمز إلى حرف الكتابة.**

ولكن لماذا النون؟!

أ. ملاحظات تتعلق بالقرآن الكريم:

نلاحظ أنّ القرآن الكريم قد **أقسم بالحرف والأداة والكتابة** عندما قال في مستهل سورة القلم- لاحظ القلم-:" **نون والقلم وما يسطرون**". فكانت النون هنا هي التي ترمز إلى الحروف.

ونلاحظ أنّ القرآن الكريم **6236** آية، وتنتهي كل آية بكلمة تسمى **فاصلة**، فهناك إذن **6236** فاصلة. واللافت أنّ أكثر من **50%** من الفواصل القرآنيّة تنتهي بحرف النون.

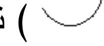
ب. ملاحظات تتعلق بالعربيّة والإعراب والتصريف:

تشير الدراسات الحديثة إلى أنّ اللغة العربيّة هي اللغة الأقرب إلى اللغة الساميّة الأم. ولسنا هنا في مقام إثبات ذلك. واللافت في هذه اللغة أنّ لحرف **النون** الدور المركزي في الإعراب والتصريف، ويكفي للتدليل على ذلك ملاحظة الآتي:

1. تنوين الفتح والضم والكسر: أي تُختم اللفظة بالنون.
2. التثنية (ا + ن) والجمع (و + ن) و (ى + ن) أي تختم اللفظة بنون.
3. نون النسوة: تختم اللفظة بنون.
4. نون التوكيد، والنون المخففة.
5. إنْ، أنْ، إنّ، أنّ.
6. إثبات النون وحذفها في الإعراب، وبالذات في الأفعال الخمسة..

ولا تجد في اللغة العربيّة، والتي هي الأقرب إلى الساميّة الأم، حرفاً آخر كحرف النون يقوم عليه التصريف والإعراب.

ج. الكتابة:

يمكن الزعم بأنّ الذي وضع صور الحروف الأبجديّة قام أولاً بوضع صورة النون () ثم قام باشتقاق باقي صور الحروف من هذه الصورة، وهذا أمر يسهل ملاحظته عند استعراض صور الحروف.

وأخيراً، فهناك ملاحظات عدديّة قرآنيّة قد ترتقي بهذه الفرضيّة إلى مستوى النظريّة آثرنا أن نتريث في طرحها لعلها تتضح.

سلام على إل ياسين

جاء في سورة الصافات:" **وإنّ إلياس لمن المرسلين، إذ قال لقومه ألا تتقون، أتدْعُون بعلاً وتذرون أحسنَ الخالقين، اللهَ ربكم وربَّ آبائكم الأولين، فكذبوه فإنّهم لمُحضَرون، إلا عباد الله المُخْلَصين، وتركنا عليه في الآخِرين، سلام على إل ياسين،...**" الصافات: **123-130**

اللافت أنّ كلمة إلياس كتبت في المصحف هكذا: إلياس، أمّا إلياسين فكُتبت هكذا: **إل ياسين**. ومعلوم أنّ رسم المصحف في قول الجماهير هو توقيفيّ، أي عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، وحياً. وكتابة إل ياسين على هذه الصورة تكشف لنا أنّ لفظة **إلياس** هي في الحقيقة **إل ياس**. والـ **إل** في اللغة العربيّة – والتي هي الأقرب إلى اللغة الساميّة الأم – تعني الإله، وهي في بعض اللغات الساميّة إيل، وهذا يعني أنّ إسرائيل هي إسرا إيل، وجبرائيل هي (جبرا إيل أو جبري إيل). وإذا كانت إسرا إيل مضافاً ومضافاً إليه، كما هو الأمر في عبد الله، فإنّ الأمر في إل ياس يختلف، فقد قُدِّمت **إيل** على **ياس**.

تُصرّح الآيات الكريمة من سورة الصافات أنّ قوم إلياس كانوا يعبدون البعل. وقد صرّح جمهرة من أهل التفسير بأنّ إلياس هو **إيليَّا** الوارد ذكره في أكثر من سفر من أسفار العهد القديم. وقد دفعهم إلى هذا القول ما تُصرّح به أسفار العهد القديم من أنّ **إيليّا** جاء ليُقاوِم عبادة البعل التي

انتشرت في بني إسرائيل متأثرين بالأمم المجاورة. يضاف إلى ذلك أنّ اسم إلياس قريب في لفظهِ من اسم **إيليا** الذي هو في الحقيقة (إيلي يا) من غير حرف السين. واللافت أنّ التلميذ الذي خلف **إيليا** في دعوته إلى التوحيد اسمه إليشع، وهذا قريب جداً من اسم اليسع الوارد في القرآن الكريم. والفارق، كما هو ملاحظ، ينحصر في همزة القطع والوصل وفي السين، التي هي في السامية الأم أيضاً سين وتقلب في العبريّة شيناً.

يذهب بعض أهل التفسير إلى أنّ **إلياس** هو نفسه **إدريس**، ويدللون على قولهم هذا بالقراءة التفسيريّة المنسوبة إلى عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، حيث قرأ: "**وإنّ إدريس لمن المرسلين ... سلام على إدراسين**". وهذا الذي ذكرناه تجده عند عامّة أهل التفسير، وقد رجّحه بعضهم. ويمكن أن يُعزَز هذا القول بالملاحظات الآتية:

أولاً: ورد اسم **إدريس** في سورة مريم وسورة الأنبياء، وورد اسم **إلياس** في سورة الأنعام وسورة الصافات. وهذا يعني أنّ الاسمين لم يجتمعا في سورة واحدة. ولو اجتمعا في سورة واحدة لكان ذلك دليلاً على اختلاف المُسمّى.

ثانياً: ذكر القرآن الكريم في سورة الأنعام أسماء **18** نبياً بينهم اسم إلياس، وذكر في سورة الأنبياء أسماء **17** نبياً بينهم اسم إدريس. فعندما يذكر في سورة الأنعام، في أربع آيات، أسماء **18** نبياً يكون احتمال ذكر اسم إدريس و إلياس معاً كبيراً جداً. وعندما يذكر في سورة الأنبياء **17** اسماً يكون احتمال **اجتماع الاسمين في إحدى السورتين** أكبر. فما معنى عدم اجتماع الاسمين في سورة واحدة ؟!

ثالثاً: ينتهي اسم **إدريس** بحرف السين وكذلك اسم **إلياس**، وهذا يُشعر بأنّ اللغة واحدة. ويُعزز ذلك ما نعرفه من أنّ السين في اللغة اليونانيّة هي علامة رفع للعلم المذكر – كما أشرنا عندما حللنا اسم يونس.

رابعاً: جاء في الآيتين **56**، **57** من سورة مريم:" **واذكر في الكتاب إدريس إنّه كان صِدّيقاً نبيا، ورفعناهُ مكاناً عليّاً**"، فالآية تشير إلى رفعه عليه السلام. واللافت أنّ النبي الوحيد الذي تنص بعض أسفار العهد القديم على رفعه هو **إيليّا**، ومن ذلك ما جاء في الإصحاح الثاني من سفر الملوك الثاني:"... وفيما هما يسيران ويتجاذبان أطراف الحديث، فصلت بينهما مركبة من نار تجرها خيول ناريّة نقلت إيليّا في العاصفة إلى السماء". ولذلك هم ينتظرون رجوعه قبل يوم القيامة، كما ينص العهد القديم ويشير إلى ذلك العهد الجديد أيضاً.

فالذي رُفِع في القرآن الكريم هو **إدريس**، والذي رُفع في العهد القديم والجديد هو **إيليّا**، وابن مسعود، رضي الله عنه، يقول إنّ إلياس هو إدريس، ألا يجعل ذلك الاحتمال قوياً.

خامساً: يونس في القرآن الكريم هو أيضاً ذو النون، ومحمد هو أحمد، ويعقوب هو إسرائيل. ولا يستبعد إذن أن يكون إدريس هو إلياس. ونقول بلغة أخرى: يعقوب هو اسم النبي ولكنه بعد حادثة معينة دُعي إسرائيل، فغلب الاسم الجديد أو اللقب الجديد، إلى درجة أن يُقال (بنو إسرائيل) ولا يقال (بنو يعقوب). من هنا، هناك احتمال أن يكون الاسم **إدريس** هو الأصل وبعد حادثة معيّنة سمّي **إلياس.**

إذا كان إيليّا هو إلياس فإنّ ذلك يؤشّر إلى احتمال أن يكون له، عليه السلام، علاقة باليونان، لأنّ السين في اليونانيّة علامة رفع تلحق العلم المُذكّر، ونلحظ ذلك في الكثير من الأسماء اليونانية. والاسم إيليّا مكون من مقطعين (إيلي+ يا)، ويرى بعض شرّاح العهد القديم أنّه يعني (الهي يهوه)، وهذا يعني أنّ إيلي تعني إلهي، وهذا صحيح. أما المقطع (**يا**) فلا دليل على أنّ المقصود به هو **يهوه**. والأقرب أن يكون الاسم **إيلياهو** هو الذي يعني إلهي يهوه.

ويُشكِل عند النصارى مثل هذه الترجمة لاسم إيليّا، لأنّ المسيح قال في حق يحيى، عليهم السلام، في إنجيل متّى الإصحاح **11:**" وإن شئتم أن تصدّقوا، فإنّ يوحنا هذا، هو إيليّا الذي كان رجوعه منتظراً". وبما أنّ إيليّا النبي غير يحيى، وقد جاء قبله بقرون، فإنّ العبارة تعني أنّ يحيى وإيليّا يلتقيان في وصف واحد وهو، في ظننا، ما أورده متّى على لسان المسيح:" الذي رجوعه منتظراً"، وفي ترجمات أخرى:" المزمع رجوعه". فالمشهور عند اليهود أنّ إيليّا سيرجع قبل يوم القيامة، وكذلك الأمر بالنسبة ليحيى وفق العبارة المنسوبة إلى المسيح. وهذا يعني أنّ معنى الاسم **إيليّا** يُحتمل أن يكون: (المزمع رجوعه). وحتى يتّضح المقصود نقول: عندما تكون حادثة الرفع مشهورة، وعندما يكون الرجوع منتظراً، يغلب أن يطلق على المرفوع اسم فيه معنى تمنّي الرجوع، مثل، الله يُرجِع، الرب يُعيد، إلهي يعيده ...الخ، ألا ترى أنّ اسم المهدي المنتظر قد غلب على اسمه الحقيقي. وهذا يعني أنّ علينا أن نبحث إن كان المقطع (يا) يأتي في اللغات السامية القديمة بمعنى (يرجع، يعود).

يلفت الانتباه في سورة الصافّات أنّه بعد الكلام عن نوح، عليه السلام، يقول تعالى:" سلام على نوح في العالمين"، وبعد ذكر قصة إبراهيم، عليه السلام، يقول:" سلام على إبراهيم"، وبعد ذكر موسى وهارون، عليهما السلام، يقول:" سلام على موسى وهارون"، أما بعد ذكر إلياس، عليه السلام، فيقول:" سلام على إل ياسين"، أي أنّ السلام ليس فقط على إلياس وحده بل على مجموع، ومن هنا أضيفت الياء والنون.

إذا صحّت فرضيّة أنّ اسم إيليّا فيه معنى أنّ الله يُرجِع، فناسب أن يكون السلام على الذين **سيُرجِعُهم الرّب**، أي الذين رُفعوا وسيتمّ رجوعهم. ومعلوم لدينا رفع عيسى وإدريس، عليهما السلام. وهناك مؤشرات نصيّة تشير إلى احتمال رفع يحيى، عليه السلام، أيضاً. وليس هذا مقام تفصيل ذلك.

وبما أنّ الرب المُرجِع واحد، وبما أنّ الراجعين جماعة، فناسب أن يتم فصل **إل** التي تعنى الإله عن ياس، ليتم إضافة علامة الجمع إلى المقطع الذي يشير إلى الراجعين. وأخيراً نجد من المناسب أن نلفت الانتباه إلى أنّ السورة التي تسبق سورة الصافّات في ترتيب المصحف هي سورة **يس**، والتي تُستهل بالحرفين **يس** ويلفظان هكذا: (يا سين)، وتختم السورة بقوله تعالى:" **وإليه تُرجعون**".

إبراهيم عليه السلام

يمكن تشبيه السلالات البشريّة عبر التاريخ بالشجرة التي تُقلّم بقطع فروعها التي قد تعيق النمو المثالي. وقد سرد القرآن الكريم لنا بعض قصص الأمم التي انحرفت واستعصت على الإصلاح، فأصبح وجودها عبئاً يعيق التطور الإيجابيّ للأمم فاستحقّت الزوال؛ كقوم نوح، وعاد، وثمود، وأهل مدين، وقوم لوط. وقد ساعد هذا التقليم لشجرة السلالات البشريّة في إخراج أمم أقلّ فساداً وأكثر قابليّة للإصلاح. ومن يقرأ قصّة موسى، عليه السلام، مع فرعون يدرك أنّ الخلل كان في النظام السياسي المتمثل بفرعون وأركان نظامه. ومن هنا تمّ إغراق فرعون وجيشه دون باقي الناس، على خلاف ما كان يحصل في الأمم السابقة.

ولمّا استقامت الشجرة الإنسانيّة على سوقها، ونضجت، وغلبت إيجابياتها سلبياتها، وأصبحت أكثر مرونة فلا تستعصي على الإصلاح، خُتمت الرسالات ووكل أمر الاصلاح إلى المصلحين الذين لن يخلو منهم زمان إلى يوم القيامة.

ويبدو أنّ عصر إبراهيم، عليه السلام، كان يمثل بداية التحوّل في التعامل مع انحراف الأمم، فأنت تجد أنّ إبادة قوم لوط كان في زمنه عليه السلام. أمّا أهل مَدْيَن قوم شعيب فربما كان عقابهم معاصراً

لإبراهيم، عليه السلام، أو قريباً من ذلك. ويمكن أن يستفاد هذا من قول شعيب، في الآية **89** من سورة هود، يخاطب قومه:"... **وما قوم لوط منكم ببعيد**". أما عصر موسى ففي تقدير البعض يمكن أن يكون بعد ستة قرون من عصر إبراهيم، عليهم السلام.

اللافت أنّ القرآن الكريم لم يُصرّح بعقوبة قوم إبراهيم – بعد محاولة حرقة عليه السلام – كما صرح بعقوبة الأمم الغابرة. وإليك ما ورد في ذلك:

" **وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ**" **الأنبياء:70**

" **فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِين** " **الصافات: 98**

يضاف إلى ذلك الآية **70** من سورة التوبة، والتي تُعتبر الأكثر تصريحاً بعقوبتهم من خلال اقتران ذكرهم بالأمم التي استؤصلت:" **أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُون**"، والآيات **42-44** من سورة الحج:" "**وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ. وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ. وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِير**".

يستفاد من مجمل هذه الآيات الكريمة أنّ قوم إبراهيم قد نزلت بهم عقوبة شديدة، ولكن الآيات لم تُصرّح بحقيقة ما حصل ومداه ولم تفصّل، كما هو الأمر في قصة قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم شعيب.

وقد نجد تفسيراً لذلك في سلوك قوم إبراهيم الذي اختلف شيئاً ما عن سلوك الأمم التي سبقت، فقد سلكوا طريق المحاجّة؛ انظر قوله تعالى في الآية **258** من سورة البقرة:" **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ** أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ". وانظر قوله تعالى في الآية **80** من سورة الأنعام:" **وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ**". بل لقد هدّدهم عليه السلام بالكيد لأصنامهم، فقال:" **وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ**"الأنبياء

أما محاولة تحريقه عليه السلام فكانت بعد تحطيم أصنامهم. ومن هنا يشعر من يقرأ الآيات المتعلقة بقوم إبراهيم أنّهم يختلفون في سلوكهم وردود فعلهم عن الأمم التي سبقتهم. أما اقتران ذكرهم بهذه الأمم فلِما كان من كفر وعناد ثمّ محاولة قتل وتحريق خليل الرحمن بعد أن أقيمت عليهم الحجّة، انظر قوله تعالى في الآية **83** من سورة الأنعام:" **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ**...".

إسماعيل عليه السلام

ما يلفت نظر أهل الفكر من غير المسلمين أنّ القرآن الكريم لا يهتم بالتفاصيل المتعلقة بعالم الأشخاص والأزمان والأماكن. ومثل هذه الظاهرة القرآنيّة تضاف إلى دلائل نبوة الرسول عليه السلام. وهذا لا يعني أنّه ليس بإمكاننا أن نستنبط الكثير والكثير من الأسرار المدّخرة في تفاصيل البناء القرآنيّ المعجز. كيف لا، وقد وُصِف بكونه:" **تبياناً لكل شيء**". النحل:89

تنصّ التوراة المعاصرة على أنّ إسماعيل أكبر سناً من إسحاق، عليهما السلام. أمّا القرآن الكريم فلا يُعنى بمثل هذه المسائل، ولكنّك تستطيع أن تستنبط هذه المعلومة من خلال ملاحظة التزام النص القرآنيّ الكريم لذكر اسم إسماعيل قبل اسم إسحاق، وذلك في كلّ المواضع التى اقترن فيها الاسمان؛ انظر مثلاً الآية **133** من سورة البقرة:"...**إبراهيم وإسماعيل وإسحاق**..."، والآية **140** من سورة البقرة:"... **إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط**..."....الخ.

على الرُّغم من تصريح القرآن الكريم بأنّه وهب لإبراهيم عليه السلام إسماعيل وإسحاق:" **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ**"إبراهيم 39 وعلى الرُّغم من كون ذلك من

المسلّمات عند المسلمين وأهل الكتاب، إلّا أنّ هناك ما يلفت النظر ويدعو إلى التأمل أن تجد أنّ القرآن الكريم لا يذكر إسماعيل عليه السلام، عندما يشير إلى هبة الله تعالى لخليله إبراهيم عليه السلام، انظر الآيات الآتية:

" **فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاً جَعَلْنَا نَبِيًّا**"مريم:49

" **وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ. وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلّاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ**"الأنبياء:71،72

"**فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ**"العنكبوت:26،27

ونلاحظ هنا الآتي:

أولاً: يأتي ذكر هبة الله تعالى لخليله إبراهيم عليه السلام بعد قصّته مع قومه وهجرته إلى الأرض المباركة. وهذا أمر مشترك بين الآيات الثلاث كما نلاحظ.

ثانياً: ذُكر الابن إسحاق والحفيد يعقوب ولم يذكر الابن الأكبر إسماعيل، عليهم السلام، على الرغم من كونه قد وُهب أولاً بعد مغادرة إبراهيم عليه السلام العراق.

ثالثاً: أمّا عندما كان الكلام عن مكّة والبيت الحرام فنقرأ في الآية **39** من سورة إبراهيم، وعلى لسانه عليه السلام:" **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ**".

رابعاً: ربما كان السرّ في ذلك يرجع إلى أنّ القرآن الكريم لا يذكر الأسماء لمجرد إعطاء معلومة كانت في الواقع، وإنّما يذكر بعض أسماء الأنبياء والرسل في سياق التأسيس للأفكار والقيم والعقائد والتشريعات بعيداً عن التفصيلات التي لا تخدم هذه الأهداف.

ونظراً لكون نُبوة إسحاق قد جاءت في إطار رسالة إبراهيم، عليهم السلام، فقد وجدنا أنّ اسم إسحاق قد تكرر في القرآن الكريم **17** مرة، وكل ذلك في سياق الكلام عن إبراهيم عليه السلام، ولم يشذ عن هذا موضع واحد.

أمّا اسم إسماعيل عليه السلام فقد ورد ذكره مستقلاً أكثر من مرّة، ومن ذلك:" **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا**" مريم:54 وهذا مفهوم لدينا لأنّ اسماعيل عليه السلام كان رسولاً إلى العرب في الجزيرة العربيّة، ولم تكن نُبوّته في إطار رسالة إبراهيم عليه السلام.

من هذا كله نستنتج أنّ الكلام عن هبة الله لإبراهيم، عليه السلام، هو سياق الحديث عن هبة النبوة التي كانت في النسل. أما النسل الذي لا

علاقة له بهبة النبوة فلم يذكر؛ فذُكِر يعقوب، مثلاً، ولم يذكر عيسو الذي ذكرته التوراة المزعومة.

جاء في الآيات من **99** إلى **112** من سورة الصافات:" وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ. رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ. فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ. فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ. فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ. وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ. وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ. سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ. كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ. وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ".

هذه هي المجموعة الرابعة التي يمكن إضافتها إلى المجموعات الثلاث التي ناقشناها آنفاً. وفيها وفي سياقها تصريح بأنّ تبشير إبراهيم عليه السلام بالغلام العليم كان بعد قصّته في العراق وإعلانه هجرته إلى الأرض المباركة. وقد اختلف العلماء حول اسم الغلام الحليم، أي الذبيح؛ فقال الجمهور إنّه اسماعيل وقال غيرهم إنّه إسحاق، عليهم السلام. والآيات الكريمة من سورة الصافات لا تصلح دليلاً لأيٍّ من الفريقين، نظراً لوجود الاحتمال مع صعوبة الترجيح. أمّا الذين يجزمون بقولٍ استناداً إلى هذه الآيات فتنقصهم المنهجيّة السويّة في الاستدلال.

أمّا من هو الذبيح فأمر لا يهمّ المسلمين كثيراً، لأنّ إسماعيل وإسحاق، عليهما السلام، نَبيّان كريمان مُسلمان لله تعالى. والعبرة بالدروس المستفادة من الحادثة الجليلة. أمّا أهل الكتاب فيجزمون أنّه إسحاق، عليه السلام؛ فقد جاء في الإصحاح **22** من سفر التكوين من التوراة المزعومة:" خذ ابنك وحيدك إسحاق..." وقد تكررت لفظة **وحيدك** في الإصحاح **22** ثلاث مرات مما يطرح علامات استفهام كبيرة، لأنّ إسحاق عليه السلام لم يكن وحيد والده عند الحادثة، مما يشير إلى احتمال تحريف الاسم. يضاف إلى ذلك ما ورد في الإصحاح **17** من سفر التكوين:" إنّ سارة زوجتك هي التي تلد لك ابناً وتدعو اسمه إسحاق، وأقيم عهدي معه ومع ذريته من بعده..."، فكيف يُؤمَر عليه السلام بذبح إسحاق وقد وُعِد، قبل ميلاده، بأنْ يكبر إسحاق فيكون له نسل وذريّة، مع العلم بأنّ الإصحاح **22** ينصّ على أنّ إسحاق عليه السلام كان وقت الحادثة صبياً؟!

وما قيل في الاعتراض على أهل الكتاب يقال لمن ذهب من المسلمين إلى أنّ الذبيح هو إسحاق؛ فقد جاء في الآية **71** من سورة هود:" **وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ**"، فقبل أن يولد إسحاق بُشّرت ساره بحفيدها يعقوب بن إسحاق، عليهم السلام. فكيف يكون الذبيح إسحاق؟! وقد نسعِفهم بجواب يقنع البعض ولا يقنع آخرين، فنقول: الأمر بسيط، فيمكن أن يُنْسي الله تعالى إبراهيم عليه السلام هذا الوعد فلا يتذكره عند الامتحان. وهذا جواب يختلف عن

جواب رئيس طائفة نصرانيّة، حيث أجابني فقال:" كانوا يكتبون فلا يدري أحدهم ما يكتب الآخر".

وفي الوقت الذي يقول فيه تعالى عن هذا الامتحان:" **إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِين**"، يُفاجئك عالم من علماء **قُم** – يُحاضر في الناس ويُنْقل درسه في فضائيّة – وهو يقارن بين موقف إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام من جهة، وموقف جعفر الصادق من جهة أخرى، فيُهوِّن من موقف إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وصبرهما، ويرفع من قَدْر جعفر وصبره، ويدلل على علو كعب جعفر في الصدق والصبر بقوله عندما وقف على ابنه وقد أُحضر ميتاً:" الحمد لله الذي يَقْتل أبناءنا ولا نزداد له إلا حُباً". لا أكتم القارئ بأنني صُعقتُ لسماعي هذا الكلام، فلم أكن أتوقع أن يجرؤ مُدّعٍ للإسلام على مثل هذا. اللهمّ ارحم عبدك جعفر الصادق فإنّه بريء من هذا البهتان العظيم. ولا يرتضي أيّ مسلمٍ، بلغ ما بلغ من الصفاقة، أن يُجعل في الفضل فوق الأنبياء.

جواب الشرط في قوله تعالى:" **فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ. وَنَادَيْنَاه...**" محذوف. وزعم البعض أنّ الواو في:"وناديناه" زائدة، وهو قول لا يُعتدّ به. ويغلب أن يكون حَذف جواب الشرط لتعظيم المحذوف، كما هو معهود في اللغة. فكأنّ المعنى:" فَلَمَّا أَسْلَمَا وتلّهُ للجبين حصل ما حصل من أمر عظيم وناديناه...". ومن أجل أن نعلم ما يمكن أن يكون قد حصل نقول:

قوله تعالى:" **وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا...**"، فقيام إبراهيم عليه السلام بما قام به جعله مصدّقاً للرؤيا، فلماذا الفداء إذن؟! ولم يكن هناك أي خلل أو تقصير من إبراهيم أو ولده عليهما السلام، فما الداعي للفدية؟!

كان الفداء كرماً ومِنّة من الله تعالى فهو من قبيل التكريم، ولا علاقة له بجبر أيّ نوع من التقصير كما هي الفدية. ولا يبعد أن تكون الحادثة لحكمة تقتضي أن يعلم البشر أن لا قربان بشريّ في شرع الله تعالى. وأنّ الأنعام تصلح لتكون القرابين التي تُقرِّب إلى الله تعالى.

وهناك احتمال نراه الأقرب إلى ظاهر النص، وهو أن يكون إبراهيم عليه السلام قد **قام بعملية الذبح كاملة ثمّ اكتشف أنّ الله تعالى قد افتدى إسماعيل بذِبْح قام هو بذبحه وهو يظنّ أنّه يَذبح ابنه**. فالفداء هنا كان يُقصد منه درء الذبح عن إسماعيل في الوقت الذي ظهر الصدق الكامل من إبراهيم، عليهما السلام.

من مؤيدات هذا الوجه:

أولاً: قوله تعالى:" **فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ. وَنَادَيْنَاه..**"، قلنا إنّ جواب **لما** محذوف، ومثل هذا الحذف يشير إلى عظمة ما حصل. وعليه يحتمل أن يكون جواب لما: " فلما أسلما...قام بالذبح وقمنا بالاستبدال وناديناه".

ثانياً: قوله تعالى:" **وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيم** "، الواو هنا لا تدل على ترتيب ولا تعقيب، ومن هنا لا يَتوهّم أحد أنّ الفداء كان بعد النداء.

ثالثاً: مثل هذا التصوّر للحدث أعمق في الدلالة على صدق إبراهيم عليه السلام.

رابعاً: كون الفداء من الله تعالى يُعزز هذا المعنى. ولو كان الفداء بعد أن صدّق إبراهيم عليه السلام الرؤيا لكان تسميته فداءً فيه نوع من التجوّز، لأنّ حقيقة الفداء غير موجودة.

استشهد بعض النصارى بهذه الآية، ليدللوا على أنّ الفداء قد يكون من الله تعالى، وليقولوا إنّ الله تعالى قد جعل ولده يعاني على الصليب – أو تجسّد هو– فداءً للبشريّة من أجل مغفرة خطاياهم. ولنا على مثل هذا الاستدلال الملاحظات الآتية:

أولاً: لم يكن إسماعيل عليه السلام مستحقّاً للذبح حتى يُفتدى، وإنّما كان الأمر امتحاناً من الله تعالى ودرساً للمؤمنين إلى يوم القيامة.

ثانياً: كان الفداء ذِبحاً من الأنعام. ولو كان فداءً، كما يزعمون، لكان دليلاً على جواز أن يُفدى الأكبر قيمةً ومكانةً بالأقل قيمة ومكانة. ومن هنا لا ضرورة لأنّ يتجسد الله – تعالى عما يقولون– ليفتدي البشر فيغفر خطاياهم.

ثالثاً: أما كان بالإمكان أن تُغفر الخطايا من غير أن تكون معاناة للغافر على الصليب؟!

وأخيراً نرجو أن يتسع صدر القارئ الكريم لأننا قد نغّصنا عليه صفاء عقله ونفسه بذكر عقيدة الفداء والتجسّد، فما ينبغي لمثل هذه العقيدة أن تُناقش لمجافاتها للعقل والفطرة السويّة، ولكن عذرنا أننا أردنا أن تكتمل لديه الصورة.

يـعقـوب عليه السلام

جـاء فـي الآيـة **71** من سورة هود**:**" **وامرأتـه قائمـة فضـحكت فبشـرناها بإسحاق ومن وراء إسحق يعقـوب**"، والمقصود هنا سارة زوجة إبراهيم، عليه السلام. واللافت أنه تمّ تبشيرها بإسحاق ومن بعده ولده يعقوب. والتسمية، كما هو واضح في النص الكريم، هي من قِبل الوحي، وهذا يُحتّم أن يكون للاسم دلالة أو أكثر تتعلق بالمولود القادم ووظيفته المباركة. والذي نراه أنّ لفظة يعقوب تدل على المبالغة في أنّه سيكون ذا عقب ونسل ممتد. وهذه الصفة يمكن أن تكون في أكثر الناس، ولكن المقصود هنا أنّ سلسلة النبوة ستكون في عَقبه، عليه السلام. وهذا ما كان فعلاً في الواقع، فكل من جاء من الرسل والأنبياء بعده عليه السلام كانوا من ذريته، حتى خُتمت هذه السلسلة المباركة بيحيى، عليه السلام. أما عيسى، عليه السلام، فكان ميلاده على خلاف المعهود بحيث انقطعت عنده العلاقة النسَبيّة المستندة إلى المولد.

ويَرِدُ على هذا، قول من قال من المفسرين إنّ الاسم يعقوب ورد في القرآن الكريم ممنوعاً من الصرف، وهذا يدل على أنه أعجمي وليس بعربي. والجواب عن هذا الاعتراض يمكن أن نستعيره من كلام المختص رءوف أبو سعدة في كتابه (من إعجاز القرآن) حيث يقول:" ولم يفطنوا إلى أنّ **عَقَبَ** العبري يكافئ **عَقَبَ** العربي مبنى ومعنى". وهذا

يعني أنّه مُنع من الصرف لأنّه أعجمي، ولكن اشتقاق الاسم ومعناه مطابق لما هو في العربيّة.

وَيرِدُ عليه أيضاً أنّ إسحاق، عليه السلام، هو الذي أنجب يعقوب، فلماذا لم يكن هو العاقب، ولماذا ليس إبراهيم، عليهم سلام الله جميعاً؟! نقول: أما بالنسبة لإبراهيم، عليه السلام، فقد جاء في الآية **27** من سورة العنكبوت:" **ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب...**"، فالبداية كانت باصطفاء إبراهيم، عليه السلام، واتخاذه خليلاً، وكل من جاء بعده من نسله عليه السلام كان فيه تمام النعمة عليه. أما بالنسبة لإسحاق فواضح أنّ المسألة هي اختيار ربّاني، فقد تمّ اختيار يعقوب ليكون البداية في هذه السلسلة بحيث تكون النسبة إليه دون من سبقه من الآباء. والمتدبّر للقرآن الكريم يجد أنّه ينصّ على اصطفاءٍ خاص لآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، على الرغم من كون آل عمران هم من نسل إبراهيم، عليهم السلام. جاء في الآية **33** من سورة آل عمران:" **إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين**"، فقد كُرِّم عمران بجعله بداية سلسلة مباركة، كما كُرم إبراهيم، عليه السلام، بجعله بداية سلسلة مباركة من الأنبياء والرسل.

والآل: هم من يؤول إليهم الإنسان، أي يرجع إليهم أو يرجعون إليه، بنسب أو اعتقاد أوتابعيّة. فإسحاق، عليه السلام، يؤول لإبراهيم، عليه السلام، بنسب واعتقاد وتابعيّة، فقد كانت نبوته في سياق رسالة إبراهيم،

عليه السلام. وبما أنّ يعقوب هو من ولدِ إسحاق، عليهم السلام، وبما أنّ الأنبياء من نسله يؤولون إليه، فإنّ ذلك يشير إلى بداية تتعلق بالدين والإمامة وليس بالنسب فقط. وعليه فإنّ آل موسى هم الأنبياء الذين جاءوا من نسله، عليه السلام، وعلى خطاه في الاعتقاد والتشريع. وآل هرون هم من جاء بعده من الأنبياء من نسله، عليه السلام، وعلى خطاه. وآل داود، عليه السلام، كذلك. ولا قيمة للنسب إذا لم يُشفَع بتابعيّة. جاء في الآية **124** من سورة البقرة:" **وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُهُ بكلماتٍ فأتمهنَّ قالَ إنّي جاعلكَ للناس إماماً، قال ومن ذريتي، قال لا ينالُ عهدي الظالمين**". والتابعيّة هي الأهم وهي الأَوْل الحقيقي. ومن الملاحظ أنّ القرآن الكريم عندما يتكلم عن أهل الفضل والإيمان والتابعيّة من ولد يعقوب يقول:" آل يعقوب"، أما عندما يتحدث إلى أبنائه، عليه السلام، يقول:" يا بني إسرائيل".

جاء في الآية **6** من سورة يوسف:" **وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتمُّ نعمتهُ عليك وعلى آل يعقوب، كما أتمها على أبويكَ من قبلُ إبراهيمَ وإسحاقَ...**"، وجاء في الآية **6** من سورة مريم، وذلك على لسان زكريا وهو يسأل الله تعالى أن يهبه من يرثه في دعوته:" **يرثني ويرثُ من آلِ يعقوبَ...**"، فلا تزال الصلة قائمة، ولا تزال الوراثة قائمة، حتى بعد مجيء موسى وهارون وداود، مما يدل على تميّز يعقوب بأمور دينية بدأت فيه واستمرت في نسله ولم تنقطع بمجيء رسالات موسى وهارون وداود، عليهم السلام. وقول زكريا، عليه

السلام:" ويرثُ **من** آل يعقوب"،" وليس:" ويرث آل يعقوب"، يوحي بأنّ المطلوب بعض ما ورَّثهُ آل يعقوب، لأنّ هناك أموراً جاء بها الرسل من بعده لم تكن من ميراثهِ عليه السلام.

واستجيب لزكريا، فكان يحيى، عليهما السلام، آخر نبي في هذه السلسلة المباركة، وآخر من أعقبَ يعقوبُ من أئمة الهداية والرشاد، وكان آخر وارث يؤول إليه الإرث المبارك. وفي ذلك إرهاص بانتقال النبوة إلى نسل إسماعيل، عليه السلام، إيذاناً بختم النبوّات وبالتالي الرسالات. وبذلك يكون الله تعالى قد استجاب دعوة إبراهيم، عليه السلام، حيث جاء في الآيات **127، 128، 129** من سورة البقرة:" **وإذ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ من البيتِ وإسماعيلُ ربنا تقبّل منا إنك أنت السميعُ العليم، ربنا واجعلنا مسلمَينِ لك ومن ذُرّيتنا أمّةً مسلمةً لكَ وأرنا مناسِكَنا وتب علينا إنّك أنت التواب الرحيم، ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتِك ويُعلِمُهم الكتاب والحكمةَ وُيزكّيهم إنّك أنت العزيز الحكيم**". فختْمُ وراثة يعقوب وانتقال النبوة في نسل إسماعيل، عليه السلام- لتختم بمحمد، صلى الله عليه وسلم- فيه استجابه لدعاء ورجاء خليل الرحمن، عليه السلام، بل هي مشيئة الله تعالى كانت رجاءً أجراه على لسان خليله ليستجيب له، تكريماً له ولخاتم النبيين، عليهم السلام، ولخير أمة تشهد على الأمم. ومن لطائف دلالات الأسماء أنّ معنى الاسم إسماعيل عند المحققين هو " **سَمِعَ اللهُ** ".

أما عيسى، عليه السلام، فهو ابن مريم، ولا يرجع في نسبه إلى يعقوب، عليه السلام، لأنّ الانتساب في دين الله وشرعه يكون للأب، جاء في الآية 5 من سورة الأحزاب:" **ادعوهُم لآبائهم هو أقسطُ عند الله...**"، فانتساب عيسى لمريم، عليهما السلام، قطع العلاقة النسبيّة، على الرغم من كونه حلقة الوصل بين الماضي والمستقبل، جاء في الآية 6 من سورة الصف على لسانه عليه السلام:"... **مُصدقاً لما بين يديَّ من التوراةِ ومبشراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمهُ أحمد...**" وبذلك قُطعت الصلة النسبيّة وبقيت الصلة الحقيقيّة؛ وهي الأبوة والأمومة والبنوّة والأخوّة في الدين. هذا في المسار الأول الذي بدأهُ يعقوب، عليه السلام. أما المسار الثاني، الذي بدأ بإبراهيم وإسماعيل، فختمه خاتم النبيين، عليهم صلوات الله وسلامه. ويبدو أنّ الختم كان تاماً قاطعاً للنسب أيضاً. ومن هنا وجدنا أنه لم يعش للرسول، صلى الله عليه وسلم ولد ذكر، لينقطع النسب القائم على أساس الولادة، والذي لا فضل لنا فيه ولا اختيار. ويبقى النسب الحقيقي والوراثة الحقيقيّة، القائمة على أساس من الإرادة والاختيار. جاء في الآية 40 من سورة الأحزاب:" **ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسولَ الله وخاتمَ النبيين...**".

جاء في الآية 6 من سورة الأحزاب:" **النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجُهُ أمّهاتُهُم...**"، فالنبي، عليه السلام، أكثر من أب، فهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم. أما زوجاته عليه السلام ففي مقام الأمهات، وبذلك اكتمل النسب. وإبراهيم، عليه السلام، هو الأب الذي أطلق علينا

اسم المسلمين، كما يفعل الآباء عندما يطلقون الأسماء على الأبناء، جاء في الآية **78** من سورة الحج:"... **مِلّةَ أبيكم إبراهيمَ هو سمّاكُم المسلمين من قَبل**...". وعليه يصبح مفهوماً وفي غاية الوضوح قولنا في كل صلاة:" اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم..."، فكما كانت الصلاة منك سبحانك على إبراهيم، عليه السلام، وعلى آله الكرام، فلتكن يا ربنا منك الصلاة كذلك على محمد وعلى كل من آل إليه بتابعيّة واعتقاد. آمين.

أحمد

جاء في **عمدة الحفّاظ**، للسمين الحلبي، أنّ لفظ **(الاسم)** مشتق من السُّمو، وهذا قول البصريين. وقيل من الوسم، وهو قول الكوفيّين. وعليه فالأصل في الاسم أنّه رفعة وعلامة. وتُستخدم الأسماء لتمييز الذوات عن غيرها، ويغلب أن تشير الأسماء إلى صفات، ومن هنا يميل الناس إلى اختيار الأسماء ذات الدلالات الإيجابيّة، وهم يأملون أن يكون للمرء من اسمه نصيب.

المستقرئ للقرآن الكريم يجد أنّ الاسم يدل على صفة، وأسماء الله تعالى تدل على صفاته عزّ وجل. وعليه يكون المعنى في قوله تعالى:" **هل تعلمُ له سَميا**": أي هل تعلم له مثيلا في صفاته. وقد أخطأ من ظن أنّ أسماء الله مجرد أعلام، فقال إنّ معنى " **هل تعلمُ له سميا** ": أي هل تجد من تسمّى باسمه. وهذا غير مقبول، لأن هناك من تسمّى برحمن، ورحيم، وكريم...الخ

جاء في سورة الرعد:" **وجعلوا لله شركاء قُل سمّوهم** "، يقول السمين الحلبي، في عمدة الحفاظ:" ليس المعنى أظهروا أساميها فقولوا : اللات، والعزّى، وهبل، ونحو ذلك، وإنما المعنى أظهروا حقيقة ما يدّعون فيها من الإلهيّة. وإنكم تَجدون تحقيق ذلك فيها؟ " ويقول في قوله

تعالى: **تبارك اسم ربّك:** " أي يتزايد خيرهُ وإنعامه. والمعنى أنّ البركة والنعمة الفائضة في صفاته..."

جاء في سورة الصف: " **ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد...**": أي أنّ صفاته، عليه السلام، تستجلب الحمد في أقوى صوره، وأجلاها، وأفضلها. فهو إذن يُحمدُ أكثر من غيره، لأنّ صفاته تجعله يُحمد من الناس أكثر. أمّا **محمّد**، فدال على كثرة حمد الحامدين إيّاه. وعليه فإذا قصدنا **بالاسم** الصفة الذاتيّة، التي تدفع الناس إلى حمده، عليه السلام، فهو **أحمد**، أمّا إذا نظرنا إلى ردّة فعل الناس عندما يصفونه، عليه السلام، بما يليق بصفاته، فإنّه يكون عندها **محمداً**. فهو، عليه السلام، **أحمد** في ذاته، **ومحمّد ومحمودُ** من قبل الناس.

ونقول بعبارة أخرى : المقدّمات الموجودة في ذاته، عليه السلام، يلخصها اسم أحمد، أمّا النتيجة الموجودة خارج الذات فيعبر عنها اسم محمد.

لقد اشتهر النبي، صلى الله عليه وسلم، قبل الإسلام بأنّه الصادق الأمين، وكانت هذه الشهرة نتيجة لما لمسته قريش من صِدقه وأمانته، عليه السلام، أمّا اليوم، وبعد أكثر من ألفٍ وأربعمائةِ سنة، فإننا نجد أنّ الشخصيّة التي تُمتدح أكثر، وذلك لما يتجلى فيها من صفات حميدة، هي شخصيّة الرسول، عليه السلام، فهو أحمد من غيره من البشر على

مدى التاريخ البشري، وإلى يومنا هذا. فتبشير عيسى، عليه السلام، كان برسول يأتي من بعده، صفته أنّه أحمد من غيره.

بعد كل ما ذكرناه نخلص إلى نتيجة أنّه لا بد لنا من إعادة النظر في التعامل مع الأسماء القرآنيّة. فهل يجوز لنا أن نعتبرها مجرد أعلام تخلو من المعاني والأسرار، وعلى وجه الخصوص عندما تكون التسميات ربانيّة المصدر؟! انظر قوله تعالى :" **اسمه المسيح عيسى ابن مريم** ". ثم انظر قوله تعالى:" **إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميّا** "، وانظر قوله تعالى:" **فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحق يعقوب** ". ويعقوب، عليه السلام، هو أيضاً في القرآن الكريم إسرائيل، كما أنّ يونس، عليه السلام، هو أيضاً ذو النون. وإدريس، عليه السلام – فيما يرجحه بعض المفسرين – هو إلياس، ومحمد، عليه السلام، هو أحمد.

هذه الأسماء وغيرها هي كنوز وأسرار. ونحن نهدف، بمثل هذا الكلام، إلى لفت الانتباه إليها، لتصبح في دائرة اهتمام الدارسين، لأننا وجدنا أنّ الكثير من أسرار هذه الأسماء تتجلّى عند التحقق والمتابعة. ولا بأس بالرجوع إلى اللغات السّاميّة، بعيداً عن علماء التوراة والكتاب المقدس، الذين يُطوّعون اللغة لتوافق تصوّرات كَتبة أسفار العهد القديم، حتى عندما يجمح بهم خيال الأسطورة.

سـورة

القرآن الكريم هو المعجزة الدالة على صدق رسالة الرسول، صلى الله عليه وسلّم، وعلى وجه الخصوص في إعجازه البياني. وقد تحدّى القرآن العرب أن يأتوا بسورة من مثله، ولم يتحدّهم بما هو أقل من سورة. والسُّورة كلٌّ متكامل وتشتمل على ألوان من العلوم والمعارف والتشريعات والآداب ... وغير ذلك. واللافت للانتباه أنّ كلمة **سورة** لم تُذكر في أول خمسين سورة نُزِّلت على الرسول، عليه السلام ؛ فقد جاء التحدي بعشر سور في سورة هود، والتي هي السّورة **52** في ترتيب النزول. أمّا التحدي بسورة واحدة فقد جاء في سورة يونس، والتي هي السورة **51** في ترتيب النزول. وهذا يعني أنّ العرب، في زمن الوحي، قد أَلِفَت معنى قرآن قبل أن تألف معنى سورة. وهناك الكثير من السُّور القصار التي نزلت قبل أن يُسَمِّي القرآن الكريم كل قطعة متكاملة باسم سورة. ويجدر أن نلفت الانتباه هنا إلى أنّ ما يقال في ترتيب نزول السور هو من الأمور الاجتهاديّة المحتملة التي يصعب إثباتها، على خلاف ترتيب المصحف؛ فإنه ترتيب أجمعت عليه الصحابة، والراجح أنّه، توقيفي، أي بفعل الرسول، صلى الله عليه وسلم، وحياً.

السُّورة: مشتقّة من السُّور. ومعلوم أنّ السُّور في القديم كان يحيط بالمدينة، ثم هو يرتفع كثيراً بغرض الحماية والحفظ. وقد يكون معنى الارتفاع في السور ولّد في اللغة بعض معاني سورة، والتي منها، **الدرجة الرفيعة والمنزلة العالية**. يقول النابغة الذبياني في البيت المشهور :

ألم ترَ أنّ الله أعطاك سورةً   ترى كلّ مَلك دونها يتذبذبُ

ومعلوم أنّ بناء السُّور يتمّ دورة فوقها أخرى، حتى يكتمل. ولا يبعد أن تكون السُّورة هي كل **دورة** من هذه الدورات. ويُرَجِّح هذا أنّ بعض علماء اللغة قال إنّ سورة تُجمع على **سُوَر**، وكذلك **سُوْر**. وعليه فإنّ اسم سورة يتضمن معنى **الإحاطة**، ومعنى **السُّمو والرفعة**. ومعنى الإحاطة يتضمن **الاشتمال، والتمييز وتحديد المعالم**؛ فالسُّور يشتمل على المدينة وما فيها، ثم هو يحدد معالمها ويميزها عما سواها. واللافت للانتباه أنّ الآية الكريمة التي تتحدّى البشر أن يأتوا بسورة:" **أم يقولون افتراه، قل فأتوا بسورة مثله، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين**"، يأتي بعدها مباشرة: " بل كذبوا بما **لم يحيطوا** بعلمه..."؛ فسُوَر القرآن الكريم **تحيط بعلوم شتّى، وهي تسمو وترتفع، وهي تحفظ وتقي**. ونحن هنا سنركّز فقط على كون السّورة محدَدة المعالم.

القرآن الكريم **114** سورة، لم تتجاوز أطول سورة فيه **24** صفحة، على اعتبار أنّ كل صفحة تتألف من**260** كلمة، في حين كانت أقصر

سورة تتكون من10 كلمات فقط. وباقي السّور تتراوح بين ذلك. وتتكون كل سورة من عدد من الآيات، بحيث يكون متوسط عدد كلمات الآيات هو 12,4 كلمة. ويغلب أن تَقصُر السّور والآيات التي نزلت في المرحلة المكيّة، والتي ركّزت أكثر على الجانب العقدي. وتطول السّور والآيات التي نزلت في المرحلة المدنيّة، وعلى وجه الخصوص عندما يكون الكلام في الشريعة والأحكام.

ومن هذا نستنتج :

أولاً: عندما نُخاطب الناس في أمور العقيدة فيحسن أن نوجز ونحدد بما يشبه أسلوب الشعارات، بعيداً عن التطويل والإسهاب المستخدم لدى الفلاسفة.

ثانياً: الإكثار من الفُصول، والأبواب، والفقرات، يساعد على الفهم، ويجذب القارئ بشكل أفضل، ويُبرز الأفكار من خلال تحديدها في إطار يفصلها عن غيرها بفاصل محسوس.

ثالثاً: الإطار العام دون تبويب يعطي فكرة كليّة مع شيء من الغموض في الأجزاء والتفاصيل. وأسلوب التسوير، والتقسيم إلى آيات، يساعد كثيراً في إدراك الجزء، فيؤدّى ذلك إلى إدراك الكل بشكل أوضح وفهم أعمق.

رابعاً: هناك علاقات بين السُّور تشبه العلاقة بين كلّ دورة وأخرى في بناء السور حتى يكتمل. ولا يسهل إدراك العلاقة بين سورتين متلازمتين في المصحف حتى ندرك معاني كلّ واحدة منهما. والمفسّر المتمرس في معاني القرآن الكريم بكامله هو الأقدر على إدراك العلاقات بين السّور والآيات. ومن هنا نجد أنّ علم التناسب بين الآيات والسُّور جاء متأخراً عن علم التفسير.

سليمان عليه السلام

تكرر اسم **سليمان**، عليه السّلام، في القرآن الكريم **17** مرّة، واللافت للانتباه أنّ القرآن الكريم لم ينص على أيّة علاقة لسليمان، عليه السلام، ببني إسرائيل، ولا بد من دلالة لهذا السكوت. نعم، فالقرآن الكريم قد نصّ على نبوّة سليمان، عليه السلام، وكونه ملكاً، ولكنّه لم يذكر شيئاً عن قومه، ولا عن الأقوام والأمم التي تبعته وآمنت به، عليه السلام، وانضوت تحت لوائه، فكانت من رعاياه. بل إنّ في قصة ملكة سبأ لدلالة واضحة على اتساع ملكه وتعدد الأمم التي استجابت لدعوته. فلم يكن، عليه السلام، ملكاً لليهود، كما يعتقد الكثير من الناس متأثرين في ذلك بكتب العهد القديم.

ورد ذكر سليمان، عليه السلام، باستفاضة في سفر الملوك الأول، والذي يقال إنّه قد دوّن في القرن السادس قبل الميلاد، في حين يقال إنّ سليمان، عليه السلام، قد مات في القرن العاشر قبل الميلاد. ووردت قصته مُفصّلة أيضاً في سفر أخبار الأيام الثاني، والذي يقال إنّه قد دوّن في القرن الخامس قبل الميلاد. ولا يستطيع المسلم أن يصدّق الكثير مما ورد في هذه الأسفار؛ فصورة سليمان، عليه السلام، في القرآن الكريم في غاية السمو والجمال، أمّا هذه الأسفار فتزعم أنه –

وحاشاه– قد عبد الأصنام إرضاءً لزوجاته الوثنيّات. انظر هذا النص من سفر الملوك الأول: " فغضب الربُّ على سليمان، لأنّ قلبه ضلّ عنه، مع أنّه تجلّى له مرتين، ونهاه عن الغواية وراء آلهة أخرى، فلم يطع وصيته، لهذا قال الله لسليمان: لأنّك انحرفت عني ونكثت عهدي، ولم تطع فرائضي التي أوصيتك بها، فإني حتماً أمزّق أوصال مملكتك، وأعطيها لأحد عبيدك، إلا أنني لا أفعل هذا في أيّامك...". أمّا صورته عليه السلام في القرآن الكريم فيكفيك ما جاء في سورة ص:" **ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنّه أوّاب** ".

يبدو أنّ ملك سليمان، عليه السلام، كان يشمل عدداً من الأمم التي اتبعت دينه الحق، وانضوت تحت لوائه، وهذا ما جعل المنحرفين من بني إسرائيل يحقدون على هذا النبي الصالح، لأنهم يريدونها مملكة عنصريّة، تجعل من اليهود سادة يُسخّرون الشعوب لخدمتهم، ثم هم يريدونها يهوديّة تتناقض مع نبوة سليمان وإسلامه لله:" **وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين** ". فليس غريباً إذن أن يشوّه اليهود سيرة هذا النبي الصالح، ويصبّوا عليه جام غضبهم، حتى عندما كتبوا قصّته بعد وفاته بخمسمائة سنة. ومن يتدبر النص الذي اقتبسناه من سفر الملوك الأول يلاحظ أنّهم يحقدون عليه وينقمون من فترة ملكه، ويجعلون الرّب غاضباً منه، ومقرراً أن يدمّر هذا المُلك. وإذا صحّ ما ورد في أخبار الملوك الثاني الآتي، فإنّ الأمر يصبح واضحاً؛ فهذا سليمان، عليه

السلام، قد أذلّهم، وكذلك فعل ابنه رَحُبعام من بعده. ويصبح الأمر أشدّ وضوحاً عندما نعلم أنّهم قد شقّوا الدولة بعد وفاته، عليه السلام، بأيّام.

تدبّر هذا النص الوارد في أخبار الملوك الثاني، والذي إن صحّ يكون دليلاً آخر على أنّ سليمان، عليه السلام، لم يكن ملكاً لليهود فقط، بل هو نبي صالح وملك عادل، يحارب العنصريّة ويقمع المنحرفين:" فجاء يَربعام وكل جماعة إسرائيل وقالوا لرحبعام بن سليمان:"إنّ أباك قد أثقل النّير علينا، فخفف أنت الآن من عبء عبوديّة أبيك وثقل نيره الذي وضعه علينا فنخدمك. فأجابهم بعد أيّام قائلاً: أبي أثقل عليكم النير وأنا أزيد عليه. أبي أدّبكم بالسياط وأنا أؤدّبكم بالعقارب". فكان أن تمرّدوا، وشقّوا عصا الطاعة، وشقّوا الدولة. ويبدو أنّ ذلك كان بداية فسادهم وعلوهم، المنصوص عليه في القرآن الكريم: " **لتُفسِدُنّ في الأرض مرّتين...**"، فقد أرادوها عنصريّة غاشمة، ويهوديّة متسلطة، وكان منهم ما أرادوا، فتحقق فيهم وعد الله الأول. وفي القرن العشرين كان مكرهم الثاني، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

الزبـور

ورد فـي السنّة الصـحيحة أنّ الله، سـبحانه وتعـالى، أنـزل التـوراة علـى موسـى، عليـه السّـلام. ولكـن اللافـت للانتبـاه أنّ القـرآن الكـريم لـم يـنص صـراحة علـى ذلـك. ومعلـوم أنّ الله تعـالى أنـزل الإنجيـل علـى عيسـى، عليـه السـلام، وقـد نـص القرآن الكـريم علـى ذلـك. والمشـهور أنّ الله تعـالى قـد أنـزل **الزبـور** علـى داود، عليـه السـلام، فهـل نـص القـرآن الكريم على ذلك ؟!

المسـتقرئ لآيـات الله الكريمـة يجـد أنّ القـرآن الكـريم قـد نـص فـي موضـعين فقـط علـى أنّ الله تعـالى آتـى داود، عليـه السـلام، **زبـوراً**، ولـم ينص على إيتائه **الزبور**. جاء في الآية **163** من سورة النسـاء: " **وآتينـا داود زبوراً** ". وجـاء فـي الآيـة **55** من سورة الإسراء: " **وآتينـا داود زبـوراً** ". أمّا قولـه تعالى في سورة الأنبيـاء: " **ولقـد كتبنـا فـي الزبـور مـن بعـد الذِّكر أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون** ". فلا دليل على أنّ المقصـود هنـا زبـور داود، عليـه السـلام. ومـن يرجـع إلـى كتـب التفسـير يلاحـظ اختلاف المفسرين حول المقصود بالزبور في سورة الأنبياء.

قال تعالى في الآيـة **25** من سورة فاطر: " **وإنْ يكذبوك فقد كذّب الذين من قبلهم، جـاءتهم رسـلهم بالبينـات وبـالزُّبر وبالكتـاب المنيـر** ".

نستفيد من هذه الآية الكريمة أنّ **الزُّبر**، والتي هي جمع زبور، نزلت على الرسل. ويستفاد أيضاً أنّ الزبر تحمل معنى يختلف عن معنى الكتب. وقد نص العلماء على أنّ الزبور هو الكتاب، وأنّ الزُبُر هي الكتب. وهذا صحيح، لأن **الزُبُر** هي فعلاً كتب نزلت وحياً على الرسل، ولو كانت الزبر لغةً ترادف في معناها الكتب لاستشكلنا قوله تعالى: " **وبالزُّبر وبالكتاب المنير** ". من هنا قد يجدر بنا أن نبحث عن معنى الزبر في القرآن الكريم.

جاء في الآية **53** من سورة المؤمنين: " **فتقطّعوا أمرهم بينهم زُبُرا، كل حزب بما لديهم فرحون** ". وجاء في الآية **96** من سورة الكهف: " **آتوني زُبَرَ الحديد**... ". أي: قِطع الحديد. وهذا يعني أنّ **الزَّبْر:** هو التقطيع، وأنّ **الزُبرة:** هي القطعة، وجمعها **زُبَر**. وعليه يمكن أن نقول إنّ **الزبور:** هو كتاب اقتطع من غيره من الكتب، أي أنّ هناك احتمالاً أن يكون الزبور جزءاً من كتاب ربّاني سبق نزوله، أو جزءاً من كتاب سينزل، فكان الكلُّ كتاباً، والجزءُ قطعةً أي: **زبوراً**.

الخلاف بين أهل السنّة والجماعة، وبين المعتزلة، في القول بخلق القرآن مشهور، ومعلوم أنّ أهل السنّة والجماعة يرون أنّ القرآن الكريم هو من كلام الله تعالى، والكلام صفة المتكلم، والمتكلم أزلي غير مخلوق. وعليه يكون القرآن أزليا غير مخلوق. وهذه مسألة يجدر بنا ألا نثيرها، في عصر تجاوز فيه الإنسان المسلم هذه الجدليّات، ولكن دفعنا إلى هذه الإشارة الرغبة في التذكير بأنّ القرآن الكريم هو في اللوح

المحفوظ قبل نزوله على الرسول، صلى الله عليه وسلّم: " **إنّه لقرآن كريم في كتاب مكنون** ...". وهذا يعني أنّ الأسبقية التاريخيّة في النزول لا تدل على الأسبقيّة في اللوح المحفوظ، وأنّ أسبقيّة النزول لا تعني أسبقية الكتابة. وبهذا الفهم قد يزول بعض الإشكال في فهمنا لقوله تعالى من سورة الأنبياء: " **ولقد كتبنا في الزّبور من بعد الذّكر** ...". فمعلوم أنّ **الذّكر** مُعرَّفا في القرآن الكريم لم يرد صريحا في أيٍّ من الكتب المنزّلة سوى القرآن الكريم.

جاء في الآيات: **(192–196)** من سورة الشعراء: " **وإنّهُ لتنزيلُ ربّ العالمين، نزلَ به الروحُ الأمينُ، على قلبكَ لتكونَ من المُنذِرين، بلسانٍ عربيٍّ مبين، وإنّهُ لفي زُبُرِ الأولين** ". فكيف يكون القرآن الكريم في كتب الأولين ؟! هل المقصود أنّ الكتب السابقة قد بشّرت بنزول القرآن الكريم، أم أنّ المقصود هو معاني القرآن الكريم دون الألفاظ، أم أنّ المقصود المعاني والألفاظ جميعاً ؟

هذه مسألة خاض فيها العلماء، والذي قصدنا إليه من هذا المقال أن نلفت الانتباه إلى احتمال أن يكون قد تنزّل بعض القرآن في كتب الرسل السابقين، فأوتيَ كل رسول جزءاً، أي **زبوراً**، حتى جاء الوقت المعلوم لنزول القرآن الكريم كاملاً للبشرية جمعاء. ويصبح الأمر مستحقاً للبحث عندما نقرأ الحديث الصحيح الوارد في البخاري: " **خُفّف على داود القرآن، فكان يأمرُ بدوابّه فتُسرّج، فيقرأ القرآنَ من قبل أن تُسرج دوابه** ...".

خُتِمت سورة الأعلى بقوله تعالى: " **إنّ هذا لفي الصُحُفِ الأولى، صُحُفِ إبراهيمَ وموسى** ". والأصل أن نأخذ بظاهر النص فنقول: إنّ ما ذُكر في السورة الكريمة كان قد تنزّل في صحف إبراهيم وموسى، عليهما السلام. ويعزز هذا ما جاء في سورة النجم، ابتداء من الآية 36: " **أم لم يُنبّأ بما في صُحفِ موسى، وإبراهيمَ الذي وفّى...** ". وإذا أردتَ أن تعلم ما جاء في هذه الصحف فاقرأ الآيات الكريمة حتى نهاية السورة.

وهذا الاحتمال الذي أوردناه في معنى الزبور يبدو لأول وهلة مخالفاً لما صحّ من قول الرسول عليه السلام:" **والذي نفسي بيده، ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلها؛ إنّها السبع المثاني**"، أي سورة الفاتحة. ولا مانع أن يذكر الخاص قبل العام، كقولنا لا يوجد من هو خيرٌ من محمد، لا في العرب ولا في البشر. ويعزز هذا الفهم وُرود لفظة الزبور قبل لفظة الفرقان مباشرة. ولو كان الزبور كتاباً لداود عليه السلام دون غيره من الأنبياء لكان الأنسب أن يُذكر الزبور بعد التوراة مراعاة للترتيب الزمني.

الصّرح

جاء في بعض كتب اللغة أنّ **الصّرح:** هو القصر، وكل بناء عالٍ مشرف. ولكن لماذا سُمي القصرُ قصراً، ولماذا سمي البناء المشرف صرحاً ؟. يبدو أنّ الصّرح مأخوذ من **الصراحة**، والتي هي خلوصٌ من الشوائب. والصراحة فيها وضوح. وإذا صرّح الإنسان بالشيء فقد كشفه وأظهره. ونظراً لوضوح القصر والبناء العالي في الحسّ سمي صرحاً. من هنا لا ينحصر مُسمّى الصرح في البناء العالي المشرف، ولا ينحصر في البناء الضخم الظاهر في الحس. وقد وردت كلمة الصرح في القرآن الكريم أربع مرّات؛ في سورة النمل عند الحديث عن سليمان، عليه السلام، وملكة سبأ، وفي سورة القصص وغافر.

جاء في سورة القصص على لسان فرعون: " **فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ** ". وقد تكرر هذا الطلب في سورة غافر:" **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأسْبَاب، أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً**..." هل بلغت السذاجة بفرعون أن يطلب بناءً عالياً يرقاه لينظر ويتحقق من وجود إله موسى؟! وهل يَتصوّر فرعون أنّ المستمعين لهُ من الملأ بهذه السذاجة أيضاً؟! ما الذي يمنع أن يكون ما يطلبه فرعون أكثر جدّيّة مما يتبادر إلى الذهن؟ ثم لماذا

يبني فرعون هذا الصّرح من طينٍ يُطبخ، وهناك ما هو أفضل من الطين لبناء صرحٍ ضخم يتطاول في السماء؟! فلماذا لا يكون هذا الصرح من الحجارة، وقد عرف الفراعنة بناء الأهرامات الضخمة؟! ثم ألم يصعد فرعون في حياته الجبال العالية ليدرك أنّ أعلى بناء يمكنهم تشييده هو أقل ارتفاعاً من جبل صغير ؟!

من يدرس تاريخ الفراعنة يجد أنّ لهم السبق في تحديد السنة الشمسية بمقدار **365** يوما، وتقسيم السنة إلى **12** شهراً، والشهر **30** يوما، واليوم **24** ساعة. بل إنّ بناء الأهرامات له علاقة بأبعاد فلكيّة، وقد بلغت الدّقة الهندسية لديهم بحيث أنّ الشمس تدخل الغرفة الملكيّة مرّة في العام، وذلك في اليوم المحدد والساعة المحددة. من هنا ندرك أنّ فرعون كان يريد بناء **مرصد** يساعده في فهم حقائق البناء السّماوي. ويبدو أنّ استخدام الزجاج في هذه المراصد كان هو الأساس في عمل المرصد، كما هو مفترض. على ضوء ذلك نفهم طلب فرعون: " **فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً**..". فالأقرب إلى التّصور الجادّ أنّه يريد صناعة الزجاج، لبناء مرصد، فهو لا يحتاج إلى بناء عال ليرتقيه، فلديه الأهرامات التي بُنِيت قبل عصره. ومعلوم تاريخيّاً أنّ الفراعنة قد عرفوا المراصد، وراقبوا السماء، وبلغوا في ذلك مبلغاً.

أمّا آية سورة غافر: " **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَاب، أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى**..". فالمتصوّر أن يكون هذا في عالم الرصد والمراصد أكثر مما يُتصوّر في عالم الارتقاء إلى أعلى، وعلى وجه الخصوص عندما نعلم أنّ الأمم

القديمة قبل الميلاد كان لها سبق في علم الفلك. وقد كانوا يعتقدون أنّ للأفلاك تأثيراً وتَحكُّماً، حتى في مصائر البشر. وبالتالي فإنّ العلل والأسباب الحقيقيّة عندهم هي في عالم الفلك. وفرعون هنا يريد أن يبلغ عالم الأسباب هذا ليطلّ منه بزعمه على حقائق الكون، ومنها حقيقة أنّ موسى، عليه السلام، هو رسول من الله. وهو بذلك يستخدم علم **التنجيم** لينفي أن يكون موسى، عليه السلام، مرسلاً من ربه. وقد لمّح فرعون إلى ذلك بقوله: " **وإني لأظنّه كاذباً**". وعدم جزم فرعون هنا من أجل أن يظهر نفسه بمظهر الإنسان الموضوعي، الذي يبحث عن الدليل والبرهان.

إذا صحّ فهمنا هذا، فإنّ ذلك يدعونا إلى إعادة النظر في فهم كلمة الصّرح التي وردت في سورة النمل؛ فقد كانت ملكة سبأ ممن يعبدون الشمس، كما صرّحت الآيات الكريمة، وهذا يشير إلى احتمال أنّهم كانوا يهتمّون بالفلك أيضا. لقد وجدنا ملكة سبأ تصرّ على دينها، حتى عندما تجلّت أمامها معجزة إحضار العرش، فكان لا بد من مناقشتها في عقيدتها، وتعريفها بحقيقة الشمس والأفلاك التي تعبدها. من هنا يحتمل أن يكون دخولها الصرح هو دخولٌ للمرصد الزجاجي الضخم، من أجل تعريفها بواقع الأفلاك، ومناقشتها في عقيدتها؛ فهي مُهيّأة لمثل هذا العلم: " **قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِير..**". نعم فهو من زجاج مُملس، وهو شفّاف وخالص من الشوائب، فهو إذن صرح، وهو أيضاً قوارير. ويبدو أنّ عظمة هذا المرصد تتجلّى في انعكاس الأجرام

السماويّة في قاعدته الزجاجيّة، وظهر ذلك في ردّة فعل ملكة سبأ، عندما كشفت عن ساقيها. ولا ندري كم استغرق من الوقت وجود ملكة سبأ داخل المرصد، ولكن يبدو أنّ هذا التواجد هو الذي جعلها تُعلن إسلامها: " **قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**". ويبدو أنّه قد تمّ تعريفها بحقيقة عالم الأفلاك، التي كانت تعبد من دون الله. ولا شك أنّ النقلة في المعارف تساعد على النقلة العقديّة. وتسمية المرصد صرحاً مفهوم إذا عرفنا أنّ المرصد: **يكشف، ويُجلّي، ويُظهر**، ثم إنّ عدساته وملحقاتها مصنوعة من **الزجاج الخالص الصريح**، ثم هو يُبنى **في مكان عالٍ ومشرف.**

الصافنات الجياد

جاء في سورة ص: " **ووهبنا لداود سليمان، نعم العبدُ إنه أوّاب، إذ عُرض عليه بالعَشي الصافناتُ الجياد**...".

تصف الآية الكريمة الخيل بأنّها صافنات، وبأنّها جياد. واللافت أنّ الصفة الثانية هي نقيض للصفة الأولى؛ فمعلوم أنّ الخيل عند راحتها تكون قائمة لا تتحرك، بل تنام وقوفا، وصمتها فيه هدوء ووقار. فأنت تعجب من هذا الحيوان الذي يمضي حياته واقفاً، وتعجب كيف ينام واقفاً، وتعجب كيف لا يرهقه الوقوف! ويزول العجب عندما نعلم أنّ القانون في خلق الخيل، يختلف عنه في خلق الإنسان، وخلق الكثير من الحيوانات التي تنام مستلقية، فراحة الحصان في وقوفه، والهدوء العميق لهذا الكائن، وصمتُهُ ووقاره، كل ذلك هي المقدّمات الضروريّة التي تُفجّر حيويّته ونشاطه.

نعم إنّه الجواد الذي يجودُ بالحركة، ويفيضُ بالنشاط. ويندر أن نجد في الحيوانات حيواناً يماثله في هذه المتناقضات؛ فهو الساكنُ المتحرك، والصامتُ المتفجّر.

آية في سورة **ص**، جاءت عقب الآيات سالفة الذكر، لا تزال لغزاً على الرُّغم من أقوال المفسرين الكثيرة فيها: " **ولقد فتنا سليمانَ وألقينا على كُرسيّه جسداً ثمّ أناب**". وليس هذا مقام الإفاضة في تفسيرها، وأكثر ما جاء فيها من تفسير لا يستند إلى دليل معتبر. وقد يكون الأقرب إلى الصواب أن نقول: بأنّ الجسد الذي حلّ في كرسيّ المُلْك هو سليمان، عليه السلام. وقُلنا (حلّ) لأننا وجدناها أليق بمقام سليمان، عليه السلام. ومن لطائف القرآن الكريم أن يقول سبحانه وتعالى: " **وألقينا على كرسيّه**"، ولم يقل: " **وألقيناه على كرسيّه**". هذا إذا كان المقصود سليمان، عليه السلام؛ لأنّ كلمة **ألقيناه** توهم النبذ، على خلاف ألقينا. والذي يبدو لنا راجحاً هو احتمال أن يكون سليمان، عليه السلام، قد أصيب بمرض أقعده عن الحركة، أو تحول إلى جسد ساكنٍ لا حراك فيه، واستمر على هذه الحال مدّة من الزمن، ثم شفاهُ الله وعافاهُ مما حلّ به، عليه السلام. وقد يعزز هذا القول أنّ الآيات التي تلي هذه القصّة جاءت على ذكر أيوب، عليه السّلام، وما حلّ به من بلاء: " **واذكر عبدنا أيّوب إذ نادى ربّهُ أنّي مَسَّنِيَ الشيطانُ بنُصْبٍ وعذاب** ". ويعززهُ أيضاً قوله تعالى: " **ثمّ أناب** "، لأنّ من معانيه أنّهُ رجع إلى حالة الصّحّة والمعافاة. واستخدام ثُمّ التي هي للتراخي يؤيّد ذلك؛ لأنّ سرعة الإنابة، التي فيها معنى التّوبة، هي من مستلزمات صفة الأوّاب التي وصف بها سليمان، عليه السلام. وهذا يعني أنّ الإنابة هنا لا علاقة لها بالرجوع إلى الله، بل الرجوع إلى الصّحة والمعافاة بعد وقتٍ فيه طول.

المدّة الزمنية التي يُحتمل أن يكون سليمان، عليه السلام، قضاها فاقداً للقدرة على الحركة، والقدرة على إدارة شؤون الدولة، لا بُدّ أن تكون فرصة للتدبّر والتأمّل، وإعادة النظر في أمر المُلْك والسلطان، والنظر فيما يمكن أن يفعله الحاكم الذي يملك الجاه والسلطان والقوّة. ويمكننا أن نتصوّر الأماني والأمنيات التي تجول في خاطر من فقد القدرة على الإدارة والحكم، وهو لا يزال على كرسيّه سلطاناً معترفاً به. إنّ هذه اللحظات الجليلة تجعل المرء يدرك أنّ الحَوْل والطَوْل كله لله. ومن يمرّ من الصالحين بمثل بهذه التجربة لا يمكن أن يغترّ بالقوّة والسلطان، وعلى وجه الخصوص عندما يكون أواباً منيباً لله تعالى.

من يقرأ الآيات التي تلي هذه الآية يجدها مفعمة بالحركة، والقوة، والتسخير، والعطاء الوفير. ويجد سلطاناً يُعطى من كل شيء، ثم هو لا يحاسب: "**هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب**". والمتدبر للآيات يجد أنّ سليمان، عليه السلام، قد انتقل من النقيض إلى النقيض، تماماً كحالة الصافنات الجياد؛ فسكون تلك الصافنات هو المقدمة الضروريّة للحيويّة المتفجرة، والحركة الفعّالة. وقد لاحظنا هذا في حالة سليمان، عليه السلام، بعد شفائه من مرضه؛ فقد أصبح سلطاناً يوظّفُ كل ما سُخّر له من أجل رعيته، ومن أجل الحقيقة التي يؤمن بها. وقد بلغ عهده في الحضارة والمدنيّة الأوج، إلى درجة أن نجد الأمم التي جاءت من بعده تنسب كل شيء خارق وعظيم إلى عصره، عليه السّلام. فإذا كانت حالة الصفون في الخيل هي المقدّمة الضروريّة لحالة الجَود، فإنّ

حالـة سـليمان، عليـه السـلام، فـي سـكونه علـى كرسـيّهِ كانـت المقدّمـة لإطلاق طاقاته الفاعلة، الموهوبة له من الله تعالى، لإحداث نقلة عظيمة في حياة البشر، وتكون على يديه، عليه السلام، تكريماً له.

الإيمان

الإيمان هو التصديق، ولكنه التصديق الذي معه أَمْن. والإيمان في الدين يحقق الأمن الفردي والجماعي، الدنيوي والأخروي. وأنّى لغير المؤمن أن يحس بالأمن؟! لقد استعاض العلماء في فترة ما عن هذه اللفظة **الإيمان** بلفظة **العقيدة** والتي تدل على الجزم في التصديق. وتبقى لفظة **الإيمان** هي اللفظة التي نصّ عليها القرآن الكريم، والسنّة الشريفة.

يأخذ الإنسان المعرفة إمّا عن طريق **العقل**؛ كالمبادئ الرياضيّة. وإمّا عن طريق **الحسّ**؛ كالألوان. وإمّا عن طريق **الخبر الصادق**؛ كالمعارف التاريخيّة، والوحي الرّباني. ولا يوجد طريق رابع معروف لأخذ المعرفة. أمّا الإلهام والرؤى الصادقة فهي من الخبر الصادق. ويمكن إرجاع ما يُسمّى بالتّخاطُر إلى حاسّة مجهولة في الإنسان.

وإذا ما استعرضنا أركان الإيمان في الإسلام نجد أنّ ركن الإيمان بالله تعالى يثبت عن طريق العقل فقط. وأمّا ركن الإيمان بالملائكة فثبت عن طريق الخبر الصادق (الوحي). وأمّا ركن الإيمان بالكتب فثبت عن طريق العقل، إذا كان المقصود القرآن الكريم، أمّا إيمان المسلم بالتوراة والإنجيل فيكون عن طريق الخبر الصادق، وكذلك الأمر في ركن الإيمان بالرسل؛ فإذا كان المقصود الإيمان برسالة محمد، صلى الله

عليه وسلّم، فلا يكون ذلك إلا عن طريق العقل، ومن هنا كانت المعجزة. وأمّا إذا كان قصدنا الإيمان بباقي الرسل فيكون ذلك عن طريق الخبر الصادق، والذي هو هنا الوحي الثابت بالعقل. أمّا ركن الإيمان باليوم الآخِر، وركن القضاء والقدر، فيثبتان عن طريق الخبر الصادق.

على ضوء ما سلف نجد أنّ أركان الإيمان في الإسلام لا تثبت إلا من طريقين؛ العقل، والخبر الصادق. أمّا الحس فليس من طرق إثبات القضايا الإيمانيّة، لأنّ الإيمان يتعلق بالمسائل الغيبيّة، ولا يتعلق بالمحسوسات؛ فالمعارف التي تؤخذ عن طريق الحس لا يتعلق بها إيمان. فلا نقول: نؤمن بوجود اللون الأحمر، مثلا. ولا نقول نؤمن بأنّ النار تحرق، وبأنّ الماء يروي ...الخ. وبذلك يتبين لنا خطأ من ينكر بعض القضايا الإيمانيّة بذريعة أنها غير محسوسة، لأنّ الحس هو طريق من ثلاث طرق تؤخذ بواسطتها المعرفة، وكل طريق يقودنا إلى معرفة تختلف تماماً عن المعارف التي تقودنا إليها الطرق الأخرى. فمعلوم أنّه يستحيل على الأعمى، مثلاً، أن يدرك حقيقة الألوان، ولكنه يؤمن بوجودها عن طريق الخبر الصادق. فالألوان بالنسبة للمبصر هي قضية حسيّة غير إيمانيّة، وهي بالنسبة للأعمى قضية إيمانيّة غير حسّية.

عُرّف الإيمان الديني بأنّه: **ما وقر في القلب وصدّقه العمل**. وبهذا يظهر الفرق بين الإيمان الفلسفي والإيمان الديني؛ فالإيمان الفلسفي لا

يستلزم سلوكاً، ولا يوجب التزاماً، أمّا الإيمان الديني فلا يصح حتى ينعكس سلوكاً. فالدين لا يقبل أن يكون الإيمان ترفاً فكريّاً، بل إنّ الإيمان الذي لا يصدقه عمل يوشك أن يموت؛ فالفكرة كالجسد إذا لم تعمل تموت. ومن هنا ليس عجيباً أن نجد في الواقع أنّ أشدَّ الناس إيماناً هو أشدّهم التزاماً، وأنّ قوة الإيمان تتجلى في الذين يتحركون بالفكرة.

الغيب 1

الغيـب: هو كل ما غاب عن الحسّ، أو غاب عن العقل. وفي الوقت الذي يصبح فيه الشيء الغائب محسوساً، أو مُدرَكاً بالعقل، فإنه لا يعود بعدها غيباً. وما يغيب عن الإنسان قد يكون من أمور الماضي، وقد يكون من أمور الحاضر، وقد يكون من أمور المستقبل. وقد فطر الله تعالى الإنسان على حبّ معرفة الغيب، فهو يسعى دائماً إلى كشف أستار الغيوب. ومن الممكن أن نُرجع تطور المعارف والعلوم إلى شوق الإنسان الدائم إلى معرفة ما غاب عن حِسّهِ أو عقله. وقد يدفعه هذا الشوق الجامح إلى سلوك بعض الطرق العابثة، والتي تُهدر وقته وجهده، وتضره ولا تنفعه. من هنا وجدنا أنّ الدين يُحرّم العرافة والكهانة، والشعوذة، لأنها تَصْرِف الإنسان عن الطرق الصحيحة لمعرفة الغيب.

لا يدّخر الإنسان جهداً في اتخاذ الوسائل المختلفة الموصلة إلى معرفة الغيب، وفي الوقت الذي ينجح فيه في كشف أستار غيبٍ ما، يتحوّل هذا الغيب إلى شهادة، ولا يعود غيباً بالنسبة له، وإن كان لا يزال غيباً بالنسبة إلى غيره من الناس. وسيبقى الإنسان يتوسّل بعالم الشهادة للاطلاع على عالم الغيب، في مسيرة لا تتوقف حتى تنتهي خلافته على الأرض. ولا يقتصر عالم الشهادة على المحسوسات، بل إنّ ما يثبت **بالعقل** هو أيضاً من عالم الشهادة، وعليه فإنّ وجود الخالق،

سبحانه وتعالى، هو من عالم الشهادة، وليس من عالم الغيب. وقد يكون هذا من بعض أسرار شهادة أن لا إله إلا الله.

يمكن للإنسان أن يتعرف على ما يغيب عنه عن طريق الحس، أو عن طريق العقل، أو عن طريق الخبر الصادق. وعندما نصف الخبر بأنّه صادق فإننا نقصد بذلك أنّه قام الدليل العقلي على صدق هذا الخبر. من هنا تتفاوت الأخبار في درجة صِدقيتها، وعلى ضوء هذا التفاوت يتفاوت التصديق قوّةً وضعفاً. فعلى سبيل المثال: هناك الحديث الضعيف، والحسن، والصحيح، والمتواتر. فما جاءنا عن طريق الحديث الحسن لا يكون في قوة ما جاء عن طريق الحديث الصحيح، وما جاء عن طريق الحديث المتواتر فهو القطعي في ثبوته. والتواتر مسألة عقليّة، وليست مسألة شرعيّة.

كل الناس يؤمنون بالغيب، فما معنى أن يُثني الله تعالى، في كتابه العزيز، على المتقين أنهم:" **يؤمنون بالغيب**" ؟ وللإجابة عن هذا السؤال نقول: إذا قام الدليل العقلي على صدق النبي فيما يُبلّغ عن ربّه، فإنّ المؤمن عندها يُصدّق ما جاء به النبي من أخبار تتعلق بعالم الغيب، حتى وإن كان الحسّ والعقل عاجزين عن إدراك هذا الغيب، لأنّ صدق المُخبر يغني عن ذلك.

يقول تعالى في الآية **26** من سورة الجن: "**عالمُ الغيبِ فلا يُظهر على غيبهِ أحداً، إلا من ارتضى من رسول**..." إنّ الله تعالى لا يغيب

عنه شيء، فعلمه مطلق. وعليه فما دلالة إضافة الغيب إليه سبحانه وتعالى؟ تشير الآية الكريمة إلى غيب أراد الله تعالى أن يُغيّبه عن المخلوقات، وهذا يعني أنّ هناك غيوباً يمكن للخلق أن يُحيطوا بها إذا ما توصّلوا إليها بالحسّ، أو بالعقل، أو بالخبر الصادق. وإنّ هناك غيوباً لم يأذن سبحانه وتعالى بعلمها لأحد من المخلوقات. وقد يُستثنى من ذلك بعض الرسل والرسالات. فغيبهُ سبحانه وتعالى ليس كل ما غاب عنّا، بل هو ما استأثرَ بعلمه دون خَلقِه. وهذا يعني أنه قد يكون بإمكاننا أن نطّلع على بعض الغيوب إذا ما تدبّرنا القرآن الكريم، الذي فيه خبر **ما** قبلنا، وعلم **ما** بعدنا.

وأخيراً نسأل: هل حُرِم الناس من الاطلاع على الغيب بختم النبوَات والرسالات؟ نقول: لا، لم يُحْرموا؛ فالرؤيا الصادقة هي نوع من إطلاع الإنسان على الغيب، وكذلك الإلهام. ولكن هذا لا يتعلق بالغيب الذي شاء الله أن يُغيّبه (غيبه)، بل هو مما أراد أن يُظهره. أما ما أراد أن يُغيّبه، فقد شاء سبحانه وتعالى أن يجعل الوحي هو الطريق الوحيد للإطلال عليه. وعليه فهناك غيب يمكن الاطلاع عليه بواسطة الحسّ، أو العقل، أو الخبر الصادق، ومنه الإلهام والرؤى. وهناك غيب لا طريق إليه إلا بتدبّر الرسالة الإلهيّة، المتمثلة بالقرآن والسنّة.

الغيب 2

نزلت سورة الإسراء قبل الهجرة بسنة. وجاءت الآية الأولى من السورة لتتحدث عن حادثة الإسراء بالرسول، صلى الله عليه وسلم، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله. ويدهشك أنّ الآيات التي تلي تتحدث في بعدٍ غيبي يتعلق بمسألة ستأتي بعد قرون، ألا وهي القضيّة الفلسطينيّة، وهذا يعني أنّ هذا الصراع المستقبلي سيشكّل في حينهِ حدثا في غاية الأهميّة بالنسبة للبشريّة. ولا ننسى أنّ فلسطين هي الأرض التي بارك الله فيها للعالمين، كما جاء في سورة الأنبياء:" **ونجّيناهُ ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين**".

جاء في الآية الثالثة من سورة الإسراء:" **ذريّة من حملنا مع نوح إنّه كان عبداً شكوراً** ". وقد جاء في القرآن الكريم أنّ كلّ من حُمِل مع نوح، عليه السلام، كان مؤمناً. وعليه، فما هي الإشارات التي تحملها عبارة:" **ذُريّة من حملنا مع نوح**..."، ولماذا لم تكن:" ذُريّة **من آمن** مع نوح "؟!

يمكن للمفسّر أن يذهب في ذلك مذاهب شتّى، ويبقى كلام الله فوق كلام كل حكيم. ولكننا هنا ندلي برأي له ارتباط بواقع الناس المعاصر؛ فنوح، عليه السلام، بنى السفينة بأمر الله ووحيه، كما جاء في سورة هود:" **واصنع الفلك بأعيننا ووحينا**"، ويبدو أنّ المكان الذي صُنعت فيه السفينة كان بعيداً عن البحر، ويبدو أنّ كل ما يحيط

بالمكـان يجعـل بنـاء نـوح، عليـه السـلام، للسـفينة أمـراً مسـتغرباً داعيـاً للاستهزاء. جاء في سورة هود:" **ويصنـع الفلـك وكلّما مرّ عليـه مـلأ من قومـه سخِروا منـه**"، وهذا أمر مفهوم، فهم لا يملكون البعد الغيبي ليدركوا الحكمة من بناء السفينة في ذلك المكان. وأنّى لهم ذلك وعقيدتهم الوثنية ترهن عقولهم للواقع المحسوس.

واليـوم نجـد أنّ الأحـداث فـي العـالم تتسـارع، والعواصـف، التـي تعصف بالناس، تجعل الكثيرين في حالـة من الحيرة. وقد يصـل البعض إلى حالة اليأس والإحباط، وعلى وجه الخصوص أولئك الذين لا يملكون البعد الغيبـي الـذي تنـزّلت بـه الرسـالات؛ فالعقيدة الماديّـة تأسرُ صـاحبها فـي سـجن عـالم الشـهادة الآنـيّ، ومـن هنـا تكـون الأحكـام والمواقـف والقناعات متأثرة بثقل وطأة الواقع المحسوس.

عنـدما أسـقطت أمريكـا حكـم مُصَـدَّق فـي إيـران، وذلـك فـي الخمسينات من القرن العشرين، وأعادت الشاه إلى عرشـه الملكـي، كـان ذلـك فـي حينـه نجاحـاً ظـاهراً. لكـنّ أحـداث العـام **1979**م، ومـا بعـدها، جـاءت لتثبـت قصـور عقـول عبـاقرة السياسـة الأمريكيـة، فـأنّى لهـم أن يـدركوا أبعـاد مكـرهم، ونهاياتـه، ومآلاتـه؟! نعـم، يسـتطيع لاعـب الكُـرة المـاهر أن يقذف بـالكرة إلـى الهدف، ولكنّـه يفقد السيطرة عليها بمجـرد قـذفها، ثـمّ هـو غيـر مُـتحكّم بعـد ذلـك بمسـارها، ولا يعلـم مكـان وهيئـة استقرارها. وهكـذا نحـن البشـر، قد يكون لنـا سيطرة علـى أفعالنـا الآنيّـة، فتأتينا النتائج الفورية والمرجوّة. أما تفاعلات الأفعال ومآلاتها في المدى

البعيد، فلا مجال للسيطرة عليها؛ فكلما طال الزمان فقدنا السيطرة والتحكّم، وتكون مفاجآت عالم الغيب، الذي لا يعلمه إلا الله.

سورة الإسراء ثريّة بمعالجات الأبعاد الغيبيّة المتعلقة بأمّة الإسلام والرسالة الإسلاميّة. وعندما نضيف إليها سورة الكهف التي تليها تتجلّى لنا هذه الأبعاد بصورة أوضح. وما أحوج الناس اليوم إلى تدبّر معاني السورتين في مثل هذه الأجواء التي تحيط بنا. كيف لا، والعواصف تعصف بالكثير من حقائق الواقع التي كانت تبدو راسخة. ويبقى الوحي الكريم هو الطبيب الوحيد الذي يلامس القلوب المؤمنة، فيزيل ما بها من شوائب الشك والحيرة والتردد. وما أجملَ أن تتعلق القلوبُ بالأمل الذي مصدره اليقين: " **كتب اللهُ لأغلبنَّ أنا ورسلي**...".

وما هو على الغيب بضنين

قال تعالى في حق القرآن الكريم:"..**إنّـه لقولُ رسولٍ كريم، ذي قوةٍ عند ذي العرش مكين، مُطاع ثَمّ أمين، وما صاحبكم بمجنون، ولقد رآه بالأفق المُبين، وما هو على الغيب بضنين، وما هو بقول شيطانٍ رجيم...**". التكوير(19 – 25)

يذهب أكثر أهل التفسير إلى أنّ الرسول، صلى الله عليه وسلم، هو المقصود بقوله تعالى:"**وما هو على الغيب بضنين**": أي أنّ الرسول، عليه السلام، ليس ببخيل بما جاءه من الوحي، إذ الوحي غيب. ولكن استخدام **على** يُضعف هذا القول، لأننا نقول: **بخيلٌ بالمال**، ولا نقول: **بخيلٌ على المال**. وقد لاحظ بعض المفسرين هذا فقالوا: إنّ **ضنين** قُرئت أيضاً **ظنين**، وعليه يصبح المعنى: **ليس محمد بمُتَهم**، فهو إذن أمين على ما جاءه من الغيب.

الذي نراه هنا أنّ الضمير **هو** يرجع إلى القرآن الكريم، وليس إلى الرسول، صلى الله عليه وسلم، بدليل قوله تعالى:" **وما هو على الغيب بضنين، وما <u>هو بقول</u> شيطان رجيم...**"، ويؤيّد ذلك ما ورد في الآيات التي تسبق:"**إنه لقول رسول كريم...**"، وعليه يكون المعنى: **ليس القرآنُ على الغيب ببخيل**. ولا يصحّ هنا أن نقول إنّ حروف الجر ينوب بعضها عن بعض فيكون المعنى: **ليس القرآن بالغيب ببخيل**، لأنّ

القول إنّ على هنا بمعنى الباء يجعلنا نتساءل عن سرّ عدم استخدام **الباء**، في الوقت الذي يؤدي استخدام **على** إلى إشكال في الفهم ؟!

يمكن تقسيم الكون المخلوق إلى عالَمين؛ عالم غيب، وعالَم شهادة، فما جهله الإنسان فهو عالم الغيب، وما علمه فهو عالَم شهادة. ومعلوم أنّ اطّلاع الإنسان على عالم الغيب إمّا أن يكون عن **طريق الحس، أو العقل، أو الخبر الصادق**. والتطور العلمي للإنسان يعني اتساع مساحة عالم الشهادة على حساب مساحة عالم الغيب. وعندما نؤمن بأنّ الله تعالى هو مطلق العلم فإنّ ذلك يعني أنّه لا يوجد في حقّه سبحانه غيب، بل كل الوجود عنده شهادة. وعليه فإنّ معنى أنّه تعالى **عالم الغيب والشهادة**، أنّه سبحانه عالم لما يشهده الخلق، ولما يغيب عنهم.

وُصِف القرآن الكريم، وكذلك كل الرّسالات الربّانية، بأنّه نور. **والنور كلّ ما يُوصلك إلى حقائق الأشياء**، وينقل هذه الأشياء من عالم الغيب إلى عالم الشهادة. فالقرآن نور لا يبخل على عَالَم الغيب أن يُجلّيه فيجعله عالم شهادة، فهو يحتوي على العلم الكافي لكي يطلّ الإنسان على الغيوب، فالغيب محتاج إلى أن تُلقى عليه الأضواء، ليخرج من عالم الجهل إلى عالم العلم. وعليه نُرجّح أن يكون المقصود بقوله تعالى: "**وما هو على الغيب بضنين**"، أنّ القرآن الكريم، بما فيه من علم ومعرفة، لا يَضِنُّ على عالم الغيب أن يُجلّيه ويجعله عالم شهادة.

عندما ينعكس نور القرآن الكريم في عالم الاجتماع، مثلاً، تتجلى حقائق هذا العالم... وهكذا في كل عالم. على ضوء ذلك يمكن أن نفهم، بشكل أفضل، بعض دلالات قوله تعالى في حق القرآن الكريم:" **تِبياناً لكلِّ شيء**"؛ فهو المبيّن لكل شيء، وما من غيب إلا والقرآن قابل لتبيّينه. وعليه ليس بالضرورة أن توجد الأشياء كلّها في القرآن الكريم، ولكنّ نور القرآن الكريم يُجلّي كل الأشياء، أي كلّ الغيوب، فيحيلها إلى شهادة. من هنا ندرك أنّ استخدام حرف على في قوله تعالى: "**وما هو على الغيبِ بضنين**" لا يمكن الاستعاضة عنه بحرف الباء، لأنّ الآية لو كانت: (وما هو بالغيب بضنين)، لكان المعنى أنّ الغيوب فيه ثمّ هي تخرج منه، فتتجلّى في عالم الواقع. وهذا غير مفهوم، بل إنّ الغيوب هي عالم آخر يقوم نور القرآن الكريم بتبيينها وتجليتها.

وخلاصة الأمر أنّه بإمكاننا، مستنيرين بالقرآن الكريم، أن نجعل عالم الغيب عالم شهادة، سواء أكان الأمر يتعلق بالماضي، أو بالحاضر، أو بالمستقبل. وسواء أتعلق ذلك بالاجتماع، أو الاقتصاد، أو النفس... وهذا يعني أنّ مِن كَرم القرآن الكريم أنّه لا يَضنُّ على الغيب بنوره المُبين:" **وما هو على الغيب بضنين**".

الآخرة

عندما تؤمن المدرسة الوجوديّة بالعبثيّة، وعندما ترفع شعاراً يقول:" لا شيء له معنى إلا الموت"، فإنّها تكون قد عبّرت بوضوح عن الحقيقة التي يهرب من مواجهتها الماديّون، لأنّ هذه النتيجة لا بد أن يصل إليها كل من أنكر اليوم الآخر؛ فعظمة الكون، وإبداع الخلق، والهدفيّة المتجليّة في كل صغير وكبير من هذا الوجود، كل ذلك يفقد معناه عندما نعتبر أنّ الدنيا هي نهاية المطاف.

إذا كان وجودي ينتهي بالموت، فلماذا أعيش؟! هل يوجد في الحياة الدنيا ما يسوّغ الاستمرار فيها؟! وماذا يعنى التزامنا بالمبادئ والقيم، وماذا يبقى من سلطة الإلزام إذا ما أقصينا الدين؟! وما مدى منطقية القول: هذا يجوز، وهذا لا يجوز؟! نعم فبإمكانك أن تشكك في كل القيم، ويمكنك أن ترفض كل شيء، ويمكنك أن تفعل ما تشاء، لأنّ الدنيا هي نهاية المطاف. نعم سيكتشف الناس أنّ إنكار اليوم الآخر يُفرغ الحياة الدنيا من معناها، وعندها لا بدّ أن تكون السيادة للفلسفة العبثيّة، وعندها سيكون الانتحار هو الشجاعة التي تستند إلى العقل والمنطق، وسيكون الاستمرار هو الغباء الذي يورث الجبن والتردد.

حتى **الآخرة** تفقد معناها عندما يكون لها نهاية. من هنا كان الخلود من أكبر حقائق اليوم الآخر، بل إنّ الرغبة الملحّة لدى الإنسان في البقاء والاستمرار لهي من أوضح حقائق النفس البشريّة، وكأنّه لا يصلح لعالم الخلود إلا من رُكّب فيه الميل إلى الخلود. وقد جاء الدين منسجماً مع حقائق الخلق، فكانت **الآخرة** من حقائق الوجود، وكان الخلود من حقائق **الآخرة**. وهنا يتحقق الانسجام الكامل في كلّ شيء، وبذلك تظهر الفلسفة الماديّة كعارض مرضي، وشذوذ تأباه البشريّة، لأنه يتناقض مع فطرتها. لذا سيبقى الإلحاد استثناءً غير قابل لأن يكون القاعدة.

من يقرأ القرآن الكريم يجد أنّ قضيّة اليوم الآخر تكاد تكون هي القضيّة الأولى، وتحظى بمساحة ضخمة في كتاب الله العزيز، ويكتشف أنّ صلاح الدنيا لا يكون إلا بالايمان **بالآخرة**، وأنّ صلاحها هو المقدمة الضروريّة لصلاح **الآخرة**، ولا مجال للفصل بين العالمين، بل لقد باءت كل محاولات الفصل، عبر التاريخ البشري، بالإخفاق الذريع. وأبرز علامات هذا الإخفاق الإيمان بالعبثيّة، والشعور بفقدان الهدفيّة، وانهيار القيم الأخلاقيّة. وليس عجيباً بعد ذلك أن نسمع أنّ أعلى نسبة للانتحار في العالم هي في البلاد الاسكندنافيّة، والتي هي الأولى في مستوى الرفاه المادّي. وليس غريباً أيضاً أن نجد الجموح والتمرد يسودان في المجتمعات الغربيّة، التي سادت فيها، يوماً ما، فلسفة احتقار الدنيا، وانتشرت فيها الرهبنة وتقديس العزلة، التي عبّر عنها أصدق تعبير بعض كُتّاب الغرب في تلك العصور عندما قال:" إنّ القديس فلاناً لم

يرتكب إثم غسل الوجه ثلاثين عاماً، وإنّ القديس فلاناً لم يرتكب إثم غسل الرجلين خمسين عاماً، أمّا نحن، فواأسفاه، ندخل الحمّام كل يوم".

تكرر **اليوم الآخر** في القرآن الكريم **26** مرّة. وتكررت كلمة **الآخرة** بمعنى اليوم الآخر **113** مرّة. وتكرر **يوم الدين 11** مرّة، وتكرر **يوم القيامة 70** مرّة. فكيف بنا إذا أحصينا أيضاً: يوم الحساب، ويوم التغابن، والصاخّة، والحاقّة، والجنّة، والنّار، ...... وغير ذلك، من الألفاظ الدالّة على اليوم الآخر؟! في المقابل نريد من الذين قرأوا التوراة الحاليّة، والعهد القديم، أن يدلّونا على نص واحد يُصرّح بعقيدة اليوم الآخر لدى اليهود. في حين نجد هناك أكثر من نص في الأناجيل المتداولة ينص على عقيدة اليوم الآخر. وهذا يعني أنّ قضيّة اليوم الآخر عند اليهود هي قضيّة اجتهاديّة. وبإمكانك بعد ذلك أن تفهم الكثير من مواقفهم وسلوكيّاتهم... !!

الظّن

هل يستطيع العربي الفصيح أن يستوعب أنّ **الظّن** قد يأتي بمعنى اليقين؟ لا نظنّ ذلك. ولكنّ الكثير منّا قد يقبل هذا القول على مضض، لأنّ أهل التفسير يقولون بأنّ الظّن قد يرد أحياناً في القرآن الكريم بمعنى اليقين، ويستشهدون للتدليل على مذهبهم هذا بمثل قوله تعالى:" **الذين يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**". فلمّا قالوا إنّ العقيدة لا بدّ لها من جزم، ولما رأوا أنّ الإيمان لا بدّ أن يكون قاطعاً، قادهم ذلك إلى حتميّة القول بأنّ الظنّ قد يأتي بمعنى اليقين. ولم يقولوا لنا لماذا شاء الله تعالى أن يقول:" **يظنّون**" بدل "**يوقنون**"!!

يبدو أنّ الخطأ نتج عن زعمنا بأنّ العقيدة يجب أن تكون جازمة حتى ينجو المؤمن يوم القيامة. ولا ندري من أين جئنا بهذا الزعم في مواجهة آيات صريحة تَقبلُ من العبد أن يسلك وفق غلبة الظّن، وإلا فما معنى أنّ الإيمان يزيد وينقص؟ يقول سبحانه تعالى:" **وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً** ". فمعلوم أنْ لا مجال للزيادة على الـ **100%** ولا مجال للنقصان. هذا إذا كان المطلوب هو الجزم القاطع. وهنا لا بد من لفت الانتباه إلى أنّ القرآن الكريم يُسمّي العقيدة **إيماناً**. وقد نزلت الرسالات لتبني الإيمان في النفوس ليبلغ الإنسان **درجة اليقين**. وعندما يتكلّم

القرآن الكريم عن وظيفة الرسالات المنزّلة يُذكِّر بالنتائج المرجو تحققها، والأدلّة على ذلك في القرآن كثيرة، مثل قوله تعالى:" **ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**". وهذا لا يعني إطلاقاً أنّ الذي أسلم نفسه لله تعالى، وهو في دائرة غلبة الظنّ، غير مقبول عند الله. بل إنّ الآيات الكريمة واضحة وصريحة في قبول من يسلك على ضوء غلبة الظنّ. والمشكلة هنا في تحكيم وجهة النظر السابقة في النص القرآني.

يقول سبحانه وتعالى: " **إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ** ". فلا يصحّ في الدين أن يكون كلّ الظنّ إثماً، لأنّ هناك الكثير من المسائل في العقيدة والشريعة لا يمكن الوصول فيها إلى درجة اليقين؛ فلا بد عندها من الاستناد إلى الظنّ الغالب. والمقصود بالظنّ الغالب هنا هو الظنّ الذي يغلب الظنون الأخرى. وعليه فإذا كان الظنّ في مواجهة الدليل اليقيني فإنّه يكون مذموماً. وكذلك يُذمّ الظنّ في مواجهة غلبة الظنّ. انظر قوله تعالى: "**إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً**". فلا قيمة للظنّ في مواجهة الحقيقة.

فرّق البعض بين العقيدة والشريعة فقالوا: " إنّ العقيدة لا تثبت إلا بالدليل القطعي، أمّا الشريعة فتثبت بالدليل الظنّي". وعندما نبحث عن سند شرعي لهذا التفريق يصعب أن نجده. بل نجد أنّ الأحاديث الكثيرة تُثبتُ بأنّ الرسول، صلى الله عليه وسلم، كان يبعث آحاد الناس لتعليم

العقيدة والشريعة، ولم يكن يُفرّق؛ فلم نجده، مثلا، عند تعليم العقيدة يشترط، عليه السلام، الكثرة التي تبلغ حد التواتر. ويجدر هنا لفت الانتباه إلى أنّ **كل حكم شرعي** فيه جانب إخباري (**عقيدة**)، وفيه جانب تشريعي؛ فعندما نقول: " **الصلاة فرض**"، فإنّ هذه العبارة هي خبر يتضمن طلباً، فمن أنكر فرضيّة الصلاة كفر، ومن لم يُصلّ عصى.

وكما وقع أولئك في الخطأ فوصلوا إلى نتائج عجيبة، كذلك وقع خصومهم في خطأ أكبر عندما ذهبوا إلى أنّ العقيدة الجازمة تثبت بخبر الواحد، فقالوا إنّ خبر الواحد يوجب العلم، واستدلوا على ذلك بفعل الرسول، صلى الله عليه وسلم، فقد كان يبعث آحاد الناس ليعلموا العقيدة، وقد تواترت الأخبار بذلك. وفي الحقيقة أنّ فعل الرسول، صلى الله عليه وسلم، يُعتبر دليلاً على جواز أن يكون ناقل العقيدة والشريعة شخصاً واحداً، أو آحاداً من الناس، وأنّه يجوز لنا أن نُصدّق آحاد الناس، ولا فرق في ذلك بين عقيدة وشريعة. ولكن من أين لنا أنّ خبر الآحاد يوجب **العلم الجازم**، والله سبحانه وتعالى يقول:" **وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُم...**"، وهو القائل سبحانه:" **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَة...**"؟! والعجيب هنا أنهم لا يقبلون في إثبات **دَيْن** على مدين بشهادة رجل واحد، حتى ولو كان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ثمّ هم يوجبون **التصديق الجازم** بخبر رجل واحد أو امرأة واحدة في **دِين** يلتزمه المليارات من البشر إلى يوم القيامة.

هناك فرق بين التصديق ووجوب التصديق؛ فمن البدهي أنّه يجوز لنا أن نتتلمذ في العقيدة أو الشريعة على عالم واحد، أو على آحادٍ من العلماء، ولكن من قال بأننا ملزمون بتصديقه أو تصديقهم، في كل ما يقول أو يقولون، وعلى وجه الخصوص عندما يتعارض قولهم مع ظاهر القرآن الكريم، أو ظواهر الشريعة، أو بدهيّات العقول؟!

التقويم

قال تعالى في سورة التين: " **لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ". قالوا في التقويم: إنّه جَعلُ الشيء ذا قوام. وقوام الشيء: ما يقوم به ويثبت. وتُصرّح الآية الكريمة بأنّ الله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم، ويذهب بعض أهل التفسير إلى أنّ المقصود هنا القوام الجسدي، وهذا بعيد عن سياق النص القرآني، وإن كان اللفظ يحتمله. والراجح أنّ المقصود هنا هو تعديل القوى الظاهرة والباطنة معاً، أي المادّية والمعنويّة، وعلى وجه الخصوص القوى المعنويّة، من مثل العقل والإدراك.

واضح من الآية الكريمة أنّ تقويم الإنسان خاص به، وهو يتميّز في ذلك على باقي الكائنات، كيف لا، والله قد سخّر للإنسان ما في السماوات وما في الأرض. وقد يستشكل البعض قوله تعالى: " **في أحسن تقويم** ". إذ على المستوى المادي يمكن أن يكون الإنسان أشدّ تحصيناً من الأمراض الجسديّة، وعلى المستوى المعنوي محفوظاً من الأمراض النفسية، وبذلك يكون في تقويم أحسن!!. ويزول الإشكال عندما ندرك أنّ " **أحسن**" تتعلق بخلق الإنسان على **ضوء وظيفته** في

الأرض. ومن هنا لا يلزم مثلاً أن يكون قوام الإنسان يؤدّي به إلى الخلود في الدنيا، لأنّ هذا ما سيكون في الآخرة. وقد جاء في الأثر: " **خُلقت الدنيا لكم وخلقتم للآخرة** "، وهذا من بدهيّات الدين.

الأصل في الإنسان الخير والعدالة، وأمّا الشّر فهو طارئ على الكيان الإنساني؛ ففي الوقت الذي خلق فيه الإنسان في أحسن تقويم، بحيث يحقق وظيفته في الأرض، خلق فيه أيضاً قابلية الانتكاس والارتكاس، والارتداد إلى الأسوأ: " **ثم رددناهُ أسفلَ سافلين** ". وهذا يعني أنّ التقويم المعنوي المنسجم مع وظيفة الإنسان في الأرض يمكن أن يتحول إلى النقيض. وحتى لا يكون هذا الارتداد، لا بد من العمل الصالح، القائم على أساس من الإيمان الصحيح: " **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات**.. ". فكل مولود يولد على الفطرة، أي في أحسن تقويم. ويمكن المحافظة على هذه الفطرة وتوظيفها في تحقيق الخلافة في الأرض، إذا ما كانت التربية تستند إلى الإيمان الداعي إلى العمل الصالح. من هنا ندرك أنّ الدين ضرورة بشريّة، وليس بخيار يُضاف إلى خيارات الإنسان.

هل استطاع العلم في القرن الحادي والعشرين أن يخلق في الأمم الغربيّة الإنسان الصالح، الذي يقوم بواجبات الخلافة؟! والإجابة نجدها اليوم في واقع المجتمعات التي هي في أعلى سُلّم المدنيّة المتسلّحة بالعلم والتكنولوجيا. إنّه إفلاس الغني، وضعف القوي. إنّه العلو الذي هو في حقيقته أسفل سافلين. وتبقى مشيئة الله تعالى فوق

الجميع: " **فأمّا الزبد فيذهب جفاء، وأمّا ما ينفع النّاس فيمكث في الأرض** ". ولا ينفع الناس إلا ما كان ينسجم مع فطرتهم السّويّة.

إنّ مهمّة المصلحين ينبغي أن تستند إلى فطرة الإنسان. عندها تكون احتمالات النجاح كبيرة. لذا ما نلحظه اليوم من سقوط الكثير من الطروحات والمدارس يرجع في حقيقته إلى تناقضها مع الفطرة. من هنا نلاحظ أنّه لم يكد يغادرنا القرن العشرون إلا وقد أخذ معه الكثير من العقائد والأفكار والأوهام. وصحيح أنّ الصورة اليوم ليست جميلة ولا مشرقة، ولكنّ مسار الأمور يشير إلى أنّ الخلاص هو مستقبل الإنسان في المدى غير البعيد، **والله غالب على أمره ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون**.

الفضل

الفضل: هو الزيادة، والعرب تقول لما يبقى من الماء في الإناء بعد الشرب **فضلة**. وعليه تكون الفضلة: ما يبقى من الشيء، وما يزيد عن الاقتصاد والحاجة. فالألفاظ المشتقة من **فضل** يغلب أن تستخدم في الزيادة الإيجابية. يقول تعالى في سورة النحل:" **والله فضّل بعضكم على بعض في الرزق**"؛ واضح أنّ المقصود بالفضل هنا الزيادة في الرزق. ويقول سبحانه في سورة الإسراء:" **انظر كيف فضّلنا بعضهم على بعض..**"؛ فالتفاوت الإيجابي في خَلْق الناس من أهم أسس التحضّر الإنساني. ويقول سبحانه في سورة الرعد:"... **ونُفضّلُ بعضها على بعضٍ في الأُكُل** "؛ والمقصود هنا التمايز في أَطعام النباتات، وقيمتها الغذائيّة. ويتفاضل بعضها على بعض، مما يؤدي إلى التنوع الإيجابي.

قد يخلط الناس أحياناً بين مفهوم **الخيريّة**، ومفهوم **الأفضليّة**؛ فإذا كانت الأفضليّة تتعلق بزيادة في المال، أو القوة، أو الجمال، أو العقل...، فإنّ الخيريّة تتعلق بزيادة الخير؛ فإذا كان فلان يفضلني بمال، أو قوة، أو عقل.. فليس بالضرورة أن يكون هو خيراً منّي؛ فكم من فقير هو خير من ألف غني، وكم من ضعيف هو خير من ألف قوي. من هنا كان الحكم الربّاني الذي صدر في حق مجتمع الصحابة، رضوان الله عليهم:" **كنتم خير أمّة أخرجت للناس**"، ولم يقل سبحانه

وتعالى:" كنتم أفضل أمّة.."، لأنّ الفضل يحتمل وجوهاً كثيرة، ولا يستلزم الخيريّة إلا إذا كان فضل تقوى. والتفضيل الأخروي لا يستند إلى الفضل الدنيوي، بل يستند إلى الخيريّة في الحياة الدنيا.

يقول سبحانه وتعالى في سورة البقرة:" **يا بني إسرائيل اذكروا نعمتيَ التي أنعمتُ عليكم، وأنّي فضلتكم على العالمين**". هذه الآية الكريمة هي من الآيات التي أنّبت اليهود، لنكرانهم النعمة، وعدم شكرهم لله، الذي فضّلهم، أي زادهم في العطاء الدنيوي بالإضافة إلى الكتاب والفرقان. وتُعدِّد الآيات التي جاءت بعد هذه الآية، من سورة البقرة، النّعم التي كانت لبني إسرائيل ولم تكن لغيرهم من الأمم، فاستحقوا بكفرهم النعمة أن تضرب عليهم الذلة والمسكنة، وأن يبوءوا بغضب من الله، بل:" **وإذ تأذّنَ ربّك ليبعثنّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومُهم سوءَ العذاب**". بهذا تتضح بعض أسرار الغضب الربّانيّ النازل باليهود: "**غير المغضوب عليهم**"؛ فقد كانت خيانتهم كبيرة؛ لاحظ بعض هذه النعم التي ذكرت وعُدّدت بعد قوله تعالى:" **يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي**...": " **وإذ نجّيناكم من آل فرعون**..."،" **وإذ فرقنا بكم البحر**.."، " **وإذ واعدنا موسى**.."، ".. **ثمّ بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون**"، " **وظللنا عليكم الغمام، وأنزلنا عليكم المنّ والسلوى**"، " **وإذ قلنا ادخلوا هذه القريةَ فكلوا منها حيث شئتم رغدا**.."، " **وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب**.."، " **وإذ قلتم يا موسى لن نصبرَ على طعام واحد**..".

نعم، هذه النّعم، وغيرها مما ذكر في سورة البقرة وسور أخرى، لم

تحصل لأمّة من الأمم، ولو حصلت لغيرهم لكانت من دواعي الشكر والطاعة، ولكنّهم كفروا النعمة، وتمادوا في غيّهم وتنكروا لفضل الخالق سبحانه؛ فكان الحكم العادل، هو ما نصّت عليه الآيات التي ختمت الحديث عن هذه النّعم:"**وضربت عليهم الذلّة والمسكنة وباءوا بغضب من الله..**". وهذا ليس لهم فقط، بل لكل خائن لا تزيده النعم إلا ضلالا.

وأخيراً نقول: إذا كانت الآية الكريمة هي من أشدّ الآيات ذمّاً لليهود، ولخيانتهم، فكيف فهمها البعض على أنها آية مدح؟! ولماذا ذهب البعض في تأويلها المذاهب، على الرغم من أنّ صيغتها هي صيغة تقريع؟! يبدو أنّ السبب في ذلك يرجع إلى الخلط بين مفهوم الخيريّة ومفهوم الأفضليّة.

الشـهيد

الشـهيد: اسم من أسماء الله الحسنى، فعلم الله تعالى يحيط بكل شيء، فهو سبحانه وتعالى عالم الغيب والشهادة. جاء في سورة الرعد: "**قـل كفـى بـالله شـهيداً**". وقد كرّم اللهُ بعض خلقه فجعلهم شـهداء علـى النّاس، جاء في سورة النساء:" **فكيف إذا جئنا من كل أمّة بشهيد، وجئنا بـك علـى هـؤلاء شـهيداً** "، فالأنبيـاء شـهداء علـى أقوامهم، والرسـول، عليه السّلام، شهيد على الأمّة الآخرة، والأمّة الإسلاميّة شاهدة وشهيدة علـى بـاقي الأمـم. جـاء فـي سورة البقرة:" **وكـذلك جعلنـاكم أمّـةً وسـطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً** ".

وحتـى تكـون الأمّـة شـهيدة علـى النـاس، لا بـد أن تكـون ممثلـة لحقيقة الإسلام في إيمانها، وسلوكها، ولا بد أن تحيط بالواقع من حولها، وتكون قادرة علـى تقييم هذا الواقـع، والحكم عليـه، علـى ضـوء مقاييس وضوابط الإسلام. ويكتمل معنـى الشـهادة فـي الأمّـة عندما تقدّم البدائل للواقع السلبي، وبذلك تكون شهيدة في الدنيا. وهذا يؤهلها لأن تكون في مقام الشهادة يوم القيامـة، أي فـي مقام التكريم، جـاء فـي سورة النسـاء:" **ومن يطـع الله والرسول فأولئـك مـع الـذين أنعم الله عليهم من النبيّين**

والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً". وجاء في سورة الزمر:" **وجيء بالنبيّين والشهداء..**".

إنّ الشهداء في الآخرة هم الشهداء في الدنيا، فهم الذين يعملون على إقامة العدل، على أساس من شرع الله؛ جاء في سورة المائدة:" **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط** "، وجاء في سورة النساء:" **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله**". ومعلوم من النص القرآني الحكيم أنّ الله تعالى قد أرسل الرسل وأنزل الكتب من أجل أن يقوم الناسُ بالعدل، جاء في سورة الحديد:" **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناسُ بالقسط** ". وللقيام بالعدل، ولإقامة العدل، لا يكفي قوة الفكرة وتماسكها، وسمّوها، بل لا بد من القوة التي تحق الحق، أي تجعله واقعاً راسخاً في الأرض، انظر تتمة الآية من سورة الحديد:" **وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إنّ الله قوي عزيز**".

والقيام بالقسط، والسير في سبيل الله قد يترتب عليه موت أو قتل، وهذا في منطق الذين لا يؤمنون مجازفة وخسارة. جاء في سورة آل عمران:" **يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غُزّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم، والله يحيي ويميت، والله بما تعملون بصير**". يستفاد من هذه الآية أيضاً أنّ القرآن الكريم يفرّق بين الموت في سبيل الله، والقتل في سبيل الله. جاء في الآية **157** من سورة آل

عمران:" **ولئن قتلتم في سبيل الله أو متّم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون**". ويتجلّى مثل هذا الفرق في اعتبار من يُقتل في سبيل الله شهيداً حيّاً. والشهادة اختيار ربّاني، جاء في سورة آل عمران:" **ويتخذَ منكم شهداء** ". والشهيد شاهد بفعله على صدق مبدئه، وعمق إيمانه، وهو شاهد على تقاعس المتقاعسين، ثم هو يوم القيامة من الشهداء الذين يشهدون على الناس. ولا يصح في إيمان المؤمن أن يظنّ أنّ الشهيد ميّت، ولا يجوز لنا أن نتفوّه بذلك، بل نحكم له بالحياة عند ربّه، لأننا ملزمون بالأخذ بما يظهر لنا من حاله.

من اللافت للانتباه أنّ كلمة شهيد هي من الكلمات التي لا مرادف لها في اللغة العربيّة، وهي من الألفاظ الإسلاميّة التي يستخدمها حتى غير المسلمين، وغير الموقنين، إذا أرادوا تكريم قتلاهم، أو حتى موتاهم. وفي الوقت الذي استبدل فيه هؤلاء مصطلح الجهاد، مثلاً، فقالوا: كفاح، ونضال، وقتال،... فإننا نجدهم يحرصون على استخدام مصطلح شهيد. وقد يَشهَد هذا الموقف بحقيقة ما تُكِنّ صدورهم من شكّ وتردد تجاه عقائدهم، وما تستشعره عقولهم وقلوبهم من جلال الإسلام وأحقّيته.

الوكيل

الوكيل: هو الموكول إليه، والمفوض إليه الأمر. وعليه فلا وكيل على الحقيقة إلا الله تعالى. وهو سبحانه سبب الأسباب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه. ومعلوم أنّ التوكل هو من أفعال القلوب؛ فهو إيمان وتصديق، ثم هو توجه ورغبة، وهو قوة عظيمة تشحن الإرادات، كيف لا وهو الركون إلى ركن شديد ؟! وما من إنسان إلا ويرغب في وكيل. وما عالم الحسرة، والوهن، والإحباط، وسوء الظن، وما إلى ذلك من أمراض القلوب والإرادات، إلا من نتائج التوكل على غير الله، من المخلوقات الضعيفة، والكائنات المحتاجة.

تُستهل سورة الإسراء بآية تتحدث عن حادثة الإسراء بالرسول، عليه السلام، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. ويدهشك أنّ الآيات التي تلي تتحدث عن إفسادين لليهود في الأرض المباركة. والذي يهمنا، في هذه العُجالة، الوصيّة التي أنزلها الله تعالى في التوراة، ثم أنزلها في الآية الثانية من سورة الإسراء: " **وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل، ألا تتخذوا من دوني وكيلا..**". فلماذا هذه الوصيّة المشدّدة والمكرّرة ؟! وما علاقتها بالإفساد اليهودي في الأرض المقدّسة؟! واضح من نص اللآية الكريمة أنها وصيّة وتحذير: " **ألّا تتخذوا من دوني وكيلاً..**". وقد يكون من أسرارها أنّ النهايات المفجعة للمجتمعات اليهوديّة ترجع إلى اعتماد هؤلاء اليهود على وكلاء من عالم

الشهادة، وهذا مؤشر على ضعف الإيمان بالله تعالى، وهو دليل أيضاً على شدة تعلق هؤلاء بعالم المادة وبالأسباب الأرضيّة.

إسرائيل شاحاك من الكُتّاب اليهود الذين يُلفتون انتباهك في قربهم النسبي من الموضوعيّة، وهو من القلة التي انتقدت العنصريّة الصهيونيّة، وكشفت حقيقة الكيان الإسرائيلي في فلسطين. وهو يرى أنّ المذابح، التي تعرّض لها اليهود في المجتمعات الغربيّة، ترجع في الأساس إلى التحالفات التي كان يُقيمها اليهود مع القوى المتنفّذة والظالمة. والعجيب أنّ هذا الخطأ يتكرر وكأنّه قانون في حياة اليهود، على الرُّغم من أنّ النتائج كانت دائما مفجعة، وعلى وجه الخصوص عندما تَنقضّ الشعوب على جلّاديها. والأعجب من هذا أنّ اليهود لم يستخلصوا العِبر، وما زالوا يؤمنون بإمكانيّة الركون والتوكّل على القوى البشريّة والماديّة، حتى باتت المادّة، وبات رأس المال، المعبود الذي يتوكلون عليه.

عندما شعر اليهود بصعود أمريكا، القوّة الجديدة، وجدناهم يسارعون إلى الهجرة إليها، حتى باتوا في أعلى درجات السلّم السياسي والاقتصادي، وأصبح الأمريكي شيئاً فشيئاً يشعر بوطأة أقدامهم على رقبته. وهذا الشعور قابل للتصاعد على ضوء المعطيات التي تُخبرنا بانّ المجتمع الأمريكي يتحول، شيئاً فشيئاً، إلى مجتمع الأقليّة المالكة والأكثريّة المغلوبة على أمرها، والتي باتت تشكل الآلة التي تخدم الأسياد، ولديها شعور متفاقم بالغُبن والإجحاف. هذا في داخل أمريكا، أما في الخارج، فقد بات المجتمع الدولي يشعر بالنفور الشديد من هذا

المتطفل، الذي يضرب بسيف المارد الأمريكي، ولا يقيم وزنا لمشاعر الآخرين، ولا يشعر أبداً باحتمال انقلاب الموازين، وتغيّر الوقائع، بل ينطلق في سلوكه من منطلق أنّ هذه هي نهاية التاريخ. وبهذا نجدهم يكررون الخطأ، ويقعون في المحذور. ولم يعد بإمكانهم أن يستمعوا إلى ربّ الناس يحذرهم: " **ألا تتخذوا من دوني وكيلا...**".

إنّ هذه الوصيّة لا تخص اليهود دون غيرهم، وإن كانوا هم الأحوج إليها. ونحن لا نعجب من سلوك اليهود هذا عندما نطّلع على تراثهم الديني والثقافي، وإنما العجب، كل العجب، أن يذهل عن هذه الوصيّة الربانيّة بعض من عايش الإسلام، فنهل من القرآن الكريم، والسنّة الشريفة، وتنسَّم عبير تراثه المفعم بالإيمان والثقة واليقين والتوكل:" **ومن يتوكّل على الله فهو حسبه، إنّ الله بالغ أمره، قد جعل الله لكل شيء قدرا**".

الآل والأهل

أهل الرجل في الأصل هم من يجمعه وإياهم مسكن واحد. ونلحظ بالاستقراء أنّ **الملازمة** هي أبرز دلالات كلمة الأهل. من هنا نقول: أهل المدينة، أهل البيت، أهل الكتاب، أهل العلم ... أما **الآل** فهم الذين يؤول إليهم الإنسان، أي يرجع إليهم، أو يرجعون إليه في دين، أو مذهب، أو نسب ... من هنا يقال للأهل أحياناً آل، ولكنّ كلمة **آل** تستخدم في بيان شرف من يؤول إليهم الإنسان، أو شرف من يؤولون إليه.

وعليه فأهل بيت الرسول عليه السلام هم من كان يلازمه في البيت، أي زوجاته وبناته والحسن والحسين وعلي، رضي الله عنهم جميعاً. أمّا الأقرباء، فلا نرى وجهاً للقول إنهم أهل بيت. وأما قول الرسول عليه السلام:" المهدي منّا أهل البيت"، ففيه دلالة على أنّ المهدي من نسل فاطمة، أو من نسل عليّ، رضي الله عنهما. وهذه مسألة غيبيّة لأنّ ما تناسل من من علي أوفاطمة رضي الله عنهما لا يستطيع أحد أن يتتبعه بعد مضي أكثر من 1400 سنة، ولأنّ النسل لا يختص بالذكور دون الإناث. ومن هنا نقول: لا يوجد من ينتسب إلى الرسول عليه السلام، ولكن يوجد من هو من نسله، لأنّ الانتساب يكون للآباء فقط.

جاء في الآية **33** من سورة الأحزاب:" **إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً** ". المتدبر للآيات الكريمة يدرك أنّ مسؤولية الملازمين للرسول، صلى الله عليه وسلم، من أقرباء وأزواج هي أكبر من مسؤوليّة الآخرين، ومن هنا خصّهم الله تعالى بأحكام فيها من التشدد والاحتياط ما فيها، نظراً لحساسيّة موقف الرسول القائد، عليه السلام، والذي هو القدوة الحسنة:" **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة**". وعلى الرُّغم من وضوح هذا في القرآن والسنّة، فقد تصوّر البعض أنّ وصف أهل البيت يعطي من ينتسبون إلى الرسول، صلى الله عليه وسلم، الأفضليّة، فيدعوهم ذلك إلى التحلل من المسؤوليّة، ويتوسّلون بالنسب الشريف للتسلّط على رقاب الناس، وتبرير خيانتهم لله ولرسوله وللمؤمنين. ولما كانت كلمة أهل تدل على الملابسة والملازمة، فلا يستطيع أحد أن يزعمها بعد **1400** سنة، بل يُلحظ أنّ كثيراً ممن يزعمونها اليوم هم الأبعدون، الذين لا ينتمون إلى الأمّة بل إلى أعدائها.

جاء في الحديث الشريف أنّ صحابياً سأل الرسول صلى الله عليه وسلم قائلاً:" **كيف نُسلّم عليكم أهل البيت؟**"، فجاء جواب الرسول الكريم ليوسّع الدائرة وليجعل السلام على المتّقين من أمته، الذين يرجعون دوماً إلى دينه وشريعته، بحيث أصبح الرسول مرجعهم ومرجعيّتهم، فقال، عليه السلام:" **قولوا اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد**...". وقد أوصى الرسول عليه السلام بأهل بيته خيراً، فكان مما قال:".. أُذكِّرُكم اللهَ في أهلِ بيتي، أُذَكِّرُكم اللهَ في أهلِ بيتي، أُذكِّرُكم اللهَ في أهلِ بيتي".

ومثل هذه الوصيّة المشدّدة تُشعِرُك بأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم قد أُطلِع على الغيب، فرأى في مقبل الأيام من يتخذ من الإساءة إلى زوجاته عليه السلام ديناً ومسلكاً. ورأى من يَقتل الحسين ويُسيء إلى الحسن، ورأى من يذمّ علياً ومن يقتله. أما هم رضي الله عنهم فقد بقوا على العهد، ولم يبدّلوا، فكانوا نعم الأهل، ونعم الآل.

أما من تربطهم بالرسول عليه السلام قرابة فلا مسوّغ لتخصيصهم بالدعاء، حيث لم يشهد القرآن الكريم، ولم تشهد السنّة المطهّرة، لهم بالعصمة، ولم يرد في الدين ما يدل على تميّزهم وتفضيلهم. وقد وجدنا من أقربائه، عليه السلام، من قاوم دعوة الله، وأساء إلى رسوله. وهذا إبراهيم، عليه السلام، يطلب أن تكون الإمامة في ذريّته فجاءه الوحي بالجواب الحاسم:" **لا ينال عهدي الظالمين**". أمّا تكريم المجتمع المسلم لأهل بيت الرسول، صلى الله عليه وسلم، فهو دليل على صدق الإيمان، وصدق الاتباع، وصدق المحبّة، كيف لا، وقد أوصى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بأهل بيته خيراً. وقد شهد الواقع التاريخي بخيريَّتهم، وإمامتهم في التقوى والصلاح، وصبروا وصابروا حتى لقوا وجه الله تعالى.

جاء في الآية **4** من سورة التحريم:"...**فإنّ الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين**"؛ فصالح المؤمنين هم آله عليه السلام وأولياؤه، وهم أصحاب النسب الحقيقي؛ لأنّهم اختاروه، وأحبّوه، ونصروه، وقدّموه على كل من سواه من الخلق. وقد سُئل الإمام جعفر الصادق في ذلك

فقال:"إذا قاموا بشرائط شريعته كانوا آله"، وهذا يعني أنّ آله في اعتبار الإمام جعفر الصادق، هم أولياؤه الذين يحملون دعوته، وينصرون شريعته، فيبلغون بذلك أعلى مراتب القرب والقرابة.

ومما يؤكّد هذا المعنى ما يردّده المسلم في صلاته كل يوم:" اللهمّ صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم..."، فلو كان آل إبراهيم هم كل من تناسل منه، عليه السلام، لكنّا إذن نصلي على الكفرة والملاحدة وأعداء الدين الحق!!

الأرض المقدسة

جاء في الآية **21** من سورة المائدة على لسان موسى، عليه السلام:" **يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ...**". الراجح أنّ المقصود **بالأرض المقدسة**، في هذه الآية الكريمة، أرض فلسطين. ولسنا هنا في مقام تحديد حدودها الجغرافية في المنظار الديني. وواضح، في الآية الكريمة، أنّ موسى، عليه السلام، قد طلب من قومه أن يدخلوا الأرض المقدسة، التي فَرض الله عليهم دخولها في حينه. وقد ارتبط هذا الفرض بوعد أن يتم دخولهم بسهولة ويسر:" **ادخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه فإنّكم غالبون...**". ولسنا أيضاً في مقام رفع الالتباس الذي وقع عند البعض في فهم هذه الآية، فظنّوا أنّ المعنى:" الأرض المقدّسة التي كتبها الله لكم.." أو " كُتِبت لكم"، في صيغة المبني للمجهول. وإنّما نريد هنا أن نلقي الضوء على بعض دلالات عبارة **الأرض المقدّسة**.

القُدُسُ أو **القُدْس:** هو الطُهر. **والأرض المقدسة:** هي الأرض المطهّرة. وهناك فرق بين قولنا: **الأرض الطاهرة**، وقولنا: **الأرض المطهّرة؛** فالطاهرة هي التي لا يلابسها دنس، أمّا المطهّرة فقد يلابسها الدّنس، ولكن لا تلبث أن تُطَهَّر، فكلما تكرر وجود الدنس تكرر التطهير. ويُفهم من هذا أنّ لفلسطين وظيفة مباركة، تتعلق بمسيرة البشرية كلها:" **الأرض التي باركنا فيها للعالمين** "؛ فهي الأرض التي

لايتجذّر فيها باطل، ولا يدوم فيها شر، لأنها الأرض المطهرة من ذلك كله. وقد يُعّبر عن هذا المعنى ما ورد من أنّها لا يُعمّر فيها ظالم.

فيها كانت بدايات نهاية سلطان الرومان الشرقيين، وكان ذلك في معركة أجنادين التي مهّدت للانتصار الحاسم في اليرموك. وفي حطّين كانت الهزيمة المجلجلة للصليبيّن. أما نهاية البطش المغولي فكانت في عين جالوت. ولا تسأل عن نهاية نابليون، ولا تنس أنّ نهاية المسيح الدجّال ستكون في الأرض المقدّسة، وكذلك نهاية يأجوج ومأجوج. أمّا اليوم، فإنّ وجود إسرائيل يكاد يُنسينا حقيقة وجوهر هذه الأرض، بل قد يظن البعض أنّ عجلة التاريخ ستتوقف عند هذه اللحظة، أو أنّ سنة الله في المجتمعات ستتخلف، وأنّ كينونة فلسطين المتميّزة في كونها **مُطهّرة** ستزول!! وما أدركوا أنّ وجود إسرائيل على الصّورة التي وجدت فيها، وبلوغ الإفساد الصهيوني أبعاداً عالمية- حيث يصدر هذا الفساد عن هيمنة وسيطرة كونية الامتداد- لهو الدليل على أنّ الأمور تسير في طريق التقاء أقدار المفسدين بقَدْر فلسطين، الأرض المقدسة.

جاء في الحديث الشريف:"**إنّ الأرض لا تُقدّس أحداً، ولكن يُقدِسُ الرجلَ عملُهُ**"، فوجود الإنسان في الأرض المقدسة لا يطهِّره من ذنوبه وأدرانه، بل لا بد من العمل الصالح حتى تتطهر النفس من أمراضها وأدرانها:"...**ولكنْ يُطهِّر الرجلَ عملُه**". فعُمْر الشرّ في الأرض المقدسة قصير إذا ما قورن بما سواها من أراضٍ وبلاد. وقد يفسر هذا اضطراب المنطقة المستمر عبر العصور؛ فقدسيّتها تأبى عليها أن تتقبل على ظهرها الإفساد. ولا ننسى أننا ننظر هنا بمنظار غيبيّ، بغض

النظر عمّا يؤيده في عالم الشهادة. ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى النظرة المستندة إلى بُعدين؛ بُعد واقعي يرفده بُعد غيبي، حتى لا يؤدّي ثقل الواقع المحسوس إلى الإحباط والتحلل. والدارس للتاريخ يجد أنّ صلاح الدين، ومن عاصره من المسلمين، كانوا يملكون هذا المنظار الثنائي المتكامل.

فإذا كانت فلسطين متميزة في كينونتها على باقي بقاع الأرض بأنّها مطهّرة، فإنّ ذلك من أهم العوامل التي تساعد أهل الجدّ والإخلاص في تحقيق العدالة، في الوقت الذي طغى فيه الشّر واستشرى. وأخيراً نذكّر بما قاله الرجلان في الآية **23** من سورة المائدة: " ادخلوا عليهم الباب ...".

الأرض المباركة

بوركت فلسطين في القرآن الكريم خمس مرّات، وقدّست مرّة. وسبق لنا أن ناقشنا مفهوم القداسة، وبالتالي مفهوم الأرض المقدسة، أي المطهّرة، والتي لا يُعَمَّر فيها ظالم. ولقد تميّزت فلسطين على باقي بقاع الأرض بأنها المقدّسة والمباركة. جاء في الآية **18** من سورة المائدة، على لسان موسى، عليه السلام:" **يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة...** " وجاء في الآية **71** من سورة الأنبياء في حق ابراهيم، عليه السلام: " **ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين**". واللافت للاهتمام في هذه الآية أنّ فلسطين مبارك فيها للبشريّة جمعاء، وهذا يدعو إلى التدبّر، لعلنا ندرك بعض أسرار هذه البركة.

البركة فيها معنى الثبات والاستقرار، وفيها معنى الاستمرار والملازمة، ومنه سمي المكان الذي هو محبس للماء بركة. وعليه فالبرَكَة هنا _ كما جاء في قول المفسرين _ هي ثبوت الخير الإلهي في الشيء، أو هي الخير المستقر في الشيء اللازم له. وهذا يعني أنّ الخير الإلهي حَلَّ في كينونة فلسطين، وهذا الخير يلازمها في كل العصور، إلى يوم القيامة. وتتجلى بركتها في كونها مقدّسة ومطهّرة من الشّر، ولا يتجذر فيها باطل.

لقد نجحت الحملات الصليبيّة في احتلال مساحات شاسعة من العالم العربي والإسلامي، وكانت فلسطين هي الهدف المركزي لهذه الحملات، وعندما حُسم الصراع على أرضها المباركة، رجع الصليبيون الى بلادهم وقد تأثّروا تأثراً بالغاً بفكر وأخلاقيّات الشرق الاسلامي. وكانت هزيمتهم من أهم المقدّمات للنهضة الغربيّة في كافة المجالات. وكان لهذه التجربة الأثر الكبير في انسياح الأوروبيّين غرباً مما أدّى الى اكتشاف الأمريكيتين. وإذا كانت **حطّين** هي نقطة تحوّل هامّة في تاريخ المسلمين والأوروبيّين، فإنّ **عين جالوت** كانت المنعطف الحاد الذي نقل المغول من أمّة مفسدة، وسافكة للدماء، إلى أمّة متحضّرة، تقيم العدل على أساس من الدين الاسلامي الحنيف.

لا نستطيع أن نتخيل صورة العالم لو نجحت حملة نابليون في الشرق العربي، ومعلوم أنّ هزيمته في فلسطين هي التي قضت تماماً على طموحه في السيطرة على الشرق الإسلامي، بل وقوّضت سيطرته في أوروبا، وقلبت موازين القوى في حينه. واليوم شكّل الاحتلال الصهيوني لفلسطين تحدّياً كبيراً للعرب والمسلمين، ولا يزال هذا التحدي يشكل استفزازاً لوعي الشعوب في المنطقة؛ فالإخفاقات قد تسبب إحباطاً مؤقّتاً ولكنها تسرّع في الوعي، وتُسقط الكثير من الأصنام والوثنيّات، وتدفع بقوة نحو العودة إلى الذات الحضاريّة الواعيّة.

لقد شكّلت القضيّة الفلسطينيّة حاجزاً صلباً حمى وحفظ شعوب المنطقة من الذوبان في الحضارة الغربيّة. وقد وقع ذلك في الوقت الذي

كـان فيـه الإنسـان فـي العـالم العربـي والإسـلامي يعـاني مـن الأميّـة والتخلـف؛ فعنـدما شـعرت الشـعوب العربيّـة والإسـلاميّة بعـداوة الغـرب الشرسـة، وعنـدما رأت هـذا الغـرب يبـذل المـال والسـلاح والخبـرات ليقيم الكيـان الصـهيوني علـى تـراب الأرض المباركـة، أدركـت أنّـه العـدو التاريخي، وأنّه النقيض الحضاري، فأصبح الإنتماء إلى الذات الحضاريّة يقـود بالضـرورة إلـى رفـض التغريـب. إنّ الإخفـاق فـي حـل المسـألة الفلسطينيّة يعني أنّ الأمّة لم تصل بعد إلى طور العالميّة. وفي الوقت الذي نستطيع فيه أن نحل هذه المسألة حلاً عادلاً نكون قد أصبحنا في المستوى اللائـق بحمـل رسـالة الاسـلام للعـالم. وإذا تكلمنـا بمنطـق مـن يـدرس التـاريخ، ويراقـب الواقـع، ويرصـد التحـولات، فلـن نتـردد لحظـة فـي القـول بـأنّ حـل المسـألة الفلسـطينيّة هـو مسـألة وقـت. وتـاريخ الأرض المباركة يشهد بذلك. ولسنا بحاجة إلى الإصغاء إلى المحبطين، لأنّهم حالة مرضيّة، وعقيدة وثنيّة، وبمثل هؤلاء لا يزداد الناس إلا سقوطاً.

الأقصى

لو سألت الكثير منّا: أين تقع أمريكا بالنسبة لليابان؟ يغلب أن يكون الجواب: هي في الغرب. وخطأ هذه الإجابة واضح، لأنّ أمريكا تقع شرق اليابان، لذا يسافر الياباني شرقاً ليصل إلى أمريكا، لأنّ طريق الغرب طويلة جداً. وعلى الرُّغم من ذلك فإنّ الياباني يتعامل على أساس أنّ أمريكا هي غرب، وذلك لأنّ أمريكا تقع إلى الغرب من خط غرينتش، خط التأريخ الدولي، الذي اصطلح عليه عندما كانت بريطانيا دولة عظمى، وكان الشرق كله يعاني من التخلف والأميّة، وكانت بريطانيا في مركز القيادة العالمي. واليوم لا زال الغرب هو القائد والمسيطر، ولا يُتوقع أن يُغيّر العالم من اصطلاحات الغرب حتى تتغير موازين القوى، وحتى يتغيّر مركز الثقل على هذه الأرض.

من مقاصد الشريعة الإسلاميّة أن تتميز الأمة لتكون القدوة للبشريّة، ولتتمكن من التأثير، من أجل التغيير الإيجابي، لإخراج الناس من الظلمات إلى النور. ويظهر هذا التميّز في أمور كثيرة، ومنها التميّز في المصطلحات. وقد سادت المصطلحات الإسلاميّة في العصور الذهبيّة للدولة الإسلاميّة وتعدّت حدود هذه الدولة. ولكن في الوقت الذي فقد فيه العالم الإسلامي مركز الصدارة تراجعت مصطلحاته، ولم تعد مستعملة من قِبل الآخرين، بل لم يعد العالم الإسلامي يعتز بما لديه من

مصطلحات، لأنّه أصبح تابعاً ومقلّداً. ويبدو أنّ هذه نتيجة حتميّة للتخلف الذي أصاب المسلمين على مدى قرون من الزمن. في المقابل نجد أنّ العودة إلى الذات في العقود الأخيرة أحيت الكثير من المصطلحات، فعاد المسلم يعتز بذاته الحضاريّة بعد أن كان مسلوب الإرادة أمام بريق الآخرين.

عندما نزل قوله تعالى:" **سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى**..." كانت مراكز القوى تتمثل في بلاد فارس، وبلاد الرومان. ولا شك أنّ مسجد بيت المقدس كان أقرب إلى بلاد الرومان من المسجد الحرام، إلا أنّ القرآن اعتبره **المسجد الأقصى**، وفي ذلك إشارة إلى أنّ مكّة المكرّمة هي المقياس المرجع، الذي يجب أن نقيس عليه، وأن نرجع عند القياس إليه. ومعلوم أنّ المساجد التي تشدّ إليها الرحال في الدين الإسلامي هي: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، والمسجد النبوي، الذي يقع بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى. وقد ذكر بعض العلماء أنّ تسمية مسجد بيت المقدس **بالمسجد الأقصى** فيه إشارة إلى أنّ المسجد النبوي سيُبنى، على اعتبار أنّ ذكر الأقصى يُشير إلى القصيّ، كما تشير كلمة الأبعد إلى البعيد. أي أنّ هذه التسمية الربّانيّة تتضمن خبراً غيبياً.

إذا فُهم هذا سيكون من السهل علينا أن نفهم عبارة:" **أدنى الأرض** " في قوله تعالى من سورة الروم:" **غُلبت الرومُ في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون، في بضع سنين**..."؛ فقد كانت هزيمة الروم في

أدنى الأرض، هذا بالنسبة إلى جزيرة العرب؛ حيث كانت بلاد الروم مترامية الأطراف شاسعة المساحات، إلا أنّ هزيمتها المشار إليها كانت في بلاد الشام، أي في أدنى الأراضي التي يسيطر عليها الرومان بالنسبة إلى جزيرة العرب. بهذا يتّضح أنّ القرآن الكريم يجعل من مكّة، وما يحيط بها من جزيرة العرب، المكان الذي يُرجع إليه، أي هو المكان الذي يجب أن تكون له المركزيّة في فكر المسلم، وضميره، وحِسِّه، وواقعه، ومصطلحاته. وعلى أية حال لا يكون هذا واقعاً حتى تتغير أمور كثيرة. والمراقب للتطورات الفكريّة والاجتماعيّة في العالم العربي والإسلامي يلاحظ المؤشرات الكثيرة التي تُعلن عن عودة الأمّة إلى ذاتها وحضارتها.

المسجد الأقصى

في المقال السابق تناولنا بعض أسرار اسم الأقصى، وما نهدف إليه في هذا المقال أن نلقي الأضواء على مساحة المسجد الأقصى. والذي دفعنا إلى هذا ما يتردّد على لسان البعض، تصحيحاً منهم لأوهام النّاس، فيقولون إنّ الأقصى هو البناء الجنوبي، وليس قبة الصّخرة. وهذا الأسلوب في تصحيح الخطأ يوقع الناس في بلبلة واضطراب، إضافة إلى أنّه يجافي الحقيقة، لأنّ المسجد الأقصى هو تلك المساحة التي تقارب الـ **144** دونماً، وهي المساحة المحاطة بحلقة من الأبنية، والتي تشكّل مع السّور حدود المسجد الأقصى. وتشمل هذه المساحة، كما هو معروف، بناء قبّة الصّخرة، والبناء الجنوبي، المسمّى بالأقصى. وأيّة مساحة تضاف مستقبلاً تأخذ حكم المسجد الأقصى.

ومعلوم في التاريخ الإسلامي أنّ عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كان هو أول من أنشأ بناءً في القسم الجنوبي من الأقصى. أمّا لماذا في أقصى الجنوب، فهذا واضح؛ لأنّ القبلة هي في الاتجاه الجنوبي من فلسطين، ومعلوم أنّ الإمام يقف في مقدّمة المسجد ثم تكون الصفوف من خلفه متكاملة نحو الشمال. وعليه لا بدّ من أن يكون محراب الإمام في أقصى الجنوب، وغير ذلك يعني إلغاء جزء من مسجِديّة المسجد. من هنا وجدنا العامّة تسمي البناء الجنوبي بالأقصى، مع علم الجميع بأنّ اسم الأقصى يُطلق على الكل، ولا إشكال في

إطلاق الاسم على الجزء. وعليه تكون قبة الصّخرة جزءاً لا يتجزأ من الأقصى، وهذا معلوم بداهة. ولكن قد يتوهم من لم يعش في فلسطين أنّ الأقصى ينحصر في قبة الصّخرة، وقد يتوهم آخرون بأنّ الأقصى ينحصر في البناء الجنوبي.

ولكن هل هناك خصوصيّة لصخرة بيت المقدس تجعلها متميّزة دينياً على باقي أرجاء المسجد الأقصى؟!

لقد نُسجت حول الصّخرة الأساطير الكثيرة، روّجها بعض العلماء قبل أنّ يروجها العامّة. وقد ساعد عدم وجود أحاديث صحيحة حول خصوصيّة الصّخرة في ذهاب الخيال مذاهب كثيرة، بل لقد اتُخذت الصّخرة في عصور الجهل قبلة في الصلاة، وطاف بها عوام المسلمين كما يطوفون بالكعبة، وتقرّبوا إليها بأنواع القربات، ممّا جعل العلماء المحققين يجهرون بأنّه لم يصح شيء عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولا عن الصحابة الكرام، يدل على خصوصيّة الصّخرة، وبالتالي يحرم شرعاً أن تُخَصّ بطواف أو ذبح، ويحرم تعمّد اتخاذها قبلة.

بعد كل ما ذكرنا يبقى السؤال الكبير الذي يحتاج إلى إجابة مقنعة وهو: إذا لم يكن للصخرة خصوصيّة بالنسبة إلى باقي المسجد، فلماذا أقام عبد الملك بن مروان هذا البناء البديع، المسمّى قبة الصّخرة؟! ومعلوم أنّ عبد الملك بن مروان هو من التابعين الذين عاصروا الصحابة الكرام، وكان من فقهاء المدينة، ومن هنا نجد أنّه قد بادر إلى بناء قبة الصّخرة قبل أن يبدأ ببناء الأقصى الجنوبي. وهذا يدل على معرفته بمقام هذه الصّخرة، ووجود البناء يُغني عن كثير من

الكلام. كيف لا، والكل يُجمع على شخوصها لأكثر من ألف وثلاثمائة وستين سنة (72هـ). فهي الشاهد الماثل في الحسّ، الذي يُغني عن قيل وقال، كما أغنت الأبنية المحدّدة لساحات المسجد الأقصى عن حاجتنا إلى الأسانيد التي تحدد لنا الأطوال والمساحات، وهذا في علم التاريخ أبلغ من كل الروايات.

لقد دفعت بدع العوام بعض العلماء إلى المبالغة في الرّد، إلى درجة الذهول عن معنى بناء قبة الصّخرة في عصر التابعين المعاصرين للصحابة الكرام، بل إنّ بعض كبار العلماء يذهب به رفضه لبدع العوام إلى أن يقبل الرواية التي زعمت أنّ عبد الملك بن مروان بنى قبة الصّخرة ليصرف الناس عن الكعبة المشرّفة. والغريب أنّهم يقبلون مثل هذه المزاعم من غير أن يطلبوا الدليل على صدق الرواية، وهم يعلمون أنّ أعداء بني أميّة قد أكثروا في ذمّهم، والكذب في حقّهم، وللكذب علامات لا تخفى على الباحث.

قال ابن كثير في تفسير الآية **142** من سورة البقرة،" **سيقول السفهاءُ من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها**..": "وحاصل الأمر أنّه قد كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، **أُمر** باستقبال **الصخرة** من بيت المقدس... قاله ابن عباس والجمهور". وعليه فإننا نستطيع أن نقدّر بأنّ الصّخرة هي ثاني بيت وضع للناس، ثم اتسعت المساحات من حولها، كما هو في الكعبة أول بيت عَبد فيه الناس رب العالمين؛ فقد جاء في الحديث الصحيح أنّ المسجد الأقصى وضع بعد أربعين عاماً من وضع المسجد الحرام.

الروم

سورة الروم سورة مكيّة، نزلت قبل الهجرة النبويّة، والتي كانت سنة 622م. وتُستهلّ السورة الكريمة بالإعلان عن هزيمة دولة عظمى، هي دولة الروم:" **غُلبت الروم في أدنى الأرض...** ". ولم تُصرّح الآيات باسم دولة الفرس التي غَلَبت الروم، لأنّ المهم هنا الحديث عن دولة الروم، حتى ولو كانت هي الطرف الضعيف المهزوم. فالحديث عن الحاضر ينبغي أن يكون من أجل استشراف المستقبل، والمستقبل يكشف عنه قول الحكيم العليم:" **وهم من بعد غلبهم سيغلبون**". أمّا دولة الفرس فعِلم المستقبل يقول إنّها دولة ستؤول إلى السقوط، ثمّ تتلاشى، بعد أن يتحول شعبها إلى الإسلام. وإذا كانت المعارك قد دارت قريباً من جزيرة العرب: " **في أدنى الأرض**"، فإنّ علم المستقبل يقول إنّها ستدور مرّة أخرى، في زمن قريب:" **في بضع سنين**".

أليس عجيباً أن يُلْفَت انتباه القلّة المؤمنة المضطهدة في مكة إلى الصراع القائم بين الدول العظمى، وإلى التحولات السريعة في الأحداث ؟! أليس عجيباً أيضاً أن يُشدّ انتباه هذه القلّة، لبضع سنين قادمة، إلى خارج الجزيرة العربيّة، لتراقب وترقب الصراعات الدّولية ؟! نعم، ونزداد عجباً عندما نعلم أنّ هذه القلّة توشك أن تهاجر إلى المدينة المنورة،

لتبني دولة ومجتمعاً فاضلاً، لا يلبث أن يحمل رسالة عالميّة، ولا يلبث أن يُسقِط كل هذه القوى المتصارعة، ليؤسس حضارة تدوم وتدوم.

ما الحكمة وراء هذا التزامن العجيب:" **ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله**" ؟! فانتصار المسلمين ببدر يزامنه انتصار الروم على الفرس. ألا يوحي هذا بأنّ خارطة الصراع توشك أن تتبدل؟! واللافت أنّ الآيات الكريمة تتجاوز الواقع المؤلم للقلّة المؤمنة، والمضطهدة، وتشدّها إلى البعد الغيبيّ لحركة عالم الشهادة، إلى الأفق البعيد زماناً ومكاناً. وهذا هو ما يليق بعقيدة هذه القلّة، ورسالتها. ولا شك أنّ هذا في حينه لا يُفهم من قبل جماهير الوثنيين، الذين يفقدون البعد الغيبيّ، الذي تنزّلت به الرسالة الإسلاميّة.

أنت يا من تقرأ هذه السّطور، وتعيش بعد قرون من الحدث، وقد قرأتَ السيرة النبويّة، قف قليلاً وتدبّر هذه الآية، التي تُختم بها سورة الروم المكيّة:" **فاصبر إنّ وعد الله حق، ولا يستخفنّك الذين لا يوقنون** ". تدبّر هذه الآية ثمّ انظر واقع الإعلام الرسمي العربي ودوره في إحباط الأمّة، واستمع إلى خطابات الملوك والزعماء وتصريحاتهم. فإنّ كان بإمكانك أن تصدقهم لحظات، فسوف تشعر بخفّة وزنك، وانعدام شعورك بذاتيتك، وعندها لا يحتاج عدوك إلى عاصفة الصحراء، لأنّ النسيم يكفي.

جاء في الحديث الشريف المروي في صحيح مسلم:" **تقوم الساعة والروم أكثر الناس**". وإذا عرفنا أنّ الأحاديث الشريفة تنصّ على أنّ السّاعة تقوم على شرار النّاس، علِمنا أنّ أكثر الشرّ يوجد في

الروم. والعجيب أنّ المسيحيّة المنتشرة بينهم تقول:" من ضربك على خدّك الأيمن فأدِر له الأيسر، ومن نازعك ثوبك فدعه له"، وتقول:" أحبّوا مبغضيكم، باركوا لاعنيكم "، ثم هم أشدّ الناس قسوة، وأكثرهم بطشاً بالأمم الضعيفة، يبنون أبراجهم من جماجم الفقراء، لا يملّون من التآمر، ولا يكلّون من كثرة القتل، ثمّ هم أكثر النّاس تبجُّحاً بحضارتهم، وقيمهم الإنسانيّة، بزعمهم. فلا عجب بعد ذلك وغيره أن تقوم السّاعة والروم أكثر النّاس.

ماذا كانت تملك دولة فارس عندما انتصرت بجحافلها الهائلة غير فلسفة مزدك الإباحيّة؟! وكيف لمثل هذا النصر أن يدوم أكثر من بضع سنين؟! وماذا كانت تملك إمبراطوريّة الرومان وهي تواجه بجيوشها الجرارة القلّة المؤمنة من صحابة رسول الله، صلى الله عليه وسلم؟!

واليوم، إذا استثنينا العلم والتكنولوجيا، وسألنا ماذا قدّمت الحضارة الغربيّة للبشرية؟! نعم، إذا استثنينا ما هو عام وعالمي، وسألنا: ماذا يمكن أن تُقدِّم الخصوصيّة الغربية للبشريّة ؟! ماذا عسى أن تكون إجابة رجل مثل بِرلسكوني، الرئيس الإيطالي، الذي تغنّى مؤخراً بقيم الحضارة الغربيّة؟! إنّ ما يحدث اليوم في أفغانستان وغيرها لهو شاهد على إفلاس هذه الحضارة الغربية وأُفولها، والمستقبل كفيل بإثبات ذلك.[1]

---

[1] المقصود ما حصل عند احتلال أفغانستان بعد أحداث 11 سبتمبر المشهورة.

أم القرى

جاء في الآية 92 من سورة الأنعام:" **وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه، ولتنذر أمّ القرى ومن حولها**...". وجاء في الآية 7 من سورة الشورى:" **وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أمّ القرى ومن حولها**... ". واضح أنّ **أمّ القرى** هنا هي مكّة. وقد يقال إنّ المقصود بذلك أنّها العاصمة بمفهومنا المعاصر. وإذا علمنا بأنّ القرآن الكريم قد نزل إلى البشرية جمعاء، أصبح من المحتمل أن يكون المقصود بمن حولها مجموع النّاس. وقد سبق أن بيّنا في مقام آخر أنّ القرآن الكريم يجعل من مكّة البؤرة والمركز، والمكان الذي يُنسب إليه، ويُقاس عليه، غيره من الأمكنة؛ فالمسجد الأقصى هو الأقصى بالنسبة إلى مكّة، أمّا القصيّ فهو المسجد النبوي. وعليه يصحّ أن يكون المقصود بمن حولها مجموع البشريّة. وإذا كان هذا صحيحاً فما المقصود **بأمّ القرى**؟

القَرْيُ: هو الجمع. ولمّا كان الناس يجتمعون في صيغة شعوب وقبائل، فقد سمّيت مجموعاتهم هذه قرى، وسمّيت كل مجموعة قرية. فالقرية إذن تعبر عن الاجتماع البشري. ولما كان هذا الاجتماع لا بدّ أن يكون في مكان، فصحّ أن يسمى مكان الاجتماع قرية. جاء في

الآية 59 من سورة الكهف:" **وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا** ": واضح أنّ المقصود هنا أهل القرى، لأنّ القرى تطلق، كما قلنا، على الاجتماع البشري، وعلى مكان الاجتماع أيضاً. وعليه يحتمل أن يكون المقصود بأمّ القرى **أمّ الأمم**. ومعلوم أنّ الأم هي الأصل الذي يصدر عنه الفرع. وهذا يقودنا إلى القول بأنّ مكة هي المكان الذي خرج منه الناس إلى بقاع الأرض المختلفة، أي أنّ مكة هي أول مكانٍ اجتمع فيه البشر، ومنه صدروا، وذلك بعد أن تكاثروا. وقد يعني هذا أنّ مكة هي أول نقطة التقاءٍ للبشريةِ بالأرض. ويبدو أنها كانت المكان الذي نزل فيه آدم، عليه السلام، أول ما نزل.

جاء في الآية 96 من سورة آل عمران:" **إنّ أوّل بيتٍ وُضِع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين**". إذا كان أوّل بيت وُضِع، ليتعبّد فيه الناس، هو المسجد الحرام في مكة، فإنّ ذلك يعني أنّه مُغرق في القدم، والأقرب أن يكون قد وضع للناس في فجر البشريّة، لأنّه بعيد في العقل أن يبقى الناس فترة طويلة من الزمن لا يجتمعون في مكان يجمعهم على عبادة الله، وعلى وجه الخصوص عندما نعلم بأنّ آدم، عليه السلام، كان نبيّاً. وهذا يعني أنّ البشرية قد بدأت مسيرتها في الأرض وهي تعرف الخالق وتعبده، ثمّ كانت الانحرافات بعد فترة من الزمن، فبعث الله سبحانه وتعالى نوحاً، عليه السلام، فكان أول رسول للناس.

فإن قيل إنّ قلّة عدد الناس، في البداية، لا يُحتِّم وجود مكان يجمعهم للعبادة، بل لا ضرورة لذلك. قلنا نعم هذا ممكن، ولكن إذا

عرفنا أنّ مساحة الكعبة من الداخل لا يزيد كثيراً عن**80 متراً مربعاً** وإذا أدخلنا **الحِجر** فقد لا تتجاوز **100متر مربع**، أو تزيد قليلاً. وعليه فكم يمكن أن يكون عدد الذين يحتشدون في مثل هذه المساحة من أجل أداء العبادة؟! ولا يتوقع أن تكون أول عبادة على صيغة طواف، وإلا فما معنى المساحة الداخليّة، وما معنى أنّه مسجد؟ وقد سئل الرسول، صلى الله عليه وسلم، كما جاء في الحديث الصحيح، عن أول بيت وضِع للناس فقال، عليه السلام: المسجد الحرام. قيل: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى... ومعلوم أنّ المسجد الأقصى لا طواف عنده.

" **إنّ أول بيت وُضِع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين**". لفظة **وُضِع**، تدلّ على أنّ الأمر كان بوحي سماوي، وتكليف ربّاني. أما لفظة **بيت**، فتدل على أنّ العبادة في البداية كانت في داخله. وأما لفظة **للناس**، فتشير إلى أنّه وضع لجميع الناس. وإذا كانت مساحة البيت هي ما ذكرناه آنفا، فانّ هذا يشير إلى عدد الناس القليل، مما يدل على أنّه قد وضع في فجر البشريّة، أما جملة:" **للذي ببكة مباركاً**" فلها مقام آخر، إن شاء الله تعالى؟ وأما جملة:" **وهدى للعالمين**" فتؤكد أنّه وضع لجميع البشر. وإذا كان صحيحاً ما توصلنا إليه، من أنّ مكة هي أول مكان أقام فيه البشر وجودهم الاجتماعي، أفلا يصبح فهمنا للأمور الآتية أشدّ وضوحاً:

أولا: أنّ حجّ الناس، كل الناس، يجب أن يكون إلى مكّة.

ثانيا: أنّ أذان إبراهيم، عليه السلام، بالحجّ كان من مكّة، وإلى الناس في كلّ مكان، كما توحي الآيات الكريمة من سورة الحج.

ثالثا: أنّ فريضة الحجّ يُخاطب بها الناس، في حين أنّ أركان الإسلام الأخرى يُخاطب بها المؤمنون. وأنّ أعلى نسبة تكرار لكلمة **الناس** هي في سورة الناس، ثم سورة الحج.

رابعا: أنّ لباس الحاج يكون بسيطاً بحيث يلغي الفوارق، فيعود الناس كما كانوا في أول اجتماع لهم على الأرض، فيذكرهم ذلك بأخوّتهم الإنسانيّة.

المدينـة

هاجر الرسول، صلى الله عليه وسلم، من مكة إلى يثرب. وقبل أن ينزل، عليه السلام، بيتاً من بيوتها كان قد حدد المكان الذي يُبنى فيه المسجد. وهذا الفعل يدلّ على أهميّة المسجد في المجتمع الإسلاميّ. ثمّ ما لبث الرسول، صلى الله عليه وسلم، أن استبدل اسم **يثرب** باسم **المدينة**. ومن اللافت أن تُسمّى مدينة ما باسم المدينة، وعلى وجه الخصوص عندما تُعرّف، فكأنّها وحدها المدينة.

أطال المفكرون والفلاسفة الحديث في أفضل صيغة ممكنة للاجتماع البشري، أو ما يُسمّى **المدينة الفاضلة**. ولا شك أنّ المدينة الفاضلة هي حُلم البشريّة منذ القديم وإلى يومنا هذا. وقد ظنّ الإنسان المعاصر أنّ الحلّ سيكون في التطور العلمي والتكنولوجي، إلاّ أنّ مرور عدّة قرون على النهضة العلميّة أثبت أنّ العلم وحده قاصر عن إيجاد المجتمع البشري الفاضل، بل إنّ التفكك الأسريّ، والاجتماعيّ، وانتشار الجرائم، وسيطرة الفلسفة العبثيّة، أصبحت من خصائص المجتمعات العلمانيّة المتقدمة علمياً وتكنولوجيا، فعاد الإنسان فيها، بعد طول معاناة، يحاول أن يستعين بالدين، ليعيد التوازن إلى مسيرته المتعثّرة.

كان مما نزل في المدينة بعد الهجرة:" **كنتم خير أمّةٍ أُخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**"، تُعلن الآية الكريمة عن ميلاد ووجود المجتمع المنشود والمدينة الفاضلة، التي يبحث عنها البشر. ولم تَخرُج هذه الأمّة نتيجة التطور العلمي والتكنولوجي، فكل هذا مجرد وسائل ميسّرة للعيش ومساعدة على البقاء. بل إنّ التطور العلمي والمادّي، في المجتمعات الإسلاميّة الأولى، جاء ثمرة لصياغة الإنسان على مستوى الفكرة، والسلوك الفردي والاجتماعي. من هنا لم يكن من قبيل الصدفة أن يظهر، مثلاً، الإمام أبو حنيفة والإمام مالك، قبل ظهور الرازي وابن سينا وجابر بن حيّان. وليس من قبيل الصدفة أيضاً أن يشتهر عَدل عمر بن الخطاب قبل اشتهار فقه الشافعي، أو فلسفة واصل بن عطاء....

الإسلام عقيدة وشريعة، ودين منه الدولة. وإذا كانت الفلسفة يمكن أن تبقى فكرة نظرية بعيدة عن الواقع التطبيقي، فإنّ الدين قد نزل من أجل أن يخلق واقعاً جديداً في عالم الاجتماع الإنساني، ولا يجوز أن يبقى سجين الإطار النظري، ومن هنا كانت ضرورة الهجرة من مكة إلى يثرب. وبما أنّ الهجرة قد أوجدت الواقع الذي يجب أن يتحرك فيه الدين، فقد جاء الإعلان المجلجل عن ميلاد المدينة الفاضلة، التي يحلم بها الإنسان منذ فجره الأول. وإذا كانت التسمية للمولود تحمل الرغبة والأمل والتوقّع، فإنّ هذا كان واضحاً تماماً في دلالة تغيير اسم **يثرب** لتصبح **المدينة**.

بعد هذا الحدث بأقل من عشر سنوات جاء الإعلان عن تخريج شعب المدينة الفاضلة:" **كنتم خير أمّة أخرجت للناس**...". وعليه فإذا أراد الناس أن يصنعوا مجتمعاً فاضلاً، فإنّ هذا هو المثال، وهذه هي المدينة الفاضلة. وليس غريباً بعد ذلك أن نجد المسلمين، عبر العصور والى يومنا هذا، يتوقون بشدّة إلى المجتمع المدني الأول، وأن نجدهم يحكمون على كل المجتمعات الإسلاميّة، التي جاءت بعد المرحلة الراشدة، بالانحراف النسبي. ولا يزال الحنين الشديد إلى تلك الحقبة يشدُّ الجميع، ولا يزال الناس يتخذون من تلك المرحلة مقياساً. ألا يدل كل ذلك بوضوح على أنّ المدينة الفاضلة ولدت ووجدت في مجتمع المدينة الأول من أجل أن تكون على مدى العصور مصدر الإلهام، والقدوة والميزان؟ وسيبقى كل ما سواها دونها، لأنّها أخرجت وخُرّجت لأجل الناس.

أما **يثرب** فقد ماتت، ولم تعد تعني أحداً من الناس، إلا ما كان من بعض المتنفذين في مرحلة الجاهليّة، من أمثال عبد الله بن أبي بن سلول، الذي توقّع وتمنّى زوال المدينة، وذلك عندما رأى الأحزاب تُطبِق بجيوشها على أطرافها، فكانت منه الصيحة التي تكشف عن أسرار القلوب، وتعلن عن رغائب الموتورين من أعداء الحقيقة، وأعداء المدينة الفاضلة:" **وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثربَ لا مُقام لكم فارجعوا**..." الأحزاب13. وإذا كانت **يثرب** أمنية بعض المنافقين فإنّ **المدينة** ستبقى أمنية الإنسانيّة جمعاء.

الكعبة

الكَعَب: هو النتوء والبروز، ومن هنا سمي الجزء المرتفع والبارز من القدم كعباً. وورد في اللغة أنّ **الكعبة** هي البيت المكعب، أي المربّع، وقيل المرتفع. وصحّح بعضهم المعنى الأول، أي أنّ الكعبة هي كلّ بيت مربّع. وبما أنّ الكعبة هي أول بيت وُضِع للناس من أجل العبادة، كما ينص القرآن الكريم، فلا يبعد أن تكون التسمية ربّانيّة المصدر. ولأنّ الكعبة بُنيت مربّعة فقد أصبح الناس يَصِفون كلّ بيت مربّع بأنه كعبة، ثمّ اشتق منه المكعّب ليعني المربّع، ثم أُطلِق المكعّب على المجسّم ثلاثي الأبعاد ذي الأوجه المربّعة. وبما أنّ الكعبة هي أول بيت مرتفع وبارز فوق الأرض، فقد كانت كلّ الألفاظ المشتقة من هذا الاسم تدل على الارتفاع، وبالتالي لا داعي لأن نُرجّح معنى على آخر. ولأنّ الكعبة هي قبلة المسلمين في الصلاة والحجّ، فقد وجدنا الناس يجعلون لفظة الكعبة مرادفة للفظة القبلة.

جاء في الآية **97** من سورة المائدة:" **جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَام...** ".

واضح أنّ البيت الحرام كان في البداية لا يزيد عن مساحة الكعبة. من هنا نجد أنّ الآية تُصرّح بأنّ الكعبة هي البيت الحرام. أمّا اليوم فإنّ

مساحة البيت الحرام ضخمة جداً، ويمكن أن تزاد وتلحق بها مساحات أخرى حتى تصل الحدود التي حددها الرسول، صلى الله عليه وسلم، كمنطقة حرام، لها أحكام خاصة. ويبقى للكعبة مركزيتها، بل إنّ كل ما أحاط بها اكتسب مكانته لصلته وقربه منها.

جاء في الآية **5** من سورة النساء:" **وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً**"، فقد جعل الله تعالى المال قوام الحياة، فلا تقوم الحياة، ولا تثبت، ولا تستمر، إلا بالمال. وهذا معلوم وبدهي، وليس هو محل جدال أو تشكيك. واللافت للنظر أنّ القرآن الكريم لم يستخدم مثل هذا التعبير مرّة أخرى إلا في سورة المائدة، في قوله تعالى:" **جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَام...**". فجَعْلُ المال من مقوّمات الحياة أمر مفهوم ومجمع عليه بين الناس. ولكن الأمر الذي قد لا يُفهم بداهة، وليس هو محل إجماع، فهو **الإيمان**، الذي يولّد في النفوس مفهوم القداسة، ومفهوم الواجب، ومفهوم الحرمات. وقد نزلت الرسالات الربّانية لتقيمه، وتحرسه، وتعززه.

فالحياة البشريّة لا تقوم بالمال وحده، ولا مجال لاستمرار الوجود المجتمعي الإنساني بعيداً عن المفاهيم التي يغرسها الدين في النفوس. من هنا يمكن للمستقرئ أن يُلاحظ ذلك؛ فالمجتمعات التي يضعف فيها تأثير الدين، وتزلزل فيها قِيمهُ ومفاهيمه، لا بد أن تظهر فيها عوامل التفكّك والانحلال، بل إنّ الإنسان، في مثل هذه المجتمعات، يفتقد هدفيّة وجوده ومسوّغ استمراره. ومن هنا نجد، مثلاً، أنّ الفلسفة الوجوديّة في

الغرب، والتي ترفع شعار (لا إله)، هي أيضاً ترفع شعار (العبثيّة)، بل إنّ من أساسيّات مبادئهم أنْ لا شيء له معنى إلا الموت، وغاية إمكانات الإنسان الانتحار!! ولا شكّ أنّ للدين دوراً متنامياً في المجتمعات البشريّة المختلفة، ولذلك يصعب أن نجد اليوم مجتمعاً يتجرّد من الإيمان، ومن مفهوم القداسة، والواجب، والحرمة. إلا أنّه بالإمكان أن نلاحظ التناسب الطردي بين قوة الإيمان وقيمهِ في المجتمع، وقوة التماسك الاجتماعي. وقد ثبت بالتجربة أنّ توافر المال، والذي هو القوام الأول، غير كافٍ إلى أن يتحقّق الإيمان، والذي هو القوام الثاني. ويمكن ملاحظة أثر فقدان القوام الثاني في المدارس المادّيّة، مثل المدرسة الوجوديّة، وذلك على المستوى الفلسفي، ومثل المدرسة الماركسيّة، وذلك على المستوى الفلسفي والواقعي. وما تجربة الاتحاد السوفييتي عنّا ببعيد، فهي غنيّة الآن عن البيان.

فالأحكام المتعلقة بالكعبة والحجّ إليها، والأحكام المتعلقة بالأشهر الحُرُم، والأحكام المتعلقة بالهَدي والأضاحي، وغير ذلك من الأحكام ذات العلاقة بمكانة الكعبة، تُشكّل في شِقّها الإيماني وشقّها السلوكي القوام الثاني. وقد يكون من السهل على الناس أن يدركوا أهمّية نظام العقوبات، مثلا، وضرورته لقيام الحياة المجتمعيّة المستقرّة، إلا أنّهم قد يغفلون عن أهمّية وضرورة تشريعاتٍ كالحج وأحكامه، فيلتبس على البعض فَهْم كيف يمكن أن تكون **الكعبة قياماً للناس**. ويبدو أننا بحاجة

إلـى إعـادة نظـر ومزيـد تـدبُّر لأحكـام وأسـرار الـركن الخـامس مـن أركـان الإسلام.

عرفات

المتدبّر لمناسك الحجّ يجد أنّها ترمز إلى أساسيّات الفكرة الدينيّة، بل قد تُلخّص المقاصد والأهداف من نزول الرسالات؛ فالطواف يرمز إلى ضرورة الانسجام مع قوانين الخلق والفطرة. أمّا السعي بين الصفا والمروة فهو يرمز إلى قطبي الخوف والرجاء ودورهما في البناء الحضاري الإنساني، وقد فصّلنا القول في ذلك في مقام آخر. ونريد هنا أن نتوقّف قليلاً عند ركن الوقوف بعرفة، والذي هو الأهم في كل مناسك الحجّ، إلى درجة أنّ الحج يتلخّص في هذا الوقوف؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح:" **الحجُّ عرفة** "، ومن لم يقف بعرفة فحجُّه باطل.

إذا أعلن كلُّ حاج بطوافه عن انسجامه، في حركته وسلوكه، مع حركة الكون من حوله، أو بمعنى آخر أعلن عن استسلامه طوعاً كما استسلم الكون، أو بمعنى ثالث أعلن عن رغبته في تحقيق جوهر الإسلام. نعم، إذا تحقق هذا، ثمّ قام الحاج بالإعلان عن خوفه وطمعه، رغبته ورهبته، بسعيه وتردّده بين الصفا والمروة، إذا حصل كل هذا، فقد آن لكلّ هؤلاء أن يقفوا في صعيد واحدٍ في عرفات. نعم، لقد آن لهم أن **يتعارفوا**، وآن لهم أن **يعترفوا** لله بالربوبيّة، وأن يعترفوا بفقرهم والتجائهم

إليه عز وجل. وآن لهم أن يتعرّفوا إلى الله ليعرفهم. جاء في الحديث الشريف: "...تَعرّف إلى الله في الرخاء يعرِفْك في الشدّة..".

يصحّ لغةً أن تكون **عرفات** جمع عرفة. وكلّ قطعة أرض يقف عليها حاج فهي عرفة، وكلّ موقف لكلّ حاج عرفة. لذا فالموقف كلّه عرفات. إنّه موقف **تعارف، واعتراف، وتعرّف**. وما يهمنا في هذه العجالة هو التعارف؛ ففي يوم عرفة تسقط الفوارق والحواجز، وتقف الأمم والشعوب أمام الحقيقة التي تُذكّر بصلة الرحم:" **يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا**..."، إنّه صوت الدين الخالد يتواصل عبر العصور يَرُدُّ مسيرة البشريّة إلى الطريق المستقيم. ما أكثر النزعات والدعوات والشهوات، التي تحاول أن تنحرف بالمسيرة البشريّة، وتجهد في محاولة طمس حقيقة الأخوّة الإنسانيّة. وتبلغ البشاعة مبلغها عندما تلبس هذه الدعوات لباس الدين، كما هو في العنصريّة الصّهيونيّة، وليدة اليهوديّة المنحرفة.

لم ينزل الدين ليحقق القناعات الفكريّة فقط، بل جاء ليجعل الفكرة عاملة وفاعلة في الواقع البشري. وتكتمل الصّورة عندما يتطابق الواقع المحسوس مع الفكرة، فيكون الانسجام بين النظرية والتطبيق. ويظهر ذلك جلياً في إجابة عائشة، رضي الله عنها، عندما سُئلت عن خُلق الرسول، صلى الله عليه وسلم، فقالت:" **كان خُلُقه القرآن**". وفي الوقت الذي يكون فيه الواقع هو الانعكاس الحقيقي للفكرة الإسلاميّة، والتعبير الصادق عن صدقها وفاعليتها، عندها سيشهد الناس اكتمالين؛ الاكتمال

الأول، ويكون بتجلّي يأس أعداء الحقيقة الدينيّة من إمكانية تطويق الدين، أو تطويعه، أو الوقوف حجر عثرة أمام مسيرته. ويكون ذلك نتيجةً لمشاهدتهم الواقع غير القابل للنقض والإفناء. أمّا الاكتمال الثاني، فهو تحقّق المقاصد من إرسال الرسالات، وتجلّي الفكرة بتجسدها الكامل في أرض الواقع.

في التاسع من ذي الحِجّة، في يوم عرفة، من السنة العاشرة للهجرة، وبينما الناس جميعاً يقفون في عرفات، يشهدون الموقف، ويشهد لهم الموقف، نزل الوحي بالإعلان الآتي:"... **اليومَ يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون، اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي، ورضيتُ لكم الإسلام ديناً** "، في عرفات اكتملت المعرفة، واكتمل العمل. أمّا البداية فقد كانت في غار حراء والرسول، عليه السلام، في الغار وحده. وبعد سنين وسنين، وبعد أن بُنِيَت الأمة لَبِنة لبنة، كان لا بدّ للبناء أن يكتمل في العلن، وفي ضوء الشمس. كيف لا، وقد أُخرِجت الأمّة وتخرّجت ؟!

أمّا اليوم فإنّ كلّ الوقائع تُرهص بالاكتمال، كما يرهص الهلال باكتمال البدر، مع يقيننا بأنّ التاريخ لن يعيد نفسه، ومع يقيننا بأنّ أمّة الصحابة هي المثال البشري الأعلى الذي لن يتكرر، لأنّه وجد ليكون المقياس. ولكن المؤشّرات كلها تقول إنّ الغد، بإذن الله، خير من اليوم. وقد يَعجبُ البعض من هذا القول، كما عَجِب آخرون من بشريات الرسول، عليه السلام، عندما حاصر الأحزابُ المدينة المنورة، وما علموا

أنّ هذا الحصار، والذي كان يمثّل أوج الكيد الكُفريّ، هو في حقيقته وواقعه، الامتحان الذي سيتمّ بعده تخريج خير أمّة أخرجت من أجل الناس.

الحـج

جاء في الآية **97** من سورة آل عمران:" **ولله على الناس حِجّ البيت ...**" وجاء في الآية **27** من سورة الحج:" **وأذّن في الناس بالحجّ**..."، فالحجّ يُمثّل الأفق العالمي للدين. وإذا كان الحجّ هو الركن الخامس، فإنّ تشريعه أيضاً جاء خامساً بعد الأركان الأربعة. وتُمثّل هذه الشعيرة خلاصة أساسيّات الدين. والمتدبّر لرموز كل خطوة من خطوات الحاج يجد الانسجام بين قوانين الحجّ وقوانين الحياة الإنسانيّة، فالحجّ ثري بالرموز والدلالات.

يمكن الحكم على صِدقيّة أيّ دين على أساس مدى انسجام مبادئه وأحكامه مع قوانين الكون؛ فمن غير المتصوّر أن تتناقض مبادئ الدين الحق وأحكامه مع قوانين الخلق وسننه، لأنّ الذي خلق هو الذي أنزل؛ فإذا كان الخمر ضاراً كسُنّة كونيّة، فلا بدّ أن يكون محرماً كسُنّة تشريعيّة. ومن هنا نجد أنّ الفقهاء، وبعد استقراء أحكام الشريعة الإسلاميّة، ذهبوا إلى أنّ الشريعة الإسلاميّة تقصد في أحكامها إلى المحافظة على الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال. وبمعنى آخر، فقد جاء الدين ليحقق الانسجام بين حركة الإنسان وحركة الكون من حوله. وعليه يمكن تعريف الطاعة بأنّها الانسجام بين القانون الشرعي

والقانون الكوني. ويمكن تعريف المعصية بأنّها التعارض والتناقض بين القانون الكوني والسلوك البشري. وعندما نقول إنّ الإسلام هو الحل، فإنّما نقصد أن نقول إنّ الانسجام هو الحل.

يجعل الحاج المسلم الكعبة عن يساره ويبدأ الطواف في حركة دائريّة ومتواصلة. بذلك يكون الإنسان قد أعلن في حركته هذه عن انسجامه الطوعي مع حركة الكون، من أصغر جزء فيه، أي الذرة، إلى المجموعة والمجرّة. نعم إنّه إعلان المخلوق الحر، بأنّ الحريّة، والتي هي منحة الله تعالى للإنسان، لا تعني الفوضى ولا الخروج ولا التناقض، بل هي التوافق والنظام والانسجام. وهذه هي الرسالة الأولى للدين الحق.

والمتدبّر لحركة الإنسان في الأرض يجد أنّ قانون التردد بين الخوف والرجاء هو القانون الأساس في بناء الحضارات الإنسانيّة؛ انظر إلى حركة الناس على مستوى الاقتصاد، تجد أنّ أهم دوافع حركتهم هو الخوف من الفقر ورجاء الغنى. وانظر إلى عالم الدراسة والتعليم، تجد أنّ الدافع إلى الجدّ يكمن في الخوف من الإخفاق، وفي ورجاء النجاح. وانظر إلى تقدم الطبّ، تجد خوف الألم ورجاء العافية، وخوف الموت ورجاء الحياة... وهكذا نجد أنّ هذا القانون يشمل نشاطات الحياة. وفي الوقت الذي ينعدم فيه قُطبُ الخوف أو قطب الرجاء، نجد أنّ الحركة تتوقف؛ فالخوف الذي لا رجاء عنده يُحبِط القدرات. والرجاء لا يكون رجاءً حتى يلابسه خوف. أمّا الأمن الكامل، إن وُجِد، فهو من أكبر دواعي الخمول والسكون. انظر قوله تعالى:" **إنّه لا يأمنُ مكر الله إلا**

القوم الخاسرون"، في المقابل:" **إنّـه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون** ". ثم انظر قوله تعالى:" **يدعوننا رغباً ورهباً** "، "...**خوفاً وطمعاً** ".

هل كانت هاجر، عليها السلام، تدرك وهي تسعى بين الصفا والمروة، تبحث عن الماء ثمّ ترجع مهرولة إلى رضيعها إسماعيل، عليه السلام، لتطمئن عليه، أنّ هذه اللحظات الجليلة ترمز إلى قانون الخوف والرجاء؟! وكيف بها لو كُشف لها الغيب فرأت الملايين من الحجاج تُحاكي حركتها في سعيها الحثيث بين القطبين؟! إنّه القانون والسنّة المحكّمة قبل أن تكون الحادثة، بل إنّ الترغيب بالجنّة والترهيب من النار، في كل دين حق، لهو بعض تجلّيات حكمة خالق القوانين والسنن. وما تلك الحادثة إلا بعض تكريم الحكيم لمن اصطفى من عباده.

طواف الوجود

المتدبّر لشعائر الحج يلحظ تجلّي الرمزيّة في كل عمل من أعمال الحجيج. ولكننا نهدف هنا إلى أن نلفت الانتباه إلى بعض رموز شعيرتي الطواف ورمي الجِمار. ومعلوم أنّ الطّواف حول الكعبة المشرّفة هو من أهم أعمال الحج، وأكثرها تكرراً. والطواف صلاة، كما جاء في الحديث الشريف، بل إنّ الطواف مقدّم على الصلاة عند البيت الحرام. وإذا كان الطواف سبعة أشواط، فإنّ رمي الجمار يكون سبع حصيات. وإذا كان الطواف يتكرر بشكل لافت، فإنّ رمي الجمار يتكرر أيضاً.

يقوم الكون في جوهره على الحركة، ولا يعرف العِلم وجوداً ماديّاً ساكناً، وإذا كانت الذرّة هي المكوّن الأساس للمادّة المعروفة، فإنّ صيغة الطواف هي الأبرز في العلاقة بين مكونات الذرّة؛ فالالكترونات في حالة طواف دائم حول النواة، ويكون ذلك في مدارات لا تزيد عن سبعة، وإنْ وجد المدار الثامن فمن أجل حلّ هذه العلاقة ونقضها. ويدهشك أن تجد أنّ هذه العلاقة تتجلى أيضاً في المجموعات والمجرّات الفلكيّة، أي أنّ صيغة الطواف هي الأبرز في خلق الكون، من أصغر ذرّاته إلى أكبر مجرّاته. إنّه الانسجام التام والتناسق البديع.

بسم الله الرحمن الرحيم، هي أول آية في ترتيب المصحف. ولمّا كانت كل حركةٍ للإنسان في هذا الوجود يجب أن تصدر باسم الله الرحمن، الذي تتجلى رحمته بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فستكتمل عندها الصّورة، ويتحقّق الانسجام الكامل في حركة الوجود. وإن صحّ التعبير فإنّ الدين هو الرياضة التي تعلمك كيف تُحقّق الانسجام مع حركة الكون، لتكتشف أنّ الكون يبلغ في انسجامه غاية الجمال والكمال. أمّا الخروج على تعليمات وإرشادات الخالق الحكيم فهي الحركة العشوائيّة التي تجعل الإنسان يبرز كنغمة شاذّة في لحن الكون الرائع.

عندما يجتمع الناس في بيت الله الحرام لتأدية الركن الخامس من أركان الإسلام، فإنّ هذا يعني أنّه قد تحققت الآثار المرجوة من القيام بالأركان الأربعة. وعندما تحتشد جموع الحجيج معلنةً:" **لبيك اللهمّ لبيك**"، فإنّ هذا الإعلان هو التأكيد لرغبة الإنسان الطوعيّة في الانسجام مع حركة الكون المستسلم لله. من هنا نجد أنّ الحاجّ يبدأ حجّه بالطواف، ويختمه بالطواف، وبين البداية والخاتمة طواف وطواف. إنّه التعبير العملي عن الاستسلام الكامل، والانسجام التام مع حركة الوجود. إنّه قناعةٌ، وقرارٌ للكائن الحرّ أن ينسجم طواعية مع حركة الكون المستسلم فطريّاً. إنّها لحظات جليلة، يكتمل جلالها عندما يستحضر الحاج في ضميره هذه الحقيقة، ويدرك أنّه يعيش لحظات الانسجام الكوني.

إذا كان الخير هو الحركة نحو الانسجام الكوني، فإنّ الشر هو الحركة نحو التباين والفوضى، وهو الشذوذ المؤذي، وهو التبعثُر المُذهب لجمال الصورة، إنّه السير بعكس التيار. لذا لا يمكن لشرٍّ أن يدوم، لأنّه مناقض للفطرة ولقانون الوجود. ولا يجوز لنا أن ننتظر حتى يلقى الشرّ مصيره، باعتباره معاكساً لحركة الوجود، لأننا جزء من هذه الحركة. من هنا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أبرز الفروض في الشريعة الإسلاميّة. وفي الوقت الذي نُعلن فيه انسجامنا مع حركة الوجود فلا بد لنا من أن ننسجم أيضاً مع هذا الوجود في رفضه للباطل، ولا بد من ممارسة ذلك عملياً، وهذا ما يعلنه الحاج مراراً وهو يرمي الجِمار، أو كما يُقال:" يرجم إبليس".

السّبت

السبت فيه معنى الانقطاع، وفيه معنى الخلود إلى الراحة والدّعة. وقد وردت كلمة السبت في القرآن الكريم خمس مرات، وإذا أضفنا كلمة سبتهم و يسبتون يكون المجموع سبع مرات. واللافت للانتباه أنّ السبت عند اليهود مرتبط بالعدد سبعة. ولم يرد السبت في القرآن الكريم إلا عند الحديث عن شريعة السبت عند اليهود، والمتدبّر للآيات القرآنيّة المتعلقة بالسبت يدرك أنّ هناك خصوصيّة لهذا اليوم عندهم. وإذا أخذنا ما ورد في التوراة الحاليّة بعين الاعتبار ندرك أنّ خصوصيّة يوم السبت تكمن في كونه يوماً ينقطع فيه اليهود عن العمل الدنيوي، ويفترض أن ينقطعوا فيه إلى العبادة، ولا يتناقض هذا مع ظلال معاني الآيات القرآنية الكريمة.

واضح أنّ تسمية السبت جاءت من خصوصيّته وأحكامه عند اليهود؛ فهناك علاقة بين الاسم وما يفترض أن يُمارس فيه من عبادات، مثلما أنّ اسم يوم الجمعة يناسب ما يكون فيه من اجتماع المسلمين في المسجد للصلاة. وخصوصيّة يوم السبت عند اليهود، وخصوصيّة يوم الجمعة عند المسلمين، يدللان على أنّ تقسيم الأسبوع إلى سبعة أيام يرجع إلى أساس ديني، ولا نعلم له أساساً فلكياً. وقد نصّ القرآن الكريم،

وكـذلك نصّـت التـوراة المحرّفـة علـى أنّ الله تعـالى قـد خلـق السـماوات والأرض في ستة أيام. وقد يعني هذا أنّ اليوم السابع هو اليوم الذي جاء بعد تمام الخلق، أي أنّـه اليوم الذي لـم يكن فيـه خلق يتعلق بالسماوات والأرض، أي أنّه يوم انقطـاع. وقد يكون هذا التفسير مقبولاً في توضيح العلاقة بين السبت والعدد سبعة. ولا يُقبل إطلاقاً ما يزعمه اليهود من أنّ الله تعالى قد استراح في اليوم السابع.

لا نستطيع أن نركن إلى التوراة الحاليّة لما طرأ عليها من إضافات وحذف عبر القرون. ولكنّ الدارس يلاحظ أنّ مفهوم السبت عند اليهود يتعلق بيوم السبت الذي هو اليوم السابع من الأسبوع، ثمّ هو يتعلق بالسنة السابعة، التـي يجب أن تكون السنة التـي لا تُـزرع فيهـا أرض فلسطين، بل تكون راحة للأرض. ويتكرر هذا كل سبع سنين. وبعد سبع سبوتات، أي 49 سنة، تكون السنة الـ 50 هي سنة اليوبيل، ولها أحكام فُصّلت فـي السفر الثالث من أسفار التوراة. ويلحظ الدارس للتوراة أنّ عـدم احتـرام اليهـود لهـذه الشـريعة يكـون سـبباً لإخـراجهم مـن الأرض المقدّسة، وسبباً لتشتيتهم في الأرض. ويبدو أنّ ذلك أدّى إلى الربط بين الرقم 7 والزوال والانقطاع. لذا يعتقد اليهود بأنّ دنيا الإنسان تكتمل سنة 6000 عبريّـة، أي أنّـه فـي الألـف السـابعة يكـون الـزوال بـزعمهم. وبالرجوع إلى القرآن الكريم نلاحظ أنّ السبع مرات التي ذكر فيها السبت تكرر ثلاث منها في السورة السابعة، وهي سورة الأعراف. وآخر ورود لكلمة السبت في القرآن الكريم كان في الآية 124 من سورة النحل،

والتي عدد آياتها 128 آية، حيث يقول سبحانه: "إنّما **جُعِل السبت** على الذين اختلفوا فيه...". وبعد سبع آيات تأتي الآية الرابعة من سورة الإسراء التي يُفتتح بها الحديث عن قضاء الله بإفساد اليهود في الأرض المقدّسة مرتين، ثمّ زوال ذلك. واللافت أنّ سورة الإسراء تحدّثت عن زوال الوجود اليهودي المفسد من الأرض المقدّسة، وأنّ هذا بشرى للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، ثمّ تلتها سورة الكهف التي فيها قصّة موسى عليه السلام مع العبد الصالح؛ حيث موسى عليه السلام يتواضع فيكون تابعاً، وحيث لا نجد أيّ ذكر لبني إسرائيل!!

واضح أنّ جعل السبت كان بعد الاختلاف فيه، وهذا يعني أنّ جعل السبت يختلف عن فرضه؛ فاحتيال اليهود لانتهاك حرمة السبت، وذهابهم في هذه الحيل مذاهب شتّى، أدّى إلى التشديد عليهم في أحكام السبت، فكان السبت من الإصر الذي حملوه نتيجة فسوقهم وعصيانهم وانتهاكهم لحرمات السبت ابتداءً. والمتدبر لسياق الآيات من سورة النحل يلاحظ أنّ هناك شيئاً آخر، ألا وهو حكم الله عليهم بالانقطاع، فلم يعودوا ضمن المسيرة المتصلة لدعاة الخير، ولم يعودوا من قادة الهداية، ولم يعودوا يسيرون تحت لواء التوحيد. فكان اعتداؤهم واحتيالهم وتفرّقهم باتباعهم الأهواء، سبباً في حذفهم من قافلة الخير، فانقطع وجودهم وذكرهم في عالم الصلاح والإصلاح، فلا تجدهم إلا أئمّة للفسق وقادة للشرّ.

وأخيراً نقول: من يقرأ عجائب صنع اليهود في احتيالهم للقفز عن المقدسات، يدرك أنّ يهود اليوم على استعداد أن يتنّكروا لكلّ مقدّس، بشرط أن ينسجم ذلك مع مصالحهم الماديّة، أي مع عجلهم المقدّس المصنوع من الذهب.

التابوت

جاء في الآية **248** من سورة البقرة:"**إنّ آية مُلكِه أن يأتيَكم التابوتُ فيه سكينةٌ من ربكم وبقيّةٌ مما ترك آل موسى وآل هارون تَحمِله الملائكة**...".

عندما طلب بنو إسرائيل، قبل عهد داود عليه السلام، أن يجعل الله لهم مَلِكاً يجمعهم، ويوحّد كلمتهم، ويقودهم في حربهم لأعدائهم، استجاب الله لهم، وجعل طالوت ملكاً عليهم، وجعل علامة اختياره أن تأتي الملائكةُ بالتابوت، الذي استولى عليه أعداؤهم. وهو صندوق فيه بقيّة من آثار آل موسى وآل هارون، عليهما السلام، توارثه الصالحون من بني إسرائيل. وعند عودة التابوت إليهم جعل الله فيه الطمأنينة لنفوسهم، التي بقيت مضطربة لفقده واستيلاء الأعداء عليه.

واضح في النص القرآني الكريم أنّ التابوت له قدسيّة، وعلى وجه الخصوص ما فيه من الآثار المتوارثة من عهد موسى وهارون، عليهما السلام. ونحن نعلم أنّ الله تعالى قد أنزل على موسى، عليه السلام، الألواح، والتي خُطّت فيها الوصايا، وقد جاء في سفر الخروج، في التوراة الحالية:"واجعل في التابوت الشهادة التي أعطيكها"، والمقصود بالشهادة، ما ورد في سفر الخروج أيضاً:" ولما فرغ من مخاطبة موسى

على طور سيناء دفع إليه لَوْحَي الشهادة، لوحين من حجر...". وقد ورد في سفر صموئيل أنّ أعداء بني إسرائيل قد سيطروا على التابوت هذا لمدة سبعة أشهر.

كلمة التابوت مشتقة من التّوب، وهو الرجوع، لأنّه يُرجع إليه تكراراً لأخذ وإرجاع المُودَعات فيه. وعليه تكون اللفظة عربيّة، على قول الكثير من أهل اللغة. وقد ذكرت التوراة الحاليّة أنّ التابوت، المقدّس عندهم، صنع من الخشب والذهب بأمر من الله تعالى. ويقولون إنّ طوله يبلغ متراً وربع المتر، أمّا عرضه فيبلغ **75** سم، وكذلك ارتفاعه. وورد أنّ بني إسرائيل كانوا يحملون التابوت ويتقدمون به أمام الجيش، فيكون ذلك دافعاً لهم للاستبسال، لثقتهم بالنصر بوجود التابوت. وقد ورد في أخبار الأيام الأول، من العهد القديم، على لسان داود، عليه السلام:".. حتى نُرجع تابوت إلهنا، لأننا أهملنا طلب المشورة بواسطته منذ أيام شاوُل". ويقصدون بشاوُل هنا طالوت المذكور في القرآن الكريم.

والتابوت عندهم من أقدس المقدّسات، وكانوا في البداية يضعونه في وسط خيمة، ثم أحضره داود، عليه السلام، حسب رواية العهد القديم، إلى مدينة داود. وتقول الرواية إنّه عندما بنى سليمان، عليه السلام، الهيكل وضع التابوت في أقدس بقعة منه، وتسمّى قُدس الأقداس، وهي عبارة عن غرفة لا نوافذ لها، وهي محراب الهيكل. وهم يعتقدون أنّ روح الله قد حلّت في التابوت. وعندما تمّ تدمير الهيكل **586** ق.م، على يد نبوخذ نصّر البابلي، فُقدت التوراة، وفُقِد تابوت العهد.

ويبدو أنّه تمّ إحراقهما مع ما أُحرق من محتويات الهيكل. واللافت للانتباه أنّ سِفر أخبار الأيام الثاني، من العهد القديم، والذي يُرجّح أنّه دوّن في القرن الخامس قبل الميلاد، والذي ينتهي بالحديث عن تدمير الهيكل وإحراق محتوياته، ينص على بقاء العصيّ التي يُحْمَل بها التابوت، ولم يتطرق إلى ذكر التابوت. يقول النّص:"... وهي ما برحت هناك إلى هذا اليوم...". وواضح أنّ الذي يكتب هذا الكلام يكتبه وهو يقيم بعيداً، ويظهر ذلك من قوله "هناك".

كثرت القصص والأساطير حول مصير التابوت. ومن هذه القصص قصّة تقول إنّ ابن سليمان، عليه السلام، من زوجته بلقيس، فرّ بالتابوت إلى مصر، ثم نقل التابوت إلى الحبشة. ولكن اليهود لا يزالون يبحثون عن هذا الصندوق الخشبي الصغير، والذي مضى على صناعته ما يقرب من **3200** سنة، على أقل تقدير. ويتوقّع بعضهم أن يكون مدفوناً في ساحات الأقصى. وبالمناسبة نرى أنّه من المصلحة أنْ نذكر أنّ رجلاً فلسطينياً، ممن شارك في ترميم وإصلاحات المسجد الأقصى في العهد الأردني، ذكر بعد أن سَمع بدرسنا الذي ألقيناهُ في مسجد البيرة الكبير حول التابوت، أنّه رأى من يدفن صندوقاً تنطبق عليه الأوصاف في موضع من المسجد الأقصى. نعم، ما الذي يمنعهم من أن يصنعوا تابوتاً وفق الأوصاف الواردة في العهد القديم، ثم يدسّوه في التراب، ثم بعد نصف قرن أو يزيد... يتمّ الزعم والإعلان عن اكتشاف التابوت، ليكون الدليل والمستند على أنّ لهم حقّاً في فلسطين،

بعد أن كذّبتهم كل الآثار والحفريّات، فقد اعتدنا أن نرى منهم كلّ غريب، فهم يستخدمون المقدّس وغير المقدّس لأجل أغراضهم الدنيويّة، ولا شيء عندهم مقدساً إلا مصالحهم.

بنو إسرائيل

إسرائيل هو نبي الله يعقوب، عليه السّلام. وبنوه هم أصحاب القصّة التي فُصّلت في سورة يوسف، ويوسف، عليه السلام، هو واحد منهم. وأبناؤهم وأحفادهم هم الذين سمّوا بالأسباط. وقصتهم الواردة في القرآن الكريم تبيّن أنّهم سكنوا مصر قبل وفاة والدهم، عليه السلام. وبعد ما يقارب الـ **450** سنة، بُعث موسى، عليه السلام، لينقذهم من ظلم واضطهاد الفراعنة. ومن هنا بدأت العلاقة بين بني إسرائيل واليهوديّة. واستمرت هذه العلاقة لقرون، بين مد وجزر، إلى أن انتهت واقعياً بفك الارتباط بين اليهوديّة وبني إسرائيل؛ فبعد أن كانت اليهودية تنحصر في بني إسرائيل أصبحت الغالبية العظمى من اليهود تنتمي إلى أجناس وقوميّات مختلفة.

بعد وفاة سليمان، عليه السلام، (**935 ق.م**)، انقسمت الدولة في الجزء الفلسطيني إلى دولتين: **إسرائيل** في الشمال، **ويهوذا** في الجنوب. وكان شعب دولة إسرائيل يتألف من أحفاد عشرة من أبناء يعقوب، عليه السلام، كما يذكر العهد القديم. أمّا دولة يهوذا فشعبها هم أحفاد اثنين من أبنائه، عليه السّلام. وكان بين الدولتين حروب وأحقاد، واستشرى فيهما الفساد، وعمّت الانحرافات، إلى درجة أنهم ارتدّوا إلى الوثنية

وعبادة الأصنام، واستمرّوا في ذلك حتى لاقوا مصيرهم المحتوم بغزو الآشوريين للدولة الشمالية عام **722** ق.م، فجرى سبي الشعب بكامله إلى العراق، وبذلك أسدل الستار على علاقة عشرة أسباط بالديانة اليهوديّة، ولم يعودوا يهوداً، فقد انخرطوا في الشعب الغازي وتأثروا بعقائده، وذابوا فيه.

أما الدولة الجنوبيّة فقد قام الملك البابلي نبوخذ نصّر بغزوها وتدميرها عام **586 ق.م** ، وسبى من بقي منهم حيّاً إلى العراق أيضاً. وبعد مضي سبعين سنة على هذا الحدث عادت قِلّة من هؤلاء المسبيين إلى فلسطين، وذلك في عهد الملك كورش الفارسي. وقد اضطرت هذه القلّة أن تُكثّر عددها بإدخال جزء من أهل البلاد إلى اليهوديّة. وبذلك بدأت اليهودية تنتشر بين من هم من غير بني إسرائيل، واستمر ذلك إلى أن جاء السبي الروماني في العام **70** م، والعام **135م**، فشُتّت شمل اليهود في أرجاء العالم، مما أدّى إلى ذوبانهم في الأمم. في المقابل كان هناك من الشعوب من تهوّد، كما حصل في مملكة بحر الخزر، والتي دامت من عام (**860-1016م**). وكما حصل من تَهوّد بعض قبائل العرب وغيرهم. واستمر الخروج من اليهوديّة والدخول فيها عبر القرون مما أدّى إلى انفكاك العلاقة بين اليهوديّة كدين وبين بني إسرائيل كعنصر. وتستطيع أن تقول اليوم إنّ الغالبية العظمى من بني إسرائيل القدماء قد تحوّلوا إلى الإسلام، أمّا البقية الباقية فتحوّل معظمها إلى المسيحيّة. من هنا لا صحة اليوم للادعاءات التي تزعم وجوداً تاريخياً

لقوميّة يهوديّة في فلسطين، لأنّ اليهوديّة هي دين اعتنقته شعوب مختلفة. وكلامنا هذا لا يعني أنّه لا يوجد في يهود اليوم من له علاقة نسب ببني إسرائيل القدماء، وعلى وجه الخصوص أحفاد أولئك الذين كانوا في الجزيرة العربية زمن نزول الرسالة الإسلاميّة، والذين تحوّل عدد منهم، عبر العصور، إلى الإسلام وآخرون إلى المسيحيّة.

واليوم يتكرر في وسائل الإعلام الإسرائيليّة أخبار البعثات اليهوديّة التي تسافر إلى أفغانستان للبحث عن أحفاد دولة إسرائيل الأولى، اعتقاداً منهم بأنّ الأغلبيّة العظمى من الشعب الأفغاني، أي قبائل البشتون، هم الأسباط العشرة الضائعة. ومعلوم أنّ هؤلاء من المسلمين السنّة، ولا يبعد أن يكون لهم في المستقبل دور في تحرير فلسطين من سلطان الصهيونيّة، ليعلم الناس أنّ العقائد والفلسفات هي التي تصنع الأمم والجماعات، وأنّ العنصريّات تقوم على الأوهام، وأنّ الصراع في جوهره هو بين الحق والباطل. وإذا كانت إسرائيل الأولى تضم شعباً متجانساً من الناحية العِرقيّة، فإن إسرائيل اليوم تتألف من **سبعين** قوميّة يتكلمون **تسعين** لغة.

الشجرة الملعونـة

قال تعالى في سورة الإسراء، الآية 60:" **وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس، والشجرةَ الملعونةَ في القرآن** ".

يرى جماهير المفسرين أنّ الشجرة الملعونة هنا هي شجرة **الزقّوم**. أما الشيعة فإنّهم يذهبون إلى أنّ الشجرة الملعونة هم بنو أميّة، ويستندون في ذلك إلى حديث شريف ينص على:" أنّ الرسول، صلى الله عليه وسلم، قد رأى في المنام بني الحكم، أو بني العاص، يَنزون على منبره كما تنزو القرود، فأصبح كالمتغيظ...". والتشيّع واضح في الربط بين هذا الحديث والآية الكريمة. وفي الوقت الذي نجد فيه مفسراً شيعيّاً معاصراً كالطباطبائي، صاحب تفسير الميزان، يُقوّي هذا القول عند تفسيره للآية الكريمة، نجد أنّ الطبرسي، صاحب تفسير مجمع البيان، وهو من كبار علماء الشيعة في القرن السادس الهجري، يجعل هذا التفسير قولاً ثالثاً.

الملاحظ أنّ القرآن الكريم لم يَلْعن شجرة الزقّوم، وبالتالي كيف يمكننا أن نقول إنّها الشجرة الملعونة؟. لذلك قال بعض المفسرين إنّ المقصود بالملعونة أي الملعون آكلها. وهذا تقدير تأباه اللغة العربيّة، ثمّ إنّ اللعن، الذي هو الطرد من الرحمة، لا يكون إلا للمُكَلفين، والشجرة،

كما هو معلوم، غير مكلّفة، ولم ترتكب جُرماً حتى تُلعن. وقال البعض إنّ الشجرة هي وسيلة لتعذيب الكفار ومن هنا جاء اللعن. وهذا المعنى تأباه اللغة، ويأباه العقل، ويأباه النص القرآني، لأنّ خزنة جهنم هم من الملائكة، ولا يُتصوّر لعنهم لمجرد أنّ لهم علاقة بتعذيب الكفار. وعليه نرى أنّ آراء جماهير المفسرين مضطربة عند القول بأنّ الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم المذكورة في القرآن الكريم. وما نجده اليوم في كتب التفسير هو نوع من متابعة بعض المفسّرين لبعض.

الماوردي من أشهر علماء القرن الخامس الهجري، وله تفسير **النكت والعيون**، ويتميّز بجمعه لآراء المفسرين على صورة سهلة ومختصرة. وهو يورد في الشجرة الملعونة أربعة أقوال، ويجعل القول الرابع في القوم الذين يصعدون منبر الرسول، صلى الله عليه وسلم. أما القول الثالث فيقول فيه:" أنهم اليهود تظاهروا على رسول الله مع الأحزاب، قاله ابن بحر". أما كيف يمكن أن يكون النسل شجرة ؟! فنجد الماوردي يقول: " والشجرة كناية عن المرأة، والجماعة أولاد المرأة كالأغصان للشجرة ". فالنسل هو في حقيقته شجرة نامية ومتفرعة. وإنّ كل ما يقوم على أصل اعتقادي، ويتفرع عن هذا الأصل، هو في حقيقته شجرة. والقرآن الكريم مثّل الكلمة الطيبة، والتي هي الإسلام، بالشجرة الطيّبة. وشبّه الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة. وإذا كان اليهود هم الشجرة الملعونة في القرآن، فهذا يكون على اعتبار أنّهم يلتقون في أصل اعتقادي، ولا يصح أن تكون اليهوديّة قائمة على النسل، لأنّ

اليهودي في الحقيقة هو الذي يؤمن بالأصول اليهوديّة؛ في الاعتقاد والتشريع، والأخلاق. والعدل يقتضي أن يكون اللعن نتيجة لممارسة الفرد أو الأمة لأمر اختياري.

الذي يُرجِّح أنّ المقصود بالشجرة الملعونة هم اليهود، أمور منها:

أولاً: إنّ الآية التي نحن بصددها هي في سورة الإسراء، والتي تسمى أيضاً **سورة بني إسرائيل**، وهي تتحدث عن إفساد اليهود في الأرض المباركة. وتُسْتَهل السورة بنبوءة مستقبليّة تتحدث عن إفساد اليهود في الأرض المباركة. ويرد الكلام عن هذا الإفساد في خواتيم السورة أيضاً، مما يشير إلى مركزيّة هذا الحدث في السورة، التي تسمى الإسراء، وفي هذا إشارة إلى المسجد الأقصى. أمّا تسمية سورة بني إسرائيل فتشير إلى الإفساد. وعليه لا يبعد أن تكون الرؤيا تتعلق بهذه القضية المحوريّة في السورة.

ثانياً: طريقة كتابة كلمة **الرؤيا** في قوله تعالى:" **وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرةَ الملعونة**..."، تُرجّح أنها رؤيا مناميّة. ولو كانت رؤية بصريّة لكتبت هكذا: رؤية. وقد نُقل عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، ومجاهد، أنّ ما رآه الرسول، صلى الله عليه وسلم، ليلة الإسراء والمعراج هو الرؤيا المذكورة في هذه الآية. وبما أنها تمت ليلاً، وتحدّث عنها الرسول، صلى الله عليه وسلم، عندما أصبح، فقد سمّاها القرآن الكريم **رؤيا**. وهي أيضاً فتنة للناس الذين كذبوا

خبر الرسول، عليه السلام. والذي نراه أنّ المسألة لا تتعلق بالرؤية البصريّة، أو المناميّة، وإنما تتعلق بالأمر الذي رآه الرسول، عليه السلام؛ فإذا كان قد رأى ببصره أموراً واقعة فهي إذن **رؤية**. **وإذا كان قد رأى أموراً ستقع في المستقبل فهي رؤيا؛ لأنها غير موجودة في الحال وإنما في الاستقبال**. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا في سورة الإسراء: " **لنريه من آياتنا**..." وفي سورة النجم:" **لقد رأى من آيات ربّه الكُبرى**". على ضوء هذا لا يوجد ما ينفي احتمال أن يكون ما رآه الرسول، عليه السلام، من أمور مستقبليّة كانت تتعلق بسيطرة اليهود على المسجد الأقصى، وعلى الأرض المباركة، والتي هي عُقْر دار الإسلام. وتتعلّق أيضاً بسيطرة هذه الشجرة الخبيثة على المستوى العالمي، وذلك في المرحلة الزمنيّة نفسها. ولا شك أنّ ذلك يُحزن الرسول، صلى الله عليه وسلم، فكانت التعزية له، عليه السلام، أن قيل له:" **وإذ قلنا لك إنّ ربك أحاط بالناس**"؛ فمقاليد الأمور هي بيد الله، أمّا ما رأيتَه يا محمد من سيطرة هؤلاء فهو نوع من الفتنة للبشر، وما رأيتَه فهو في حقيقته الشجرة الملعونة، وبالتالي لن تكون لها ثمار ممتدة، بل إنّ هذه السيطرة العارضة محكوم عليها بالإخفاق، وهي مطاردة باللعن الإلهي. وهذا يعني أنّ سيطرة اليهود في أيامنا هذه تنحصر في كونها فتنة أرادها الله لتمحيص الناس، وهي سيطرة الشجرة الملعونة، التي هي شجرة خبيثة، جذورها واهية، وثمارها غير مباركة، ومن هنا يسهل على أهل الحق أن يَجتثّوها، وأن يقوا الناس من آثارها الخبيثة.

ثالثاً: يقول تعالى: " **الشجرة الملعونة في القرآن** "، وهذا يعني أنّه لا بدّ أن نجدَ لعنها في القرآن الكريم. وبالرجوع إلى ألفاظ اللعن في القرآن الكريم نجد أنّ **لَعَنَ ومشتقاتها** قد وردت **41** مرّة. والملاحظ أنّ أكثر من ثلث ألفاظ اللعن جاء في سياق الكلام عن اليهود على وجه الخصوص. أمّا باقي اللعنات، فإنّها كانت لإبليس، ولقاتل المؤمن، وللمنافقين، وللكافرين، وللظالمين، وللكاذبين... ولا شكّ أنّ اليهود يشتركون في هذه الأمور مع غيرهم. وعليه ألا تكون هذه الملاحظة الإحصائيّة مؤشراً على أنّ اليهود هم الشجرة الملعونة في القرآن؟! ولا ننسى أنّ الكثير من الأفكار والمذاهب والمدارس المنحرفة هي من صنع اليهود، أو هي متأثّرة بعقائدهم؛ كالماركسيّة، والوجوديّة، والماسونيّة... والمستهدف بهذه الأفكار والمذاهب هم البشر، الذين نزلت رسالات السماء رحمة بهم. أفلا يستحق اللعنة كل من نصّب نفسه عدواً لله ولرسالاته، وعدواً للحق والعدل؟! ألم يخبرنا الواقع بأنّ هذا هو مسلك اليهود عبر العصور المختلفة وإلى يومنا هذا؟! بل إنّ القرآن الكريم ينصّ على أنّ هذا سيكون مسلكهم إلى يوم القيامة.

"**وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس، والشجرةَ الملعونةَ في القرآن**". فسّر العلماء الآيةَ على أساس أنّ الرؤيا شيء، والشجرة الملعونة شيء آخر، والمعنى عندهم: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس، وكذلك الشجرة الملعونة فتنة أيضاً. وهذا الوجه تحتمله اللغة، والذي نراه أقرب إلى ظاهر النص أن يكون المعنى: وما جعلنا

الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس، وجعلناها أيضاً الشجرةَ الملعونة، التي يرد لعنها في القرآن. وهذا يعني أنّ الرؤيا هنا يقصد بها الشيء المرئي، أي موضوع الرؤيا. وعلى هذا يكون ما رآه الرسول، صلى الله عليه وسلم، من أمر هو في واقعه فتنة للناس وابتلاء لهم، وهو عند الله شجرة ملعونة، وهذا اللعن حَكَم به الله تعالى في القرآن الكريم. وفي رأينا أنّ اليهود هم فتنة للناس على مرّ القرون، وهم أيضاً شجرة ملعونة محكوم أن لا تثمر جهودهم المفسدة ثمراً يدوم ويستمر، وهذا من رحمة الله بعباده. وحتى يتّضح المعنى بشكل أفضل نقول: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا **فتنةً** للناس **وشجرةً** ملعونة في القرآن الكريم. أما إضافة (ال) إلى كلمتي **شجرة** و **ملعونة**، فإنّها تعني أنّ هذه هي الشجرة الوحيدة الملعونة في القرآن الكريم، أمّا لعن الظالمين، والمنافقين، والكافرين، والكاذبين...، فقد ورد دون أن ينسب أصحاب هذه الصفات إلى شجرة.

بالرجوع إلى واقعنا المعاصر يمكن أن نستفيد من تدبّر هذه الآية الأمور الآتية :

أولاً :إنّ سيطرة اليهود في فلسطين، وكذلك سيطرتهم على المستوى العالمي، ما هي إلا فتنة وابتلاء وتمحيصاً للناس. ومعلوم أنّ الفتن يُقصد منها أن يتميّز الناس في مواقفهم، ولا بدّ أن ينتج عن هذا واقع أفضل، **فالفتن هي قانون في التغيير**.

ثانيــاً: إنّ المــذاهب والفلســفات المنبثقــة عــن اليهوديّــة، والتــي حاولــت وتحاول أن تفسد المجتمعات البشريّة، لا بدّ أن تتلاشى. والماركسيّة من أوضح الأمثلة على ذلك.

ثالثــاً: إذا كــان الإســلام شــجرة مباركــة، وكانــت اليهوديّــة فــي صــورتها المحرّفة شجرة ملعونة، فإنّ هذا يعنـي أنّ العقبات التـي يُقيمها اليهود في طريق المسلمين، هي من ضرورات هذا الطريق الحق، ولكن لا بدّ في النهايــة مــن ثمــار طيبــة تطرحهــا شــجرة الإســلام المباركــة. أمّــا الثمــار الخبيثة للشجرة الملعونة فإنّ الفطرة البشريّة تأباها وتمجّها.

السّامري

ورد اسم **السّامري** في القرآن الكريم ثلاث مرّات، وذلك في سورة طـه. وقد اختلف في معنى هذا الاسم، ويرجح لدينا أنّه نسبة إلى (**شومير**) والذي يعني بالعبريّة الحفظ والحراسة. هذا يجعل من المحتمل أن يكون السّامري أحد كبار الكهنة، ومن حرّاس وحفظة العقيدة الوثنيّة. وإذا كان الاسم نسبة إلى (**سامر**) العربيّة، والتي تعني الساهر، فإنها تلتقي في مآل المعنى مع شومير، التي تعني الحراسة. وأمثال هؤلاء الكهنة والحراس يكون لديهم العلوم والقدرات التي تميّزهم على أهل عصرهم، ويغلب أن تكون لديهم قدرات قياديّة. وقد يفسر هذا السرعة التي استطاع فيها السامريّ أن يُضّل بني إسرائيل، ويستغل غيبة موسى، عليه السلام.

إنّ مثل هذه الشخصية يمكن أن تتكرر في حياة الدعاة والدعوات، ومن قَبْلُ في حياة الرسل، وفي طريق الرسالات. من هنا لا معنى لمحاولة البعض أن يُضفي الطابع الأسطوري على هذه الشخصيّة. والغريب أن نجد اليوم كتابات كثيرة تلقى القبول لدى الناس، ولا يميّزها إلا ميلها إلى الأسطورة والخرافة، وإغراقها في الأوهام والتخيلات، تماماً كأفلام الخيال العلمي، إلا أنها بعيدة عن العلم. ويستغل هؤلاء الكتّاب

الغموض الظاهري لبعض ألفاظ القرآن الكريم، والسنةّ الشريفة. والغالبيّة منهم تقصد إلى التجارة والربح المادي. منهم من كتب عن المهدي، ومنهم من كتب عن إبليس ومثلث برمودا، ومنهم من كتب عن الدجّال والسّامرّي، ومنهم، ومنهم... وقد لا يعنينا أن نلوم هؤلاء من الذين يطلبون الشهرة والمال، ولكننا نلوم العلماء الذين لا يزالون يردّدون ما لا يصح من أوهام وأساطير وإسرائيليات أُدخِلت في كتب التفسير، وراجت في أسواق العامة، فكانت التربة الخصبة لصائدي السُذّج والبسطاء.

يبدو أنّ السّامري قد استغلّ قرب عهد بني إسرائيل بالوثنيّة، واستغل كهانته السابقة، وكونه من حرّاس الفكرة الوثنيّة، فاستطاع بزعمه أن يمحو الأثر الذي أحدثته رسالة موسى وهرون، عليهما السلام. لذا نجده لا يستحي من التباهي بقدراته التي مكنته من إزالة الأثر الخيّر الذي أحدثته الرسالة الجديدة فقال: " **قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي**". **(طه:96).**

إنّ الغموض الظاهري لهذه العبارة فتح المجال للكثير من المفسرين أن يتّكِئوا على روايات منسوبة إلى ابن عبّاس، رضي الله عنهما، ليقولوا إنّ السّامري قد رأى جبريل، عليه السلام، يركب حِصانه، واستطاع السّامريّ أن يأخذ قبضة من التراب الذي داسه حصان جبريل، وساعدته هذه القبضة على أن يبعث الحياة في العِجل الذي صنعه من ذهب، ليعبده بنو إسرائيل. وبهذا وجدناهم يصنعون حول السّامريّ هالة تجعله

شخصية غامضة، قادرة على بعث الحياة في المادّة. ثمّ نجد بعض المعاصرين تذهب بهم أوهامهم إلى درجة أن يتصوّروا استمرار حياة السامريّ، لأنّ موسى، عليه السلام، قال له:" **وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَه...** " (طه:97). وهذا فهم عجيب، لأنّ كل إنسانٍ له موعدٌ لن يُخْلَفه، انظر قوله تعالى في سورة الكهف:" **بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً** ". ومن يُدقّق في النص القرآني الكريم يجد أنّ العجل الذي صنعه السامريّ هو مجرد **جسد** لا حياة فيه، ثمّ هو في غاية الإتقان من ناحية الصناعة إلى درجة أنّه يصوت فله خُوار. ومن يعرف تاريخ الفراعنة وحضارتهم لا يستغرب حصول مثل هذا الأمر منهم. وقصة موسىّ، عليه السلامّ، مع السحرة تبيّن لنا المدى الذي وصل إليه الكُهّان وحرّاس العقيدة الوثنيّة في عالم العلم والصناعة.

إذا كان السّامري قد استطاع أن يبعث الحياة في العِجل الذهبي، بزعمهم، فإنّ ذلك يُعدّ دليلاً مُلزماً لبني إسرائيل كي يُطيعوا السامريّ، وبالتالي فهم معذورون لا يستحقّون اللوم، لأنّهم اتبعوا عن دليل. ولو تدبّر الذين ينسبون إلى السامريّ الخوارق، لفظة **فنبذتها**، الواردة في الآية الكريمة، لأدركوا أنّ هذه اللفظة تدل على الرمي والإهمال، ولا تدل على الاعتناء والاستخدام؛ فالسامريّ يتبجّح بقدراته العلميّة التي جعلته يُبصر أموراً لم يبصرها الشعب، وبالتالي استطاع أن يمحو، بزعمه، آثار رسالة موسى، عليه السلام، من قلوبهم، واستطاع أن يجعلها فكرة منبوذة.

فماذا كان ردّ موسى، عليه السلام، على هذا المُتبجّح؟! المتدبّر للآيات يلاحظ أنّ موسى، عليه السلام، قد أطلق للسامري حريّة الكلام، فقال له: **إنّ لك مدّة حياتك أن تقول ما شئتَ من غير أن تُمسّ، ومن غير أن يتعرّض لك أحد بإساءة.** وهذا الموقف يشبه ما حصل لإبليس في إنظاره، وإطلاق يده في محاولة إضلال الناس، ليكون بذلك آلة من آلات اختبار المكلّفين من البشر. كما جاء في سورة الإسراء:" **قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورا** ". (الإسراء:63). وهنا يقول موسى، عليه السلام، للسامريّ، المغتر بعلمه:" **قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لا مِسَاسَ**". (طه:97). وهذا يعني أنّ:" **لا مساس**"، ليست مقول القول، وبالتالي لا داعي للخيال المُجَنِّح، الذي يحاول أن يتصوّر لنا المرض الذي يُحتمل أن يكون قد مسّ السّامريّ، بحيث هام في البيداء بعيداً عن الناس. والذي يبدو لنا أنّه قد بقي مقيماً في الناس، وتُرِك ليدّعي ما يشاء، فإن العقيدة الحقّة يُجلّيها ويصفّيها كيد الكائدين؛ فما عرَف الناس الصحوة الإسلاميّة المعاصرة إلا بعد معاناتهم من ضلالات الملاحدة والمادّيين. وإذا أراد الله نشرَ فضيلةٍ طُوِيَت أتاحَ لها لسانَ حسودِ.

يا أخت هارون

جاء في الآية 28 من سورة مريم:" **يا أختَ هارون ما كان أبوكِ امرأَ سَوْءٍ وما كانت أمّكِ بغياً**". هذا قول قوم مريم عندما جاءَتهم، عليها السلام، تحمل مولودها ولم يعهدوا لها زوجاً من قَبل. وقد أشكل على البعض قوله تعالى على لسان القوم:" **يا أخت هارون...**". أما المبشّرين- المنصّرين- الذين اعتادوا اختراع الإشكالات حول النص القرآنيّ الكريم، فزعموا أنّ هذا القول من الأخطاء التاريخيّة التي وقع فيها القرآن الكريم**!!**

جاء في صحيح مسلم وغيره عن المغيرة بن شعبة قال:" **لمّا قدمتُ نجران سألوني: فقالوا:" إنكم تقرؤون: يا أخت هارون، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟! فلمّا قدمتُ على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، سألته عن ذلك فقال:" إنهم كانوا يُسمّون بأنبيائهم والصالحين قبلهم**". فنصارى نجران في زمن الرسول، عليه السلام، يحتجّون بالبعد الزمني بين مريم وهارون، عليهما السلام، على الرغم من كون الآية الكريمة لم تُصّرح بأنّ اسم هارون الوارد هنا على لسان القوم هو هارون النبي، والقرآن الكريم لم يقل إطلاقاً إنّ مريم هي أخت هارون النبي.

الصحابي الكريم المغيرة بن شعبة يسأل الرسول، عليه السلام، عن ذلك فتأتي الإجابة لتزيل اللبس، إن وجد عند البعض. وعلى الرغم من

وضوح إجابة الرسول، عليه السلام، إلا أنّ أهل الضلال من المبشّرين لا يتورعون عن الكذب على أتباعهم، من أجل أن يقولوا إنّ في القرآن الكريم أخطاءً. وكأنّهم بذلك يسوّغون لهم الأخطاء الواردة في الكتاب المقدّس عندهم.

ومن أجل مزيد من الضوء على المسألة نقول:

أولاً: في الحديث الشريف تصريح بأنّ لفظة هارون في الآية الكريمة لا يُقصد بها هارون النبي. فلم يعد الإشكال إذن موجوداً من جهة البعد الزمني بين مريم وهارون النبي. فالاسم هارون الوارد في الآية لا يخصّ هارون النبي، وإنما كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم وصالحيهم.

ثانياً: على الرغم من وضوح ذلك فقد بقي لدينا أكثر من احتمال لفهم كلام القوم وإدراك مقصودهم بمثل هذا التعبير. ومن هذه الاحتمالات أن يكون لمريم أخ شقيق، أو أخ لأب، أو أخ لأم، اسمه هارون. وما الذي يمنع ذلك، ألم يكونوا يسمّون بأسماء أنبيائهم ولا يزالون؟! بل إنّ أسماء الأنبياء تكون هي السائدة في المجتمع. ومن هنا نجد أنّ اسم محمد، مثلاً، يتكرر بشكل لافت بحيث لا يكاد يخلو منه بيت مسلم.

ويأخذ البعض على هذا الاحتمال أنّه لم يرد في تاريخ النصارى أنّ لمريم أخاً اسمه هارون. والجواب على هذا بسيط؛ فعدم ورود الإثبات لا يعني النفي، وهذا بدهي في العقل. يضاف إلى ذلك أنّ الأناجيل الأربعة التي اعتمدت في القرن الرابع الميلادي قد اختلفت في سرد الوقائع المهمة وليس فقط الأسماء. ولو رجعتَ إلى شجرة نسب المسيح في إنجيل متى وشجرة نسبهِ في إنجيل لوقا لوجدت العجب. فالاختلاف في

سلسلة أسماء الآباء والأجداد كبير. وإذا كان ذكر حادثة كلام المسيح، عليه السلام، في المهد قد أهمل تماماً، فمن باب أولى أن يُهمل اسم أخٍ لأب أو لأم... كيف لا، ونحن لا نجد في الأناجيل المتداولة اسماً لوالد مريم عليها السلام!!

ثالثاً: تذكر التوراة المعتمدة لدى اليهود والنصارى أنّ لهارون النبي أختاً اسمها مريم، وأشير إليها في أكثر من سِفر. ومعلوم أنّ مريم، عليها السلام، هي ابنة عمران، كما ينص القرآن الكريم. واللافت أنّ التوراة المعتمدة لدى اليهود والنصارى تقول إنّ والد هارون وموسى، عليهما السلام، هو عمرام. وتحويل النون إلى ميم للتخفيف معهود في الناس؛ فاسم برهان، مثلاً، ينطقه العامّة أحياناً برهام. وقد نصّ الحديث الصحيح على أنّ هارون هو ابن عمران.

رابعاً: فمريم الأولى – أخت هارون النبيّ– هي ابنة عمران. ومريم أم عيسى، عليهم السلام، هي ابنة رجل اسمه عمران أيضاً. ومتوقّع ومعهود في عائلة مؤمنة أن تقتدي بالأنبياء والصالحين، فتتسمّى بأسمائهم، كما ينص الحديث الشريف. ومن كان اسمه عمران يُتوقّع منه أن يُسمّي موسى وهارون ومريم.

خامساً: إذا كان اسمك إبراهيم فأنت أبو خليل، وإذا كان اسمك خليل فأنت أبو إبراهيم. وإذا كان اسمك علي فأنت أبو الحسن، وإذا كان اسمك الحسن فأنت أبو علي...الخ. هذا هو المتعارف عليه في الكثير من المجتمعات العربيّة والإسلاميّة، لأنّ علياً رضي الله عنه، مثلاً، كان يُكنَّى بأبي الحسن، وهكذا ...الخ. وقياساً على هذا يرجح لدينا أن

تكون الآية الكريمة قد كشفت عن مثل هذا العُرف في لسان قوم مريم، فكل من تسمَّت بمريم هي عندهم أخت هارون، لأنّ مريم الأولى هي أخت هارون النبي، عليه السلام. أما لماذا لم تكن أخت موسى؟! فلأنّ نص التوراة المعتمدة عندهم تربط بين مريم وهارون أكثر مما تربط بين مريم وموسى، عليهم السلام.

وهذا الوجه ينسجم تماماً مع قول الرسول، صلى الله عليه وسلم: " **إنهم كانوا يُسمّون بأنبيائهم والصالحين قبلهم**". وبذلك يكون القرآن الكريم، وهو يروي كلام القوم، قد كشف عن عُرفٍ تعارفه الناس في ذلك الزمن، مما يشير إلى تجذُّر الدين وتأثيره في نفوسهم، وعلى وجه الخصوص عمران وأهله، وإن كان لا يشير بالضرورة إلى حقيقة تديّن واستقامة بقيّة القوم.

فرضيّة

تتعلق بخلق المسيح عليه السلام

جاء في الآية **45** من سورة آل عمران:" **إذ قالت الملائكةُ يا مريم إنّ الله يُبشّرك بكلمةٍ منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم...**".

اختلف أهل التفسير في معنى كلمة **المسيح**، وقد تأثّر بعضهم بما ورد في العهد القديم والجديد فزعموا أنّ كلمة المسيح غير عربيّة. ومعلوم وفق الدراسات المعاصرة أنّ اللغة العربيّة – في رأي الكثيرين– هي أقرب اللغات إلى اللغة الساميّة الأم. وعليه فإنّ حرف السين في كلمة المسيح هو الأصل، ثم أبدل في العبرية شيناً، وليس العكس كما يرد في كتابات البعض من القدماء ومن المعاصرين. وما نختاره هنا دون تردد أنّ كلمة المسيح هي عربية، ومادتها مسح.

المسيح: على وزن فَعيل بمعنى مفعول، أي ممسوح. ومن المعاني التي ذكرها أهل التفسير وتستحق الذكر هنا قول من قال: إنّه، عليه السلام قد مُسِح من الأقذار وطُهّر من الذنوب. وكذلك قول من قال: إنه قد مُسِح بالبركة، فهو المبارك، انظر الآية **31** من سورة مريم:" وجعلني مباركاً أين ما كنت...".

واللافت أنّ تسمية المسيح كانت من قِبَل الوحي قبل ميلاده عليه السلام، مما يعني أنّ للاسم أسراراً قد تتعلق بخَلْقِهِ أو بدعوته أو بوظيفته... ومن هنا يجدر بنا أن نسلِّط الأضواء على كل الأسماء التي

جاء بها الوحي، ومنها اسم المسيح، الذي جاء ثلاثياً، أي: المسيح، عيسى بن مريم، وكأنّه رد على عقيدة التثليث!

والمتدبّر للآيات الكريمة يدرك أنّ عيسى هو الاسم العلم، بدليل أنّ القرآن الكريم في صيغة النداء يقول:" يا عيسى"، وبدليل أنّه في حال سرد أسماء الأنبياء لا يقول إلا عيسى. أما لفظ المسيح فظاهر أنّه اللقب الذي اشتهر به عليه السلام، حتى أصبح يميّزه أكثر من اسمه العلم. وإضافة **ال** إلى مسيح تشير إلى أنّه إذا كان هناك من مسيح حق فإنّه هو عليه السلام.

وما نريد أن نطرحه في هذا المقام هو فرضيّة تمّ وضعها بعد مداولات بين عدد من أعضاء ندوة نون وبعضهم أصحاب اختصاص علمي. يقول الأخ عماد القاضي ــ أستاذ الكيمياء الحيويّة ــ مُعرّفاً بالكروموسومات كمقدمة لطرح الفرضية:

" يحتوي جسم الانسان على **46** كروموسو**ماً**، أو على **23 زوجاً** من الكروموسومات. وتعني هذه الزوجيّة أنّ لكل كروموسوم شبيهاً له من الناحية الشكليّة ومن ناحية احتوائه على الصفات المختلفة. وهذا يعني أنّ الكروموسوم رقم 7 ، مثلا، يحتوي على عدّة صفات، ولنفرض أنّها صفة لون العيون، وبالتالي فإنّ الكروموسوم الشبيه له – أو الزوج الثاني له – يشبهه في الشكل والطول وفي احتوائه على صفة لون العيون أيضاً. أي أنّ لكل كروموسوم لدى الإنسان نسخة شبيهة له من حيث الشكل واحتواؤها على الخريطة الوراثيّة نفسها.

وقد لفت نظر العلماء أنّ الزوج الأخير من الكروموسومات، وهو زوج الكروموسوم الجنسي، يُظهر اختلافا جلياً في الشكل؛ فالكروموسوم الجنسي **X** أطول بشكل واضح من الكروموسوم الجنسي**Y**، والذي يُشكل فقط ثلث طول الكروموسوم الأنثوي **X** ، مما دعا العلماء للتساؤل حول مدى التشابه بينهما بسبب اختلافهما في الطول والشكل.

ولقد تبيّن في المصادر العلميّة المختلفة – ومنها المجلّة العلميّة العالميّة Nature – أنّ الكروموسومين الجنسيين متشابهان، وبأنّ لهما الأصول نفسها من حيث احتواؤهما الصفات، وذلك في المنطقة المتقابلة بين **X** و **Y** ويصل التشابه بينهما إلى أكثر من **99%**.(المرجع: مجلة Nature العدد **311** الصادر في **13** سبتمبر **1984** ص **119–123**).

وما يعنينا أن نلفت الانتباه إليه هنا هو أنّ بعض المقالات العلمية تذكر أنّ الكروموسوم الذكري **Y هو نسخة متآكلة من الكروموسوم الجنسي X** ".

على ضوء هذه المعلومة العلميّة الجديدة في حقل العلم نضع الفرضيّة الآتية:

" **بما** أنّ الكروموسوم **Y** هو في حقيقته **X** متآكل، فهناك احتمال أن يكون المَلَك المكلف قد قام بعملية مسح جُزئي في الكروموسوم **23** الجنسي – في بويضة مريم عليها السلام – فنتج عن ذلك **XY** . فالكروموسوم الطويل غير الممسوح هو **X** والقصير هو **Y** الذي كان **X** فمُسِح جُزئياً فأصبح **Y** بعد أن كان زوج الكروموسومات في البويضة هو **XX** ".

وليكتمل تصوّر الفرضيّة نقول:
أولاً: يمكن أن تكون تسمية المسيح جاءت من كيفية خَلقهِ المفترضة، وهي مسح الكروموسوم **X** ليتحول إلى **Y** فنتج مولود ذكر هو المسيح (الممسوح) عليه السلام.
ثانياً: في حالة الاستنساخ المعروفة ينتج من الخلية المذكّرة ذَكَر ومن المؤنثة أنثى، أما هنا فنتج من البويضة – التي هي خلية مؤنثة – ذكر. هو في الحقيقة ابن مريم، ومريم فقط.
ثالثاً: يبدو أنّ المسح كان في بداية التبييض، أي قبل انقسام البويضة. ومعلوم أنّ البويضة في بداية التبييض تكون **46** كروموسوماً.
رابعاً: بإمكانك الآن أن تعيد النظر فتسأل: لماذا ابتعدت مريم عن أهلها – بالذات أهلها وليس غيرهم من الناس –، ولماذا اتخذت من دونهم حجاباً وهم أهلها، ولماذا خافت خوفاً شديداً عندما رأت الملَك في صورة رجل؟!
هل لأنّها كانت في بداية التبييض، وتريد أن تستحم بعد الطُّهر، وفوجئت وهي في هذا الحال بالملَك في صورة رجل؟!
خامساً: يبدو أنّ عمليّة النفخ التي قام بها الملَك – والتي كانت مريم عليها السلام مهيّأةً لها – لم تُضف شيئاً وإنما هي طاقة موجّهة لمسح الجزء المطلوب مسحة ليكون ابن مريم فقط.
سادساً: وبإمكانك أن تعيد النظر لتسأل: هل كان الطعام الخاص الذي يتنزّل على مريم، عليها السلام، نوعاً من التهيئة الجسديّة قبل عملية المسح؟!

سابعاً: وهناك أسئلة أخرى تبحث عن جواب منها: لماذا:" انتبذت من أهلها مكاناً شرقيّاً"، نعم، لماذا شرقيّاً؟!

هما كلمتان

جاء في الآية **59** من سورة آل عمران:" **إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثمّ قال له كن فيكون**". يلفت انتباه المتدبّر للآية الكريمة قوله تعالى:" **فيكون**"، هكذا بصيغة المضارع، وليس بالصيغة المتوقّعة **فكان**. ومعلوم أنّ صيغة المضارع تدلّ على الاستمراريّة. ولا يعنينا هنا البحث عن مخرج لغوي للمسألة، وإنّما نريد أن نبيّن بأنّ استخدام الفعل المضارع هنا له دلالة زائدة على الفعل الماضي ينبغي التنبيه إليها.

جاء في الآية **11** من سورة الأعراف:" **ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم...**"، فالآية الكريمة تُصرّح بأنّ خلق آدم، عليه السلام، هو خلق لنا جميعاً، لاحظ قوله تعالى:" **خلقناكم...صورناكم..**". واستخدام **ثمّ** الدالة على التراخي يشير إلى أنّ الخلق تمّ أولاً، ثم بعد فترة كان التصوير بالصورة الإنسانيّة، ثمّ بعد فترة طُلب من الملائكة أن تسجد لآدم، عليه السلام، والذي كان خلقه بمثابة خلق لجميع البشر.

جاء في الآية 7 من سورة السجدة:"... **وبدأ خلق الإنسان من طين**"، فالطين إذن كان البداية، أما النهاية فكانت كمال الخلق البشري. أي آدم، عليه السلام. وبين ذلك أمور يعلمها الخلاق العليم. وبما أنّ خلق

آدم هو خلق لنا جميعاً، كما تُصرّح آية الأعراف، فإنّ ذلك يعني أنّ خلق آدم مستمر فينا حتى يولد آخر إنسان في هذه الدنيا. فآدم، عليه السلام، لا يزال ينسل (يكون) حتى يأذن الله تعالى باكتمال الوجود الآدميّ، وعندها تنتهي خلافة الإنسان على الأرض لينتقل إلى عالم الآخرة.

وبما أنّ مثل عيسى كمثل آدم، عليهما السلام، فهو أيضاً كآدم تستمر كينونته إلى يوم القيامة. وبذلك يظهر لنا بعض وجوه الحكمة من بقائه حيّاً في السماء لينزل قبل نهاية الدنيا. أمّا لماذا لا يُعتبر عيسى، عليه السلام، كباقي البشر، فيكون استمراراً لكينونة آدم، عليه السلام؟! فنقول: جاء في الآية **171** من سورة النساء:"**...إنّما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه...**"، فعيسى، عليه السلام، كلمةٌ جديدةُ ونَفخٌ جديد، ولم يكن استمراراً للكلمة الأولى التي أوجدت آدم، عليه السلام. فهناك كلمة أولى ونفخٌ من روح الله، فكان آدم ومن سيتناسل منه إلى يوم القيامة. وهناك كلمة ثانية ونفخ ثانٍ، فكان عيسى، ولا يزال يكون كما آدم، عليهما السلام.

فإذا كان عيسى، عليه السلام، قد خُلق على خلاف قانون التناسل السائد بين البشر، وكان خلقه خلقاً خاصاً فيه تشريف، فإنّ آدم، عليه السلام، قد خلق أيضاً على خلاف قانون التناسل في عالم الحيوان، وخلق خلقاً خاصاً فيه تشريف. وعليه فينبغي أن تُترك مسألة التطور في خلق الكائنات للعلم ليبتّ في صحّتها أو عدم صحّتها، لأنّ آدم، عليه

السلام، منقطع الصلة بما قبله، لأنّه قد خلق خلقاً خاصّاً فيه تشريف، وهو لم يأت بقانون الزوجيّة- تماماً كعيسى، عليهما السلام- وإنّما كانت الزوجيّة قانوناً في نسله بعد أن خُلقت زوجه من نفسه.

ثلاثة إعلانات للمسيح عليه السلام

تُستهل سورة مريم بالحديث عن قصّة مولد يحيى، عليه السلام. ثمّ تفصّل قصّة مريم وحملها بالمسيح، عليهما السلام. ثمّ يأتي التعقيب على القصّة:" **ذلك عيسى ابن مريم قولَ الحقِّ الذي فيه يَمترون. ما كان لله أنْ يتخذَ من ولدٍ سبحانه إذا قضى أمراً فإنّما يقولُ له كن فيكون. وإنّ الله ربّي وربّكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم. فاختلف الأحزابُ من بينهم...**" مريم:(34-37). اللافت في هذا التعقيب الآية **36**:" **وإنّ اللهَ ربّي وربّكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم**"، فقد ذكر بعض أهل التفسير أنّ المتكلم هو المسيح، عليه السلام، وأنّ العطف هنا على قوله – وهو في المهد – في الآيات **30- 33**:" **قال إنّي عبد الله... ويوم أبعث حيّاً**". ولا شك أنّ مثل هذا العطف لافت للنظر وذلك لوجود الفاصل المتمثل بالآيتين **34** و **35** فبعد أن انتهى من كلامه، عليه السلام، عاد ليتكلم مرة أخرى!!

جاء الإعلان الأول لعيسى، عليه السلام، وهو طفل في المهد:" **قال إنّي عبد الله آتانيَ الكتاب وجعلني نبياً. وجعلني مباركاً أين ما كنتُ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً. وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً**

شـــقيّاً. والســـلام علـــيَّ يـــوم ولـــدتُ ويـــوم أمـــوتُ ويـــوم أبعـــثُ حيّاً".مريم:(30،31،32،33) وهذا الإعلان فيه تفنيد لكل المزاعم التي ستأتي في مستقبل الزمن، وفيه بيان لحقيقته ووظيفته، عليه السلام.

أما الإعلان الثاني، الذي ورد في الآية **36** من سورة مريم، فقد جاء بعد بعثته عليه السلام، بدليل أنّ ذلك قد ورد على لسانه عليه السلام بعد النبوة؛ انظر الآيات من **63** إلى **65** من سورة الزخرف:" ولمّا جاء عيسى بالبيّنات قال قد جئتكم بالحكمة ولأُبيّنَ لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون، **وإنّ الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراطٌ مستقيم**، فاختلف الأحزاب من بينهم فويلٌ للذين ظلموا من عذاب يومٍ أليم". وبذلك يتبين أنّ هذا الإعلان كان بعد بعثته، عليه السلام. وقد يفسّر هذا لنا وجود الفاصل في سورة مريم بين إعلانه في المهد وإعلانه بعد البعثة، عليه السلام. ومما يؤكّد هذا ما ورد في الآية **49** من سورة آل عمران في سياق خطابه، عليه السلام لبني إسرائيل:" **ورسولاً إلى بني إسرائيل أنّي قد جئتكم بآية من ربكم... ومصدقاً لما بين يديَّ من التوراة...**"، ثم تأتي الآية **51**:" **إنّ الله ربّي وربّكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم**". وعندما نعلم أنّه لا يوجد في النصّ القرآنيّ الكريم غير هذه المواقع الثلاثة لمثل هذا الإعلان، يتحقق لدينا أنّ الإعلان في الآية **36** من سورة مريم هو على لسان المسيح، عليه السلام، وذلك بعد بعثته.

وكما يبدو فالمسيح، عليه السلام، له في سورة مريم إعلان ثالث، جاء أيضاً بعد فاصل أطول من الإعلان السابق، وذلك بعد الانتهاء من ذكر بعض الأنبياء، عليهم السلام، ثم جاء التعقيب الآتي:" **فخلفَ من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يَلقون غَيّاً. إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنّةَ ولا يُظلمون شيئاً. جناتِ عَدْنٍ التي وعد الرحمنُ عباده بالغيب إنّه كان وعده مأتيّاً. لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيّاً. تلكَ الجنّةُ التي نورثُ من عبادنا من كان تقيّاً. وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلْفنا وما بين ذلكَ وما كان ربك نسيّاً**".مريم:(59 – 64) وكما تلاحظ يحار المتدبّر في معرفة المتكلم في هذه الآية، هل هم أصحاب الجنّة، كما ذهب إليه بعض أهل التفسير، أم هو جبريل، عليه السلام، كما نُقل في أسباب النزول؛ فقد جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس، رضي الله عنهما: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لجبريل، عليه السلام:" ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا"، فنزلت:" **وما نتنزّل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيّاً**".

فالحديث في سبب النزول صحيح، ولكن السياق لا يساعد على هذا الفهم. فكيف نجمع بين ما صحّ في سبب النزول وبين السياق؟!!

اشتياق الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى لقاء جبريل، عليه السلام، وطلبه أن يكثر من النزول إليه ناسب أن تنزل هذه الآية لتكون الإجابة عن طلبه، عليه السلام، وإن كانت لا تخص نزول جبريل، عليه السلام،

فقط. فهي كلام الله تعالى على لسان جبريل، عليه السلام، وغيره ممن يؤذن لهم في النزول؛ كالملائكة وكعيسى، عليه السلام، وغيره ممن يحتمل أن ينزلوا بعد رفع. ومن هنا نجد أنّ المتكلم جماعة:" وما **نتنزّل**... **أيدينا**... **خلفنا**...". أما المخاطب هنا فهو الرسول، صلى الله عليه وسلم:" بأمر **ربّك**... وما كان **ربّك**..". نعم فالنزول لا يكون إلا وفق الأمر الربّاني ولحكمة يريدها الله تعالى، فكلّ شيء في هذا الكون منضبط ولا يكون إلا لحكمة يريدها الربّ المربي لخلقِهِ بالرسالات وغيرها. وكون المخاطب هنا هو الرسول، عليه السلام، ففيه تأكيد بأنّ كل ما يكون من تنزلات هو في سياق الرسالة الخاتمة؛ فكلّ ذلك يتمّ بأمر ربك يا محمد، وما كان ربك يا محمد نسياً.

فالسياق يجعلنا أكثر ميلاً إلى القول بأنّ المتكلم في الآية **64** هو المسيح، عليه السلام، لأنّ نزول جبريل، عليه السلام، بقولٍ وإعلانٍ للمسيح يصلح أن يكون إجابة عن سؤال الرسول، صلى الله عليه وسلم، كيف لا، وهو قاعدة لا تتخلف لا في المسيح ولا في غيره ممن يمكن أن يتنزّل.

فللمسيح إذن ثلاثة إعلانات؛ واحد وهو طفل في المهد، وآخر وهو رسول يدعو قومه، وثالث وهو في السماء مرفوع. وبذلك يتّضح أنّ الإعلانات الأول والثاني والثالث جاءت في سياق واحد. وأنّ العطف في الثاني والثالث كان على الأول. أما مضمون هذه الإعلانات فيحتاج إلى توقّف وتدبّر.

سليمان وأيوب عليهما السلام

أيّوب عليه السلام نبيّ صابر، ضُرب بصبره المثل حتى قيل:" يا صبر أيّوب". وقصته الشائعة بين الناس أخذت من سِفر أيوب، وهو السفر **18** من أسفار العهد القديم، ولكنّه من الأسفار المختلف فيها بين فِرق النصارى. ومن يقرأ هذا السِفر يخرج بنتيجة أنّ أيّوب هو رجل صالح كان غنيّاً جداً ثم ابتلي بجسمه وماله وعياله. وبعض هذا يستفاد من الآيات الكريمة التى تعرّضت لقصّة أيّوب بإيجاز شديد. إلا أنّ صورة أيوب، عليه السلام، في القرآن الكريم هي صورة النبيّ الصابر الذي يلجأ ويجأر إلى الله تعالى.

ورد اسم أيّوب في القرآن الكريم أربع مرات في أربع سور؛ مرتين يذكر الاسم مع غيره من الأنبياء، ومرتين تذكر قصّته مع اختلاف في الطول وبعض التفاصيل، إلا أنها تبقى شديدة الاختصار، كما هو الأمر في أكثر القصص القرآنيّ. واللافت أنّ القصة في سورة الأنبياء وسورة ص قد جاءت مباشرة بعد قصّة سليمان. أما ورود الاسم في الآية **84** من سورة الأنعام فقد جاء في هذا السياق:" ... **ومن ذريّته داود وسليمان وأيّوب ..**"، وكما تلاحظ جاء ذكر أيوب بعد ذكر سليمان، عليهما

السلام. أما المرة الرابعة والأخيرة، التي ذكر فيها أيّوب في القرآن الكريم، ففي الآية **163** من سورة النساء، حيث ورد فيها أسماء أحد عشر نبيّاً، منهم سليمان وأيوب. ومن اللافت أخيراً أنّ وصف **أوّاب** لم يوصف به من الأنبياء في القرآن الكريم إلا داود وسليمان وأيّوب، عليهم السلام، وذلك حصريّاً في سورة ص. والأوّاب هو الرجّاع إلى الله تعالى في جميع أموره وشئونه طاعة له.

إنّ مثل هذا التلازم يوحي بوجود علاقة بين النبيين الكريمين، لا نظنّها زمانيّة ولا مكانيّة ولا نَسَبيّة... لأنّ القرآن الكريم يقصد إلى إبراز القضايا الإيمانيّة والاجتماعيّة والتربويّة والتشريعيّة والأخلاقيّة... بعيداً عن الزمان والمكان والنَّسب. وبما أنّ قصّة أيّوب تتمحور حول **قيمة الصبر** فمن المتوقع أن يشير هذا التلازم إلى تجلّي هذه القيمة في سلوك، سليمان عليه السلام. وإذا كان الصبر مطلوباً ممن يبتلى بفقر أو مرض أو مصيبة..، فإنّ الصبر ممن يُمتحن بالغنى والصحّة والجاه والسلطان مطلوب أكثر. ومعلوم أنّ سليمان، عليه السلام، قد وُهب من السلطان ما جعله مضرب المثل في التاريخ البشريّ؛ فقد سخِّرت له الريح، وسخِّرت له مردة الجن، وسخِّرت له الجيوش التي لا قِبل لأحد بها... بل لقد أطلقت يدُه في العطاء والمنع، انظر الآية **39** من سورة ص:" **هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب**".

ويبدو أنّ مثل هذا التمكين لسليمان، عليه السلام، قد كان بعد امتحان ما قَبل القوة والسلطان، ألا وهو امتحان الصبر على العجز وسلب القدرة، انظر الآية **34** من سورة ص:" **ولقد فتنا سليمان وألقينا على**

كرسيّه جسداً ثمّ أناب"، إذا كانت الإنابة فيها معنى الرجوع، وإذا كان الرجوع هنا هو رجوع سليمان، عليه السلام – أي رجوعه إلى الصحّة – ، فإنّ احتمال أن يكون الجسد الملقى على كرسيّ المُلك بلا حراك هو جسد سليمان، عليه السلام. وكان يمكن أن تكون الآية أوضح دلالة على هذا المعنى لو قيل:" وألقيناهُ على كرسيّه..."، ولكن مثل هذا التعبير يتضمن معنى النبذ المنافي للتكريم. ويبدو أنّ صبر سليمان، على مثل هذا الابتلاء كان في أعلى المراتب إلى درجة أنّ نجاحه المتميز جعله يتمنى على ربه فيقول:" **قال ربّ اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي إنّك أنت الوهاب**". أما طلب المغفرة فهو ديدن المقربين الذين يستشعرون دائماً عظيم فضل المُنعِم وقصور المكلفين عن حقيقة الشكر.

إذا كان الهدف من الفتنة هو استخراج وإظهار الخير المُسْتَكن في النفس البشريّة – كما الأمر في فتنة الذهب عند تعريض خامه للنار بهدف استخراج الذهب الصافي– فإنّ فتنة سليمان، عليه السلام، قد أبرزت صبره في أعلى مراتبه، فأصبح مهيّأً للتمكين في الأرض، وقيل له:" **هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب**". وعليه فإنّ من المتوقع أن يكون أصلح الناس عند التمكين هم أولئك الذين صبروا على المصائب وعركتهم الابتلاءات قبل أن يُمكّنوا. أما أرقى صور الصبر والمصابرة فهي صور أولئك الذين نجحوا لدى النعمة ولدى النقمة. وأمثال هؤلاء تحتاجهم البشريّة من أجل خلاصها.

لا ينبغي لأحد من بعدي

جاء في الآية 35 من سورة **ص**:" **قال ربّ اغفر لي وهب لي مُلْكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي إنّك أنت الوهاب**". قد يستشكل هذا الطلب عند البعض؛ فلماذا يطلب هذا النبي الكريم مُلكاً يُحرَم الناس من مثله إلى يوم القيامة؟! والأليق بمقام النبوة أن يطلب الخير للناس في زمنه ومن بعده. من هنا نرى أنّ ما طلبه هو أمر يعلم سليمان أنّ الله تعالى قضى أن لا يكون بعد زمنه عليه السلام.

عندما يولد الطفل يكون أشدّ ما يكون حاجة إلى رعاية الأهل، وكلّما كَبر قلّت حاجته إلى الرعاية والمساعدة والتلقين، حتى يبلغ رشده فيعتمد على نفسه. والإنسان في بداية نشأته يشبه الطفل في حاجته للتعليم والرعاية والدعم والمساعدة. وتبدأ قصّة الإنسان بخلق آدم وزوجه وتعليمه الأسماء، كما نصّ القرآن الكريم. وتاريخ البشريّة يشير إلى تواتر الوحي لتعليم الإنسان والأخذ بيده لإرشاده وتصويب مسيرته إلى أن بلغ رشده فخُتِمت النبوّات، فقد أصبح الإنسان قادراً على الاستمرار في خلافته في الأرض بإرشاد وهداية الرسالة الخاتمة.

لم تكن المساعدة مقتصرة على التعاليم الدينيّة، بل تعدتها إلى الأمور الحياتيّة، نظراً لحاجة الإنسان إلى هذه الدفعات التي تعينه وتسرِّع نضجه وتعرّفه بواقعه، لأنّ هدايته عن طريق العقل في أصل خلقه أقوى

من هدايته عن طريق الفطرة، على خلاف عالم الحيوان؛ فكيف يستطيع آدم، مثلاً أن يُميّز بين الأسد والحصان، فيأخذ حذره من الأسد والنمر والأفعى... ويأنس بالحصان والجَمل..الخ. وإذا كان الأمر يحتاج إلى تجربة فإنّ الثمن عندها سيكون مُكلفاً في بداية عمر هذا الخليفة المكرّم. وكيف لآدم وحواء، عليهما السلام، أن يعلما ضرورة ربط الحبل السرّي بعد قطعه وحاجة طفلهما الأول لألوان الرعاية والعناية...فإذا كان ذلك يتمّ من خلال التجربة والخطأ فإن ذلك سيكون مكلفاً جداً.

عندما قَتل أحد ابني آدم أخاه لم يدرك الحاجة إلى دفنه فما الذي حصل؟! انظر الآية **31** من سورة المائدة:" **فبعث الله غُراباً يبحثُ في الأرض لِيُرِيَهُ كيف يواري سَوْءَةَ أخيه...**". ومثل ذلك مساعدة نوح، عليه السلام في بناء السفينة، انظر ما جاء في الآية **27** من سورة المؤمنين:" **فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا...**". وكذلك تعليم داود، عليه السلام، انظر الآية **80** من سورة الأنبياء:" **وعلمناهُ صنعةَ لَبُوسٍ لكم لِتُحصِنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون**". وانظر قوله تعالى في الآيات (**10**– **12**) من سورة سبأ:" **ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوّبي معه والطير وألنّا له الحديد، أن اعمل سابغاتٍ وقدِّر في السرد واعملوا صالحاً إنّي بما تعملونَ بصير، ولسليمانَ الريحَ غُدوُّها شهرٌ ورواحها شهرٌ وأسلنا له عَينَ القِطر ومن الجنّ من يعملُ بين يديه بإذن ربه...**"، وواضح في الآيات الكريمة أنّ الجنّ قد سُخّرت أيضاً لمساعدة هذا المخلوق المكرّم. بل إنّ الملائكة أيضاً كانت تقوم برعاية الإنسان ومساعدته؛ فقد رجح عندنا أنّ الملائكة هي التي ساعدت في

بناء الكعبة، ومعلوم في الصحيح أنّ جبريل، عليه السلام، جاء في صورة رجل يُعلّم المسلمين أمور دينهم....

يَعْلم سليمان، عليه السلام، أنّ هناك أموراً ستُرفع ولن تكون في الأجيال القادمة، لأنّ الإنسان قارب أن يبلغ رشده فيستقل بأموره الحياتيّة، فدعا الله تعالى أن يهبه من الملك الذي لا ينبغي أي يبقى في الناس من بعده، فاستجاب له سبحانه وتعالى وسخّر له الريح تجري بأمره، وسخّر له شياطين الجنّ يعملون بين يديه وسُلِّط عليهم إلى درجة وضعهم في الأصفاد. وهذا يعني أنّ شياطين الجنّ لا تُسخّر لأحد من الناس بعد سليمان، عليه السلام، لأنّ تسخيرها كان من أجل الإنسان في مرحلةٍ من مراحل تطور الوعي البشري. وعلى الرغم من وضوح النص في الدلالة على عدم قدرة البشر على تسخير الشياطين بعد سليمان، فليس هناك ما يمنع من احتمال أن تكون الجنّ قد سُخِّرت أيضاً قبل عهده عليه السلام.

وخلاصة الأمر أنّ سليمان، عليه السلام، لم يطلب لنفسه مُلكاً يُحرم منه البشر من بعده، وإنما طلب بعضاً من الملك الذي كان عطاءً مؤقتاً من أجل دفع الإنسان وترقيته قبل أي يُترك ليمضي بقدراته. وهو عليه السلام يطلب ذلك لينفع الناس، كيف لا، وهو الذي تخطّى مرتبة حبّ الخير ليكون في مرتبة من يحب حب الخير: ".. **إنّي أحببت حب الخير..**". ص:32

وتماثيل

جاء في الآية **13** من سورة سبأ**:**" **يعملونَ لهُ ما يشاءُ من محاريبَ وتماثيلَ وجفانٍ كالجوابِ وقدورٍ راسياتٍ، اعملوا آل داودَ شكراً وقليل من عبادي الشكور**".

المقصود بالآية الكريمة سليمان، عليه السلام. ولسنا هنا بصدد تفسير الآية، ولكن نقصد أن نتوقف عند لفظة **تماثيل**، لأنّها اللفظة التي يَستشكلها من يقرأ الآية الكريمة، لما وَقر في عقل وقلب كل مسلم من استنكارٍ للتماثيل. في المقابل نجد هناك من يستدل بالآية الكريمة على جواز اتخاذ التماثيل. ولسنا هنا بصدد بيان حكم التماثيل في الشريعة الإسلاميّة، ولكنا بصدد توضيح معنى التماثيل، وإزالة اللبس في الفهم، وتبيين الخطأ في الاستدلال الناتج عن الخلل في المنهج.

جاء في التفسير الكبير للطبراني:" أي تماثيل كلّ شيء، يعني صوراً من نحاس وزجاج ورخام، كانت الجن تعملها، وكانوا يُصوّرون الأنبياء والملائكة في المسجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة. وهذا يدل على أنّ التصوير كان مباحاً في ذلك الزمان ثمّ صار حراماً في شريعة نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم". وقد اخترنا هذا النص للطبراني، رحمه الله، لأنّه يُمثل أقوال الكثير من أهل التفسير. وهو من أعجب العجب**!!**

ولنا على هذا النص الملاحظات الآتية:

أولاً: من أين لهم هذا، وهل من سندٍ صحيح عن المعصوم، صلى الله عليه وسلم؟!
ثانياً: يُصوّرُ الأنبياء والملائكة، في المساجد، ليزداد الناس عبادة؟! هذا منطق عجيب. ما هذه العبادة، وما هذه المساجد، وما هذا التوحيد؟!
ثالثاً: لماذا تكون مباحة قبل الإسلام، وهي أمور تتعلق بالاعتقاد بالدرجة الأولى؟! ثمّ إنّ عبادة الأوثان والأصنام كانت سائدة قبل وبعد عهد سليمان، عليه السلام. وما أظن أنّ أمة سليمان، عليه السلام، كانت محصّنة ضد الوثنيّة أكثر من خير أمةٍ أخرجت للناس. وإذا كانت صور الأنبياء والملائكة تجعلهم يزدادون في العبادة، فإنّ ذلك يعنى أنّهم أقرب إلى الوثنيّة، مما يقتضي منع ذلك درءاً للمفسدة.

جاء في تفسير القاسمي:" وتماثيل: أي صور ونقوش منوّعة على الجُدر والسقوف والأعمدة، جَمعُ تمثال: وهو كل ما صُوّر على مثال غيره من حيوان وغير حيوان". وهذا قول جيد، لأنّه يبين لنا أنّ التمثال يكون صورة مماثلة لحيوان أو غير حيوان. وهناك من المفسّرين من يوهم قولُه أنّ التمثال هو فقط ما يماثل صورة الحيوان. ولم ينفرد القاسمي بهذا القول؛ يقول أبو حيّان، صاحب البحر المحيط، وهو إمام من أئمة اللغة العربية:" التمثال: الصورة المصنوعة مشبّهة بمخلوق من مخلوقات الله تعالى، مثّلت الشيء بالشيء إذا شبهته به". وقال عند تفسير الأية الكريمة:" التماثيل: الصور وكانت لغير الحيوان". ويبدو أنه أخذ هذا عن تفسير ابن عطية، والذي هو أيضاً من أئمّة اللغة العربيّة، وعنهما أخذ

العلّامة الألوسي حرفيّاً. وقال الطاهر بن عاشور، وهو يفسّر كلمة التماثيل الواردة في سورة الأنبياء:" وكان قوم إبراهيم يعبدون الكواكب ويجعلون لها صوراً مجسّمة"، وهذا صريح بأنّ التماثيل قد تكون مثال الجمادات. وقد صرّح السعدي، في تفسيره، بذلك فقال:" تماثيل: أي صور الحيوانات والجمادات".

فالتماثيل إذن هي ما يُصنع على مثال شيء من الأشياء. وقد يكون هذا الشيء حيّاً وقد يكون غير حيّ. ومعلوم أنّ الصورة تكون أيضاً مثالاً للشيء، ومن هنا عرّف بعضهم التماثيل بأنّها الصور. والصحيح أنّها الصُّوَر المُجَسّمة، لأنها أقرب إلى حقيقة الشيء الممثل له من الصورة غير المجَسّمة.

إذا عرفنا هذا اتضح أنّ الجنّ كانت تصنع لسليمان، عليه السلام، ما يشاء من أمثال الأشياء التي يريدها للزينة أو غير الزينة. وقد تكون أشياء في عالم الصناعة تماثل أشياء في الطبيعة. المهم أنّهم كانوا يقلّدون الأشياء كما يريد سليمان، عليه السلام. فلماذا انصرف ذهن الكثير من أهل التفسير إلى الأشياء المحرّمة، ليجعلوها مباحة في عصره، عليه السلام، وما دليلهم على ذلك، حتى يقولوا إنّ ذلك كان مباحاً ثم نُسِخت الإباحة بالشريعة الإسلاميّة؟! الأمر أبسط من ذلك: فالجنّ تعمل وفق مشيئة نبي كريم لا يأمر إلا بعمل ما فيه شكر لنعم الله تعالى. ألم يقرأوا قوله تعالى في الآية الكريمة:" **اعملوا آل داود شكراً**

وقليلٌ من عباديَ الشكور"، فهو عليه السلام من القليل الذي يشكر، فيضع النعمة في موضعها.

لعل ما أوقع بعضهم في الوهم ظنهم أنّ التماثيل لا تكون إلا لكائناتٍ حيّة. وليتهم إذ ظنوا ذلك جعلوها تماثيل في القصور والشوارع ولم يدخلوها المساجد. ويجدر بنا قبل أن نختم أن نبيّن أنّ اتخاذ صور وتماثيل الجمادات هي أيضاً محرمة إذا قصد بها أمور محرّمة.

إنما نحن فتنة

الــدارس للتـاريخ يلاحـظ أنّ فتـرة حكـم سـليمان، عليـه السـلام، تتسـم بـالغموض إلـى درجـة أنّ الأبحـاث الأثريّـة، حتـى الآن، لـم تشـف غليل البـاحثين عـن الحقيقـة. ويلفـت انتبـاه المتـدبر للقـرآن الكـريم أنّ ألـوان الخوارق تُميّز عهد هذا النبـي الكريم، بـل إنّ مـا وهب لـه من ملـك لا ينبغـي لأحـد مـن بعـده. وعنـدما يُذكر سـليمان، عليـه السـلام، تثـور فـي الأذهان التصورات والخيالات المتعلقة بعالم الفخامة والجلال، والسيطرة والجمال، والغموض الساحر. وعندما نعلم أنّ سليمان، عليه السلام، قد أقام مملكة الحق والعدل بعيداً عن عنصريّة كفرة اليهود، وخلافاً لرغباتهم وأطمـاعهم، نـدرك السـر مـن وراء الصـورة غيـر الإيجابيّـة التـي يعطيهـا العهد القديم عن سليمان، عليـه السـلام. فهو بـزعمهم ملـك ظـالم، عبد الأوثان إرضـاءً لزوجاته الوثنيّات، وكان ساحراً، ومات كافراً.

جـاء فـي الآيـة **102** من سورة البقرة:" **واتَّبعوا مـا تتلـوا الشـياطينُ علـى ملكِ سليمان، ومـا كفر سليمانُ ولكنّ الشياطينَ كفروا يُعلّمـونَ النـاس السحرَ...**":

"**واتّبعوا ما تتلوا**": فبدل أن يتّبعوا ما جاء به الرسول، عليه السلام، من الحقّ والحقيقة، وجدنا بعضهم يتّبع ما تناقلته القوى الشيطانيّة، وهي لا تزال تتناقله بدلالة استخدام الفعل المضارع تتلو.

تتلو: فالمشافهة هي الوسيلة الأساسيّة في تناقل مثل هذه المزاعم.

تتلو الشياطين: معلوم أنّ الشياطين تكون من الإنس ومن الجنّ، بدليل ما جاء في الآية **112** من سورة الأنعام:" **وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدوّاً شياطينَ الإنس والجن**"، وبدلالة قوله تعالى:" **من الجِنّة والناس**". ونحن نواجه أمثال هؤلاء كلّ يوم؛ فنجد الشيطان منهم يحمل لواء الإلحاد ويبذل قصارى جهده في معاداة الدين وأهله، ونجد الواحد منهم يمتلئ غيظاً وحقداً على أهل الإيمان. ويُفاجأ الإنسان بوجود أمثال هؤلاء، ممن يهيمون بالمعصية والفجور وينفرون من الطهارة والقنوت. إنّهم حقيقة من حقائق الحياة، وأمثال هؤلاء تتعلق قلوبهم بكل انحراف وتلهج ألسنتهم بكل هَجْر.

"**ما تتلوا الشياطينُ على ملكِ سليمان**":

واستخدام **على** يشير إلى أنّ ما يُتلى ويُقال هو من قبيل الكذب والافتراء على سليمان، عليه السلام، وعلى عهده المبارك.

"**وما كفر سليمان ولكنّ الشياطين كفروا**":

فما نسب إلى عهد سليمان، عليه السلام، من افتراءات هو من قبيل الكفر، وعلى وجه الخصوص ما يتعلق بممارسة السحر.

"**يُعلّمون الناس السحرَ وما أنْزل على المَلَكين**":

يفيد ظاهر النصّ بأنّ الشياطين – ورجّح بعض علماء التفسير أنّها هنا شياطين الإنس – كانوا يُعلِّمون الناس أمرين: الأول هو السحر، والثاني هو ما أُنزل على المَلَكين. وهذا يعني أنّ **ما أنزل على المَلكين ليس بسحر**، ولكن له علاقة بالسحر، فما هو؟

الدارس للتاريخ القديم يلاحظ أنّ بعض المجتمعات البشريّة قد بلغت مبلغاً عظيماً في بعض العلوم والمعارف. ولا يزال الكثير من أسرار هذه العلوم مجهولاً، كما هو الأمر في بناء الأهرامات في مصر الفرعونيّة، وكما هو الأمر في أسرار التحنيط عند الفراعنة. ويبدو أنّ الثورة الصناعيّة التي كانت المقدمة للعلوم الماديّة المعاصرة جعلت البشريّة تسير في مسار يختلف عن مسار العلوم قبل الثورة الصناعيّة. ويبدو أيضاً أنّ التطور التكنولوجي في القرون المتأخرة قد أضعف ما تحصّل لدى الإنسان من مسارات معرفيّة تستند إلى قوى ماديّة غير محسوسة. ومن هذه العلوم السحر، الذي بقيت منه آثار يتعامل بها من لا خلاق لهم من أهل الزيغ والانحراف.

ومعلوم أنّ مدينة بابل تُعتبر من أقدم المدن التاريخيّة التي ظهرت فيها حضارة عظيمة برع أهلها في مجالات شتّى، ولا تزال مُعلّقات بابل تُذكر كعجيبة من عجائب الدنيا السبع.

"**وما أنزل على المَلَكين ببابل**":

يبدو أنّ بابل قد بلغت مبلغاً عظيماً في علوم السحر، وهذا مؤشر على انحراف مسار الحضارة البابليّة. وقد تجلّت رحمة الله تعالى بإنزال مَلَكين لمواجهة ذلك الشر المستطير. ويُفترض أن يتمثل الملكان في صورة بشريّة، وذلك لقوله تعالى في الآية **9** من سورة الأنعام:" **ولو جعلناهُ مَلَكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون**". وقد صحّ في السُنّة أنّ جبريل، عليه السلام، كان يأتي أحياناً في صورة دحية الكلبي. ومعلوم

أنّ هذا من الأمور الغيبيّة التي تُعلم بالنصّ، وقد صرّحت النصوص بذلك.

وإنْ تعجب فعجب ما قام به بعض أهل التفسير من صرف هذا النص الصريح عن ظاهره، وما ذلك إلا لأنّهم لم يألفوا في حياتهم تَمَثُّل الملائكة في صورة إنسيّة. وهنا يجدر أن نلفت الانتباه إلى أنّ البشريّة في فجرها هي كالطفل عند مولده؛ فهو يتلقى منّا الرعاية الشديدة، وكلما كبر واشتد عوده تضاءلت حاجته لمساعدة الغير حتى يبلغ رشده. فنصوص القرآن والسُنّة تشير إلى أنّ الإنسان قديماً كان يتلقّى المساعدة تسريعاً لنضوجه ودفعاً لتطوره. ومن أبرز صور هذا الدفع والتسريع الأنبياء والرسل. فلمّا بلغ الإنسان رُشده خُتمت النبوّات والرسالات. ولا تزال رسالة الإسلام تُصَوِّب المسيرة وتُسرّع النضوج.

"**وما أنزل على الملكين**":

واضح من النصّ الكريم أنّ مهمّة المَلَكين تتمثل في تعليم الناس أموراً تتعلق بالسحر الذي استفحل شرّهُ في بابل. وبما أنّهما ملَكان، وبما أنّ ما يُعلّمانه مُنزّل عليهما، فلا بدّ إذن أن يكون أمراً إيجابيّاً. والأقرب في المنطق السويّ أن يكون هذا العلم يتعلق بمضادات السحر من أجل إبطاله. وبذلك لا نحتاج إلى لَيِّ أعناق النصوص، لأنّ هذا هو ظاهر النصّ واللائق بمقام الملائكة وما يُنزّل عليهم.

لماذا ملَكَان؟

كان يمكن أن يُنزّل هذا العلم، المتعلق بإبطال السحر، على نبيّ من الأنبياء، فلماذا أنزل على ملَكين متجسّدين في الصورة البشريّة؟!

الجواب على ذلك يتلخّص في كون الأمر لا يناسب مقام النبوّة والرسالة، لأنّ المخالفين قد درجوا على اتّهام الأنبياء والرسل بممارسة السحر، بل لقد خلط أهل الكفر بين المعجزة والسحر. من هنا، وحتى لا تكون الشبهة وحتى لا يتم الخلط، تمّ تجنيب الرسل الخوض في مضادات السحر التي تُحتِّم الخوض في السحر.

"**وما يُعلِّمان من أحدٍ حتى يقولا إنّما نحن فتنةٌ فلا تكفر**":

واضح من النصّ الكريم أنّ المَلكين يُخْلِصان النصيحة لكلّ من تعلّم مُضادّات السحر، ويظهر ذلك جليّاً في استخدام (**ما، ومن**) في قوله تعالى:" **وما يُعلِّمان من أحدٍ**". وهذا الحرص منهما يدلّ على خطورة الأمر وحساسيته. وتظهر هذه الخطورة في إمكانيّة انحراف المتعلّم وانخراطه في أمور السحر، لذا كانت النصيحة المشدّدة:" **إنّما نحن فتنة فلا تكفر**".

فمن أين تأتي الخطورة وإمكانيّة الانحراف؟!

من المتصوّر تماماً أنّ تعليم المضادّات للسحر يقتضي التعريف بحقيقة السحر أولاً، ثم تعليم أنواع المضادات لهذا السحر. ومن هنا يصبح المتعلم مُلِماً بأساليب السحر وأنواعه، كما هو الأمر في الصيدليّ الذي يُلمّ بأنواع السموم ومضاداتها.

من هنا لا بُدّ من التذكير الدائم والوصيّة المتكررة، لأنّ المتعلم أصبح قادراً على ممارسة السحر بعد تعلّمه لمضادّاته، ومثل هذه الإمكانات تُغري النفوس غير السويّة بالانحراف.

"**إنّما نحن فتنة فلا تكفر**":

جاء في الآية 35 من سورة الأنبياء:"... **ونبلوكم بالشرِّ والخير فتنة**"، وجاء في الآية 15 من سورة التغابن:" **إنّما أولادكم وأموالكم فتنة...**"، وعليه فتعليم مضادّات السحر من قِبَل الملَكين يجعل المتعلّم في حالة من المسئوليّة، فقد أصبح لديه القدرة على ممارسة شر السحر ونقيضه، فينبغي له أن يختار الخير ولا ينحرف إلى الشر المفضي هنا إلى الكفر بممارسة السحر.

واللافت في هذا المقام أنّ مثل هذه الوصيّة المشدّدة يحتاج إليها الناس عندما يكون الأمر على درجة من الخطورة والأهميّة، كما هو الشأن في القَسَم الذي يُقسِمُه الطبيب والصيدليّ عند التخرُّج.

"**فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ**":

وبعد أن تؤدّى النصيحة ويتمّ التحذير المشدّد يتمّ تعليم ألوان من السحر، وعلى وجه الخصوص الكيفيّة التي يتمّ فيها التفريق بين المرء وزوجه. ولا شكّ أنّ ذلك من أشرّ الشرور، فقد صحّ في الحديث الشريف أنّ إبليس يُقرِّبُ من اتباعه من يستطيع أن يُوسوس للزوجين بما يُفضي إلى طلاقهما. ويبدو أنّ التفريق بين الأزواج هو من أهم مقاصد السحر والسحرة، فحيث تكون المودّة والرحمة والسكينة يكون الخير، وما السحر إلا محض شر.

"**وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ**":

وهذه حقيقة ينبغي أن تكون ماثلة دائماً في ضمير المؤمن، فلا يكون في هذا الكون شيء إلا بإذنه تعالى. فليكن التوجّه أولاً وأخيراً إلى الله تعالى.

" **ويتعلمون ما يضرّهم ولا ينفعهم**":

وهذا يدل على أنّ السحر لا علاقة له بالنفع، بل كُله يتعلق بالمضرّة ويخلو من المنفعة. من هنا كانت ممارسة السحر من أكبر الكبائر، وقد يصل حكمها إلى الكفر. ولو كان في السحر بعض الجوانب النافعة لأمكن عقلاً أن يأذن الشرع بممارسة هذه الجوانب. أمّا تعلّم مضادّات السحر فلا تتعلق بالمنفعة وإنّما بدفع المضرّة. من هنا كانت وصية المَلكين مشدّدة، لكي لا ينزلق المتعلّم في متاهات السحر، ولكي يُسخّر علمه في دفع الضرر.

وقد يتوهّم البعض أنّ المقصود بقوله تعالى:" **ويتعلمون ما يضرّهم ولا ينفعهم**": أنّهم كانوا يتعلّمون ما يضرّ فقط، وهذا الفهم بعيد لأمور:

أولاً: لم يثبت أنّ للسحر جوانب نافعة.

ثانياً: لا يُعقل أن يتعلّموا ما يضرّهم فقط ويتركوا علم ما ينفعهم، لأنّ لدى الإنسان الميل إلى جلب المنفعة لنفسه أشدّ من ميله إلى إلحاق الضرر بغيره.

ثالثاً: جاء في النص الكريم: "**يضرّهم**"، وليس: "**يضرّ غيرهم**"، والإنسان لا يتعلم كيف يضرّ نفسه ويهمل ما ينفعها.

ولتقريب المعنى نضرب المثال الآتي:

إذا تعلّم الصيدليّ عن السموم وتأثيراتها السلبيّة على الإنسان فإنّه يكون قد تعلم ما يضرّ من السموم ولا ينفع. أما إذا تعلم أيضاً منافع السموم، فيكون عندها قد حاز علم ما ينفعه وما يضرّه من السموم. وعليه فإنّ **السحر علم كله ضرر وليس فيه منفعة.**

وهنا يجدر لفت الانتباه إلى أنّ العلماء قد اختلفوا في ماهية السحر وتأثيره؛ فذهب الجمهور إلى القول بأنّ للسحر حقيقةً وتأثيراً مستدلين بالحديث الصحيح الذي أشار إلى ما حصل من سحر الرسول، صلى الله عليه وسلم، من قِبَل رجل يهوديّ. في المقابل هناك من العلماء من ينفي أن يكون للسحر تأثير يتعدّى كونه تمويهاً واحتيالاً.

يرجع الاختلاف في حقيقة السحر إلى كونه علماً مجهولاً لدى الغالبيّة من الناس، ويبدو أنّه ينتمي أكثر إلى العصور القديمة. ولأنّ الحاجة هي أم الاختراع فيتوقّع أن يكون لتطور العلم والتكنولوجيا تأثير كبير على تراجع دور السحر والسحرة، نظراً لما يلبيه التطوّر التكنولوجي من حاجات. ولا نستطيع أن نجزم بمدى تراجع هذا العلم الشيطاني، لأننا لا نزال نسمع بممارسته، وعلى وجه الخصوص في العالم الغربي. وهنا لا بدّ من التنبيه إلى أنّ الناس في مجتمعاتنا العربيّة باتت تبالغ في مزاعم حصول السحر، ويرجع ذلك فيما **يرجع إلى الجهل بحقيقة الكثير من الأمراض النفسيّة**. والتجربة تؤكّد أنّ الغالبية العظمى من حالات السحر المزعومة هي في الحقيقة حالات نفسيّة.

ليس هناك من دليل نصّي على أنّ للسحر تأثيراً في عالم الأشياء. ويبدو أنّ تأثير السحر ينحصر في عالم النفوس، وهذا ما تشير إليه نصوص القرآن والسُنّة. فقد جاء في الآية **116** من سورة **الأعراف**:"... **فلمّا ألقوا سَحَروا أعيُنَ الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحرٍ عظيم**"؛ لقد انحصر أثر السحر في أبصار الجمهور ومداركهم بحيث تخيّلوا جميعاً أنها تسعى. ومما يؤكّد ذلك ما جاء في الآية **66** من سورة **طه**:" **فإذا**

حبالهم وعِصيُّهم يُخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى"، فقد حصل التخيّل المنافي للواقع كنتيجة لممارسة السحر.

من المس

جاء في الآية **275** من سورة البقرة:" **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبّطه الشيطان من المس**".

لسنا هنا في مقام تفسير الآية الكريمة، ولسنا في مقام مناقشة القول بأنّ الشيطان من مسببات الجنون، ولكننا في مقام التأكيد على أنّ الآية الكريمة لا تصلح دليلاً لمن يقول بأنّ المس (الجنون) ناتج عن فعل الشيطان. وقد دعانا إلى هذا ما رأيناه من مساجلات بين القائلين بانحصار تأثير الشيطان في الوسوسة– مستندين في ذلك إلى ما ورد في الآية 22 من سورة إبراهيم: وقال الشيطان... وما كان ليَ عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي.. – والقائلين بأنّ له تأثيراً يتعدّى الوسوسة، مستندين إلى هذه الآية وأدلّة أخرى.

عندما تقول: "مات فلانٌ من العطش"، فإنك تقصد أن تقول إنّ العطش كان مسبباً للموت، أي أنّ العطش مقدّمة والموت نتيجة، وهذا كما ترى في غاية الوضوح. فإذا أعدنا النظر في فهم الآية الكريمة على ضوء هذا الكلام، يتّضح لنا أنّ **المس مقدّمة والتخبّط نتيجة**، انظر قوله تعالى:"**يتخبّطه الشيطان من المس**"، أي يتخبّطه الشيطان بسبب ما به من مس.

فالتخبط إذن مسبوق بالمس. من هنا لا يكون الشيطان فاعلاً للمس ولكن فاعلاً للتخبّط، والذي هو سير على غير هدى ومن غير اتزان.

عندما تضعف الضوابط العقليّة يسهل على القوى الشيطانيّة أن تتخبط الإنسان وتجعله يسير على غير هدى، سواء كانت هذه القوى الشريرة من الجِنّة أو من الناس. وكلّما قوي العقل وانتشر العلم والوعي الحقيقيان تزداد المناعة ضد تلاعب القوى الشريرة في الفرد أو الجماعة أو المجتمع. وإذا كانت التقوى ضمانة وحصانة من التخبّط فإنّ الوعي والعلم وسلامة العقل ضمانة أخرى، بل إنّ التقي الجاهل عُرضة لتلاعب أهل الشرّ به من جهة جهله لا من جهة تقواه.

مسألة حول الطوفان

وردت قصّة الطوفان في أساطير العديد من الأمم. وهذا أمر متوقّع، لأنّه ليس من السهل أن تنسى البشريّة مثل هذا الحدث الجلل. وفي المقابل من غير المتصوّر أن تمر القرون دون أن يزاد على القصّة أو يُنقص منها. وبذلك تتشكل الأساطير وتتباين أحداث القصّة وتختلف باختلاف الأمم مع بقاء قاسم مشترك يشير إلى حقيقة الحدث. وقد جاءت الآيات القرآنيّة الكريمة لتعيد الأمور إلى نصابها فتضعنا في الصورة الحقيقيّة للحدث.

ونظراً لتأثّر بعض أهل التفسير بما ورد في التوراة من تفصيل حول قصّة الطوفان، ونظراً لرسوخ بعض التصورات – غير القائمة على دليل تطمئنّ له النفس – في أذهان الغالبية من المسلمين، فقد رأينا أن ننبه إلى بعض المسائل ذات الصلة بحادثة الطوفان. وهي وإن كانت مختصرة ولكنّها قد تثير في ذهن القارئ تساؤلات تساعده في إعادة النظر في بعض تصوراته التي لا تقوم على أساس من دليل ظاهر:

أولاً: القول بأنّ الطوفان قد عمّ الكرة الأرضيّة لا دليل عليه من قرآن أو سنّة في حدود ما نعلم. أما التوراة التي كُتبت بعد موسى، عليه السلام،

بقرون فتنصّ على ذلك. وقد تأثر عدد من أهل التفسير بما جاء في هذه التوراة.

ثانياً: إذا علم ذلك يمكن أن يُرجّح العقل بين الاحتمالات فنقول:

أ. معلوم أنّ نوحاً، عليه السلام، هو أول رسول أرسل إلى البشر، كما ورد في الصحيح. وهذا يعني أنّ البشريّة لم تكن قد سكنت كامل الأرض، فلماذا يعمّ الطوفان الأرض كل الأرض؟!

ب. جاء في الآية 40 من سورة هود: "... **قلنا احمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين وأهلك... ومن آمن وما آمن معه إلا قليل**"، وجاء في الآية 27 من سورة المؤمنون:"... **فاسْلُك فيها من كلٍّ زوجين اثنين وأهلك...**"، فالله سبحانه يطلب من نوح، عليه السلام، أن يحمل في السفينة من كلّ زوجين اثنين، وهذا يُشعر بأنّ الطوفان سيعمّ الأرض ويهلك الكائنات. ويُجاب عن هذا بأنّ قراءة حفص للآيتين تُنوّن لفظة (كلٍّ). والتنوين هنا عوض عن مضاف إليه محذوف؛ **أي احمل فيها من كلّ ما أمرتك أن تحمله زوجين اثنين. وهذا يشير إلى أنّ هناك أمراً سابقاً يحدد الأنواع التي ستُحمل في السفينة من أجل أن يكون، عليه السلام، على استعداد في انتظار الاشارة لحمل هذه الأنواع**. ومن المتوقع أن يكون مثل هذا الأمر للمحافظة على الأنواع التي تختص بها المنطقة التي ستغرق بماء الطوفان. أما الأنواع التي توجد في بقاع أخرى من الأرض فلا ضرورة لحملها لعدم احتمال انقراضها بالطوفان. ومثل هذا الاحتمال،

الذي يفهم من قراءة التنوين- التي تُحمل عليها القراءة الأخرى- هو الأقرب إلى منطق الأشياء، لأنّ الأنواع الموجودة على اليابسة هي بالملايين، ولا يتصور إمكانية جمعها جميعاً.

ج. تشير ظواهر النصوص القرآنيّة إلى أنّ البشريّة قد تناسلت من المؤمنين الذين حُمِلوا مع نوح، عليه السلام؛ انظر مثلاً الآية الثالثة من سورة الإسراء:" **ذريّة من حملنا مع نوح...**"، وانظر الآية **58** من سورة مريم:" **أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيّين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح...**". وتشير الآية **77** من سورة الصافات إلى أنّ من بقي بعد الطوفان هم ذرية نوح، عليه السلام:" **وجعلنا ذريّته هم الباقين**". وهذا يعني أنّ القليل الذي آمن مع نوح، عليه السلام – بحسب الآية **40** من سورة هود- قد تزاوجوا مع أولاد نوح، بحيث يكون من بقي من البشر هم من ذريّته، عليه السلام، من جهة الذكور أو من جهة الإناث.

ولكن كل ذلك لا يدل بشكل جازم على أنّ نوحاً، عليه السلام، هو الأب الثاني للبشريّة، وإن كان هو القول المرجّح وفق ظواهر النصوص. ولكن عندما نضيف الآية 11 من سورة الحاقّة يصبح الأمر في غاية الوضوح:" **إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ**".

ثالثاً: جاء في الآية **37** من سورة الفرقان:" **وقوم نوح لما كذّبوا الرسل أغرقناهم...**": هذه الآية نصّ في أنّ هناك أكثر من رسول كانوا مع نوح، عليه السلام. ولكنّ نوحاً كان أوّل من أرسل، وبقي يدعو قومه حتى

أهلكوا بالطوفان. وهذا مألوف في النص القرآنيّ، كما هو الأمر في إرسال هارون مع موسى، عليهما السلام، وكما ورد في سورة يس:" **إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث..**" يس: 14

لمّا كذّبوا الرسل

جاء في الآية **37** من سورة الفرقان:" **وقوم نوحٍ لمّا كذّبوا الرسل أغرقناهم...**"، وجاء في الآية **105** من سورة الشعراء:" **كذّبت قوم نوح المرسلين...**".

اللافت في الآيتين الكريمتين أنّهما تصرّحان بأنّ قوم نوح قد كذّبوا أكثر من رسول، وليس **نوحاً** فقط. وهذا يعني أنّ الله تعالى قد أرسل مع نوح عدداً من الرسل إلى قوم نوح، كما هو الأمر عند إرسال موسى ثمّ هارون، عليهما السلام. وكما هو الأمر في قصّة أصحاب القرية الواردة في سورة يس، انظر الآية **14**:" **إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون**". وبما أنّ نوحاً، عليه السلام، كان أول رسول أُرسل إلى البشر- كما نصّت عليه الأحاديث الصحيحة- ، وبما أنّه بقي حيّاً إلى أن أغرق قومه، وبما أنّ النص القرآنيّ الكريم ينصّ على أنّ قوم نوح قد كذّبوا الرسل، فإنّ ذلك كلّه يعني أنّ الله تعالى قد أرسل مع نوح عدداً من الرسل كان نوح عليه السلام أبرزهم وإمامهم. وهذا وجه واضح ومنطقي ولا يعارض نصّاً من قرآن أو سُنّة، بل هو منسجم تماماً مع باقي النصوص القرآنيّة.

على الرغم من هذا فإننا نجد أنّ عامّة أهل التفسير يقولون بوجوه أخرى إلا هذا الوجه. وهذا أمر يدعو إلى العجب، ويدعونا إلى محاولة فهم

لماذا يتواطأ أهل التفسير أحياناً على قول أو أكثر، على الرغم من احتمال النص لوجوه أخرى هي أقرب إلى ظاهر النص القرآنيّ الكريم.

يقول ابن كثير، رحمه الله:" ولم يُبعَث إليهم إلا نوح فقط". فلماذا يجزم رحمه الله بهذا القول على الرغم من أنّ النص الكريم يقول:" **لما كذّبوا الرسل...**"؟! ويقول الألوسي رحمه الله:" **أي** نوحاً ومن قبله من الرسل..."، وهذا عجيب، لأنّ حديث الشفاعة المتفق على صحّته ينصّ على أنّ نوحاً، عليه السلام، هو أول رسول أرسل إلى البشر. بل إنّ المتدبّر للقرآن الكريم يدرك ذلك من خلال ملاحظة أنّ القرآن الكريم يبدأ الحديث عن الأمم المكذّبة بنوح وقومه؛ انظر قوله تعالى في الآية **17** من سورة الإسراء:" **وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح...**"، والآية **12** من سورة ق:" **كذّبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرسل وثمود**"، والآية **163** من سورة النساء:" **إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده...**"، وآيات أخرى كثيرة تؤيّد ما صحّت به الأحاديث التي نصّت على أنّ نوحاً هو أوّل رسول يُرسَل إلى البشر.

وما قاله الألوسي قاله كثير من أهل التفسير، ومنهم أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط، والزمخشري في الكشاف، والشوكاني في فتح القدير... ولم يقتصر الألوسي على هذا القول بل أضاف:" أي نوحاً ومن قبله من الرسل عليهم السلام أو نوحاً وحده فإنّ تكذيبه، عليه السلام، تكذيب للكل لاتفاقهم على التوحيد...". وهذا القول يقول به عامّة أهل التفسير، وهو ضعيف، لما ثبت من أنّ نوحاً هو أول رسول يُرسَل إلى البشر، والآية تنصّ:" **لما كذّبوا الرسل...**"، فلو كان قبله رسل لفُهِم

الأمر أنهم كذّبوه وكذّبوا الرسل من قبله. ولا يُتوقّع أن يكون تكذيبهم لنوح، عليه السلام، ولمن سيأتي بعده من الرسل.

ويُضيف الألوسي فيقول:" أو أنكروا جواز بعثة الرسل مطلقاً". وهو قول عدد من أهل التفسير أيضاً. والوجوه الثلاث التي عرضها الألوسي عليها مدار أقوال المفسرين. والعجيب أنّهم، رحمهم الله، لم يقولوا بالوجه الرابع المتبادر من ظاهر النص، والذي ينسجم مع النصوص القرآنيّة، والمنطق السليم.

وطالما أنّه لا ينبني على ذلك نتائج وأمور ذات بال على مستوى الاعتقاد والسلوك، فلماذا نتعرض للموضوع بهذا التفصيل؟!

نقول:

أولاً: في ذلك لفت انتباه المتدبّرين للألفاظ القرآنيّة وضرورة الانتباه إلى دقة التعبير القرآني.

ثانياً: في إرسال أكثر من رسول كمال الإنذار والإعذار. وفيه دليل على عتو القوم وقسوة قلوبهم وعميق غفلتهم. وكذلك فإنّ تعدد الرسل متزامنين يتناسب مع واقع البشر في ذلك الزمان، حيث صعوبة الاتصال بين التجمعات البشريّة المتناثرة.

ثالثاً: في ذلك لفت للانتباه إلى ضرورة الالتزام بالمنهجيّة السليمة في التدليل والاستنباط عند تدبّر النصوص القرآنيّة، وأهمية تفسير القرآن بالقرآن.

رابعاً: استشكال المفسرين للفظة من الألفاظ القرآنيّة دليل على أنّهم قد فهموا ظاهر النصّ ثمّ استشكلوه، وذلك لوجود أفكار مسبقة قد لا تكون

صحيحة. فعندما يتدبّر المسلم القرآن الكريم محكوماً بأفكار مسبقة قد يؤدّي به ذلك أحياناً إلى تناقض لا يوجد في النص الحكيم أصلاً.

خامساً: ما يتوهمه مُفسّر واحد قد ينعكس على من يأخذ عنه. ومن هنا نجد أنّ الكثير من أهل التفسير يكررون أقوال بعضهم البعض ولو على سبيل الاستقصاء.

سادساً: هناك أسباب تجعل المفسّر يذهل أحياناً عن المعنى الأقرب لظاهر النص، وهي أسباب قد تتعدد وتختلف من مفسّر لآخر.

سابعاً: لا يكفي أن نقول إنّ هذا ممّا يحتمله النص، بل لا بدّ من الترجيح قدر الطاقة. ومعلوم أنّ الاحتمالات منها ما هو راجح، ومنها ما هو مرجوح، ومنها ما هو ضعيف، ومنها ما هو متهافت... الخ.

إنّكَ لَغَويٌّ مُبين

في هذه القصّة القصيرة يُبرز القرآن الكريم الحدث الذي أدّى إلى خروج موسى، عليه السلام، من مصر وذهابه إلى مَدْيَن. ونُقدّم هنا تفسيراً سريعاً لألفاظ القصّة لعلنا نزيل اللبس الذي يقع فيه من يرجع إلى كتب التفسير. وسيجد القارئ الكريم أنّ اللبس جاء بالدرجة الأولى من فهم بعض أهل التفسير لعبارة:" **بالذي هو عدوٌ لهما**".

جاء في الآيات من **15** إلى **19** من سورة القصص:" **ودخل المدينةَ على حين غفلةٍ من أهلها فوجدَ فيها رجلينِ يقتتلانِ هذا من شيعتهِ وهذا من عدوّهِ، فاستغاثهُ الذي من شيعتهِ على الذي من عدوّهِ فوكزهُ موسى فقضى عليه، قال هذا من عمل الشيطانِ إنّهُ عدوٌ مضلٌّ مبينٌ. قال ربِّ إنّي ظلمتُ نفسي فاغفر لي فغفرَ له، إنهُ هو الغفورُ الرحيم. قالَ ربِّ بما أنعمتَ عليَّ فلن أكونَ ظهيراً للمجرمينَ. فأصبحَ في المدينةِ خائفاً يترقّبُ فإذا الذي استنصرهُ بالأمسِ يستصرِخُهُ، قال له موسى إنّكَ لغويٌّ مبينٌ. فلما أنْ أرادَ أن يبطشَ بالذي هو عدوٌ لهما قالَ يا موسى أتريدُ أن تقتُلَني كما قتلتَ نفساً بالأمس، إن تُريدُ إلا أن تكونَ جبّاراً في الأرض وما تريدُ أن تكونَ من المصلحينْ**".

ليس من مقصدنا هنا أن نفسّر هذه الآيات الكريمة، وإنما نهدف إلى محاولة إزالة اللبس الذي يجده من يرجع في فهم الآيات إلى بعض كتب

التفسير. وهي فرصة للتدرّب على المنهجيّة في الاستنباط والتحاكم إلى النص الكريم.

" **ودخل المدينةَ على حين غفلةٍ من أهلها**": والمقصود هنا موسى، عليه السلام، قبل النبوة، أيام وجوده في مصر. وقد كانت هذه الحادثة السبب الظاهر في مغادرته مصر متوجهاً إلى مَدْيَن. ولا يهمنا هنا أن نعرف لماذا دخل المدينة وأين كان قبل دخولها، ولكن لفت انتباهنا أنّه دخل المدينة والناس في بيوتهم والطرقات خالية.

" **فوجدَ فيها رجلينِ يقتتلانِ هذا من شيعتهِ وهذا من عدوّهِ**": وهذا يوحي أيضاً بأنّ الطرقات خالية لعدم شعورنا بوجود عنصر بشري آخر في الموقع. والرجل الأول هو من بني إسرائيل، والذين هم قوم موسى، عليه السلام. أما الرجل الثاني ففرعوني، لأنّ الفراعنة كانوا يعادون بني إسرائيل ويضطهدونهم.

" **فاستغاثهُ الذي من شيعتهِ على الذي من عدوّه**": وهذه العبارة الكريمة توحي أيضاً بأنّ الطرقات خالية، فبمجرد ما لمح الإسرائيلي موسى، عليه السلام، استغاث به.

في مثل هذا الموقف لا يحتاج الأمر إلى تفكير ولا بدّ من السرعة في التدخل لصالح الإسرائيلي، لأنّ موسى، عليه السلام، يعرف الواقع تماماً ويدرك أنّ الفراعنة يضطهدون الإسرائيليين.

" **فوكزهُ موسى فقضى عليه**": فهو إذن قتل شبه عمد، لأنّه قصد الضرب ولم يقصد القتل. وكان الدافع شريفاً، حيث توجب الملابسات

على من كان في مثل شهامته، عليه السلام، أن يسارع إلى سرعة الرد على اعتداء من اعتادوا استضعاف الناس.

" **قال هذا من عمل الشيطانِ إنّهُ عدوٌ مُضلٌّ مبينٌ**": كل شيء كان مفاجئاً وسريعاً، ولكن بعد انتهاء الحدث يكون التفكّر بالنتائج التي ترتبت على سرعة الردّ قبل التحقق من عدالة موقف الإسرائيلي، فما يدرينا فلعله هو المعتدي ابتداءً. ثمّ إنّ النتيجة أكبر من الحدث وموجباته. ولا يبعد أن يكون موسى، عليه السلام، قد عرف حقيقة الطرفين بُعيد الحادثة، وأدرك أنّ الإسرائيلي هو من أهل الانحراف والإجرام. والمهم أنّه، عليه السلام، أدرك أنّ ما كان منه هو من تسويل الشيطان الذي يحرص على إضلال الإنسان.

" **قال ربِّ إنّي ظلمتُ نفسي فاغفر لي فغفرَ له، إنّهُ هو الغفورُ الرحيم** ": فموسى، عليه السلام – وهو لم يُبعث رسولاً بعد – يُقرُّ بذنبه ويتوب منه، ويسأل الله تعالى أن يغفر له. ومن هنا لا داعي أن يستفيض الناس في بحث هذه المسألة، ليقولوا بعصمة أو عدم عصمة الأنبياء قبل البعثة. فالقتل كان شبه عمد، دوافعه كريمة، ونتائجه مفاجئة غير مقصودة، وضحّيته رجل من قوم كافرين وظالمين. ثمّ يقبل الله تعالى من عبده المنيب فيغفر له.

" **قالَ ربِّ بما أنعمتَ عليَّ فلن أكونَ ظهيراً للمجرمينَ**": السياق يُلزمنا أن نقول إنّ النعمة هنا هي نعمة المغفرة. وهذا يعني أنّ موسى، عليه السلام، قد علم أنّ الله تعالى قد غفر له. ويكون ذلك إما بالوحي أو بنزول الملَك ليخبره، أو غير ذلك من صور الإخبار. وهذا مألوف؛ فقد

أوحى الله لأمّه وهو رضيع أن تضعه في التابوت فتقذفه في الماء. وأوحى سبحانه قبل ذلك بقرون للفتى الصغير يوسف وهو في البئر، انظر الآية **15** من سورة يوسف:"... **وأوحينا إليه لتُنبّئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون**". وأوحى سبحانه وتعالى بعد ذلك بقرون لمريم، عليها السلام، انظر الآية **45** من سورة آل عمران:" **إذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله يُبشّرك...**"، بل وأرسل سبحانه إليها الملك على صورة رجل لينفخ فيها من روحه...الخ.

" **قالَ ربِّ بما أنعمتَ عليَّ فلن أكونَ ظهيراً للمجرمينَ**": توحي هذه العبارة الكريمة بأنّ موسى، عليه السلام، قد أدرك فيما بعد أنّ الإسرائيلي كان من أهل الإجرام، وأنّ نصرته لم تكن عادلة. وهذا يشير إلى أنّه، عليه السلام، كان وقّافاً عند الحق ولا ينصر الباطل، ولو كان ذا قُربى.

" **فأصبحَ في المدينةِ خائفاً يترقّبُ فإذا الذي استنصرهُ بالأمسِ يستصرِخُهُ**": كلمة بالأمس تشير إلى مُضيّ أكثر من يوم، لأنّ هذه الكلمة إذا عُرّفَت أصبحت نكرة، وإذا لم تُعرّف – أمس– قصد بها اليوم الذي سبق. وواضح من تكرار الحدث أنّ الرجل الإسرائيلي من أصحاب المشاكل. وهو الآن لا يكتفي بالاستغاثه بل يملأ الدنيا صراخاً. وقد يوحي ذلك ببعد نسبيّ، ولكنّه لما رأى موسى، عليه السلام، بادر إلى الصراخ طالباً النجدة. والعجيب أنّه في كلّ مرة يستغيث، فليته إذ كان غير قادر اختصر فأراح الناس. وهذا النوع من الأشخاص له أمثال في كلّ مجتمع. وأمثال هؤلاء لا يحظون في الغالب بثقة الناس، ولا ينجدهم في الملمات أحد، وهم غالباً ما يُوَرّطون أهل الشهامة والنجدة.

" **قال له موسى إنكَ لغويٌّ مبينٌ**": فغواية الإسرائيلي إذن واضحة جليّة، ولا يلدغ المؤمن من جُحْرٍ واحدٍ مرتين، فكيف بموسى، عليه السلام؟! ولك بعد ذلك أن تعجب أشدّ العجب ممن يجعل موسى، عليه السلام، ناصراً لمثل هذا الغوي. وأين قوله:" **فلن أكون ظهيراً للمجرمين**"؟!

" **فلمّا أنْ أرادَ أن يبطشَ بالذي هو عدوٌ لهما**": تَصوَّر كثير من أهل التفسير أنّ الخصم في هذه الحادثة هو فرعوني أيضاً، وأنّ موسى، عليه السلام، أراد أن يبطش به. ولا ندري لماذا يريد موسى، عليه السلام، أن يبطش بالفرعوني الثاني بعد أن ندم على قتل الأول، وتاب إلى الله تعالى، وحكم على الإسرائيلي بأنّه غوي، وعاهد الله تعالى، بعد الحادثة الأولى، أنّه لن يكون ظهيراً للمجرمين؟! لماذا إذن لا يكون الخصم هذه المرّة هو إسرائيلي، مما جعل حقيقة المستصرِخ تتجلى أمام ناظر موسى، عليه السلام، إضافة إلى ما يمكن أن يكون قد عَرَف عنه من أخبار بعد الحادثة الأولى. كيف لا، وقد لبث أيّاماً يترقّب.

واضح أنّ المفسّرين استشكلوا قوله تعالى:" **أراد أنْ يبطش بالذي هو عدوٌّ لهما**"، والأمر في نظرنا غير مُشكل؛ لأنّ هناك فرقاً بين قولنا: يبطش بالذي هو من عدوه- كما جاء في قوله تعالى: وهذا من عدوه-، وبين قوله:" بالذي هو عدوٌّ لهما"؛ فالقول الأول يدلّ على أنّ الرجل ينتمي إلى الفراعنة المعادين للإسرائيليين، أمّا القول الثاني فيدل على أنّ الرجل هو العدو:" هو عدوٌّ لهما"، وليس قومه.. وهناك فرق بين رجل من قوم معادين – وقد لا يكون هو معادياً – ورجل هو نفسه عدو.

فكيف يكون الإسرائيلي الغويّ عدواً لموسى، عليه السلام، وفي الوقت نفسه عدواً لخصمه، والذي كان على ما يبدو إسرائيلياً هذه المرّة؟!

والجواب جد بسيط؛ انظر الآية **83** من سورة يونس:" **فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إلا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ**"، لاحظ قوله تعالى:" **ملئهم**" وليس **ملئهِ**، فقد كانوا يخافون من فرعون أن يفتنهم، ويخافون أيضاً من ملئهم، أي كبراء بني إسرائيل الذين كانوا يتواطؤون مع الفراعنة للبطش بمن يخالف سياسة فرعون. وهذا معهود في كلّ الأمم والعصور، بل إنّ عدم وجود أمثال هؤلاء الجواسيس والعيون والمتعاملين والمتواطئين غير متصوّر.

فيمكن إذن أن يكون هذا الإسرائيلي من المتواطئين مع الفراعنة ضد قومه، وهذا ما يُجرِّئه على أبناء جلدته وغيرهم من أبناء الشعب المصري. وبالتالي فقد كان عدواً لموسى، عليه السلام، ولخصمه الإسرائيلي في الحادثة الثانية. ويبدو أنّ موسى، عليه السلام، قد اكتشف أمره بعد الحادثة الأولى فكان مسارعاً للبطش به في الحادثة الثانية. وهذا واضح تمام الوضوح في قول الإسرائيلي الغوي:

" **قالَ يا موسى أتريدُ أن تقتُلَني كما قتلتَ نفساً بالأمس، إن تُريدُ إلا أن تكونَ جبّاراً في الأرض وما تريدُ أن تكونَ من المصلحين**"، فهذه هي نذالة الجواسيس في أجلى صورها؛ فقد أصبح موسى بمنظار هذا الغوي جباراً بعيداً عن الإصلاح. ثمّ هو، كما تلاحظ، لا يعرف الوفاء ولا يحفظ الجميل، وسريعاً ما ينقلب على من أحسن إليه، وهذه صفة في الجواسيس معلومة.

ويذهب الكثير من أهل التفسير إلى أنّ الإسرائيلي ظنّ مخطئاً أنّ موسى، عليه السلام، قادم للبطش به فقال قولته هذه. وهذا بعيد لأنّ النص القرآني يقول:" فلما **أنْ** أراد أن يبطش"، ولم يقل:" فلما أراد أن يبطش"؛ فإضافة **أنْ** يؤكد أنه، عليه السلام، أوشك على أن يبطش به. ونجد مثل هذا المعنى في قوله تعالى في سورة يوسف:" فلمّا **أنْ** جاءَ البشيرُ ألقاهُ على وجهِهِ فارتدّ بصيراً..."، ومعلوم أنّ إلقاء القميص على وجه يعقوب عليه السلام يستوجب القرب منه.

ولمُلئتَ منـهم رُعباً

قصّـة أصـحاب الكهف هـي القصّـة الأبـرز فـي سورة الكهف، حيث لجأ عدد من الفتية إلى كهف مجهولٍ فراراً بعقيدتهم، فضـرب الله تعالى على آذانهـم فنـاموا **309** سـنوات. ثـمّ بعـثهم الله تعـالى بعـد ذلـك مـن نـومتهم ليجدوا أنّ الـدين الحق قد انتصـر وانتشر...الـخ. ولا شـكّ أنّ مـا حصـل كـان معجزة يُكـرم الله بهـا عبـاده ليعلمـوا أنّ وعـد الله حق وأنّ السـاعة لا ريب فيها.

يُصـرّح النص القرآنـيّ الكريم بأنّ من يَطّلـع علـى هيئـة الفتيـة فـي نـومتهم يمتلـئ رعبـاً. وهـذه إشـارة إلـى احتمـال حصـول تحـولات فـي أجسـامهم تناسب واقعهم العجائبي. ونحـن هنـا نحـاول أن نقدّم تصوراً لما يمكن أن يكون قد حصل، مع إقرارنا بأنه مجرد تصـوّر. أمـا واقـع مـا حصـل فعلمـه إلى الله سبحانه وتعالى.

جاء في الآية **18** من سورة الكهف:"**... لـو اطلعت عليـهم لوليت منـهم فراراً ولملئت منـهم رعباً**": وهذا يعني أنّ هذه المعجزة كانت وفق سنّة من سنن الله تعالى يمكن للبشر أن يجدوا لـها تفسيراً فيمـا خلـق الله تعـالى من سنن وقوانين.

ملاحظات واقتراحات تساعد في تصوّر الحدث:

أولاً: رؤيـة جماعـة نائمـة فـي كهف لا تـدعو إلـى الرعـب، وعلـى وجـه الخصوص قديماً، لأنّ ذلك كان من مألوف الناس.

ثانيـاً: قـول الفتيـة بعـد الاسـتيقاظ مـن نـومتهم الطويلـة:"... **لبثنـا يومـاً أوبعـض يـوم**"، يـدل علـى أنّهـم لـم يلاحظـوا تغيّـراً فـي أشـكال بعضـهم البعض.

ثالثـاً: الرعـب الـذي يمـلأ النـاظرَ إلـى الفتيـة أثنـاء نـومهم يمكـن أن يشـير إلـى تغيّـر فـي صـورتهم تقتضـيه سـنن الله فـي الخلـق والبقـاء. ولا يتنـافى ذلك مع قدرة الله المطلقة، لأنّ ذلك مرده إلى الإرادة الربانيّة.

رابعاً: معلوم أنّ الأفعى هي من ذوات الدم البارد، ويمكنها أن تدخل في سبات لمدّة طويلـة مكتفيـة بمـا كانـت قد تناولتـه مـن طعـام قبـل البيـات. ويرجـع ذلـك إلـى أمـور منهـا؛ أنهـا لا تملـك دورة دمويّـة كالثديات بحيث تستهلك الطعام والطاقة الناتجة عنه بسرعة. ثمّ هي تمتلك جلداً صلباً **أملس** خالياً من المسامات، وهذا يعني أنها تحتفظ بالسوائل والطاقة فلا تُستنزف بسرعة.

واستناداً إلى هذا نقول: إنّ الفتية عند نومهم الطويل يحتاجون إلى دورة دمويـة بطيئـة، وهـم بحاجـة ملحّـة إلـى أن تحـتفظ أجسـادهم بالسـوائل والطاقة. وهذا يعني أن تتحول جلودهم فتصبح أقرب إلى الصلابة وأبعد عن المساميّة، بما يشبه جلد الأفعى.

خامسـاً: ضـغط مـنخفض جـداً وجلـد أملـس صـلب، ألا يجعـل ذلـك كلّـه صورة الفتية مرعبة لكل من يطّلع عليهم.

سادساً: الجلد الصلب يعني مساحة أقل، وهذا يؤدّي إلى أن تكون العيون مفتوحة أثناء النوم. انظر قوله تعالى في الآية **18** من سورة الكهف:" **وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود...**". يضاف إلى ذلك أنْ تتراجع الشفتان عن الأسنان. وبإمكانك الآن أن تتخيل المنظر!!

سابعاً: الخروج من هذه الحالة لا يكون مفاجئاً، وإنّما تكون عودة تدريجيّة حتى تعود الأمور إلى وضعها الطبيعي، ثم يستيقظ الفتية وهم في حالة طبيعيّة. ولكن حاجتهم الشديدة إلى الطعام تجعلهم يسارعون إلى إرسال أحدهم لشرائه. وهذا يشير إلى أنّهم لم يخططوا للأمر قبل أن يلجأوا إلى الكهف، وإنما كان الأمر مفاجئاً لهم.

ثامناً: أمّا شمسُ المغيب الهادئة غير المحرقة فتمس أجسادهم كلّ يوم لتعطيهم الدّفئ المطلوب وتحفظهم من العفونة، وعلى وجه الخصوص الأطراف البعيدة عن مركز الدورة الدمويّة البطيئة.

تاسعاً: التقليب لأجسادهم، ووضعيّة الكهف، والكلب الموصد للباب، واتساع الكهف بقدر محدد..... كل ذلك رسائل لنا لنتفكّر ونتدبّر.

ذلك من آيات الله

جاء في الآية 17 من سورة الكهف:" **وترى الشمسَ إذا طلعت تَزاورُ عن كهفهم ذاتَ اليمينِ وإذا غربت تَقرضُهم ذات الشمال وهم في فَجوةٍ منه، ذلك من آيات الله، من يهد اللهُ فهو المهتدِ ومن يُضلل فلن تجدَ له ولياً مُرشداً**".

تشير الآية الكريمة إلى أنّ وضعيّة الكهف واتجاهه آية من آيات الله. وهذا يعني أنّ مثل هذه الوضعيّة والظروف والشروط قد أعدّت مُسبقاً بحيث أصبحت مناسبة لمن سيحل ضيفاً في هذا الكهف. ونقول بلغة أخرى: لقد أعدّ هذا الكهف قبل ميلاد الفتية بسنين، بل بقرون، وقد تبلغ ملايين، بل مليارات السنين.

عندما اختار الفتية هذا الكهف لم يكن يخطر ببالهم أنّهم يُقادون إلى المكان المهيّأ لاستقبالهم. إنّها **الهداية الإلهيّة إلى موضع الرعاية الربانيّة**. إنها الألطاف التي لا تدركها الحواس. انظر قوله تعالى في التعقيب على آية الكهف هذه:" **من يهد اللهُ فهو المهتدِ ومن يُضلل فلن تجدَ له ولياً مُرشداً**"، فالمهتدي الحقيقي هو من هداه الله تعالى، أما من حكَمَ اللهُ عليه بالضلال والخذلان فلن تجد من يتولاه وينصره حق التولّي وحق النصر، ولن تجد من يرشده سبيل الرشاد.

فهذه هي المعادلة إذن: مُعسكر موحِّد يحمل دعوة الله ويعيش من أجلها ويضحّي في سبيلها، يقابله معسكر وثني يخلد إلى الأرض ويذهل عن الحقيقة العظمى. معسكر تحوطه الرعاية الربّانيّة وتنير طريقه الهداية الإلهيّة، ومعسكر يستنصر بالأوهام ويسترشد بالظلام. نعم، بإمكانك الآن أن تتوقع النتائج وأن تتصور المآلات.

" **الله وليّ الذين آمنوا يُخرجهم من الظلمات إلى النور**"، فقافلة أهل الإيمان تغادر مواقع الظلمات والضلالات في طريق صاعد يشرق كل يوم بأنوار الهداية فلا انتكاس. ويقابل ذلك:" **والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات**"، قافلة أخرى تسير بالاتجاه المعاكس تغادر عوالم أنوار الحق والحقيقة لتدخل شيئاً فشيئاً ظلمات الجهالة والضلال.

إنّها الحقيقة التي تراها ماثلة في واقع دعوة الحق ودعوة الباطل؛ فالماركسيّة مثلاً، صالت وجالت وحاصَرت وبطشت وضيّقت واستنفدت كل وسائلها في محاولة اجتثاث الحق، واستمر ذلك على مدى القرن العشرين، فكانت المفاجأة أن انجلى غبار المعركة عن الحقيقة الساطعة:" **فأمّا الزبدُ فيذهبُ جُفاء وأمّا ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرض**".

واليوم تقع الرأسماليّة الغربيّة في الخطأ نفسه وهي تحمل لواء الشيطان فتبطش وتقتل وتحاصر وتضيّق وتطارد ... وسينجلي غبار المعركة ليدرك الناس أنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً، ولتتجلى حقيقة العجز

البشريّ أمام الحقائق الوجوديّة التي أرادها مالك الملك:" **قل اللهمّ مالكَ الملكِ تُؤتي الملكَ من تشاءُ وتنزِعُ الملك ممن تشاء وتعزُّ من تشاء وتذلُّ من تشاء بيدك الخير إنّك على كل شيءٍ قدير**".

إنّي فاعل ذلك غداً

تتحدث الآيات من **9** إلى **26** من سورة الكهف عن قصّة أصحاب الكهف. واللافت أنّ سرد القصّة يتوقف في الآيتين **23** و **24** ليتم الإعلان عن مبدأ عقدي وهو:" **ولا تقولنّ لشيءٍ إني فاعلٌ ذلك غداً، إلا أن يشاءِ اللهُ، واذكر ربّك إذا نسيتَ وقل عسى أن يهدينِ ربّي لأقربَ من هذا رشداً**". ثمّ يعود النص الكريم إلى سرد القصّة:" **ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا**".

قصّة أصحاب الكهف هي قصّة مغرقة في القِدم. والقارئ للآيات الكريمة يعيش مع القصّة لحظات جليلة مضت، ثمّ يفاجأ بكلام عن المستقبل، ثم عودة إلى القصة التاريخيّة. وهذا أمر يستحق التوقّف والنظر؛ فإذا كانت القصّة في القرآن الكريم تاتي للعظة والاعتبار فإنّ ذلك قاسم مشترك لكل القصص القرآني. أمّا هنا فهناك إشارة وتنبيه إلى أنّ ما تسرده الآيات الكريمة من تفاصيل قصّة أصحاب الكهف له صلة بالمستقبل المقبل، على الرغم من كون أحداث القصّة مضت في التاريخ.

ولا نهدف هنا إلى الحديث حول هذه المسالة، ولكن نهدف إلى التوقف عند الآية **23** والآية **24** لنطرح تصوّرنا حول المعنى الذي نراه أقرب إلى روح النص القرآني. وقد دفعنا إلى هذا ما رأينا من استناد جمهرة

المفسرين في تفسير الآيتين الكريمتين إلى حديثٍ رواه ابن اسحق عن ابن عباس، رضي الله عنهما، وهو الحديث الذي يورده بعض أهل التفسير كسبب لنزول الايتين الكريمتين، وينصّ على أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قد نسي أن يقول: "إن شاء الله"، وذلك عندما قال لزعماء قريش إنّه سيخبرهم غداً بخبر أصحاب الكهف. وهو حديث ضعيف، في سنده رجل مجهول العين. وعلى الرغم من ضعف الحديث إلا أنّ أهل التفسير يفسّرون الآية بما يعزز المعنى المستفاد من سبب النزول هذا.

ولو كان الأمر كما يقولون لكان الأقرب في الذهن أن يكون نص الآية **23** من سورة الكهف هكذا:"ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله"، ولكنك تفاجأ بأنّ نص الآية الكريمة هكذا:" **ولا تقولنّ لشيءٍ إني فاعلٌ ذلك غداً**". ويدهشك أن تبدأ الآية **24** هكذا:" **إلا أن يشاءَ اللهُ واذكر ربك إذا نسيتَ وقل عسى أن يهدينِ ربي لأقربَ من هذا رشداً**" .

وإذا علمنا أنّ الرسول، صلى الله عليه وسلم، كان يقف في تلاوته عند نهاية كلّ آية، أدركنا أنّ المعنى قد تمّ. وإذا توهّمنا أنّ المعنى لم يتمّ فعلينا أن نُمعن النظر، لعلنا نصل إلى المعاني المخبوءة خلف عدم الاكتمال الظاهريّ للمعنى. ومعلوم أنّ وضوح المعنى في الظاهر يصرف أحياناً عن التدبّر العميق.

"**ولا تقولنّ لشيءٍ إنّي فاعلٌ ذلك غداً**": هذه بدهيّة عقديّة ينبغي أن تكون حاضرة في عقل وقلب كل مؤمن: إيّاك أن تقول، وإيّاك أن تزعم، أنّك فاعل في المستقبل، فالله سبحانه هو المالك الحقيقيّ للحاضر والمستقبل:" **قل اللهمّ مالك الملك تؤتي الملك من تشاءُ وتنزع الملك**

ممن تشاءُ وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء بيدك الخير إنّك على كل شيء قدير" 26 آل عمران. فعلى الإنسان إذن أن يتواضع لله فيُعلن أنّه لا يملك المستقبل ولا يفعل في المستقبل.

إلا أنّ الإنسان قد يستشكل هذا الأمر عندما يلاحظ أنّه يصنع المستقبل؛ فكم من خطّة كانت في الذهن أو على الورق ثمّ خرجت إلى حيّز الواقع، بل إنّ ذلك كثير، بل إنّ واقع البشريّة يدلّ على أنّ ذلك يغلب في حياة البشر. فإذا قام هذا الاستشكال في الذهن جاء الجواب حاضراً في مطلع الآية التي تلي:"**إلا أن يشاءَ الله**"، فكل ما يقع من فعل كان مخططاً له من قَبل هو مما أذن الله به. فإذا رأيت الناس يُخطّطون للفعل المستقبلي وينجحون في ذلك فاعلم أنّ ذلك مما أذن الله به.

"**واذكر ربّك إذا نسيتَ**": فهذه إذن حقيقة ينبغي أن تكون حاضرة في الفكر والقلب. وإذا حصلت غفلة وذهلتَ عن هذه الحقيقة فاذكر ربك الذي خلقك ورزقك وهداك. نعم، هو الذي خلقك وخلق قدرتك ومشيئتك وفكرك وعلمك، وهو الذي يأذن أن تفعل كل ذلك في المستقبل.

"**وقل عسى أن يهدينِ ربّي لأقرب من هذا رشداً**": ويبقى القلب متعلقاً بالله تعالى؛ فهو واهب العقل والقلب، وهو الهادي سواء السبيل. ولن يبلغ إنسان كمال الرشد، ولكن يمكنه أن يرتقي في معارج الهداية والرشد، وعليه أن يبقى ساعياً ومتشوقاً لأن يكون أقرب ما يمكن إلى حقيقة الرشد؛ فكلما وصل درجة طلب وتمنّى أن يكون أقرب منها إلى حقيقة الرشد السامية... وهكذا في مسيرة ارتقائيّة لا تتناهى في عالمنا

الدنيوي. فإذا كنت طالباً الأقرب في أية حال وصلتها فإنّ ذلك يعني أنّها مسيرة غير متناهية، كما هو الأمر عندما تقول: " الله أكبر"، فإنّ ذلك يشير إلى مفهوم لا نهائي على خلاف قولك: " الله كبير".

عندما يأتي مثل هذا الإعلان العقَدي في سياق القصّة فإنّ ذلك يُشعرُ بأنّ قصّة أصحاب الكهف تتعلق بأمور مستقبليّة يجدر بمن يتدبّر القرآن الكريم أن يتنبّه إليها، لعله يهتدي إلى بعض كنوز كتاب الله الحكيم.

فأتْبع سبباً

جاء في الآية 86 من سورة الكهف:" **حتّى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة...**"، وجاء في الآية 90 من السورة:" **حتّى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم...**"

وقد استشكل أهل التفسير الآيتين، وذلك لما علم من أنّ الشمس لا تغرب في عين معينة ولا تشرق أيضاً في مكان محدد. جاء في أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري:"... وغروبها إنّما هو نظر العين، وإلا فالشمس في السماء والبحر في الأرض". وهذا القول يمثّل مذهب عامة أهل التفسير، وعلى وجه الخصوص بعد النهضة العلميّة في العصور العباسيّة.

والذي نراه أن لا إشكال. ولإيضاح ذلك نقول:

أولاً: جاء في الآية 9 من سورة المزمل:" **ربّ المشرق والمغرب...**"، وجاء في الآية 17 من سورة الرحمن:" **ربّ المشرقين وربّ المغربين**"، وجاء في الآية 40 من سورة المعارج:" **فلا أقسم بربّ المشارق والمغارب...**". فالآيات الكريمة تصرّح بأنّ هناك مشرقاً ومغرباً، ومشارق ومغارب، بل هناك أيضاً مشرقان ومغربان، يبدو أنّهما يتعلقان بالشمس والقمر. ومعلوم أنّ في كلّ لحظة شروقاً وغروباً، ومعلوم أيضاً أنّ

للشمس في كلّ يوم مكاناً للشروق يختلف عن اليوم السابق أو اللاحق، وكذلك الأمر في الغروب.

ثانياً: عندما تُشرق الشمس على مكان تكون قد غربت في اللحظة نفسها عن مكان آخر. فالمكان الواحد هو مشرق بالنسبة لمكان ومغرب بالنسبة لمكان ثانٍ. ومن هنا لا نستطيع أن نصف مكاناً بأنّه مشرق أو مغرب حتى نحدد الجهة التي ننسب القول إليها. فالأمر إذن هو نسبي.

ثالثاً: عندما تغيب الشمس في مياه البحر، تكون قد **غابت فيها حقيقة،** وليس الأمر كما تُوهمه عبارات الكثيرين عندما يقولون: "إنّما هو نظر العين". وحتى يتّضح المقصود نقول: عندما تغيب الشمس ما الذي يُغيِّبها؟! الجواب: إذا كانت تغيب في البحر فالذي يُغيّبها ماء البحر، بدليل أننا لو أزلنا ماء البحر بعد غيابها بدقائق ستظهر الشمس مرّة أخرى وتشرق. وإذا كانت تغيب وراء الجبال الشاهقة وقمنا بعد غيابها بدقائق بنسف الجبال فستشرق مرة أخرى.

رابعاً: لم يكن ذو القرنين يسير في الأرض على غير هدى، بل كان له مهمّة محدّدة وكان يعلم ما يريد وأين يذهب. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بوضوح عندما قال، بل وكرّر القول لتأكيد الأهميّة وإبراز مركزيّة هذا الأمر في القصة:" **فأتبع سبباً**" الكهف85، " **ثمّ أتبع سبباً**" الكهف89، "**ثمّ أتبع سبباً**" الكهف 92. والملاحظ أنّ كلّ عبارة هي **آية كاملة**.

جاء في تفسير الرازي:" السبب في أصل اللغة عبارة عن الحبل ثمّ استعير لكل ما يتوصل بها إلى تحصيل ذلك الشيء". وعليه، **فالسبب: ما يُتوصّل به لتحقيق المراد، أي الهدف.** فذو القرنين إذن كانت له

أهداف، وكان قبل أن يتوجّه إلى مكانٍ مستهدفٍ ومعلومٍ له يقوم باتخاذ كل الوسائل المتوقع أن توصله إلى هدفه. وكان يسلك ذلك السلوك في كلّ مرّة يتحرك فيها نحو هدفه المعلوم. فذو القرنين إذن يخطط ويحسب ويُقدّر ثم ينطلق ولديه كل ما يلزم للوصول وتحقيق الأهداف.

خامساً: إذا عرفنا كلّ ذلك تبيّن لنا أنّ ذا القرنين كان يستهدف أماكن محدّدة؛ فقد كان مأموراً أن يتوجّه إلى جهة الشرق حتى يصل إلى المكان المحدّد له، وأن يتجّه جهة الغرب حتى يصل إلى المكان الذي حُدد له، وأن يتجه اتجاهاً ثالثاً عَلِمَه فاتخذ للوصول إليه كل الأسباب اللازمة. فهناك إذن مكان جهة الشرق بالنسبة له، وآخر جهة الغرب، وثالث يحدده المكان الذي انطلق منه ذو القرنين.

وحتى نفهم المسألة دعنا نفترض أنه كُلّف بالاطلاع على واقع بعض الأمم في شرق إفريقيا وغربها وجنوبها، فعندما وصل غرب إفريقيا وجد الشمس تغرب في المحيط الأطلسي، وهذا حقيقة وليس ما تراه العين فقط. ولما وصل شرق إفريقيا وجد أنّ الشمس تشرق من البحر الأحمر، وهذه حقيقة، ولكنها لا تكون حقيقة حتى نحدّد المكان قبل أن نحدّد الاتجاه. ومن هنا يصحّ أن نقول: شرق إفريقيا البحر الأحمر، وغرب أمريكا المحيط الهادي. وبعبارة أخرى نقول: تُشرق الشمس على أمريكا من المحيط الأطلسي، وتغرب عنها في المحيط الهادي. وبغير هذا لا يمكننا أن نحدّث بعضنا البعض.

سادساً: هناك احتمال أن يكون ذو القرنين نبيّاً، وإن لم يكن نبياً فتابع لنبيّ معاصر، ويظهر ذلك في قوله تعالى:"... **قلنا يا ذا القرنين إمّا أن تُعذّبَ وإما أنْ تتخذَ فيهم حُسناً**" **الكهف 86**

في مفهوم القرب

جاء في الآية **11** من سورة الشورى:"... **ليس كمثلِه شيء وهو السميع البصير**"، من هنا ليس في قدرة البشر تصوّر ماهيّة الخالق سبحانه، لأنّ تصورات البشر نابعة عن الواقع المحسوس للأشياء. وإذا كانت ذاته سبحانه تختلف عن كلّ الذوات فصفاته أيضاً كذلك؛ فسمْعه يختلف عن كلّ سمع، وبصره يختلف عن كلّ بصر... الخ. ومن الأمور التي أشكلت على البعض مسألة القرب والبعد؛ فالخالق لا يحدّه مكان، وعلى الرغم من ذلك يمكن أن تقصده في مكان فتكون أقرب، ويمكن أن تقصده في زمان فتكون أقرب، ويمكن أن تقصده بعمل فتكون أقرب. جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم:" **أقرب ما يكون العبدُ من ربّه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**".

عندما كلّم الله تعالى موسى، عليه السلام، كان ذلك في الوادي المقدّس، جاء في الآية **12** من سورة طه:" **إنّي أنا ربّك فاخلع نعليك إنّك بالواد المقدّس طوى**"، وهذا يعني أنّه عندما أراد سبحانه أن يكلم رسوله اختار مكاناً مقدساً ليكلّمه، فللمكان إذن خصوصية. وعندما أقّت الله تعالى لموسى وقومه موعداً للقائه كان ذلك أيضاً في مكان؛ فقد جاء في الآية **80** من سورة طه:" **يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوّكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن...**"، وجاء في الآية **143** من سورة الأعراف:"

واختار موسى قومَه سبعين رجلاً لميقاتنا..."، وجاء في الاية **143** من سورة الأعراف:" **ولمّا جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربّه، قال ربّ أرني أنظر إليك...**"، بل إنّ موسى، عليه السلام، قد استعجل اللقاء فسبق قومه إلى مكان اللقاء. جاء في الآية **83** و **84** من سورة طه:" **وما أعجلك عن قومك يا موسى، قال هم أولاء على أثري وعجلتُ إليك ربّ لترضى**".

جاء في الآية **55** من سورة آل عمران:" **إذ قال الله يا عيسى إنّي متوفيك ورافعك إليّ ومطهّرك من الذين كفروا...**"، وجاء في الآية **157-158** من سورة النساء:" **وما قتلوه يقيناً، بل رفعه الله إليه...**"، واللافت هنا قوله تعالى:"**ورافعك إلي**"، وكذلك: "**بل رفعه الله إليه**"، فالرفع هنا ليس رفع درجات كقوله تعالى:" **نرفع درجات من نشاء**"، بل الرفع كائن إلى الله تعالى. فإذا كان موسى، عليه السلام، قد عجل إلى مكان اللقاء وقال:" **وعجلتُ إليك ربّ...**" فإنّ ذلك يجعلنا ندرك أنّ رفع عيسى، عليه السلام، كان إلى مكان في السماء له خصوصيّة، أي إلى **مكان يحظى بتجلّيات إلهيّة تجعل الإنسان فيه أقرب إلى الله تعالى.** ومن يحظى بمثل هذا المكان والمكانة يصحّ أن نقول إنّه عند الله، لأنّه حظي بالقرب. ومن كان عند الله يكون في مكان خَصّه الله بتجلّياته ورحماته وغير ذلك مما لا يطيقه العقل ولم يصل إليه التصوّر. وقد دلّت نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف على وجود مثل هذه الأماكن؛ كالبيت المعمور، وسدرة المنتهى، وجنة الماوى...الخ.

مسألة في الاستواء

طـال الخـوض فـي مسـألة الاسـتواء. ولا نقصـد هنـا أن نخـوض مـع الخائضين، لأننا نعلم أنّ الله تعالى ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته. كما ونعلم حقيقة قصور العقل البشري عن إدراك جوهر المطلق سبحانه. وإنّ من علامات الخلل في الفهم والإدراك، الخوض في عالم اللانهائيات. وقد مضت سنوات طويلة ونحن نُعلّم ونُدرّس فلم نجد حاجة إلى أن نخوض في مثل هذه المسائل، لأنّ الناس بفطرتها السويّة تفهم الأمور من غير لبس، ولم نجدهم يوماً يطرقون في أسئلتهم مثل هذه القضايا، حتى جاء من يبعث فيهم الجدل القديم ويكدّر صفو إيمانهم.

فالذي نقصد إليه في هذا المقال أن نبيّن معنى الاستواء، لإدراكنا أنّ وضع النقاط على الحروف يساعد على الفهم الصحيح ويحفظ من الزلل.

جاء في الآية **14** من سورة القصص:" **ولما بلغ أشدّه واستوى آتيناه حكماً وعلماً**..."، يقول الطبري، رحمه الله:" استوى: تناهى شبابه وتمّ خلقه..."، ويقول الألوسي، رحمه الله:" استوى: كمل وتمّ..". فاستوى هنا فيها معنى اكتمال خلقه واكتمال نضجه عليه السلام. وجاء في الآية **29** من سورة الفتح:"... **كزرع أخرج شَطأَه فآزرهُ فاستغلظَ فاستوى على سوقه**..."، هنا أيضاً نجد أنّ استوى تحمل معنى اكتمال النضج أو

اكتمال الاستقامة. وجاء في الآية **44** من سورة هود:"**... وقُضِي الأمرُ واستوت على الجُوديّ..**"، والمقصود هنا سفينة نوح، عليه السلام، حيث استقرت على جبل الجودي، كما يقول أهل التفسير. وكلمة استوت هنا لا تعني استقرت، وإنما تعني استقرت تماماً، أو اكتمل استقرارها. وجاء في الآيتين 12،13 من سورة الزخرف:" **والذي خلق الأزواج كلَّها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون، لتستووا على ظهورِه ثم تذكروا نعمة ربّكم إذا استويتم عليه...**"، وهنا الاستواء لا يعني الاستقرار، ولكن يعني كمال الاستقرار. وهو لا يعني العلو، وإنما فُهِم العلو من لفظة **عليه**، وليس من لفظة **استويتم**. وجاء في الآية **29** من سورة البقرة:"**... ثمّ استوى إلى السماء فسواهنّ سبعَ سماوات...**"، هنا عدّيت استوى بـ **إلى** فلا تفيد معنى كمال العلو وإنّما تفيد كمال القصد، فقد كانت السماء واحدة في كينونتها فتوجّه الخالق بإرادته التي هي كاملة وقدرته الكاملة إلى جعلها سبع سماوات. وجاء في الآية **18** من سورة السجدة:" **أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون**"، والمقصود هنا المساواة. والتساوي هو في الحقيقة كمال التماثل. والخط المستوي في اللغة هو الخط المكتمل في استقامته.

وعليه يمكن أن نقول: **إنّ الاستواء هو كمال الحال أو تمامه**، وسياق الكلام هو الذي يُفيد الحال التي اكتملت أو تمت، أو الكاملة التامّة. **من هنا لا يصح أن نحدّد معنى كلمة استوى حتّى نعلم الحال التي يقصدها الكلام**. وعليه فإنّ كلمة استوى لا تفيد معنى **العلو** حتى تُعدّى بعلى،

فتعني عندها كمال العلو الذي أفادته لفظة **على**. ولا تفيد معنى **قَصَد** حتى تُعدّى بـ إلى، ولا تعني الاستقامة حتى يفيد السياق ذلك....الخ.

جاء في الآية 3 من سورة يونس:" **إنّ ربكم اللهُ الذي خلق السماوات والأرض في ستّة أيام ثمّ استوى على العرش يدبّرُ الأمر...**"، هنا استوى تفيد العلو كونها عُدّيت بعلى. **فعلى** هنا هي التي تفيد العلو، أمّا استوى فتفيد كمال العلو الذي أفادته على. فعلو الله على العرش هو العلو الكامل الذي لا نقص فيه، فهو استواء. أما لماذا استخدمت هنا لفظة **ثمّ؟!** فالجواب: لأنّ الخلق لا يكون كاملاً وتامّاً من بدايته، فذلك يتعلق بالإرادة الإلهيّة؛ فإذا أراد الله الوجود على الوجه الفوري فإنّما يقول له كن فيكون. وإذا أراده متدرّجاً، لحكمة يعلمها، يكون متدرّجاً في وجوده حالاً بعد حال. وهذا من إيحاءات صفة الصبور.

وبما أنّ الخلق بدأ صغيراً وتكامل كبيراً، كان كمال العلو الرباني- والذي هو كمال دائم- على الكبير الذي يتضمن ويشتمل على الخلق الأصغر، ومن هنا جاءت **ثمّ**. فثمّ المتراخية تكون من جهة تدرج ظهور المخلوق للوجود.

سنفرُغُ لكم أيّها الثقلان

جاء في عُمدة الحُفّاظ، للسمين الحلبي:" الزوج في اللغة: الواحد الذي يكون معه آخر، والاثنان زوجان، يقال زوجا خفٍّ وزوجا نعل...". إذن لا يقال عن الفرد زوج حتى يكون معه آخر يكمّله في وظيفته. والزوجيّة قانون كونيّ، انظر قوله تعالى في الآية 49 من سورة الذاريات:" **ومن كلّ شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكَّرون**"، وجاء في الآية 36 من سورة يس:" **سبحان الذي خلق الأزواج كلّها ممّا تُنبت الأرض ومن أنفسهم وممّا لا يعلمون**".

المتدبّر لسورة الرحمن يلاحظ من البداية التركيز على الثنائيّة في الخلق والتكوين، ويلفت انتباهه الخطاب المتكرر للمخلوقَيْن المكلَّفَيْن، الإنس والجنّ:" **فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان**".

وهذا ينبّهنا إلى الثنائيّة في خلق الإنس والجنّ؛ ففي الإنس هناك الأنثى والذكر، وفي الجن أيضاً، كما تؤكّد الآيات القرآنيّة الكريمة.

وإذا كانت الثنائيّة الزوجيّة قانوناً في عالم الإنس وعالم الجنّ بحيث يُكمّل كلّ زوج زوجه في الوظيفة، فما الذي يمنع أن تكون الثنائيّة في خلق الإنس والجنّ هي ضمن القانون العام من أجل أن تتكامل الوظائف، وإن كانت النصوص القرآنيّة تؤكّد بأنّ الإنسان هو الأهم في هذه المعادلة الثنائيّة. وهذه الأهميّة لا تمنع أن يكون وجود عالم الجن

مهمّاً من أجل تكميل عالم الإنس. ويبدو أنّ وجود عالم الجنّ كان المقدّمة لوجود العالم الأهم، أي عالم الإنس. وهذا لا يعني التقليل من أهميّة عالم الجنّ، فالآيات القرآنيّة تؤكّد أهميّة عالم الجنّ بل وتقرنه بعالم الإنس.

جاء في الآيتين **17** و **18** من سورة الرحمن:" **ربّ المشرقين وربّ المغربين، فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان**"؛ فالشروق والغروب إذن من النعم التي أنعمها الله تعالى على هذين المخلوقين المتكاملين في وجودهما وكينونتيهما. وهناك شروق وغروب للشمس وشروق وغروب للقمر، وهذه ثنائيّة تكامليّة؛ فعندما تغيب الشمس يشرق القمر، وعندما تشرق الشمس يغيب القمر. وللشروق وظيفة يكمّلها الغروب. وإذا كان النهار هو الأهم لحياة الإنسان والكائنات فإنّ الليل ضرورة تكمّل وظيفة النهار، ولا يصلح النهار وحده حتى يكون ليل. ويبدو أنّ عالم الإنس كالنهار وعالم الجنّ كالليل.

جاء في الآيات (**19**، **20**، **21**) من سورة الرحمن:" **مَرَج البحرين يلتقيان، بينهما برزخ لا يبغيان، فبأيّ آلاء ربكما تكذّبان**"، فإذا كان هناك التقاء بين مياه البحر المالح والبحر العذب فإنّ هناك حاجزاً يمنع اختلاطهما ويمنع أن يبغي أحدهما على الآخر. وعليه فقد يكون هناك نوع من اللقاء بين عالم الإنس والجنّ، يدركه الجنّ أكثر ممّا يدركه الإنسان، ولكن هناك حاجزاً يمنع من الاختلاط ويمنع من أن يبغي أحدهما على الآخر.

لا نريد هنا أن نستمر في استعراض الآيات القرآنيّة من سورة الرحمن، ولكن قصدنا إيصال الفكرة التي تقول باحتمال تكامل هذين العالَمين. وهذا التكامل ليس دنيويّاً فقط، بل هو أيضاً مستمر في عالم الآخرة، أي في العالم الآخر الذي هو أهم، وما الدنيا إلا المقدمة له.

جاء في الآيتين **46، 47** من سورة الرحمن:" **ولمن خاف مقام ربّه جنّتان فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان**"، فإذا كان المقصود جنّة للإنس وجنّة للجنّ، فإنّ ذلك يعني أنّ قانون الثنائيّة يستمرّ في الآخرة؛ فالجنّة التي يتمتّع بها الإنس يوازيها جنّة أخرى يتمتّع بها الجنّ. ويبدو أنّ وجود كلّ واحدة منهما ضرورة لوجود الأخرى. وعدم إحساس الإنسان بجنّة الجنّ لا يعني أنه لا يتمتّع بوجودها؛ فعندما نشعر بالنشاط، مثلاً، فإنّ ذلك لا يعني أننا قد عرفنا وأحسسنا بوعي بسبب هذا النشاط. والعكس أيضاً، فكم من مرضٍ في الدنيا مسبباته مجهولة وغير محسوسة للإنسان.

تكرار الآية الكريمة:" **فبأيّ آلاءِ ربّكما تكذّبان**"، يفيد – زيادة على ما يقوله أهل التفسير – بأنّ عالم الجنّ يستمتع بما يستمتع به عالم الإنس. ويبدو أنّ الجنّ يشبه في خلقه خلق الإنسان إلى حدّ كبير، لأنّ ما تستعرضه سورة الرحمن من نِعم هي نِعم على الإنس والجنّ، بدليل تكرار السؤال لهما:" **فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان**"، وعندما يصف القرآن الكريم الجنتين يقول:" **ذواتا أفنان**"، ثمّ يسأل:" **فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان**"، وهذا يعني أنّ الجنّة التي تكون أغصانها غضّة مورقة يتمتّع بها الجنّ كما يتمتّع الإنس. ولا يمنع أن تكون الصورة هي الأمر المشترك بين عالَمين مختلفين ولكنّهما متكاملان. وعندما يقول سبحانه:" **فيهما عينان**

تجريـان، فبـأي آلاء ربكمـا تكـذبان"، يـدل ذلـك علـى تمتّـع الجنّ بـالعين التـي تجري ... الخ.

وخلاصـة الأمـر، أنّـه بإمكانـك أن تسـتعرض آيـات سـورة الـرحمن لتأخـذ فكـرة مناسـبة عـن الأمـور المشـتركة بـين الإنـس والجـنّ فـي عـالم المتعـة واللـذة وعـالم الألـم والمعانـاة. ونكـرر فنقـول: قـد يكـون التشـابه فـي عـالم الصـورة؛ فهنـاك فُـرش واتكـاء، وهنـاك فواكـه ونخيـل ورمـان... وهنـاك وهناك. ولكن قد يكون الواقع عبارة عن الصورة والصورة المقابلة المكملة للوظيفـة. الصـورة المحسوسـة للإنسـان يقابلهـا الصـورة المحسوسـة للجـن. فهناك على ما يبدو عالمان يتماثلان في الصور ولكنهما يختلفان أيضاً بحيث تلائم كل صورة ما خُلقت له. ولكنهما عالمان متلازمان متكاملان يحتاج أحدهما الآخر لتتكامل الوظيفة.

جـاء فـي الآيـة 31 مـن سـورة الـرحمن:" **سـنفرغ لكـم أيّهـا الـثقلان**": وهـذا يشير بوضوح إلى أهميّة الإنس والجن، بل كأنّه لا يوجد عالم ثالث هو أهم منهما. أما الملائكة فهم عالم غير مكلّف وله وظائف، بل لقد كُلّف أن يسجد للإنسان. **فالثقل** يشير إلى الأهميّة القصوى. وقد استشكل أهل التفسـير معنـى آيـة:" **سـنفرغ لكـم أيّـه الـثقلان**"، ويرجـع جـزء مـن هـذا الاستشكال إلى كونهم قد فهموا أنّ الآية هي في معرض التهديد. وفي الحقيقـة لا إشـكال، بـل هـذا يـدل علـى أهميّـة هـذين العـالَمين المتكـاملين اللذين لا ينفكان دنيا ولا آخرة. والذي نراه أنّ الآية في معرض ذكر النعم التـي أنعمهـا سـبحانه وتعـالى علـى الإنـس والجـنّ، وليسـت فـي معـرض التهديد.

جاء في الآية **13** من سورة الجاثية:" **وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه، إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**": فبناء السماوات والأرض وكلّ ما فيها قد سُخّر للإنسان، بل إنّ هذا النظام الكونيّ سيُبعثر وتعاد صياغته يوم القيامة، انظر الآية **48** من سورة إبراهيم:" **يوم تُبدّلُ الأرضُ غير الأرض والسماواتُ وبرزوا لله الواحد القهّار**". فإذا كانت السماوات والأرض مسخّرةٌ في الدنيا لصالح الإنسان، وإذا كان هذا النظام سينفضّ ويُستبدل عند قيام هذا الكائن ثقيل القدر، فمن المتوقّع أن يكون النظام الأخروي مسخراً من أجله أيضاً– مضافاً إليه عالم الجن الذي يكمّله– بحيث لا خلق إلا من أجلهما ومن أجل وظيفتهما الجليلة، التي لم يدرك الإنسان حتى الآن عظمتها وجلالها. انظر قوله تعالى:" **سنفرغ لكم أيها الثقلان**"، نعم، سيكون كل خلقٍ خُلِق، أو سيُخلق، هو لكما ومن أجلكما. وهذا يعني أنّه لا بدّ لنا أن نعيد النظر في فهمنا للآيات الكريمة من سورة الرحمن، وغيرها من السور، في محاولة لتشكيل صورة حقيقيّة عن مكانة الإنسان في الدنيا والآخرة.

بورك من في النار

جاء في الآيات **7-9** من سورة النمل:" **إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ. فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**".

أشكل قوله تعالى:" **بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا** " على ثلّة من أهل التفسير؛ فقال بعضهم إنّ مَنْ في النار هم الملائكة، وقيل موسى، عليه السلام، وقَدّر بعضهم محذوفاً ليقول إنّ المقصود هو الله سبحانه وتعالى، والذي أمره وكلامه في النار...الخ. وفي محاولة لإلقاء الضوء على المعنى المحتمل للنص الكريم نقدّم بمقدّمات من سورة طه وسورة القصص، حيث أتت آياتها بتفصيل للقصّة نفسها، والتي تضعنا في صورة الحدث الجليل، عندما اختار اللهُ تعالى عبده موسى، عليه السلام، ليحمل رسالته.

جاء في الآية **12** من سورة طه:" **إنّي أنا ربكَ فاخلع نعليكَ إنّك بالوادِ المقدّسِ طُوى**"، فعندما نادى الله سبحانه وتعالى عبده ورسوله، كان موسى، عليه السلام قد حلّ بالوادي المقدّس، فقد أتى به اللطيف الخبير وهو لا يدري. **والمقدّس** هو المُطهّر. ويبدو أنّه قد طُهّر تطهيراً خاصّاً من أجل أن يُكلِّمَ الجليلُ مُصطفاهُ. ومما يوحى بهذا المعنى قوله تعالى:

" **فـاخلع نعليـك** إنّكَ بـالواد المقدّسِ طوى"، وخلـع النعلين يجعل موسـى عليه السلام على صلة مباشرة بأرض الواد المقدس، وما يمكن أن يحملـه ذلك من احتمالات تتعلق بالطاقة وغيرها!!

جاء في الآية **30** من سورة القصص:" **فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**"، والوادي هنا هو الوادي المقدّس طوى. أما الشاطئ فهو جانب الوادي. وأمّا الأيمن فيمكن أن يكون من اليُمن والبركة ؛أي الأكثر يُمناً وبركـة، وهـذا يناسب أجواء الحدث؛ فالحدثُ فـي الـوادي المقدّس، وفـي الجانـب الأكثـر يُمنـاً. أمـا إذا كـان المقصـود الجانـب الـذي علـى يمـين الـوادِي، فهـذا علـى اعتبـار أنّ مسـيل المـاء يُحـدد جهـة اليمـين وجهـة اليسار.

" **فِـي الْبُقْعَـةِ الْمُبَارَكَـةِ مِـنَ الشَّـجَرَةِ** ": والبقعـة هـي القطعـة من الأرض التي تتميز عن غيرها، وهي مباركة. والشجرة التي هي في البقعة مباركة أيضـاً. ولا نـدري مـا الـذي صـرف المفسـرين فلـم يقولـوا بـأنّ البقعـة هـي مساحة مميّزة في الشجرة؟! إلا إذا كانت اللغة العربيّة تأبى ذلك، علـى اعتبـار أنّ البقعـة هـي القطعـة مـن الأرض. وعليـه يصـبح المعنـى: أنّ النداء كان في البقعة المباركة وبالذات من الشجرة.

فـالوادي مقدّس ومطهّر لاستقبال الحـدث، وسـيكون النـداء فـي الجانـب الأكثـر يُمنـاً، وفـي البقعـة المباركـة مـن هـذا الجانـب، وعلـى وجـه الخصـوص فـي الشـجرة المباركـة. ونقـول بعبـارة أخـرى: فـي الشـجرة

المباركة، الموجودة في البقعة المباركة، من الجانب الأكثر بركة، في الوادي المقدّس، الذي يقع عند جبل الطور، هناك كان النداء الجليل في أجواء القدسيّة والبركة، وهو نداء سيقدّس ويطهّر، وسيفيض بالبركات على من آمن من الناس. ولكن ابتداءً ستفيض البركات من الله تعالى على كلّ من حضر الموقف.

" **بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا** ": هذا هو النداء، وهذا هو الإعلان. وبما أنّه نداء الخالق وإعلانه فقد حلّت البركة على كلّ من شهد. ولفظة **بورك** واضحة الدلالة على أنّ الله قد أفاض البركة على من في النار ومن حولها في هذا الواد المقدّس؛ فقد تمّت إفاضة البركة فتحصّلت لمن وُجد في المكان من العقلاء الذين يشير إليهم الحرف **مَنْ**. وبهذا تكون البركة قد فاضت على كل موجودات الوادي، من العقلاء وغير العقلاء.

" **مَنْ فِي النَّارِ**": لا ندري لماذا يحتار أهل التفسير عند تفسير هذه العبارة! فلعلّهم لم يتصوّروا أن يكون في النار أحد إلا واحترق، ومن هنا جاءت الحيرة. ولا داعي لذلك كلّه، لأننا أمام حدث جليل لا ينتمي إلى السنن المعهودة؛ الخالق المطلق يُكلم المخلوق المحدود، ويكون الكلام في النار التي هي في الشجرة.

ويكون في النار – التي يتكلم فيها الجليل – ما فيها من مخلوقات الله المُدرِكة المنوّرة بأنوار القدس، والتي أتت في موكب مهيب تشهد نداء الله لرسولٍ من رسله من نسل آدم، الذي أسجدت له الملائكة الكرام.

فلعلنا إذن نُخمّن أنّ في النار المباركة- النار التي لا ندرك حقيقتها- ملائكةً يشهدون الوحي. فأفاض الله تعالى عليهم البركات.

" **وَمَنْ حَوْلَهَا** ": فالملائكة إذن فيها وحولها تملأُ المكان. أمّا موسى، عليه السلام، فظاهرٌ أنه ممن حولها. والمهمّ أنّ مَنْ في النار هم عقلاء يستحقون أن يفيض الله تعالى عليهم بالبركات، وكذلك من هم حولها.

" **وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**": أما الله تعالى فيتنزّه عن كلّ ما لا يليق بجلاله، وعظمته، وعزّته. وهو يفيض بالبركات على المخلوقات ولا يفيض عليه أحد، تعالى الله عمّا يظنّون.

وأخيراً نجد من المناسب لفت الانتباه إلى أنّ قول الله تعالى:" **بورك من في النار**"، قد أوصل إلينا معلومة بأنّ هناك كائنات مُكرّمة قد حلّت في النار، وإن كنّا غير قادرين على تصوّر ذلك، نظراً لمحدودية الحس والعقل لدينا. والمتدبّر للآية العاشرة من سورة النمل:" **وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآَهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ**..."، يجد أنّ الله سبحانه وتعالى قد شبّه اهتزاز العصا باهتزاز الجنّ، على الرغم من كوننا لم نشاهد الجن، إلا أننا قد علمنا من الآية الكريمة حقيقة من حقائق عالم الغيب، ألا وهي أنّ الجنّ مخلوقات ذات اهتزاز.

مثل نوره

جـاء فـي الآيـة **35** من سورة النور:" **الله نـور السماوات والأرض، مثلُ نوره كمشكاةٍ فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنّها كوكب دُريّ يوقد مـن شـجرة مباركـة زيتونـة لا شرقيّة ولا غربيّـة، يكـاد زيتهـا يضيء ولو لم تمسسه نار. نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء. ويضرب الله الأمثال للناس، والله بكل شيء عليم**".

وجاء في الآية **257** من سورة البقرة:" **الله ولي الذين آمنوا يُخرجهم من الظلمات إلـى النـور**"، وجاء في الآية **15** من سورة المائدة:" **قد جاءكم مـن الله نـور وكتـاب مبـين**"، وجـاء فـي الآيـة **32** مـن سـورة التوبـة:" **يريـدون أن يطفئـوا نـور الله بـأفواههم**". وجـاء في الآيـة **174** من سـورة النساء:" **وأنزلنا إليكم نوراً مبينا**"، وجاء في الآية **40** من سورة المائدة:" **ومن لـم يجعل الله لـه نـوراً فمـا لـه مـن نـور**"، وجاء في الآيـة **28** من سورة الحديد:" **ويجعل لكـم نـوراً تمشـون بـه**"، وجـاء فـي الآيـة **18** مـن سورة آل عمران:" **والكتاب المنير**".

فالوحي نور من الله وهو أيضاً نور الله؛ ومن يلتزمْ دين الله ويجاهدْ نفسه وشهواته يكن لـه نـور يمشي بـه في النـاس. والكُتب التـي أنزلهـا الله علـى رسلـه هـي نـور، وهـي أيضـاً منيرة... والعلم نـور... والفطرة السويّة نـور، والضوء كذلك نور...

عندما ينعكس الضوء على الأجسام الماديّة يكشف لنا جزءاً من حقيقتها، كالشكل واللون...الخ، ومن هنا نقول إنّ الضوء نور، **لأنّه يوصلنا إلى حقائق الأشياء.**

فالنور: كل ما يوصلك إلى كُنه الأشياء وصفاتها وحقائقها. وما يقابل النور هي الظلمات. وعليه فالظلمات سَتْر وحَجْب، وهي تحجب حقائق الأشياء. من هنا كانت الضلالة تلازم الظلمات، وكانت الهداية تلازم النور.

بما أنّ النور الإلهيّ غير مادّي وغير محسوس فكان تقريبه للعقل عن طريق المثال الماديّ المحسوس:

"**مثل نوره كمشكاة**": المشكاة هي الكُوّة، وبلغة أخرى: طاقة في الجدار غير نافذة. وكانت في القديم تُجعل في جدار الغرفة ليوضع فيها السّراج. ولأنّ الكوة مغلقة من كل الجهات، إلا جهة واحدة، فقد كانت وظيفتها جمع شتات الضوء الصادر عن السراج ثمّ توجيهه بقوة داخل الغرفة. ثمّ هي أيضاً تحفظ السراج بداخلها. واليوم يمكن أن نُشبّه عاكس السيارة بالمشكاة، لأنّ مهمّة هذا العاكس أن يجمع شتات ضوء مصباح السيّارة ثمّ يوجهه فيضيء أمام السيّارة بقوة هي أشد من إضاءة المصباح الحقيقيّة. وترجع هذه القوة في حقيقتها إلى جمع الشّتات والتوجيه إلى جهة الأمام.

"**المصباح في زجاجة**": عندما يكون المصباح في زجاجة تشتدّ الإضاءة، وهذا ملحوظ في واقع الناس. وعندما تكون الزجاجة نظيفة تكون الإضاءة أشد، وعندما تكون الزجاجة شفافة وصافية تصبح

الإضـاءة أشـدّ وأشـدّ. فكيـف بـك إذا كانـت الزجاجـة رائقـة متلألئـة كأنّـها كوكب؟!

"**الزجاجـة كأنّـها كوكـب دريّ**": وعنـدما تكـون الزجاجـة شـديدة الصـفاء، وتكون فـي صفائها تشبه الكوكب المتلألـئ الذي هو كالدرّ في صفائه وبهائه وإزهاره، تكون الإنارة أشدّ وأشدّ وأصفى وأبهى.

"**يوقـد مـن شـجرة مباركـة**": والمصباح لا بدّ لـه من وقود. وللوقود دور أيضـاً فـي شدّة الإنـارة وبهائها، فعندما يكون هذا الوقود صـافياً يسـاعد أكثر في إنتاج إنارة بهيّة، وهذا معروف في الواقع.

"**شـجرة مباركـة زيتونـة لا شـرقيّة ولا غربيّـة**": يقـال بـأنّ الزيتـون الـذي يتعـرض طـوال النهـار لضـوء الشـمس يكـون زيتـه أشـدّ صـفاءً وبهـاءً. وعنـدما تكـون الشـجرة شـرقيّة تتعـرض لضـوء الشـمس فـي الصـباح دون المساء، وعندما تكون غربيّة تتعرض لضوء الشمس مساءً دون الصـباح. وحتى تتعرض للشمس طوال النهار لا بدّ أن تكون في موقعها لا شرقيّة ولا غربيّة. ولذلك صُوَر أمثلها أن تكون في رأس جبل.

"**شجرة مباركة زيتونة**": فزيت الزيتون كان يستخدم على مدى القرون فـي إنـارة المصـابيح. وفـرق بـين زيتونـة وزيتونـة، وزيـت وزيـت، فـهذا زيـت:" **يكاد زيتها يضـيء**": فمن شدّة صفائه وبهائه يكاد يُضـيء بنفسه. وصـفاء الزيت بالإضافة إلى لونه البهي يجعله ينير ويتلألأ لأدنى ضوء يمسه.

"**شجرة مباركة زيتونة**": والنبتة تكون شجرة عندما تنمو وتتفرع. فإذا كـان النمـو والتفـرّع فـي الاتجـاه السـلبي تكـون شـجرة خبيثـة، وإذا كـان النمـو والتفـرّع فـي الاتجـاه الإيجـابي تكـون الشـجرة مباركـة. ولـم يشـهد القـرآن

لشجرة بالبركة كالزيتونة التي يطول الكلام حول منفعتها للبيئة والبشر.
وقد مثّل القرآن الكريم للكلمة الطيّبة بالشجرة الطيّبة، جاء في الآيتين **34** و **35** من سورة إبراهيم:" **ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيّبة كشجرة طيّبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أُكلها كلّ حين بإذن ربّها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكّرون**".

"**نور على نور**": فهناك أكثر من عنصر في هذا المثال الماديّ المتكامل، وكلها عناصر تجعل المثال مثالياً في إعطاء صورة ذهنيّة للنور الرّبّاني مقابل الصورة الحسّيّة للمثال؛ فهناك مصباح تحيط به زجاجة شفافة صافية بهيّة، وهناك وقود صافٍ بهيّ متلألئ مستمد من شجرة تتوافر لها كلّ الشروط المطلوبة لعطاء فيّاض، فهي شجرة مباركة مبارك أصلها ومثالي موقعها. كلّ ذلك في مشكاة مهمّتها جمع شتات النور وتوجيهه في الاتجاه المطلوب ليحقّق الهدف.

هذا هو المثال الماديّ الذي يقرّب لنا الصورة الذهنيّة لأمر غير مادّي. فلننظر **ما يُمكن أن يقابل** كلّ عنصر من هذه العناصر المادّية في عالم المعنى:

أولاً: المصباح: يمكن أن يقابله العقل البشري. فالعقل نور، لأنّه وسيلتنا لإدراك حقائق الأشياء، وقد خلقه الله تعالى لينير لنا.

ثانياً: الزجاجة: يمكن أن يقابلها النفس البشريّة؛ فعندما تكون النفس مُدنّسة بالمعاصي فإنّها تنعكس سلباً على عطاء العقل، تماماً كما يحصل عندما تتراكم الأتربة والأوساخ على سطح زجاجة المصباح. وتربية النفس وتزكيتها تؤدّي إلى صفائها وبهائها بحيث تزيد من نور

العقل وقوة الإدراك، وعلى وجه الخصوص فيما يتعلق بحقائق الكون الجوهريّة، أي المتعلقة بأمور الدين والطريق إلى الله تعالى. فالله سبحانه غاية شريفة لا يصلها الإنسان إلا بوسائل شريفة على خلاف حقائق الكون المادّية.

ثالثاً: الشجرة المباركة التي لا هي شرقيّة ولا هي غربيّة: يمكن أن يقابلها الوحي. فالوحي لا يُنْسب إلى جهة أرضيّة، بل هو سماوي علوي، ثمّ هو عطاء إيجابي مبارك لا ينتهي عند حد. وإذا كان زيت الشجرة المباركة يكاد من صفائه وبهائه أن يُضيء ولو لم تمسسه نار، فإنّ الوحي ينير لك ويهديك حتى قبل أن تُعمِل فيه العقل والفطرة.

وعليه نقول:

العقل مصباح ينير لنا ويوصلنا إلى إدراك الحقائق ولكنّه يبقى قاصراً عن تحقيق المطلوبات، فلا بدّ من تزكية النفس أيضاً ليتكامل نور العقل والنفس.

لقد اهتم الفلاسفة بالعقل وأهملوا تزكية النفس فبقيت الفلسفة قاصرة عن هداية الإنسان إلى جوهر الحقائق. واهتم بعض أهل التصوف بتزكية النفس وتقاصروا عن الاهتمام بالعقل. وعليه فالنهجان قاصران عن تحقيق التربية المثلى، فلا بدّ من التربية المتكاملة للعقل والنفس معاً. وحتى هذا لا يكفي، بل لا بدّ أن يستمد العقل من الوحي، ولا بدّ أن تكون تزكية النفس على أساس من الوحي أيضاً.

فالفلسفة بعيداً عن هدى الوحي ضلال ومتاهات، والتصوف بعيداً عن المنهج المستمد من الوحي ضلالات وهيام على غير هدى.

إذن: لا بد من الاهتمام بالعقل والنفس معاً، ويجب أن يكون الاستمداد من الوحي، أي من تلك الشجرة المباركة التي لا تنتمي إلى أي اتجاه أرضيّ، والتي تعطي وتُمدّ بلا انقطاع، بل وتهدي كلّ من يستند إليها ويستمدّ منها ولو لم يكن من أهل الاستدلال والنظر.

وعلى الرغم من كلّ ذلك لا تكتمل الصورة ولا تجتمع كل الأنوار، حتى يتوافر العنصر الرابع:

رابعاً: المشكاة: يمكن أن يقابلها المسجد الذي يجمع أهل الإيمان والعمل والذين هم أهل الأنوار، فيقوم بجمع شتاتهم ثمّ يوجههم لينعكس كلّ ذلك خارج المسجد، أي في صعيد المجتمع، وبهذا تكون الصورة قد اكتملت؛ تربية عقليّة، تربية وتزكية للنفوس، استمداد من الوحي، ثمّ جمع وتوجيه يقوم به المسجد لينعكس في المجتمع، وبذلك تتكامل أنوار الهداية.

الدليل على احتمال النص الكريم لهذه المعاني:

أولاً: لُخِص المثل في الآية **35** من السورة:" **مَثَلُ نوره كمشكاة فيها مصباح...**"، لاحظ مشكاة **فيها** ... وعندما ينتهي الكلام عن العناصر الماديّة للمثل نُفاجأ بأنّ الآيات التي تلي تبدأ بقوله تعالى:" **في بيوت أذن الله أن تُرفع ويُذكرُ فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال، رجال...**"، لاحظ:" **كمشكاة *فيها* مصباح ... *في* بيوت ... *فيها* ... رجال**". وغني عن البيان أنّ دور المرأة في المسجد دون دور الرجل، ودور الرجل في البيت دون دور المرأة.

ثانياً: يختتم المثل في الآية **35** من السورة:" **نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم**"، فالكلام إذن عن هداية الله تعالى لمن يشاء من خلقه.

ثالثاً: بعد الانتهاء من هذا المثل المتعلق بأهل الإيمان نجد أنّ الآيات التي تلي تضرب مثلين لأعمال أهل الكفر وينتهي المثال الثاني بالتعقيب الآتي:" **ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور**".

رابعاً: سمّيت السورة سورة النور، ما يعني أنّ هذه المسألة هي المسالة المركزيّة في السورة. والملاحظ أنّ سورة النور تركّز على المسائل الأسريّة والاجتماعيّة وعلاقة الرجل بالمرأة. وهي مسائل لا يسهل على العقل البشري أن يستقل بمعرفتها، وهي من أهم أسس صلاح المجتمعات البشريّة. والمتدبّر للسورة الكريمة يدرك أنّ تحقق العلم والعمل بما جاء في السورة يضمن لنا الأساس لهدايةٍ حقيقية للفرد والمجتمع.

انظر إلى المجتمعات الغربيّة لتعلم أنّ كل التقدّم العلمي في المجالات المختلفة لم يغن عنهم شيئا، لأنّ العقل وحده لا يكفي. لذا فهم يفقدون البوصلة، فلا يعلمون هدفاً للحياة ولا معنى لها، ونجدهم يقعون كلّ يوم في متاهة لا مخرج منها، إلى درجة أنّ مرحلة العبثيّة، عند بعض فلاسفتهم، هي المرحلة التي تأتي بعد مرحلة الحداثة... ولن يكون خلاص حتى تتكامل عناصر الهداية التي لخّصها المثل في الآية **35** من سورة النور.

الذي استوقد ناراً

جاء في الآية **17** من سورة البقرة:" **مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً، فلمّا أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون**".

تكرر السؤال حول تفسير هذه الآية الكريمة، وكنا نلحظ أنّ السائلين يستشكلون المثل المضروب. ويرجع جزء من هذا الاستشكال إلى التوجّه العام للمفسرين؛ حيث يرون أنّ المنافقين– في المثال المضروب– هم الذين يستوقدون النار. فَمثلُ المنافقين إذن: كمثل شخصٍ أوقد ناراً ليستضيء بها، فلما أضاءت النار ما حوله، ذهب الله بنوره فلم يعد بقادر على الإبصار. وهذا القول هو مدار أقوال عامة المفسّرين. وهنا لنا على هذا التفسير الملاحظات الآتية:

أولاً: المنافق لا يطلب الحقيقة ولا يسعى لها ولا يبذل جهداً من أجلها. وكلمة استوقد توحي بهذا الطلب وهذا الجهد.

ثانياً: الذي استوقد هو فرد واحد بدليل (الذي، حوله)، والذين ذهب الله بنورهم هم جماعة، كما هو النص الكريم. ويقول البيضاوي:" **والذي: بمعنى الذين**، كما في قوله تعالى: **وخضتم كالذي خاضوا**". وهذا غريب، لأنّ المقصود: وخضتم كالخوض الذي خاضوه، أي خضتم كخوضهم.

والذي نراه أقرب لظاهر اللفظة القرآنية الآتي:

مثلهم: أي مثلهم في موقفهم من دعوة الرسول، عليه السلام. وبعبارة أخرى: مثلهم معك يامحمد. والمثل هنا يتعلق بطرفين؛ الطرف الأول هو الرسول، عليه السلام، والطرف الثاني هو أهل النفاق. وعليه يصبح المعنى: مثلهم في موقفهم منك ومن دعوتك يا محمد، كمثل رجل اجتهد في إيقاد نار، فلما أفلح في ذلك وأضاءت النار ما حوله...، فالرسول عليه السلام هو ذلك الرجل الذي اجتهد في إنارة ما حوله بنور الهدى، فلما أفلح في ذلك وأُنيرت مِنْ حَوله البلاد بنور الهدى، واستجاب له الناس من حوله، كانت المفاجأة أنْ ذهب الله بنور هؤلاء لنفاقهم وفساد طويتهم. نعم، ذهب الله بالنور الذي خلقه فيهم ليهديهم؛ من عقل وفطرة وفرقان يجده من لم يُدنّس بالمعاصي...الخ. فليس الإشكال إذن في نور الوحي، فقد أضاء وأنار، وإنّما الإشكال في العمى الداخلي الذي نتج عن معاصيهم ونفاقهم.

وعليه نقول:

1. النور: **كل ما يهديك ويوصلك إلى حقائق الأشياء؛** فالوحي نور، والعلم نور، والفطرة السويّة نور، والضوء نور...الخ
2. كما لا يكفي وجود الضوء في الغرفة حتى نبصر، كذلك لا يكفي نور الوحي حتى يهتدي الإنسان، لأنّه لا بدّ من القدرة الداخليّة على الإبصار والاهتداء. فهناك إرسال وهناك استقبال. وصلاحية القدرة على الاستقبال لا بدّ منها.

3. المعاصـي تُذهب الأنـوار الداخليّـة التـي تجعـل الإنسـان مبصـراً لحقائق الدين، والتـي تختلف عن حقائق الدنيا؛ فالله تعالى غاية شريفة لا يصلها الإنسان حتى يسلك سلوكاً شريفاً سويّاً.
4. لا تعجـب مـن الـذين يملكـون عقـولاً ثـمّ هـم لا يـدركون أبسـط الحقائق الإيمانيّة. ولكن انظر إلى سلوكهم في الحياة، لتعلم أنّ الإيمـان يزيـد بالطاعـات ويـنقص بالمعاصـي. وهذه حقيقـة دينيّـة يمكـن اسـتقراؤها فـي حيـاة النـاس. ألا تـرى فـي واقـع النـاس أنّ أكثرهم التزاماً بمطالب الـدين يكون أشدّهم إيمانـاً وتصـديقاً. وإذا كانـت حقـائق الفيزيـاء والكيميـاء، وغيرهـا مـن العلـوم الطبيعيّـة، تحتـاج إلى عقول فقط، فإنّ الحقـائق الإيمانيّة تحتـاج إلى عقول وقلوب. والقلوب تحتاج إلى سلوك سوي، والسلوك السوي يهدي إليه الدين الحق.
5. قد ننخدع أحياناً بالسلوك السوي الذي لا يُنتج إيماناً سويّاً، لأننا لا نطّلع على سلوك القلوب، ولكنّ الله يطّلع. والكِبرُ من أخطر أمراض القلوب التي تصرف المتكبّر عن حقائق الإيمان. انظر الآيـة **146** مـن سـورة الأعـراف:" **سأصـرفُ عـن آيـاتيَ الـذين يتكبّـرونَ فـي الأرض بغيـر الحـق وإن يـرَوا كـلّ آيـة لا يؤمنـوا بها...**".

الإنسان ذلك الكائن!!

جاء في الآية 14 من سورة لقمان:"... **أنْ اشكر لي ولوالديكَ إليَّ المصير**"، فوجود الإنسان نعمة عظيمة يُشكر خالقها ويُشكر من كان واسطة في تحققها. والملاحظ أنّ أغلبيّة الناس لا تدرك أهميّة وجود الإنسان ومركزيته في هذا الوجود. ويؤدّي الجهل بالقيمة العظيمة للإنسان إلى الاستهتار به والتفريط بحقوقه. وفي الوقت الذي يدرك فيه الإنسان أهميّة وجوده ومركزيته في الخلق ستختلف نظرته إلى نفسه وإلى الآخرين، وسينعكس ذلك بعمق على أدائه وسلوكه في الحياة. ونحن هنا بصدد تسليط الأضواء على مكانة الإنسان ومركزيته في الوجود كما جاء في القرآن الكريم.

قبل خلق الإنسان هُيّئت الأرض لاستقبال هذا المخلوق المُكرّم، بل لقد سُخّرت السموات والأرض من أجله، انظر الآية **20** من سورة لقمان:" **ألم تروا أنّ الله سخّر لكم ما في السموات وما في الأرض...**"، وانظر الآية **13** من سورة الجاثية:" **وسخّر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون**"، فكل هذا الخلق العظيم، الذي يفوق في عظمته قدرتنا على التصوّر، قد خُلق من أجل هذا القادم الذي يجهل قدره ومكانته! وعندما أصبح هذا الوجود العظيم جاهزاً لاستقبال الإنسان أُخبِرت الملائكة الكرام بأنّ الخليفة قادم، انظر

الآية **30** من سورة البقرة:" **وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة**..."، وعندما ظهر أنّ الملائكة لم تستشعر عظمة وجلال هذا المخلوق تمّت المبارزة التاريخيّة والتي أظهرت تفوّق الإنسان من خلال قدرته العقليّة، وقابليته وقدرته على التعلّم.

وطالما أنّ هذا المخلوق المفضّل عظيم القدر قد وجد، فقد آن الأوان أن تعترف المخلوقات، وعلى رأسها الملائكة والجنّ، بمكانته ومركزيته وجلال قدره وفوقيّته، فكان الأمر من الخالق سبحانه:"...**اسجدوا لآدم**.."، فسجدت الملائكة وأبى إبليس، الذي كان من الجنّ. ويبدو أنّه أدرك أنّ الجنّ قد فقدت المكانة العظيمة التي كانت تطمح إليها قبل خلق هذا الكائن، وجادل في أحقيّة الإنسان، جاء في الآية **12** من سورة الأعراف:"... **قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين**". وهذه حجّة غير مقبولة، لأنّه يرفض الأمر الألهي، فالله هو الذي خلق وهو الذي يختار ويجتبي بعلمه وحكمته وإرادته المطلقة. ولكنّ هذا الرفض من إبليس يشير إلى أنّه يعلم حقيقة وعظمة وجلال ما فُضّل به آدم، مما جعله يشطّ ويقع فيما وقع فيه من معصية.

وكانت الخلافة في الأرض، ولأجلٍ مسمّى، ولحكمةٍ يريدها الخالق عز وجل. وستنتهي هذه الخلافة، فتأتي المرحلة الثانية والأخيرة (الآخرة) ليقوم الإنسان من أجل ممارسة وظيفته الحقيقيّة، والتي هي أعظم من أن يدركها العقل البشري المرهون الآن لقوانين الحياة الدنيا، ويبدو أنّ إبليس قد أدركها – ولو بقدر – فكان منه ما كان. وإذا كان نظام

السماوات والأرض قد سخّر للإنسان للقيام بوظيفته الدنيوية المؤقّتة، فقد آن الأوان أن يُغيّر هذا النظام ويُستبْدل ليلائم الوظيفة الجديدة الدائمة غير المؤقّتة، انظر الآية **48** من سورة إبراهيم:" **يوم تُبدّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسماواتُ...**"، والآيات القرآنيّة التي تتحدث عن اختلال النظام الكوني عند قيامة الإنسان كثيرة.

أما يوم الحساب والفصل فعظيم، كيف لا، وهو يتعلق بكائن عظيم وهب العقل والاختيار ونفخ فيه من السر الربّاني ما نُفخ. وبعد الفصل بين الناس يكون الرضا عن الذي نجح وأفلح وتحققت فيه حكمة الوجود. ويكون في المقابل الغضب على من تدلّت به شهوته ولم يرتفع به عقله، ولم يكن يدرك عظمة نعمة العقل والاختيار، وفرّط في الفرصة العظيمة التي مُنحت له، ليكون في عالم السعادة اللانهائي وهو يقوم بتلك الوظيفة الجليلة التي خُلق من أجلها. جاء في الآيتين **23،22** من سورة المطففين:" **إنّ الأبرار لفي نعيم، على الأرائك ينظرون**"، وفي الآية **35**:" **على الأرائك ينظرون**". والسؤال هنا: ينظرون **إلى** أم ينظرون **في**؟ فإذا كانوا **ينظرون في**، فإنّ ذلك يعنى أنّهم أصحاب قرار، فمثلهم كمثل ملوك الدنيا يجلسون في عروشهم ينظرون في الأمور ثمّ يَبتّون في المسائل. جاء في صحيح الجامع للألباني:" سأل موسى ربه فقال: يا رب ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعدما يدخل أهل الجنّة الجنّة فيقال له: ادخل الجنّة، فيقول: أي ربّ كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك من

ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيتُ رب، فيقول: لك مثله ومثله ومثله، فقال في الخامسة: رضيتُ رب، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله...". فإذا كان هذا هو ملك أدنى الناس منزلة فكيف بمُلك جميع أهل الجنة؟! ألا يشير هذا إلى احتمال أن يكون للبشر سلطة كونيّة على أرجاء الكون الهائل وما فيه من كائنات ذات وظائف أدنى وتكون مسخّرة للإنسان ورهن إشارته. جاء في الآية **55** من سورة يس:" **إنّ أصحاب الجنّة اليوم في شُغل فاكهون**"، فإذا كان هناك شغل فهو شغل المُنعّمين، وإذا كان هناك وظيفة ففيها المتعة، لا كدّ ولا تعب ولا همّ ولا نصب... ففي الأمر إذن غموض سببه قصور العقل البشري عن إدراك حقائق الآخرة، كيف لا، وهو لا يزال وبعد آلاف السنين، يجهل حقائق الدنيا، بل ولا يحيط إلا ببعض ظواهرها.

جاء في الآية **21** من سورة الإسراء:" **انظر كيف فضّلنا بعضهم على بعض وللآخرةُ أكبرُ درجات وأكبرُ تفضيلاً**"، والفضل هو الزيادة، فإذا كانت الزيادة في الدنيا على مستوى القدرات والطاقات والعطاء هي زيادة تكامليّة من أجل وجود حضاري دنيوي كمقدمة لعالم الآخرة، فما عسى أن تكون انعكاسات التفاضل في عالم الآخرة!! وإذا كان ربّ العالمين وخالق الأكوان الهائلة يتّخذ من البشر أخلاء:"... **واتخذ الله إبراهيمَ خليلاً** "(النساء:125)، فما عسى أن يكون شأن المقربين من البشر يوم القيامة!!

هذا هو الإنسان وهذه مكانته في القرآن وفي الإسلام؛ فهو كائن مُكرَّم مُفضّل على الكائنات المخلوقة، شأنه عظيم وخَطبه جليل، مسؤول ومحاسب يثاب أو يعاقب. وُجد في هذه الدنيا لحكمة ويوجد في الآخرة لحكمة. أمّا المدارس الماديّة فترى أنّ الإنسان كائنٌ حيّ وُجِد صدفة، لا يتميّز على باقي الكائنات إلا بالعقل الذي هو انعكاس المادّة في الدماغ. فهو إذن ابن الصدفة ووليد المادّة. أما قِيمهُ ومبادئهُ فمن اختراعه، كما يخترع اللباس يلبسه متى شاء ويخلعه متى شاء. وهذا كما ترى في غاية الخطورة لأنّه بمثل هذه الفلسفة يفقد كلّ شيء معناه وتصبح العبثيّة هي الأكثر منطقيّة، وتصبح الحياة لعبة قذرة، كما قال أرنست همنجواي قبل انتحاره. وتصبح الوجودية أكثر الفلسفات صِدقيّة ومنطقيّة، حيث ترى أن لا شيء له معنى، وأنّ الانتحار هو غاية إمكانات الإنسان.

عندما يرضى الماديّ لنفسه أن يهبط إلى هذا المستوى الحيواني، فعليه أن يعلم أنّ لذلك انعكاسات خطيرة، منها على سبيل المثال؛ لو قام أحد بقتله والاعتداء على كرامته وماله وعرضه من غير ما سبب، فليقل لنا هل في ذلك ما يتعارض مع القيم والمبادئ؟! فإذا قال نعم، فليقل لنا أيّة قيم وأيّة مبادئ، ومن الذي اخترعها ومن الذي يلزم الأقوياء بها؟! ما الذي يمنعنا أن ننساق مع شهواتنا إلى أقصى مدى متخطّين كل الحواجز والحدود، هل في ذلك من بأس، ولماذا لا؟! تموت أكثر البشريّة وتشقى ويعيش الرئيس الأمريكي بوش ورامسفيلد وتشني، هل هناك من بأس، ولماذا لا؟! ستالين يقتل عشرة ملايين من سكان الاتحاد السوفييتي، ويقتل لمجرد الشك، لماذا لا، ولماذا لا يريح نفسه من

الشكوك بالقتل والاستعباد؟! الأمريكان البيض يقتلون 125 مليوناً من الهنود الحمر، كما تُقتَل الصراصير والبراغيث والذباب، ما المانع؟! الرجل يستغل ضعف المرأة وجمالها إلى أقصى حدود، ما المانع، أليس ذلك ألذ؟! ولماذا لا يكون القول الفصل لموازين القوى والجمال والصحّة والذكاء والحنكة والدهاء؟! ثمّ قل لماذا الحياة ولماذا الكدّ والتعب، أليس الموت عودة منطقيّة عن هذه المصادفة الورطة المسماة الحياة...؟! بل إنني أرى أنّ الملحد الذكي لا يمشي على الأرض، لأنّه انتحر منذ زمن بعيد، فهو أذكى من أن ينساق لمصادفة فيها التعب والمعاناة والألم، ثمّ هي بعد ذلك تنتهي بالموت.

أكثر ما يضحكك عجباً أولئك الملاحدة والماديّون الذين يتشدّقون بقيم العدالة والمساواة وحقوق الإنسان، ويؤسسون ذلك كلّه على أساس من إيمان مادّي قائم على فرضيّة الصدفة. وعندما يعجزون عن اقناعك بمسوّغات الالتزام الإنسانيّ يقومون باستعارة القيم الدينيّة مستغلين عدم انتباهك إلى هذه المفارقات العجيبة... إذا أدركت ما نرمي إليه تبيّنت أنّ المسألة الإيمانيّة هي المسألة الأولى والأساس في حياة البشر، وأنّ ما سواها يتفرّع عنها، من هنا كان علم التوحيد هو أشرف العلوم على الاطلاق.

وليس
الذَّكَرُ والأنْثَى

جاء في الآية **36** من سورة آل عمران:" **فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ...**".

اللافت في الآية الكريمة تقديم لفظة الذّكَر على لفظة الأنثى. وهذا يعني أنّ المُشبّه هنا هو الذكر والمُشبّه به هو الأنثى. ومعلوم أنّ وجه الشبه يكون أقوى في المشبّه به، وهو هنا الأنثى. ولو قيل:" وليس الأنثى كالذكر..."، لوافق ذلك ميل الناس إلى تفضيل الذكر على الأنثى، ولأصبحت الآية من مستندات من يريد أن يُفاضل بين متكاملين. ونحن لا نشكّ بأنّ المرأة تفضل الرجل في أمور، وأنّ الرجل يفضل المرأة في أمور، وكل ذلك من مقتضيات الوظيفة التي شاءها العزيز الحكيم. وعليه لا يمكن المفاضلة بين الرجل والمرأة بالمطلق. ولكن لا بدّ عند كل مفاضلة من تحديد الوظيفة؛ فالمرأة مُفضّلة إذا كان المطلوب رعاية الطفل، مثلاً. والرجل مفضّل إذا كان المطلوب نقل الأحمال الثقيلة.

جاء في تفسير ظلال القرآن لسيد قطب:" ولكنها هي تتجه إلى ربها بما وجدت، وكأنّها تعتذر أن لم يكن لها ولد ذَكر ينهض بالمُهمّة:" وليس الذكر كالأنثى".

وكأنّ سيداً رحمه الله يعتبر أنّ هذا من كلام امرأة عمران. ويُشكِل على مثل هذا الفهم تقديم الذكر على الأنثى في نص الآية الكريمة. وقد تنبّه إلى ذلك بعض المفسّرين، مثل الشوكاني في تفسيره فتح القدير؛ فهو يرى أنّ هذه الجملة هي من كلام الله تعالى، وبالتالي يكون المعنى عنده:" وليس الذكر الذي طلبتِ كالأنثى التي وضعتِ، فإنّ غاية ما أردتِ من كونه ذكراً أن يكون نذراً ... وأمر هذه الأنثى عظيم وشأنها فخيم ... واللام في الذكر والأنثى للعهد".

ويقول الصابوني في تفسير صفوة التفاسير:" والجملتان معترضتان من كلامه تعالى تعظيماً لشأن هذه المولودة وما علق بها من عظائم الأمور وجعْلها وابنها آية للعالمين".

بغض النظر عن كون جملة: "**وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأنْثَى**"، من كلام الله تعالى أو من كلام امرأة عمران، فإنّ الذي يهمنا هنا أن نلفت الانتباه إلى كون الأنثى هي المشبّه به، وبالتالي لا مجال لجعل هذه الآية مستنداً لتفضيل الرجل على المرأة، بل العكس هو الأظهر هنا.

جاء في الآيات **49 – 50** من سورة الشورى:" **يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ. أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا** ".

ذهب بعض أهل التفسير إلى أنّ تعريف الذكور وتنكير الإناث يشير إلى شرف الذكور وتفضيلهم على الإناث. ويردّ الشوكاني على ذلك فيقول في فتح القدير:" إنّ التقديم للإناث قد عارض ذلك، فلا دلالة في الآية على المفاضلة، بل هي مسوقة لمعنى آخر".

إذا كانت الآية الكريمة قد قدّمت الإناث في قوله تعالى:" **يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ** "، فإنها أيضاً قدمت الذكور في قوله تعالى:"**أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وإناثاً**". إذا عرفنا هذا أدركنا أنّ التقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، يرجع إلى أمور أخرى يجدر بنا أن نُعمل النظر فيها لعلنا نقتبس قبساً من بلاغة القرآن الكريم.

إنّ تنكير **إناثاً** وتعريف **الذكور** قد يشير إلى أنّ الأُسر التي يهبها الله تعالى إناثاً فقط هي أكثر عدداً من الأُسر التي يهبها الله تعالى ذكوراً فقط، وهذا أمر يلمسه الناس. ويمكن أن تُعزز هذه الملاحظة بإحصاءات يُراعى فيها الأسلوب العلمي في الإحصاء. أما تنكير الذكور والإناث في قوله تعالى: "**أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وإناثاً**"، فقد يشير إلى أنّ الأُسر التي تشتمل على ذكور وإناث هي الأكثر، وهذا ملموس بوضوح ولا يحتاج إلى إحصاء. وتقديم **ذكراناً** على **إناثاً** قد يشير إلى أنّ الأُسر التي يكون عدد المواليد الذكور فيها أكثر من عدد الإناث هي الأكثر في المجتمعات البشريّة. وهذه الحالة تحتاج منّا، كمهتميّن، إلى **دراسة إحصائيّة.**

إنزال الأنعام

جاء في الآية **25** من سورة الحديد:"... **وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ...** "، وجاء في الآية **6** من سورة الزمر:"... **وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ...**".

جاء في شرح العقيدة الطحاويّة لابن أبي العز الحنفي المتوفّى عام**792هـ**:"... فالحديد إنّما يكون من المعادن التي في الجبال، وهي عالية على الأرض. وقد قيل إنّه كلّما كان معدنه أعلى كان حديده أجود. والأنعام تُخلق بالتوالد المستلزم إنزال الذكور الماء من أصلابها إلى أرحام الإناث، ولهذا يقال: أنزل ولم يقُل نزّل، ثمّ الأجنّة تنزل من بطون الأمّهات إلى وجه الأرض. ومن المعلوم أنّ الأنعام تعلو فحولها إناثها عند الوطء، وينزل ماء الفحل من علو إلى رحم الأنثى، وتُلقي ولدها عند الولادة من علو إلى سُفل..."[2][1].

لا يختلف موقف ابن أبي العز عن موقف الكثيرين الذين يصرفون معاني الألفاظ عن الحقيقة اللغويّة، لأنّهم ببساطة لا يقبلون القول بنزول الحديد والأنعام من السماء، وهم بذلك يُحكّمون معارفهم القاصرة في كلام الله العزيز الحكيم. فمن أين لهم القول بأنّ الأنعام قد خُلقت في الأرض؟! وهل يستحيل في العقل أن يُنزّل الخالق القدير ما شاء من

---

[2][1]. شرح العقيدة الطحاوية – الدار الإسلامي – عمان ، ص 182 .

المخلوقات لحكمة يريدها؟! وإذا كنا لا نتصور ذلك فكيف أمكننا أن نتصوّر حادثة الإسراء والمعراج، وحادثة نزول آدم وزوجه إلى الأرض. أمّا أهل الإلحاد فإنّهم أسرى الواقع المحسوس ويذهلون عن كلّ ما وراءهُ من أسباب وعلل.

ذكر الأستاذ زغلول النجار – وهو مختص في هذا الباب – بأنّ العلماء يجزمون بأنّ الحديد لم يتكون في الأرض ولا في المجموعة الشمسيّة، لأنّه يحتاج إلى طاقة هائلة لا تتوافر في المجموعة الشمسيّة... ومن هنا نجدهم يُقدّمون تفسيراً لوجود الحديد في الأرض يتمثل في انفجار بعض النجوم المحتوية على عنصر الحديد وتناثر مكوناتها في الفضاء مما أدّى إلى نزول الحديد بكثافة على الأرض، وذلك في الوقت الذي كانت فيه الأرض هشّة غير متماسكة، وفي الوقت الذي لم يكن الغلاف الجوي قد تكوّن، مما أدّى إلى اختراق ذرات الحديد لطبقات الأرض المختلفة.

إنّ مثل هذا الكشف العلمي المعاصر يجعلنا نفهم من غير حيرة ولا ارتباك قوله تعالى:" **وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ**"، وبالتالي لا داعي بعد ذلك للتأويل، ولا داعي لصرف الألفاظ عن ظاهرها وحقيقتها اللغويّة.

وما يقال في الحديد يُقال في الأنعام، إلا أنّ نزول الأنعام وتميُّزها على باقي الحيوانات والدواب يدفعنا إلى التنبّه إلى ضرورة إجراء دراسات مستفيضة تتعلق بالأنعام، لأنّ الآيات الكريمة وضعت أيدينا على بداية الخيط الذي يمكن أن يقودنا إلى اكتشاف بعض أسرار الخلق.

جاء في الآية **6** من سورة الزمر: " **خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظلُماتٍ ثلاثٍ...**".

يذهب أهل التفسير إلى أنّ النّفس الواحدة هنا هي نفس آدم، عليه السلام، والذي خُلق خلقاً متميّزاً، كما هو الأمر في خلق المسيح، عليه السلام: " **إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ...**" آل عمران: **59**، وكذلك الأمر في خلق حواء التي خُلقت من نفس آدم على خلاف القانون في باقي الأحياء، ثمّ كان خلق باقي البشر وفق سنّة التزاوج. وهذا يدل على كرامة هذا المخلوق البشريّ وأهميته ودوره القادم في عالم الآخرة.

"... **وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ...**": من الضأن اثنين، ومن المعز اثنين، ومن الإبل اثنين، ومن البقر اثنين. واللافت أنّ الكلام عن نزول الأنعام جاء بعد الكلام عن خلق آدم وحواء وقبل الكلام عن قانون الزوجيّة. وقد يشير ذلك إلى أنّ نزول الأنعام كان قبل نزول الإنسان وتمهيداً لنزوله، وذلك لأهميّة الأنعام التي ذلّلها الخالق الحكيم، انظر الآيات **71-73** من سورة يس: " **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ. وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ. وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ** ". واللافت هنا قوله تعالى:"... **مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا...**". وكيف لا يكون الأمر لافتاً ومثل هذا التعبير لم يرد في القرآن الكريم إلا في الآية **75** من سورة ص، وذلك في حق آدم، عليه السلام:" **قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ**

بِيَدَيَّ "، فمثل هذا التعبير يشير إلى تكريم خاص لهذا المخلوق المُكلّف. أمّا خصوصية خلق الأنعام فقد ترجع إلى أهميتها بالنسبة للإنسان المستخلف في الأرض.

جاء في الآيتين **132–133** من سورة الأنعام:" **وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ**": واللافت هنا تقديم الأنعام على البنين، وهذا يعزز ما غلب على ظننا من أنّ إنزال الأنعام كان قبل أن يحصل حَمل أمّنا حواء ومن ثَمّ الإنجاب والتناسل البشري.

جاء في الآية **28** من سورة فاطر:" **وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ**"، اللافت هنا تمييز الأنعام عن باقي الدواب، وقد يعزز هذا ما ذهبنا إليه من القول بالخلق الخاص للأنعام. والمتدبّر للقرآن الكريم يلاحظ أهميّة الأنعام للإنسان. وهذه الأهميّة تزداد إلى درجة أنّك اليوم لا تكاد تُحصي المنافع التي يُحصِّلها الإنسان المعاصر من هذه الأنعام. وبذلك ندرك بعض أسرار محاربة الإسلام للعقائد الشركيّة التي كانت تُحرّم بعضاً من الأنعام في صورة البحيرة والسائبة والوصيلة...، بل لا تزال آثار هذه العقائد الفاسدة تعمل سلبياً في حياة بعض الأمم، مثل الهندوس الذين يُقدّسون البقرة.

لا شك أنّ تذليل الأنعام وتدجينها للإنسان من الأمور اللافتة في خلقها، فكأنّ واقعها يقول: لقد خُلِقتُ لخدمة هذا الكائن المكرم، وجُعلتُ قريبة منه. بل هي بحاجة إلى رعاية الإنسان وحمايته، فانظر إلى الخراف، مثلاً، هل تملك لنفسها شيئاً أمام اعتداء الحيوانات المفترسة، على خلاف ما هو عليه الغزال من السرعة والحذر.

إنها دعوة مُوجّهة إلى أهل العلم والنظر لعلنا نعيد تقييم نظرتنا إلى أصل هذه الكائنات ووظيفتها وما يحمله خلقها من أسرار. ولا يفوتنا في النهاية أن ننبه إلى أنّ هناك سورة من السور الطوال سُمّيت سورة الأنعام، وأنّ أطول سورة من سور القرآن الكريم هي سورة البقرة.

إلا الموتة الأولى

جاء في الآية الثانية من سورة الملك:" **الذي خلق الموت والحياة ليبلُوَكُم أيكم أحسنُ عملاً وهو العزيز الغفور**": هناك **العدم** وهناك **الوجود**. والوجود المخلوق منه الميت كالجماد، ومنه الحي كالنبات والحيوان. وتتجلى مظاهر الحياة في الحيوان أكثر من النبات، ومن هنا سمّي الحيوان حيواناً. ومن مظاهر وجود الحياة النمو والتكاثر، وهذا مشترك بين النبات والحيوان. أما الحركة الإراديّة والإدراك فيتميّز بها الحيوان على النبات، هذا طبعاً فيما يظهر للإنسان. ويبدو أنّ الإدراك والحركة الإراديّة تكون بعد نفخ الروح في الجسم الحي. والظاهر للإنسان أنّ الروح لا تُنفخ ولا تستمر إلا في جسم حي. ووجود الحياة في جسم ما لا يدل على وجود الروح حتى نلمس إدراكاً. والحياة سرّ والروح سرّ آخر، ولا يزال الإنسان – على الرغم من التطور العلمي الهائل– يقف حائراً أمام هذه الأسرار.

جاء في الآية 28 من سورة البقرة:" **كيف تكفرونَ بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثمّ يُميتكم ثمّ يُحييكم ثمّ إليه ترجعون**": والموت هنا قد يعني وجود الأجساد في عالم الجماد الميت، أي تراباً. وقد يعني وجود الروح قبل أن تتشكل الأجساد. فوجود الروح قبل خلق الأجساد الحيّة هو أيضاً صورة من صور الموت. وعندما تغادر الروح الجسد يموت هذا الجسد.

فموت الإنسان يكون بمغادرة الروح الجسد ويُؤكّد لدينا ذلك بموت الجسد. وقد تغادر الروح الجسد فيموت الإنسان على الرغم من بقاء الحياة في جسده أو في بعض أجزائه. كما يحصل عندما نُجمّد الأعضاء.

جاء في الآيات (34،35،36) من سورة الدخان:" **إنّ هؤلاء ليقولون، إنْ هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بِمُنشَرين، فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين**": فهم ينكرون وجود الروح قبل وجود الجسد، أي يقولون بأسبقيّة المادّة على الوعي والإدراك. ومن هنا موتهم القادم– في اعتقادهم– سيكون أوّل موت، ولن يكون هناك عودة بعدها. فالحياة في اعتقادهم مرّة والموت مرة. وتروي الآيتان **58** و **59** من سورة الصافات ما سيكون يوم القيامة من تقريعٍ لمن أنكر الموتتين، فزعم بأسبقيّة المادّة فلم يؤمن بالموتة الأولى ولم يؤمن بالحياة الثانية:" **أفما نحن بميّتين، إلا موتتنا الأولى وما نحن بمُعذبين؟!**".

أما يوم القيامة فسيكون منهم الاعتراف الكامل بخطيئتهم، وسيُقرّون بأسبقيّة الوعي على المادّة وأسبقيّة الموت على الحياة. جاء في الآية **11** من سورة غافر:" **قالوا ربنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل**": فالموت إذن مرّتان والحياة مرّتان. وهو الأمر المشترك بين كل البشر. وقد يُزاد للبعض في الموت، وبالتالي في الحياة، فتكون ثلاث مرّات، كما هو في قصّة العزير، أو كما حصل عندما أحيا المسيح، عليه السلام، بعض الموتى بإذن الله. وكذلك الأمر عندما أحيا الله تعالى من صُعق من بني إسرائيل، فقد جاء

في الآية **56** من سورة البقرة:" **ثمّ بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون**". فالأمر إذن لا يتعلق بعدد المرات بقدر ما يتعلق بحقيقة وجود الروح قبل وجود الجسد.

اللافت هنا أنّ وجود الروح قبل نفخها في الجسد الحيّ لا يجعلها مكلَّفة، بل ولا يُلحظ لها ذاكرة قبل نفخها في الجسد الدنيوي. وعندما نُفخت في الجسد الحي أصبحت مكلّفة ولها ذاكرة، وتبقى كذلك طالما أنها في الجسد الحيّ؛ فهذا العُزير يموت مائة عام، كما تروي الآية **259** من سورة البقرة، ثمّ يُبعثُ فنجد له ذاكرة تعود بعودة الروح إلى الجسد. وهذا ما يلحظ في الإنسان يوم البعث؛ أنّه يقوم بكامل ذاكرته كما تصرّح الآيات الكثيرة. وكأنّ الروح تحتفظ بكلّ ذلك، وعندما تعاد إلى الجسد الصالح تعود بكامل وعيها وذاكرتها.

وقولهم:" **ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا...**"، يمكن أن يكشف لنا عن حقيقة اعترافهم بأسبقيّة الموت على الحياة، والذي يعني بالضرورة أنّهم يعترفون بذنوبهم ويقرّون بخطئهم الموجب للعقاب. فهم عندما كانوا لا يقرّون بأسبقيّة الموت– والذي يعني أسبقيّة وجود الروح والوعي على الوجود المادي– فإنّ ذلك يعني أنّهم يزعمون أنّ الوعي يأتي بعد وجود الأجساد، وهو في حقيقته – عند بعضهم– انعكاس المادة في الدماغ، وبالتالي يكون الإنسان ابن بيئته ويكون وعيه من صناعة إحساساته وبيئته الماديّة. وهذا يقودهم إلى القول بأنّه مجبر

مُسيّر، وبالتالي غير مكلف وغير مسؤول، فلا معنى عندهم لوجود اليوم الآخر.

أمّا الإقرار بوجود الموت قبل الحياة فيعني أسبقيّة الروح والوعي على الوجود الماديّ للأجساد والحواس. وبمجرد الإحساس تنمو في النفس البشريّة المبادئ العقلية والإدراكات الفطريّة؛ كمبدأ السببيّة، ومبدأ عدم التناقض، وأمّهات المبادئ الأخلاقيّة...الخ. وهذا يعني أنّ الإنسان قد ألهِم ورُكّب فيه ما به يصبح مسؤولاً ومكلّفاً. وما الإحساس إلا الشرط المطلوب لنمو هذه الإدراكات الفطريّة، كما هو أمر البذرةِ التي لا تنمو نبتةً حتى تتوافر لها الشروط، كالماء والحرارة...

جاء في الآية **56** من سورة الدخان في حق أهل الجنة:" **لا يذوقونَ فيها الموتَ إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم**": أي أنّ أهل الجنة يخلدون ولا يموتون فيها إلا ما كان من موتةٍ أولى. وهذا يعني أنّ الموتة الأولى كانت في الجنة، أي أنّ الأرواح كانت في الجنة قبل أن تنفخ في الأجساد، والآن تعود إلى الجنة وهي في الأجساد الحيّة بكامل وعيها وذاكرتها. أما أهل الشقاوة فلا يعودون إليها لما كان من شقاوتهم بعد أن نفخت أرواحهم في الأجساد الدنيويّة.

وكما تلاحظ فإنّ معاني الآيات الكريمة واضحة وجليّة ومتّسقة. وقد خاض كثير من أهل التفسير في محاولة توجيه معنى الآية **56** من سورة الدخان، لظنّهم أنّ الموتة الأولى هي الموتة بعد الحياة الدنيا. وقد قادهم هذا التوجه إلى الوقوع في إشكالات كثيرة يصعب حلّها. وكما

تلاحظ لا إشكال في الآية الكريمة، لأنّه لا يوجد ما يمنع من أن يكون مستقر الأرواح، قبل نفخها في الأجساد الدنيويّة، في الجنة. وهذا ينسجم مع قول جمهور أهل السنة والجماعة بأنّ الجنة كائنة مخلوقة. أمّا من شذّ فذهب إلى القول بأنّ الجنّة غير مخلوقة، وستخلق في المستقبل، فسوف يستشكل الآية الكريمة.

أُمّة الرحمة المكتوبة

جاء في الآيتين **156 و 157** من سورة الأعراف:"... **قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ**...".

تخيّرَ موسى، عليه السلام، من قومه سبعين رجلاً لميقات الله تعالى فأُهلكوا بالرجفة. ولا تُبيّن لنا آيات سورة الأعراف سبب إهلاكهم، ولكن يمكن معرفة ذلك بالرجوع إلى سورة البقرة، حيث يشير سياقا السورتين إلى أنّ سبب الإهلاك هو ما جاء في الآية **55** من سورة البقرة:" **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ**". هنا وقف موسى، عليه السلام، يدعو ويستعطف، وهذا ما تُصرّح به الآية **155** وجزء من الآية **156**

قبل ما يقارب الـ **1800** سنة من نزول رسالة الإسلام، وعند جبل الطور، ترى سبعين من بني إسرائيل موتى، وقد أُخذوا بالرجفةِ الصاعقة. وترى رسول الله موسى يقف وحده يدعو ويستعطف ويسأل الله تعالى عفوه ورحمته. في مثل هذا الموقف المهيب يأتي الرد الإلهي:" **قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**". وتشير الآيات

من سورة البقرة إلى أنّ الله تعالى قد استجاب لعبده موسى، عليه السلام، فأعاد السبعين إلى الحياة:" **ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**".

والمسألة اللافتة هنا أنّ الرد الإلهي، في مثل هذا الموقف المهيب، جاء ليذْكُرَ أجيالاً من المؤمنين يأتون بعد آلاف السنين:
"... **قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ**...": فكما أنّ إرادته سبحانه وتعالى مطلقة لا يقيّدها إلا هو، فرحمته أيضاً واسعة تتسع لكل المخلوقات. وقد شاء سبحانه وتعالى أن يكتب على نفسه الرحمة لأمّةٍ قادمةٍ أبرز ما يميزهم أنّهم يؤمنون بآيات الله، ويتّبعون محمداً، صلى الله عليه وسلم، ويتّقون الله، ويؤتون الزكاة. وهذه الأمّة تتّبع النبي الذي تأتي أوصافه في التوراة، وفي الإنجيل الذي سينزل على عيسى، عليه السلام، والذي سيأتي مصدّقاً لما بين يديه من التوراة ومبشراً برسولٍ من بعده اسمه أحمد.
هذه بشرى عظيمة لهذه الأمّة أن تعلم أنّها كانت حاضرة في ذاكرة الأمم السابقة، وأنها جُعلت مثالاً يُحتذى واستحقت، دون الأمم كلها، أن تُكتب لها الرحمة. فليعلم السبعون، الذين هم خيار بني إسرائيل، ليعلموا بعد بعثهم وإحيائهم، أنّ رحمة الله التي وسعتهم قد كُتِبت لأمّة قادمة تتحلى بصفات عليهم أن يقتدوا بها لتُكتب لهم الرحمة.

فإذا كان الاقتداء يكون بمن مضى أو بمن حضر، فإنّ الاقتداء هنا يكون بمن هو قادم بعد قرون متطاولة. إنّها الأمّة التي يتحقّق فيها النجاح البشري. إنّها الأمّة التي تأتي كخلاصة للتجارب البشريّة. إنّها الأمّة التي أوّلها خير أمّةٍ أخرجت للناس، وآخرها خلافة راشدة على منهاج النبوة. إنّها الأمّة التي تُختم عندها الرسالات، فتقوم بما قامت به الرسل من حملٍ لدين الله وتبليغٍ لرسالته. إنّها الأمّة القادرة على أن تُصحّح مسيرتها وأن تستدرك على أخطائها. الأمّة التي ترفض الظلم وتأبى الاستعباد وتناهض العدوان، أمّة العلم والوعي والمعرفة. أمّة إذا كَبتْ ما أسرع ما تقوم. أمّة لا تموت فيها بذرة الخير، كلّما سقاها دعاة الحق أنبتت وأثمرت البركات...هي إذن أمّة الرحمة المكتوبة.

الإيمان والعمل

جاء في الآية **93** من سورة المائدة:" **لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآَمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ".

إذا اتقى المؤمن المحارم وعمل الصالحات فلا يضره بعد ذلك عمل، طالما أنّه يتحرّى الحلال ويمارس العمل الصالح. وتكون التقوى في الدرجة الأولى بالابتعاد من المحرمات والمكروهات، أي بالابتعاد عن عوامل الهدم قبل الاشتغال بالبناء. أما العمل الصالح فهو في الحقيقة بناء وارتقاء. ويكتسب كلّ ذلك قيمة في الشرع عندما يقوم على أساس من الإيمان الصحيح.

لقد أشكلت هذه الآية على كثير من أهل التفسير، ومنهم سيد قطب، رحمه الله، عند تفسيره لقوله تعالى:" **إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآَمَنُوا**"، بعد قوله:" **إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**". والذي نراه أنْ لا إشكال، لأنّ الآية الكريمة تكشف لنا عن حقيقة العلاقة بين الإيمان والعمل الصالح. فمعلوم أنّ جمهور أهل السُنّة والجماعة يُعرّفون الإيمان بأنه: تصديق بالقلب وإقرار باللسان وعملٌ بالأركان. وقد خالف أبو حنيفة، رحمه الله، فاعتبر أنّ الإيمان هو تصديق بالقلب وإقرار باللسان. أي أنّ العمل الصالح عند أبي حنيفة لا يدخل في ماهية الإيمان.

لا شك أنّ الإيمان تصديق بالدرجة الأولى، وينبني على هذا التصديق فعل وترك، وهذا واضح في قوله تعالى:" **إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**". وعندما يكون الكف عن المحارم وعمل الصالحات نابعاً عن الإيمان، وعندما يصبح عادة وديدناً للإنسان، تنشأ عن ذلك علاقة جدليّة ارتقائيّة؛ أي أنّ العمل الصالح الذي يصدُر عن إيمان يقوّي هذا الإيمان، ثمّ لا يلبث هذا الإيمان القوي أن يقود إلى عمل أصلح،... وهكذا في مسيرة ارتقائيّة. من هنا قال جمهور أهل السُنّة والجماعة:" الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي".

عندما يحصل مثل هذا الارتقاء لا تعود تلاحظ خطوطاً فاصلة بين حقيقة الإيمان وحقيقة العمل. وحتى تتضح الفكرة نضرب مثالاً بالأشخاص الذين يتعلمون الطباعة على الآلة الكاتبة، حيث يلزمهم معرفة الحروف ومواقعها على لوحة المفاتيح. وعندما يمارس المبتدئ عملية الطباعة يكون حاضر الذهن مفتوح العيون فلا يضغط على مفتاح الحروف حتى يتعرف عليه. ومن هنا تكون العمليّة في البداية في غاية البطء والتكلّف. وبعد حين، ونتيجة للممارسة الطويلة ذهنياً وعملياً، نجد أنّ متقن الطباعة لا يعود يفكّر في مواقع الحروف ولا يعود يتكلف الأمر، بل يحصل **اندماج بين الفكرة والسلوك**، ويصبح الفعل سليقة، ولا نعود نلاحظ خطوطاً فاصلة بين الفكرة والسلوك.

فالآية الكريمة تتحدث إذن عن الحالة الارتقائيّة الاندماجيّة التي تنتج عن ممارسة العمل الصالح على أساس من الإيمان.

فالبداية إذن:"**اتَّقَوْا وَآَمَنُوا وَعَمِلُوا**"، ثم:" **اتَّقَوْا وَآَمَنُوا**"، أي أنه لم يعد هناك فصل بين حقيقة الإيمان والعمل، بل إنّ الأمر يصل في مسيرة الارتقاء إلى حالة هي أرقى من **الإيمان،** ألا وهي **الإحسان،** حيث يكون التصديق أقرب إلى عالم المشاهدة، وحيث يكون العمل في أبهى صورة ويصدر عن المحسن من غير فكر ولا رَويّة:" **ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا**".

إنّ أمثال هؤلاء إذا ما استشكل عليهم حكم شرعي، ولم يصل بهم فقههم إلى ترجيحٍ ظاهر يكفيهم عندها فتوى القلوب، تماماً كما هو الأمر عندما ننظر بأكثر من عين وتكون لدينا صورة واحدة.

مسألة في التوبة

جاء في الآيتين **17** و **18** من سورة النساء:" **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا. وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآن وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**".

الذي دفعنا للكتابة في تفسير الآيتين الكريمتين ما وجدناه عند عامة المفسرين من ظنٍّ بأنّ الحديث هنا عن التوبة المقبولة والتوبة غير المقبولة، وأنّ التائبين الذين تُقبل توبتهم هم فئة واحدة، وأنّ الذين لا تقبل توبتهم هم فئة أخرى. في حين أنّ الناس الذين تُقبل توبتهم هم في الحقيقة فئتان: فئةٌ أوجب الله تعالى على نفسه أن يقبل توبتهم، وفئة تُركَ أمر قبول توبتهم لمشيئته سبحانه.

" **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّه** ": لاحظ عبارة:" **على الله** "، فالله تعالى أوجب على نفسه تكرماً وفضلاً أن يتوب على من توفّرَ في توبته شرطان هما: " **يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ**": كطغيان شهوة أو غضب أو عن طيش ورعونة... من غير أن يكون هناك استخفاف بأوامر الخالق سبحانه، ومع إدراكهم لخطئهم وسوء فعلهم.

" **ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ** ": أي يُسارعون للإنابة ولا تطول بهم الإقامة على المعصية. فأمثال هؤلاء أوجب الله سبحانه وتعالى على نفسه أن يقبل ندمهم وتوبتهم، فليطمئنّوا فقد قُبِلت توبتهم.

أما الذين لم تتوفّر في توبتهم هذه الشروط، فليعلموا أنّ الله يقبل توبة العبد ما لم يُغرغر، أي ما لم يكن في النزع الأخير. وأمثال هؤلاء لا تكون التوبة عنهم يقينيّة، بل هي إلى الله تعالى المطلع على حقيقة قلوبهم، وصدق ندمهم ورغبتهم في الرجوع إلى ربّهم. وعليهم أن يُكثروا من الطاعات بعد أن ينزعوا عن المعاصي، فلعل الله تعالى أن يقبل توبتهم.

فالفئة الأولى إذن وجبت لهم التوبة وقُبلت يقيناً. والفئة الثانية فُتحت لهم أبواب التوبة ولم تُغلق في وجوههم، فليتوبوا لعل التواب الرحيم أن يتوب عليهم، فقد أخبر سبحانه وتعالى على لسان رسوله، عليه السلام، أنّه يقبل توبة العبد ما لم يغرغر.

" **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآن**": هؤلاء ليس على الله أن يتوب عليهم؛ لا من جهة ما أوجبه على نفسه، ولا من جهة ما فتحه من أبواب التوبة. ولكن لا يعني ذلك أنه لا يغفر لبعضهم، لما يعلمه من حقيقة إيمانهم وصدق محبتهم لله ورسوله، أو غير ذلك مما لا نعلمه ويعلمه اللطيف الخبير. فقد جاء في الآية **116** من سورة النساء:" **إنّ اللهَ لا يَغفِرُ أنْ يُشرَكَ بهِ ويَغفِرُ ما دونَ ذلكَ لمن يشاءُ...**"، فليس كلّ من مات على معصية لم يتب منها عُذّب من أجلها؛ فهناك الميزان، وهناك الشفاعة، وهناك

الشهادة،.. وهناك وهناك. ومعلوم أنّ هذه الآية تتحدث عن الآخرة وما بعد الموت. أمّا في الدنيا فباب التوبة مفتوح، لأنّ الله يغفر الذنوب جميعاً، انظر الآية **53** من سورة الزمر:" **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ".

ولَوْ تقوّل علينا

النبوة اصطفاء ربّاني لعبد من عباد الله، ورحمة منه، سبحانه تعالى، يهدي بها من يشاء. وقد بدأت سلسة الأنبياء المباركة بآدم، عليه السلام، وخُتمت بمحمد، صلى الله عليه وسلم. وختم النبوة لا يعني استحالة وجود من يدّعيها، بل إنّ الرسول، صلى الله عليه وسلم قد أخبرنا بما سيكون من ادّعاءٍ وافتراءٍ على الله سبحانه من قبل أدعياء النبوة. وقد قرأنا لبعض أتباع دَعِيٍّ من الأدعياء يقولون:" لو كان نبيّنا غير صادق في دعواه لأهلكه الله تعالى كما جاء في سورة الحاقة. من هنا رأينا أن نعود إلى الآيات الكريمة من سورة الحاقّة لنلقي بعض الضوء، فلعلنا نزيل بذلك بعض ما يمكن أن يعلق في أذهان من استمع إلى مثل هذه الشبهة.

جاء في الآيات **44-47** من سورة الحاقّة:" **ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل، لأخذنا منه باليمين، ثمّ لقطعنا منه الوتين، فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين**".

التقوّل: هو نسبة قولٍ إلى من لم يقله. والأقاويل افتراءات تتعلق بالأقوال المنسوبة إلى الغير. والذي يهمّنا في هذا المقام هو توضيح أنّ المقصود بهذه الآية هو الرسول الحق، وليس كل من يدّعي الرسالة؛ فعندما يرسل الله تعالى رسولاً يؤيّده بالأدلة والبراهين ليقيم الحجة على الناس. وبعد أن

تُقام الحجة يقوم الرسول بإبلاغ الرسالة إلى المؤمنين الذين يُصدّقون الرسول في كلّ أقواله، لأنّه رسول المَلِك العظيم، الذي لا يخطر ببال أحد أن يأذن بتحريف كلامه وإضافة الأقوال المكذوبة إلى مقامه العلي، من قِبل من اختاره واصطفاه ليكون حجّة على البشر.

من هنا جاء مفهوم العصمة مستنداً إلى بداهة العقول قبل استناده إلى الدليل النصّي. أمّا النصوص فكثيرة، منها: " **سنقرئك فلا تنسى...**"، و " **لا تحرّك به لسانك لتعجل به، إنّ علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثمّ إنّ علينا بيانه**"، و" **إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون**". ومنها أيضاً هذا النص من سورة الحاقة، الذي يُصرّح بأنّ تحريف الكلام من قِبَل الرسول – لو حصل افتراضاً – يُحتّم أن تُعجّل له العقوبة الحاسمة، رحمة بالعباد وتنزيهاً لمقام الربوبيّة. ويقارب هذا المعنى ما جاء في الآية **74**، **75** من سورة الإسراء، خطاباً للرسول، عليه السلام:" **ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا، إذاً لأذقناك ضعفَ الحياةِ وضعفَ المماتِ ثمّ لا تجد لك علينا نصيرا**".

أمّا مدّعي النبوة والرسالة فلا يشمله هذا التهديد، وكذلك كلّ مُتقوّل نَسَب إلى الله تعالى ما لم يقله. فأولئك شأنهم مختلف وعقوبتهم مختلفة، وليس بالضرورة أن تُعجّل لهم العقوبة فتكون فوريّة وحاسمة، لأنّهم **لم يمتلكوا البرهان من الله ولم تقم لهم الحجّة على العباد**، ولم يخونوا الأمانة العظيمة بعد معرفة الحقيقة. وما هم في الواقع إلا فتنة من الفتن الكثيرة التي يُميّز الناس بواسطتها بين الخبيث والطيّب. وأمثال هؤلاء لا يملكون

الحجّة والبرهان، بل يعرفهم أهل الصدق بسيماهم، ولا ينخدع بهم إلا من أظلمت قلوبهم وعقولهم بظلمات معاصيهم وانحرافاتهم.

فإملاء الله تعالى للمفتري لا يكون دليلاً على صدقه، انظر قوله تعالى في الآية **178** من سورة آل عمران:" **ولا يحسبنّ الذين كفروا أنما نُملي لهم خير لأنفسهم إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً، ولهم عذاب مهين**". وكذلك لا تدلّ كثرة الأتباع والمصدّقين على صدق المدّعي، بل لو أطبق أهل الأرض كلّهم جميعاً على القول بصدق المدّعي لا يكون صادقاً حتى يأتي بالبرهان الذي تخضع له العقول والقلوب. وتاريخ البشريّة وواقعها المعاصر يشهد بذلك، بل إنّ بعض الأنبياء لم يتّبعه إلا الرجل والرجلان، في حين نجد أنّ بعض أئمّة الكفر قد اتبعتهم الملايين من البشر. نقول هذا حتى لا نقع، نحن المسلمين، فيما يقع فيه الكثير من أهل العقائد المختلفة من أخطاءٍ في منهج الاستدلال وإقامة الحجّة.

فوق الذين كفروا

جـاء فـي الآيـة 55 مـن سـورة آل عمـران:" **إِذْ قَـالَ اللّـهُ يَـا عِيسَـى إِنِّـي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَـيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ...**".

تنصّ الآيـة الكريمـة علـى أنّ وجـود أتبـاع عيسـى، عليـه السـلام، سيسـتمرّ إلـى يـوم القيامـة. وقـد التبس ذلك علـى بعـض أهـل التفسـير فـذهبوا إلـى القـول بـأنّ قـانون الفوقيّـة المنصـوص عليـه فـي الآيـة الكريمـة يخـصّ النصـارى فـي مقابلـة اليهـود. وهـذا فهـم عجيـب يتنـاقض مـع أساسـيات العقيدة الإسلاميّة والتي هي عقيدة المسيح، عليه السلام، وعقيدة الأنبياء والرسل من لدن آدم حتى محمد صلوات الله عليهم جميعاً. فلا يجوز لنا إذن أن نعتبر النصارى اليوم أتباعاً للمسيح عليه السلام.

جاء في الآية 14 من سورة الصف:" **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونـوا أَنصَارَ اللَّـهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَـى اللَّـهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّـهِ فَآمَنَت طَّائِفَـةٌ مِّن بَنِـي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ** ".

يُفهَمُ من الآيـة الكريمـة أنّ دعوة عيسـى، عليـه السـلام، قد نجحت لأنّ الفكرة أصبحت ظاهرة، ولا تكون الفكرة ظاهرة حتى تكون مُعلنة وغالبة. وينبغي أن لا نخلط بين ظهور الفكرة والظهور المادّي المتمثل بالظهور

العسكري مثلاً، لأنّ العبرة بظهور الفكرة وإشراقها في النفوس. والسلطان الحقيقي هو سلطان الفكرة، لأنّها المحرك الأساس للأفراد والمجتمعات؛ فلو نظرت اليوم إلى تسلّط اليهود على الفلسطينيين في الأرض المقدّسة لوجدت أنّ السلطان الحقيقي هو سلطان الإسلام، لأنّه هو الموجّه والمحرّك للناس في فلسطين، ولوجدت أنّ الفكرة الصهيونيّة تعاني من الانحسار والتلاشي في نفوس الكثيرين من اليهود.

جاء في الآية **123** من سورة النحل:" **ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ". وجاء في الآية **95** من سورة آل عمران:" **قُلْ صَدَقَ اللّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**". وجاء في الآية **125** من سورة النساء:" **وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً** ".

فنحن إذن من أتباع إبراهيم عليه السلام، وهذا لا يتناقض مع كوننا أتباعاً لمحمد، صلى الله عليه وسلم، لأنّ دين الله واحد، وهي مسيرة واحدة، ولواء واحد مذ رفعه آدم، عليه السلام. أما اختلاف الشرائع فمردّه إلى اختلاف أحوال الأمم والشعوب. بل أنت تجد في شريعة الإسلام اختلافاً في الأحكام الشرعيّة يناسب اختلاف الأحوال؛ فصلاة المسافر تختلف في بعض أحكامها عن صلاة المقيم، وكذلك الأمر في الصيام ... الخ.

فإذا كان محمّد، عليه السلام، متّبعاً لملّة إبراهيم فلا شك أنّ عيسى، عليه السلام، هو أيضاً مُتّبع لملّة إبراهيم، عليه السلام. وإذا كنّا أتباعاً

لمحمد وإبراهيم، عليهما السلام، فإننا أيضاً أتباع لعيسى ولغيره من رسل الله الكرام، صلوات الله عليهم جميعاً. نقول ذلك لنبيّن أنّ قوله تعالى:" **وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** "، يُقصَد به أهل الإيمان الصحيح الذين لم ينقطع وجودهم في الأرض بعد عيسى، عليه السلام، واستمروا يحملون لواء الحق والحقيقة حتى بُعِث الرسول، صلى الله عليه وسلم. وبذلك تستمر مسيرة الحق إلى يوم القيامة. جاء في الحديث الصحيح:" **لا تزالُ طائفةٌ من أمتي ظاهرين...**"، وهذا كلام صريح باستمرار ظهور الفكرة إلى أن يرث الله تعالى الأرض وما عليها.

الدارس لبعض ما كُتِب حول القرون الستّة، من عيسى إلى محمد، عليهما السلام، يلاحظ أنّ هناك حركة ظاهرة كانت تستعلن بفكرتها الحقّة، ومن ذلك الجماعة المسيحيّة المسمّاة بالموحدين، وكذلك أصحاب الأخدود. بل إنّ قصّة إسلام سلمان الفارسي تُبيّن لنا حقيقة استمرار الرسالة الحقّة؛ فهذا سلمان، رضي الله عنه، يتتلمذ على راهب، وعندما تحضر هذا الراهب الوفاة يوصي سلمان براهب آخر يلحق به ويتتلمذ عليه، وهكذا حتى يوصيه الأخير بأرضٍ ذاتِ نخيل سيظهر فيها النبي الخاتم، صلوات الله عليه. ويبدو أنّ إسلام هذه الجماعات الحاملة للحقيقة أدّى إلى انصهارها في الأمّة الإسلامية وبالتالي اندثار أخبارها، على خلاف الأمر في الجماعات النصرانيّة التي لم تُسلِم.

جاء في الآيتين **139- 140** من سورة آل عمران:" **وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ...**"، معلوم أنّ هذه الآيات من سورة

آل عمران جاءت تعقيباً على ما أصاب المسلمين في معركة أُحُد؛ فما ينبغي لمن استعلى بالفكرة الإيمانيّة الحقّة أن يضعف لمجرد هزيمة لحقت به في عالم الأشخاص، فما ذلك إلا قانون اقتضته الحكمة الربانيّة التي تُخرّج أتباعها وتنصر الحقيقة. فالسيطرة الماديّة للكفر في مرحلة من المراحل يجب أن لا توهن الفكرة الحقّة التي تجعل من صاحبها الأعلى دائماً وفي كلّ الأحوال؛ فهذا بلال بن رباح، رضي الله عنه، ينتصر بفكرته وهو مطروح فوق الرمال الملتهبة يعاني جسده من سياط سيّده الذي كان يشعر بعمق هزيمته أمام خادمه المستعلي بفكرته.

جاء في الآية **76** من سورة يوسف:" **وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** "، بذلك يتبيّن أن الفوقيّة لا تعني دائماً فوقيّة ماديّة. ولا شك أنّ همّ عيسى، عليه السلام، كان دائماً الفكرة وانتصارها، وفوقيتها على الأفكار المناقضة لها. لذلك كان من المناسب أن يُطَمأن، عليه السلام، عند رفعه، فيُقال له:" **وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** ". ثمّ يأتي الوحي الكريم فيبرز لنا نحن المسلمين هذه الحقيقة، والتي هي قانون ربّاني يستمر إلى يوم القيامة، فأين مصداق ذلك في الواقع؟!

تتجلى فوقيّة الفكرة أولاً بشعور المؤمن بتفوّقها على غيرها من الأفكار المناقضة لها، وثانياً بإحساس الكافرين بضعف فكرتهم وقصورها وعجزها عن المواجهة، وذلك عندما تكون ساحة المعركة هي العقول والقلوب والفطرة السويّة.

وإليك بعض مؤيدات تفوّق الفكرة الإسلاميّة:

1. على الرغم من تفوّق الغرب علميّاً وتكنولوجياً واقتصادياً وعسكرياً، وعلى الرغم من كونه قِبلة العالم في العلم والمعرفة، إلا أننا نجد أنّ التحول نحو الفكرة الإسلاميّة من الظواهر المتصاعدة في المجتمعات الغربيّة. في المقابل نجد أنّ المجتمعات الإسلاميّة تُعجَب بمدنيّة الغرب ولكنّها في المقابل باتت لا تقبل فلسفته. من هنا لا نلحظ أيّ تحوّل نحو العقيدة المسيحيّة، على الرغم من توافر الدواعي الكثيرة المشجّعة على ذلك.

2. تُعتبر فرنسا الدولة الرائدة في تاريخ الديموقراطيّات الغربيّة، حيث كانت الثورة الفرنسيّة المثال والقدوة لجميع الأوروبيين. وعلى الرغم من ذلك نجد أنّ الجمهورية الفرنسيّة العريقة تضيق ذرعاً بعدد قليل من الطالبات الصغيرات، اللواتي يلبسن الحجاب المجتزأ والمتمثل بغطاء الرأس، فتشهر سلاح القانون في وجوههنّ البريئة تحت زعم أنّ ذلك من أجل حماية القيم الديموقراطيّة. نعم، فمن أجل حماية قيم الديموقراطيّة، لا بدّ من الانقضاض على أهم مبادئ الديموقراطيّة! وعندما نعلم أنّ المَدْرسة فرنسيّة، وأنّ المُدرّس فرنسي، وعندما نعلم أنّ الطالبات صغيرات يمكن التأثير عليهن واستيعابهن ومسح أدمغتهنّ في اتجاه الفكرة الغربيّة، عندما نعلم ذلك كله ندرك أنّ الجمهوريّة الفرنسيّة بعظمتها وعراقتها قد باتت تشعر بالدونيّة في مواجهة الفكرة الإسلاميّة، وباتت مدركة لعجزها عن التأثير حتى في فكر الطفل المُتلقّي، وأدّى هذا الشعور بالعجز والدونيّة العقدِيّة إلى الانقضاض على أهمّ مبادئها، ولم تبال أن كُشِفت عورتها أمام العالم. ويمكننا أن نفهم دوافع مثل هذه

التصرّفات، والتي لا يمكن أن تكون تصرفات الواثق الذي يشعر بتفوّقه تجاه الآخرين. أمّا رفع الصوت والتغنّي بالقيم الغربيّة فلا يدلّ إطلاقاً على ثقة الغرب بقوّة فكرته وأناقتها، بل إنّ الأمر على العكس من ذلك تماماً.

3. المستقرئ للفكر الاستشراقيّ والتبشيريّ الغربيّ يجد أنّ الاهتمام الأول عندهم هو بالفكرة الإسلاميّة. ويدهشك الكم الهائل من الإنتاج الفكري الذي يهدف إلى تشويه الفكرة الإسلاميّة دون غيرها من الأفكار. وهذا يدلّ على شعورهم بقدرة الفكرة الإسلاميّة على اختراق حصونهم الفكريّة. ويندر أن تشعر بموضوعيّة هؤلاء عندما يتحدّثون عن الإسلام. أمّا إذا كان حديثهم عن دين غير الإسلام فإنّك تلمس الموضوعيّة لديهم. وهذا يشير إلى شعورهم العميق بتفوّق الفكرة الإسلاميّة.

الضالّون المكذّبون

هنـاك أكثر من دافعٍ للتكذيب، وأكثر المكذبين انحرافاً من كان تكذيبه عن ضلال. وهناك أكثر من صورة للضلال، وأكثر الضالين انحرافاً من أضاف إلى ضلاله التكذيب. جاء في الآية **51** من سورة الواقعة:" **ثمّ إنّكم أيّها الضالونَ المكذّبون**"، وجاء في خواتيم السورة:" **وأمّا إنْ كانَ من المكذّبين الضالّين، فنُزُلٌ من حميمٍ، وتَصْلِيَةُ جحيم، إنّ هذا لَهُوَ حقُّ اليقين...**".

قد يكون الضلال عن جهل وعن غير قصد ولا يؤاخذ صاحبه، كمن يضلّ الطريق فلا يصل إلى هدفه مع رغبته الكاملة في الاهتداء والوصول. وقد يكون ناتجاً عن مقدّمات قدّمها المرء فكان الضلال هو الثمرة المشؤومة للسلوك غير السوي. وقد يكون ذلك نتيجة انحراف النفس الغارقة في المعاصي، فلا يعود الشخص راغباً في الهداية، بل لا يعود قادراً على إدراك أنّه يسير في طريق الضلال. والأول تجده طالباً للحقيقة حريصاً عليها، فما أسرع ما يهتدي. والثاني تجده مستشعراً لما آلت إليه أعماله، وأمثال هذا ترجى له الإنابة. أمّا الثالث فمصاب بالانعكاس النفسي، فيرى الحق باطلاً ويرى الباطل حقاً، فما أبعد ما يهتدي.

إذا كان الأول معذوراً في ضلاله فلا يُعذر عندما يُضيف إلى ضلاله التكذيب. أما الثالث فيكون مكذّباً للحق في أغلب أحواله. وما نرمي إليه هنا أن نبين حقيقة الخلل المنهجي الذي يقع فيه الضال عندما يُكذِّب الحق. والذي يُكذِّب عن ضلال لا يكفيه البيان والبرهان، بل قد يكون التقريع والتهديد والوعيد من أنجع الوسائل لردّه إلى الصواب أو ردعه عن التمادي، كما هو الأمر عندما يُطرق القضيب المعوج ليستقيم. والمتدبر للقرآن الكريم يجد أنّه كثيراً ما يخاطب أمثال هؤلاء بما يئزّ النفوس ويخلع القلوب، فيظنّ من لا علم له ولا خبرة بأنّ خطاب العقول مع أمثال هؤلاء أجدى وأنفع. واستقراء واقع الناس يكشف لك عن نجاح مثل هذا الخطاب، كيف لا، ألا يعلم من خلق؟!

الناس ثلاثة: الأول لديه دليل الإثبات فيقول نعم، والثاني لديه دليل النفي فيقول لا، والثالث لا يملك الدليل على الإثبات أو على النفي فيقول لا أدري.

وهذا هو المنطق السوي. وعلى الرُّغم من وضوح هذا في العقل إلا أنّك تُفاجأ بأنّ الكثير من الناس يسارعون إلى النفي أو الإثبات وهم لا يملكون الدليل. ومن أمثلة ذلك ما كنّا نلحظه من سلوك الملاحدة ومنهجيّتهم غير السويّة؛ فقد كانوا يقولون: لا إله والحياة مادّة. وكنّا نسألهم كيف عرفتم ذلك؟! فيقولون: لا دليل على وجود الإله، وهم في الحقيقة يقصدون أنّهم لم يروه رأي العين. فكنّا نقول لهم جدلاً: إذا عجزنا عن تقديم الدليل على الوجود فما دليلكم على عدم الوجود، فأنتم تقولون: لا إله؟! فقد كانوا يظنّون أنّ عدم وجود الدليل على الإثبات هو

دليل النفي. فكنّا نقول لهم: أنتم الفئة الثالثة من الناس التي ينبغي أن تقول لا أدري، وبعد أن تُقرّوا بذلك يصبح من واجبنا أن نقدم لكم الدليل. فالضال الذي يُضيف إلى ضلاله التكذيب يكشف عن حقيقة سلطان الشهوة أو المصلحة أو الكِبر...على عقله. وأمثال هؤلاء لا تنفعهم الحجّة والبرهان، بل يلزم أن تبحث عن حقيقة المرض الذي تدلّ عليه العوارض حتى تتمكن من تقديم العلاج.

والمشركون العرب عند نزول الرسالة كانوا يُقرّون بأنّ الله تعالى هو خالقهم وهو خالق السماوات والأرض؛ انظر الآية **38** من سورة الزمر:" **ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرضَ ليقولُنَّ الله...**"، وانظر الآية **87** من سورة الزخرف:" **ولئن سألتهم من خلقهم ليقولُنَّ الله فأنّى يُؤفكون**". وعلى الرُّغم من هذا الإقرار، الذي يُسجّله عليهم القرآن الكريم، وعلى مسمعهم، نجدهم يُصرّحون بإنكار اليوم الآخر. فكيف عرفوا أن لا بعث ولا حساب، وما دليلهم الذي حملهم على الجزم بالنفي؟! والعجيب أنّ أهل الإلحاد في عصرنا يدركون، أكثر من غيرهم من الأمم السالفة، بعض حقائق عظمة الخلق وإبداعه ثمّ هم ينكرون بعث الأجساد التي بليت. وتكتشف مدهوشاً أنّ إنكارهم هذا يحملهم عليه عجزهم عن بعث الأجساد بعد موتها، فقد قاسوا الخالق على المخلوق. فكأنّهم يقولون: ما يُعجزنا يستحيل أن يكون!! ومن هنا نجدهم، مثلاً، ينكرون ويستهزئون عندما يُذكر لهم بعض أخبار معجزات الأنبياء. ومثل هذا الموقف الطفولي ما كان ليكون لولا أنّ التكذيب أساسه الضلال.

وليقترفوا ما هم مقترفون

جاء في الآيتين **112، 113** من سورة الأنعام:" **وكذلك جعلنا لكلّ نبيٍّ عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعضٍ زُخرفَ القولِ غُروراً، ولو شاء ربك ما فعلوهُ فذرهم وما يفترون، ولِتصغى إليه أفئدةُ الذين لا يؤمنون بالآخرة ولِيَرضَوهُ ولِيَقترفوا ما هم مُقترِفون**".

" **وكذلك جعلنا لكلّ نبي عدواً**": فهو إذن قانون لا يتخلف، كان في الماضي وسيكون في المستقبل. ومعلوم أنّ العداوة في الحقيقة ليست لشخص النبي وإنّما للفكرة التي جاء بها. من هنا لا بدّ أن يبقى هناك من يعادى الفكرة الإيمانيّة ويمكر لها، ولمثل هذا القانون الاجتماعيّ حكمة.

"**عدواً شياطين الإنس والجن**": فهناك إذن شياطين من الإنس وشياطين من الجنّ. والشيطان هو المتمرد الذي مرد على الشرّ. وأنت تجد من الإنس من سخّر حياته للباطل فأصبح معادياً للحقيقة الإيمانيّة، فلا يطيق وجودها ولا يتصوّر انتصارها وشيوعها بين الناس. مثل هذا هو الشيطان وليس كلّ عاصٍ. فمجرد ارتكاب المعصية إذن لا يجعل الإنسان شيطاناً، بل إنّ الشيطان هو من أصبحت المعصية جزءاً من كينونته وأصبحت ديدنه، بحيث تستهويه الانحرافات وتستفزّه الطاعات.

" **شياطين الإنس والجنّ يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول**": ومعلوم في الدين أنّ لشياطين الجنّ القدرة على الوسوسة الخفيّة. والإنسان اليوم أقدر على تصوّر المسألة بعد أن أصبح قادراً على أن يبثّ الصور والأصوات ويعود فيلتقطها على موجات محدّدة. ومعلوم أنّ الدماغ البشريّ أكثر تعقيداً من كلّ ما عرفناه من أجهزة التقاط. فشياطين الجنّ قادرة على أن توحي للناس عن طريق الوسوسة. أما شياطين الإنس فأقدر على طرح الباطل وأقدر على التسلل الخفي لمسح الأدمغة وغرس الأفكار واستنباتها.

"**يوحي بعضهم إلى بعضٍ زخرف القول غروراً**": فشياطين الجنّ تجهد في تضليل الإنس والجنّ. وشياطين الإنس تجهد وتجتهد في تضليل الإنس، ولا شكّ أنّهم يفعلون ذلك في الجنّ أيضاً لما ورد:".. **إنّه يراكم هو وقَبيلُه من حيث لا ترونهم...**" الأعراف:27، فالجنّ على اطلاع بواقع الإنس وما يصدر عنهم. وأكثر ما يكون الإيحاء مؤثراً بين الشياطين بعضهم مع بعض، لما يكون من سهولة استقبال وتقبّل. وبما أنّهم يوسوسون بالباطل فيحتاج ذلك إلى تزيين وتلوين حتى لا تتكشف حقيقته. واليوم أصبح مثل هذا التزيين والتسويق للأفكار والضلالات عِلماً يُدرّس؛ فكم من فكرة ضعيفة متهافتة تجلّت بأثواب الخداع التي تغرّ، كما تجلّت العروس الشمطاء بألوان الزينة والبهرج فخالها الناس ملاكاً يمشي على الأرض.

"**ولو شاء ربّك ما فعلوه فذرهم وما يفترون**": فمقاليد الأمور بيد الواحد القهّار، ولحكمة أرادها الحكيم العليم تركهم يفعلون ذلك، فاتركهم

لافتراءاتهم، التي تكفي وحدها لتحقيق هزيمة باطلهم وانتصار الحق الذي أنت عليه. فأقصر طريق لتحقيق انتصار الحق هو الاهتمام بعرض الحقيقة والتبشير بها والانصراف إلى تعريف الناس بحقائق الدين الحق وتعليمهم وتربيتهم. أمّا صرف الجهود في الإبحار في لجج بحور أكاذيبهم وافتراءاتهم فتضييع للوقت وإهدار للجهد، فهناك أولويّات ينبغي أن تراعى من أجل الوصول إلى الأهداف، فالتعريف بالفكرة مقدّم على تفنيد ادعاءات المبطلين.

"**ولتصغى إليه أفئدةُ الذين لا يؤمنون بالآخرة**": والإيمان بالآخرة يعني الإيمان بباقي الأركان؛ فالإيمان بالله قد لا يستلزم بالضرورة الإيمان باليوم الآخر، ولا يستلزم الإيمان بباقي الأركان. أما الإيمان باليوم الآخر فيعني الإيمان بالله وبباقي الأركان. وعدم الإيمان باليوم الآخر يعني أنّ أفق الإنسان هو أفق مادي دنيوي. ومثل هذا الاعتقاد يُشكّل العقليّة والمنهجيّة والنفسيّة، وينعكس بقوة في المواقف والسلوك. وأمثال هؤلاء يُصغون بشدّة إلى افتراءات الشياطين من الإنس والجنّ. وهذا أمر ملحوظ في واقع الناس. والإصغاء هو المرحلة الأولى، وهو ينبع عن نفسٍ أسَرَتْها الدنيا وماديّاتها وشهواتها. كيف لا، وقد انتفى الإيمان الأخرويّ الذي يقي الإنسان من تأثير السلطان الماديّ للدنيا!

"**ولِيَرضَوهُ**...": والرضا هو المرحلة الثانية بعد الإصغاء الذي يدل على وجود الميل والاستعداد للتأثّر والأخذ. فالرضا يشير إلى الأخذ والقبول والارتياح لما عُرض وزيّن. فأصبح الباطل المتشرّب جزءاً من الكينونة. وهذا مقدمة للمرحلة الثالثة، وهي مرحلة الاقتراف.

"**وليقترفوا ما هم مقترفون**": فالإيمان الماديّ الدنيويّ مقدّمة لوجود الميل المؤدّي للإصغاء. والإصغاء مقدمة للقبول والرضا والتشرّب. وهذا بدوره يؤثّر في السلوك. بل إنّ السلوك هو نتيجة حتميّة للفكر المتغلغل في العقل والقلب. وإذا حصل السلوك الناتج عن القبول والرضا بالأفكار الباطلة، فسوف يكون ذلك بداية الهزيمة للفكر المفترى، لأنّ **انعكاس الفكر في الواقع والسلوك يكشف عن حقيقته الزائفة**. وقد يصعب على غالبيّة الناس أن يُقيّموا المبدأ وهو في عالم الفكر النظري، فإذا انعكس في عالم الواقع العملي رآه الجميع على حقيقته. لذلك سيدرك الناس الحقيقة التي يمثلها أهل الإيمان بفكرهم وسلوكهم الناتج عن هذا الإيمان. فقد أصبح أمام ناظر الناس واقعان ناتجان عن فكرين متناقضين؛ فكر منسجم مع الفطرة والواقع، يقابله ويعاديه فكر مزيّف يناقض الفطرة ويناقض الواقع. فالمعركة إذن محسومة والمآلات باتت معلومة.

والنـهار إذا جلّاها

جـاء فـي فواتح سورة الشمس:" **وَالشَّـمْسِ وَضُـحَاهَا، وَالْقَمَـرِ إِذَا تَلاهَـا، وَالنَّهَـارِ إِذَا جَلَّاهَـا**..."، وقد استشكل البعض قولـه تعالى:" **والنهـارِ إذا جلّاهـا**..."، لأنّ ظـاهر الأمر أنّ الشمس هـي التـي تُجلّـي النهار ولـيس العكس!!

واضـح أنّ الضمير يرجع إلـى الشمس، إلا أنّ ابن كثير اضطر إلـى أن يُرجـع الضـمير إلـى الأرض التـي لـم تُذكر فـي النص الكريم؛ يقول ابـن كثير:" قلتُ: ولو أنّ هذا القائل تأوّل ذلك بمعنى وَالنَّهَارِ إِذَا جَلّاهَا أي: البسيطة، لكان أولـى، ولصحّ تأويلـه". ويحق لابن كثير، رحمه الله، أن يستشكل الـنص الكـريم فيجـد المخـرج فـي إرجـاع الضـمير إلـى غيـر مذكور. كيف لا، وظاهر الأمر يؤكّد أنّ الشمس هي التي تُجلّي النهار؟

والذي نـراه أنْ لا إشكال، بل إنّ فـي الآيـة الكريمة إعجازاً علميّاً، وبيان ذلك في الآتي:

يقول الطـاهر بن عاشور فـي التحرير عند تفسيره للآيـة 25 من سـورة البقرة:" والأنهار: جمع نَهَر بفتح الهاء وسكونها والفتح أفصح. والنهر: الأُخدود الجاري فيه الماء على الأرض، وهو مشتق من مادة نَهَر الدالـة على الانشقاق والاتساع..".

وأغلب ما عليه أهل التفسير أنّ معنى النهر يدور حول السِّعة، على اعتبار أنّ النهر أوسع من الجدول. أما معنى الشق، فالذي نراه أنّه ليس من معاني النهر، إلا أن يكون الشق يقصد به إجراء النهر. أما النهر بمعنى السيلان والجريان فيبدو أنّه قد جاء تبَعاً ولم يكن أصلاً لمعنى النهر، وذلك لأنّ النهر يسيل ويجري بقوة وكثافة.

ويقول الألوسي في روح المعاني:" والتركيب للسعة، ولو معنويّة، كنَهَر السائل بناءً على أنه الزجر البليغ...". فالتوسع في الزجر هو نهر.

ولنا هنا وجهة نظر تختلف، نقول:

جاء في سورة الضحى:" **وأما السائل فلا تنهر**"، وجاء في الآية 23 من سورة الإسراء:"... **فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما**..."، فالنهر هنا بمعنى الزجر، ويبدو أنّه هو الأصل في معنى النهر. وإذا كان الزجر هو المعنى الأصلي للنهر فلماذا سمي نهر الماء نهراً؟ نقول: بما أنّ ماء النهر يسير في أخدود ملتوٍ غير مستقيم فالماء يكون في حالة زجر مستمر من قبل جوانب الأخدود الملتوي. أما البحر فالماء فيه يمتد ويتّسع ولا يجري جري النهر، ولا يُزجَر – يُنهَر – ماؤه. ولو كان النهر فيه معنى السعة لكان البحر أولى وأحق باسم النّهر. ولعل الماء القادم من المنابع والذي يَنهر الماء الذي أمامه فيجري بسرعة، بالإضافة إلى نهر الحواف للماء الجاري هو صورة محسوسة ولّدت المعنى.

أما النهار، فقد سمّي نهاراً لاتساع ضوئه وانتشاره. هذا ما عليه أهل اللغة والتفسير. والذي نراه أنّ هناك احتمالاً أن يكون اسم النهار قد أخذ من النهر الذي هو الزجر. ولإيضاح مقصدنا هنا نقول: عندما يكون الشخص مسترسلاً في كلامه فتزجره فإنّما أنت تمنعه من الاستمرار في كلامه حتى لا ينتهي إلى مقصده، وإذا كان سائراً نحو مقصده فتزجره فإنّما تقصد أن تصرفه عن مقصده، ولا تهدف إلى أن يرجع إلى المكان الذي قَدِم منه. فالنهر زجرٌ عن الاستمرار بقصد الردع عن الوصول إلى الهدف. ولو كان بقصد الرجوع إلى نقطة البداية لكان عكساً.

من هنا ليس دقيقاً استخدام لفظة انعكاس عند الحديث عن انحراف الضوء، لأنّ الضوء لا يرجع إلى النقطة التي صدر منها، وإنما ينحرف عن طريقه المستقيمة نتيجة وجود جسم يحرفه، أي يزجره، أي ينهره.

عندما نخرج من الغلاف الجويّ للأرض نُفاجأ بظلامٍ دامس على الرُّغم من وجود الشمس ومليارات النجوم؛ لأنّ الضوء يسير بخطوط مستقيمة ولا يتشتت عبر الانعكاس – أقصد النهر – لعدم وجود أجسام تنهر هذا الضوء الصادر من الشمس. ولكن عندما يدخل هذا الضوء الغلاف الجوي يتشتت نتيجة الانعكاس – أقصد النهر – فينتشر الضوء ويملأ الأفق ويكون النهار.

فالشمس لا يجلّيها ولا ينشر ضوءها إلا ما يعكس هذا الضوء ويشتته وينهره. فالنهار إذن هو الذي يُجلي ضوء الشمس.

ويشـغب علـى هـذا أنّ النـاس عنـد نشـأة اللغـة لـم يكونـوا يعرفـون هـذه الحقيقة العلميّة، فكيف تسنّى لهم أن يُسمّوا النهار نهاراً؟ نقول: لسنا مع الذين يقولون بأنّ أصل اللغة العربيّة هو توقيفي، أي وحياً. ولسنا مع الذين يقولون بأنّ اللغة العربيّة هي اصطلاحيّة؛ بل نرى أنّ من اللغة ما هو توقيفيّ ومنها ما هو اصطلاحي، فاسم إبليس مثلاً موجود قبل وجود الإنسان كما ينص القرآن الكريم، وآدم عليه السلام عُلِّم أسماءً لم يُسمّها هو، وتلقّى من الله كلمات قالها فغفر له...الخ.

وعلى أية حال – وبعيداً عن كل ما قلناه – فهناك ليل وهناك نهار، والشمس موجودة في ليلِ وظلامِ السماء وموجودة في نهار الأرض، فلماذا لا يتجلّى ضوؤها في ليل السماء ويتجلّى في نهار الأرض؟ ألا يصح أن نقول: فلنبحث عن سبب تجلّي ضوئها في مكونات النهار فقط، لأنّ ضوء الشمس موجود في ليل السماء أيضاً.

ما جعل الله لرجل من قلبين

جاء في الآية 4 من سورة الأحزاب:" **مَا جَعَلَ اللَّـهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِـي جَوْفِـهِ وَمَـا جَعَلَ أَزْوَاجَكُـمُ اللائِـي تُظَـاهِرُونَ مِـنْهُنَّ أُمَّهَـاتِكُمْ وَمَـا جَعَلَ أَدْعِيَـاءَكُمْ أَبْنَـاءَكُمْ ذَلِكُـمْ قَوْلُكُمْ بِـأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّـهُ يَقُولُ الْحَـقَّ وَهُوَ يَهْـدِي السَّبِيلَ**".

قال الرازي:" ما جَعَلَ الله لِرَجُلٍ مِن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ: قال بعض المفسرين الآية نزلت في أبي معمر كان يقول: لي قلبان أعلم وأفهم بأحدهما أكثر مما يفهم محمد. فرد الله عليه بقوله: ما جَعَلَ الله لِرَجُلٍ مِن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ، وقال الزمخشري قوله: وَمَا جَعَلَ أزواجكم اللائي تظاهرون مِنْهُنَّ أمهاتكم، أي ما جعل لرجل قلبين كما لم يجعل لرجل أُمّين ولا لابن أبوين. وكلاهما ضعيف، بل الحق أن يقال إنّ الله تعالى لمّا أُمر النبي عليه الصلاة والسلام بالاتقاء بقوله: ياأيها النبى اتق الله، فكان ذلك أمراً له بتقوى لا يكون فوقها تقوى، ومن يتق ويخاف شيئاً خوفاً شديداً لا يدخل في قلبه شيء آخر، ألا ترى أنّ الخائف الشديد الخوف ينسى مهماته حالة الخوف. فكأن الله تعالى قال يا أيها النبي اتق الله حق تقاته، ومن حقها أن لا يكون في قلبك تقوى غير الله...".

لعل ما ضعّفه الرازي من قول الزمخشري هو الوجه الأقوى، ونأمل أن يظهر ذلك في الاستعراض الآتي:

" **ما جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ**": المتبادر إلى الذهن أنّ المقصود هنا هو القلب المادي الوارد ذكره أيضاً في الحديث الذي أخرجه البخاري:" ألا وإنّ في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب". ويؤيّد هذا ما ورد في القرآن الكريم من إشارة إلى وجود أكثر من قلب يتعلق بالإدراك، انظر قوله تعالى في الآية 4 من سورة التحريم:" **إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا**"، فالمخاطب هنا مُثنّى والقلوب جمع. وقد جاءت الدراسات العلميّة المعاصرة لتجعل هذا الأمر أقرب إلى الفهم. فإذا كان هناك أكثر من قلب له علاقة بعالم الإدراك فيثبت عندها أنّ قوله تعالى:" ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه"، يقصد به القلب المادي.

" **ما جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِن قَلْبَيْنِ**": نفي مؤكّد بإدخال **من**، وهذا يعني أنّ الله تعالى لم يجعل لرجل من قلبين بأيّ صورة من الصور. وهذا يعني، فيما يعني، أنّه سبحانه لم يجعل للإنسان أيضاً ثلاثة قلوب أو أكثر، لأنّ ذلك يتضمن صيغة القلبين المنفيّة. ويصدق ذلك في الرجل، لأنّ من خلْق الله السويّ أن تحمل المرأة فيكون في جوفها أكثر من قلب.

"**ما جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ**": تشير ظواهر النصوص القرآنيّة إلى أنّ أصل الخلق هو آدم عليه السلام، ثمّ خُلقت منه زوجه. وربما يكون مناسبة

الكلام عن الرجل هنا أنّ الحديث في الآية الكريمة هو عن الظِّهار من الزوجات وعن التبنّي، الذي يجعل غير الابن منسوباً إلى رجل ما.

" **ما جَعَلَ الله** ": فأصل الخلق والجعل أن يكون للرجل قلب واحد، فإذا وجد رجل بأكثر من قلب فإنّ ذلك شذوذ وخلل وانحراف في الخلق يخلّ بالوظيفة.

" **وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ**": هناك انسجام بين سُنن الله في الخلق والتكوين وسننه في التشريع؛ فالله سبحانه وتعالى جعل القلب مركزاً يتأثّر بوظيفته كل الجسد. وجعل قانون التناسل يقوم على أساس الزوجيّة من أبٍ وأمّ، ويقوم على هذا الأساس بنيان المجتمع البشريّ كلّه، كما هو الأمر في القلب والجسد. فإذا كانت هذه من قوانين الخلق والتكوين، فمن المتوقّع أن تكون منسجمة مع سنن التشريع، لأنّ الذي خلق هو الذي أنزل وشرّع.

" **ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**": أمّا مزاعم البشر في جعل الزوجات أمّهات، وفي جعل غير المولود بيولوجياً ابناً، فلا تزيد عن كونها ألفاظاً تخرج من الأفواه، تخالف الواقع وتناقض القانون وتبذر بذور الفساد والتحلل.

" **وَاللَّـهُ يَقُـولُ الْحَـقَّ وَهُـوَ يَهْـدِي السَّـبِيلَ**": أمّـا خـالق السـنن التكوينيّـة ومنزل السنن التشريعيّة فهو الذي يقول الحق ويبين الطريق المؤدّي إلى الانسجام وتحقيق حكمة الخلق والتشريع.

فضَحِكتْ

جاء في الآيات (69 – 71) من سورة هود:" **وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ. فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ. وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ**".

كان لوط ممن آمن لإبراهيم، عليهما السلام، وهاجر معه إلى الأرض المباركة فلسطين. واللافت أنّ الرسل الملائكة، الذين أرسلوا لإهلاك قوم لوط، قد جاءوا أيضاً بالبشرى لإبراهيم وزوجته سارة. والذي يهمّنا هنا أن نحاول التعرّف على الأمر الذي أضحك سارة سلام الله عليها. وقد يستغرب البعض ذلك، لعدم أهميّة الأمر، حيث لا ينبني عليه شيء من أمور العقيدة أو التشريع. ولكننا نهدف إلى لفت الانتباه إلى أهميّة السياق في توضيح معاني الألفاظ. كما ونهدف إلى تصويب ما وقع فيه البعض وهم يبحثون عن سبب ضحك سارة، أو يفسّرون معنى ضحكت. فقد بلغ الأمر ببعض أهل التفسير أن يقول إنّ ضحكت هنا بمعنى حاضت!

" **فمَـا لَبِـثَ أَنْ جَـاءَ بِعِجْـلٍ حَنِيـذٍ**": واللافت هنا مسارعة إبراهيم عليه السلام في إكرام الضيوف قبل معرفة حقيقتهم. والمشهور من عادات العرب أنّهم لا يسألون الضيف عن شأنه قبل ثلاثة أيام من الضيافة. ثمّ يلفت انتباهك أنّه جاء بعجل، وهذا من كرمه عليه السلام. ثمّ إنّ ذلك مُشعِر بعددهم على وجه التقريب، مع ملاحظة أنّ الكريم يقدّم أكثر من الحاجة.

"**بِعِجْلٍ حَنِيذٍ**": حنذ اللحم: شواه وأنضجه، فاللحم حنيذ. وجاء في مختار الصحاح: حنذ الشاة: شواها وجعل فوقها حجارة محمّاة لتنضجها فهي حنيذ. وعليه فالحنيذ هو المشويّ على الحجارة (الرضف)، ويكون غالباً بوضع العجل في حفرة خاصّة فيها رضف ويوقد عليها ثمّ يُغلق باب الحفرة فينضج اللحم بسرعة. وتسمى هذه الطريقة في فلسطين (الزرب). وهي طريقة أسرع في الإنضاج من الطبخ، الذي يقتضي تقطيع اللحم. وعدم تقطيع العجل والإتيان به كاملاً أبلغ في الإكرام وفق عادات القدماء، وقدُ توورِث ذلك حتى وصلتنا مثل هذه العادات الكريمة.

مسارعة في الإكرام، وعجل مشويّ قُدّم كاملاً، ليعلموا أنّه قد ذبح وشوي من أجلهم، وصاحب البيت يقوم هو وزوجه على خدمتهم، ولم يُسألوا عن أشخاصهم. أي أنّه قد تمّت مراعاة كل آداب الضيافة، فليس لديهم من الأسباب ما يمنعهم من الأكل، وعلى الرُّغم من ذلك كله وجدناهم يمتنعون عن الأكل!

" **فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً**": فعندما يمتنع الضيف مع توافر آداب الضيافة فإنّ ذلك يعني أنه يُضمِر شراً للمُضيف. وهذا معروف في عادات العرب وأهل البداوة. وفي المقابل إذا مدّ الضيف يده إلى الطعام فإنّ ذلك يعني المسالمة. من هنا ندرك حاجة المفسّر إلى معرفة عادات وأعراف القدماء ليفهم ملابسات مثل هذه المواقف. وبهذا أصبح مفهوماً إنكار موقفهم هذا من قِبل إبراهيم عليه السلام. وكيف لا يستشعر الخوف ويضمره وقد بدا منهم ما يُشعر بالعداء!

" **وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ**":

أما سارة، سلام الله عليها، فلا تُجالسهم، وإنّما تقف في ناحية وقفة المستعدّ للخدمة وتقديم واجبات الضيافة. ولا شكّ أنّ موقفهم في عدم الأكل جعلها تحس الخوف وتقف متحسّبة تراقب وترقُّب. وفجأة تكتشف أنّهم رسل الله الكرام في صورة البشر، فتنتقل من أعلى درجات التوتّر إلى دهشة المفاجأة السارّة فتضحك. وهذه ردة فعل طبيعيّة في مثل هذا الموقف. وغالباً ما يكون الضحك للمفارقة الكبيرة بين حالة التحسب وما تأتي به المفاجأة من تناقض بين ما نظنّ وما هو واقع.

" **وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ**": نعم، في لحظة زوال التوتر والانفعال السار بالمفاجأة – المُعَبَّر عنه بالضحك – تأتي البشرى بما هو غير متوقع، فتكون مفاجأة أخرى،

هكذا: توتّر وخوف وتحسّب، ثمّ تأتي المفاجأة بزوال هذا الخوف، ثمّ تأتي المفاجأة ببشرى تتعلق بالولد والحفيد بعد سن اليأس. في المقابل يكون إبراهيم عليه السلام في حالةٍ من التوتّر والتحسُّب والخوف المكبوت، ثمّ فجأة يكتشف أنّهم رسل الله قد جاءوا بعقوبة الاجتثاث لقوم لوط. هكذا؛ خوف وتوتّر وتحسّب، ثمّ فجأة يكتشف أنّهم رسلٌ كرام لا يقصدونه بسوء ولكنّهم جاءوا لإنزال الغضب على رؤوس المنحرفين. وكأنّ موقفهم الأول كان نوعًا من التهيئة له عليه السلام لتلقّي الخبر غير السار المتعلق بإبادة قوم لوط. أمّا البشرى فكانت بعد خوفه منهم ثمّ إدراكه للمهمّة التي جاءوا من أجلها. واللافت هنا أنّهم لم يبدأوه بالبشرى، وإنّما مهّدوا له بخوف وترقّب، ثمّ كشفوا له حقيقتهم وحقيقة مهمّتهم، ثمّ جاءوه بالبشرى بمخاطبة زوجه وهو يسمع.

أكاد أخفيها

جاء في الآية 15 من سورة طه:" **إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى**".

قال الطبري رحمه الله:" أكاد أخفيها من نفسي، لئلّا يطلع عليها أحد، وبذلك جاء تأويل أكثر أهل العلم". ويوضِّح مقصد الطبري ما نُقل عن السدّي:" كتمتها عن الخلائق، حتى لو استطعت أن أكتمها من نفسي لفعلت". ويحمل بعض المفسّرين هذا المعنى على المبالغة، فمثل هذا التعبير مستخدم في العربيّة للمبالغة.

وقال الألوسي:" وحاصله أكاد أبالغ في إخفائها فلا أُجمِل كما لم أُفصّل". ويوضح هذا المعنى ما قاله ابن عاشور:" والإخفاء: الستر وعدم الإظهار، وأريد به هنا المجاز عن عدم الإعلام"، وقال: المراد إخفاء الحديث عنها، أي من شدّة إرادة إخفاء وقتها، أي يراد ترك ذكرها ولعلّ توجيه ذلك أنّ المكذبين بالساعة لم يزدهم تكرر ذكرها في القرآن إلا عناداً على إنكارها".

ونقل ابن عاشور عن أبي عليّ الفارسي أنّ أُخْفِيها بمعنى أظهرها، فقد قال أبو علي الفارسي: "إنّ همزة أخفيها للإزالة مثل همزة أعْجَم الكتابَ،

وأشكى زيداً، أي أزيل خفاءَها". والخفاء: ثوب تُلفّ فيه القِربة مستعار للستر.

واضح من هذه الأقوال وغيرها أنّ أهل التفسير قد استشكلوا هذا التعبير القرآني. ويرجع هذا الاستشكال إلى حقيقة أنّ خبر الساعة مخفيّ لا يعلمه إلى الله تعالى. ويرجع أيضاً إلى حقيقة أنّ كاد في اللغة العربيّة تشير إلى قرب الوقوع مع عدمه؛ فعندما تقول:" أكاد أضربه"، تكون قد صرّحتَ بعدم حصول الضرب، ولكن احتمال حصوله قريب جداً. وعندما يقول تعالى:" **أكاد أخفيها**"، فإنّ ذلك يعني أنّه سبحانه لم يخفها، وإن كان احتمال إخفائها قريباً جداً. وهذا يعني أنّ الساعة ظاهرة.

جاء في الآيات (42–44) من سورة النازعات:" **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا، فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا، إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا**"، قال ابن عاشور:" مُرساها: مصدر ميمي لفعل أرسى، والإرساء: جعل السفينة عند الشاطىء لقصد النزول منها. واستعير الإرساء للوقوع والحصول تشبيهاً للأمر المغيَّب حصوله بسفينة ماخرة البحر لا يُعرف وصولها إلا إذا رسَتْ".

والذي نراه راجحاً أنّ الأمر بوقوع الساعة قد صدر عن الخالق سبحانه وتعالى منذ زمن. وقد يكون هذا معنى قوله تعالى في مستهل سورة النحل:"**أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ...**"، وهذا يعني أنّ الكون قد استجاب للأمر الإلهي فهو يتحول في كينونته تجاه وقوع الساعة وقيام القيامة،

ومن هنا شُبّهت الساعة بسفينة سائرة في اتجاه مرساها، وسوف تصل هذا المرسى، وعندها تقع أحداثها العظام وترسو وتستقر. واللافت أنّ السؤال هو عن زمن رسوها واستقرارها: "**أيان مرساها؟!**"؛ فوقت رسوها غيب لا يعلمه إلا الله تعالى.

جاء في الآية 187 من سورة الأعراف: "**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إلا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**".

قال ابن عاشور: "والإرساء الاستقرار بعد السير"، فهي إذن تسير ثمّ تستقر. وعندما تستقرّ تقع أحداثها العظام، ومن ذلك البعث والنشور، ووقت ذلك لا يعلمه إلا الله تعالى، بل إنّ حقائق سيرها في اتجاه وقوعها هو غيب لا يعلمه إلى الله. أمّا قوله تعالى: "**لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إلا هُوَ**"، فيشير بوضوح إلى أنّها ستُكشف في وقتها المحدّد كشفاً لا لبس فيه، كما هي العروس التي تتجلى لعريسها، وتكون قبل ذلك مستورة لا يظهر منها إلا الثياب الساترة لتفاصيل جسمها.

أمّا قوله تعالى: "**ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ**": فيقول الطبري: "وأولى ذلك عندي بالصواب، قول من قال: معنى ذلك: ثقلت الساعة في السموات والأرض على أهلها، أن يعرفوا وقتها وقيامها؛ لأنّ الله أخفى ذلك عن خلقه، فلم يُطلع عليه منهم أحدًا.."، ومثل هذا التوجيه من

الطبري رحمه الله، لأنّه في ظننا لم يتوقّع أن تكون قد ثقلت الساعة في الواقع الكوني على الحقيقة. والذي نراه أنّ الأمر يشبه وضع المرأة الحامل التي أثقلت فتكاد تضع، وكذلك الساعة شأنها أنّها أصبحت ثقيلة يوشك بناء السماوات أن يعجز عن التماسك أمام ثقلها فتقع كما يحصل مع الحامل عندما تضع.

أمّا قوله تعالى:" **لا تَأْتِيكُمْ إِلا بَغْتَةً**"، فيشير إلى أنّها ستأتي، بل إنّها آتية وستصل فتأتي الناس، بل وتجيء – على اعتبار أنّ المجيء أشدّ قرباً من الإتيان – ويكون مجيؤها مباغتاً للناس غير متوقع منهم.

أما قوله تعالى في الآية 77 من سورة النحل:"... **وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ**..."، فلا يشير إلى الساعة وإنّما يشير إلى أمرها، أي عظيم شأنها، والذي يكون عند وقوعها وقيامها. ويمكن تقريب الفكرة بواقع الصاروخ عابر القارات، الذي ينطلق ويسير زمناً ثمّ يقع فيكون الانفجار، الذي يكون سريعاً وهائلاً.

عندما تقوم – ومن معاني القيام الوقوف بعد سير – الساعة وتقع يتمّ الحشر والحساب، فيؤول الناس إلى الجنّة أو النار. وبذلك تنتهي الساعة وتختفي ويظهر ويستقر الواقع الجديد. فتكون نتيجة اختفاء الساعة أن تُجزى كل نفس بما تسعى.

وعليه يمكن أن يكون معنى:" **إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى**": أكاد أخفيها، ولَمّا أفعل بعد، ولكن ذلك يوشك أن

يقع، وعندها تكون النتيجة أن يدخل أهل الطاعة الجنّة وأهل المعصية النّار. فالساعة إذن تقوم لحكمة ثمّ تختفي، وهذا من أعظم أمورها لأنّه ينجلي عن جنة أو نار.

قد يُشكل على البعض أنّ هذا الكلام خوطب به موسى، عليه السلام، أي قبل ما يقارب الـ 3400 سنة، ولا ندري كم بقي من الزمن حتّى تتوقف الساعة فتقع. وهذا زمن طويل، أطول من أن يكون قريباً!

الجواب عن ذلك نجده في أبحاث العلماء الذين يُشيرون إلى مليارات السنين التي مرّت على هذا الكون المخلوق. فإذا عرفنا هذا أدركنا أنّ الألف سنة ما هي إلا لحظة صغيرة قياساً إلى عمر الكون المغرق في القدم. وإذا كان الأمر الإلهيّ قد سرى في الكون الهائل وتمّ تنفيذه بسرعة الضوء فإنّ ذلك سيحتاج إلى مليارات السنين، ولكنّ أمر الله أسرع نفاذاً من ذلك، ويكون نفاذ الأمر وفق ما تريده الحكمة الإلهيّة، وجاءت الأحاديث الشريفة لتبيّن لنا أننا نعيش في آخر الزمن. نسبة إلى عمر الدنيا.

كما أنزلنا على المُقْتسمين

جـاء فـي الآيـات (90 – 93) مـن سـورة الحجـر:" **كَمَـا أَنْزَلْنَـا عَلَـى الْمُقْتَسِمِينَ. الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ. فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**".

يقـول المـاوردي فـي تفسـيره: " قولـه عـز وجـل: كمـا أنزلنـا علـى المقتسمين، فيهم سبعة أقاويل. وإليك أخـي القـارئ الأقـوال التـي ذكرهـا الماوردي وتعليقنا عليها قولاً قولاً:

أحدها : أنّهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى اقتسموا القرآن فجعلوه أعضاءً أي أجزاءً فآمنوا ببعض منها وكفروا ببعض، قاله ابن عباس.

التعليق: بل إنّ أهل الكتاب قد كفروا بالقرآن الكريم ولم يؤمنوا بـه. وإذا قلنا بهذا القول فما معنى قوله تعالى:" كما أنزلنا"؛ فإذا كان المقصود نزول الرسالة يصبح المعنى: إنا أنزلنا إليك كما أنزلنا على المقتسمين. وهو وجه ضعيف كما ترى. وإذا كان المقصود نزول العذاب فمتى كان ذلك؟!

الثاني: أنّهم أهل الكتاب اقتسموا القرآن استهزاءً به، فقال بعضهم: هذه السورة لي، وهذه السورة لك، فسمّوا مقتسمين، قاله عكرمة.

التعليق: هل ثبتت مثل هذه الحادثة، وأين نجد دليل ذلك؟! ثمّ ما معنى قوله تعالى:" كما أنّزلنا على المقتسمين"، إلا أن يكون بمعنى أنزلنا عليك كما سبق أن أنزلنا على هؤلاء، الذين باتوا يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض.

الثالث: أنّهم أهل الكتاب اقتسموا كتبهم، فآمن بعضهم ببعضها، وآمن آخرون منهم بما كفر به غيرهم وكفروا بما آمن به غيرهم، فسماهم الله تعالى مقتسمين، قاله مجاهد.

التعليق: هذا مقبول في تسميتهم مقتسمين، ولكن ما معنى قوله تعالى:" الذين جعلوا القرآن عضين"، إلا إن يكون المعنى أنّهم كما اختلفوا في فيما سبق اختلفوا وتناقضوا أيضاً في موقفهم من القرآن الكريم.

الرابع: أنّهم قوم صالح تقاسموا على قتله، فسموا مقتسمين، كما قال تعالى:" قالوا تقاسموا بالله لنبيتنّه وأهله" **النمل:49** قاله ابن زيد.

التعليق: وهذا غير مقبول، لأنّ قوم صالح لم يعاصروا نزول القرآن الكريم حتى يجعلوه أعضاءً وأجزاءً، يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض.

الخامس: أنّهم قوم من كفار قريش اقتسموا طرق مكّة ليتلقّوا الواردين إليها من القبائل فينفروهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنّه ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون، حتى لا يؤمنوا به، فأنزل الله تعالى عليهم عذاباً فأهلكهم، قاله الفراء.

التعليق: أين نجد مثل هذه الحادثة في كتب السيرة، والتي ينبغي أن تكون مشهورة؟! ونقصد هنا حادثة نزول العذاب.

السادس: أنهم قوم من كفار قريش قسّموا كتاب الله، فجعلوا بعضه شعراً وبعضه كهانة وبعضه أساطير الأولين، قاله قتادة.

التعليق: فماذا حصل لمجموعهم، ومتى نزل بهم العذاب؟!

السابع : أنّهم قوم أقسموا أيماناً تحالفوا عليها، قاله الأخفش.

وقيل إنّهم العاص بن وائل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل بن هشام وأبو البختري بن هشام والنضر بن الحارث، وأمية بن خلف ومنبه بن الحجاج". انتهى كلام الماوردي.

والذي نرجّحه هنا أنّ المقتسمين هم أهل الكتاب وغيرهم ممن خوطب بالرسالة الخاتمة؛ فنجدهم يأخذون من القرآن ما يتلاءم مع مصالحهم وأغراضهم.

أما أهل الكتاب فكان لهم موقف من كتبهم المنزلة وموقف آخر من القرآن الكريم:

أولاً: **موقفهم من كتبهم:** من يدرس تاريخ أهل الكتاب يلاحظ أنّهم قد انقسموا إلى فرق كثيرة متنازعة ومتباغضة، كلّ فرقة تأخذ بقسم من الكتاب المُنزّل تضيف إليه أقساماً أُخِذت من أمم وأديان أخرى؛ فقد

أخذوا من الوثنيّة الرومانيّة واليونانيّة والفرعونيّة، وأخذوا من الفلسفات والأديان الشرقيّة. ومن يرجع إلى ما يسمّى بالعهد القديم، المقدّس عند اليهود والنصارى، يجد اختلافاً شديداً حول الأسفار، بحيث تُفاجأ بنسخ مختلفة، ليس في الحروف والكلمات والفقرات فقط، بل في عدد الأسفار؛ فسفر أيوب مثلاً تقبله بعض الفرق وترفضه فرق أخرى.

ولو رجعت إلى الأناجيل، وهي عُمدت ما يسمّى بالعهد الجديد، لوجدت أنّها كانت أكثر من مائة إنجيل حتى القرن الرابع الميلادي، عندما عُقد مجمع نيقية وتمّ اختيار أربعة أناجيل. ولو رجعت إلى الأناجيل الأربعة لوجدت أنها تتفق وتختلف في سرد الوقائع حتى المِفصليّة منها.

ثانياً: **موقفهم من القرآن الكريم:** هم لم يقتسموا القرآن الكريم، ولكنّهم تعاملوا معه على أساس أنّه أعضاء متفرقة لا تكوّن جسماً – بناءً – واحداً متكاملاً. ومثل هذا الموقف يساعدهم في توظيف هذا الشتات في أغراضهم ومن أجل تحقيق أهدافهم من حرب الإسلام، باعتباره الخطر الجادّ الذي يهدد عقائدهم وفلسفاتهم وكهنوتهم.

مثال على التعضِية:

قرأنا في بعض كتب المبشرين بالنصرانيّة يستشهدون بالآية 116 من سورة المائدة على النحو الآتي:" **وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ... مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ**"، فمن يقرأ النص كما عُرض يظنّ أنّ الله تعالى قد أمر المسيح أن يقول للناس إنّه إله. وتُفاجأ بأنّهم قد أخذوا أجزاءً من آيتين وحذفوا أجزاءً أخرى تفضح بهتانهم. ومن أجل الاحتياط لباطلهم قاموا بوضع ثلاث نقط ليقولوا في حالة التنبّه لإفكهم إنّهم أشاروا لوجود محذوف. ولكنهم نسوا أنّهم في معرض الاستدلال على ألوهيّة المسيح وبالتالي بات الحذف عن سابق إصرار وترصّد.

انظر إلى نص الآيتين الكريمتين لتدرك حقيقة شعورهم بدونيّة فكرتهم مما يدفعهم إلى الكذب والتزوير:

" **وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ** مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. **مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلا مَا أَمَرْتَنِي** بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ".

وعليه فما معنى:" **كما أنزلنا على المقتسمين**"؟! نقول: يذهب عامّة أهل التفسير إلى أنّ لفظة **كما** ترجع إلى ما سبق من كلام. والذي نراه أنّها تستأنف كلاماً جديداً على النحو الآتي:" **كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ. الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرآنَ عِضِينَ. فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**". فكما أنزل الله عليهم التوراة والإنجيل ليسألنّهم عن أعمالهم ومواقفهم من الدين الحق، وليسألنّهم عن الاقتسام، وليسألنّهم عن التعضية. ومعلوم أنّ الله تعالى لا يؤاخذ حتّى ينزل رسالة:" **وما كنّا معذبين حتّى نبعث رسولاً** ".

وإذا كان العضو في الجسم يقوم بوظيفته طالما أنّه متّصل بالجسم، فإنّه يفقد معناه ووظيفته حال انفصاله. وكذلك الأمر في الأحكام الشرعيّة، والتي هي متكاملة، ولا يؤخذ بعضها منفصلاً عن جسم التشريع وروحه. ومثل هذا الاقتسام الذي يقوم به أهل الكتاب وغيرهم، ممن يقف موقفهم من دين الله تعالى، سيكون محل سؤال ومحاسبة ومؤاخذة، لأنّه كما أنزل وأقام الحجّة سيسألُ ويؤاخذ.

الذنب والسيّئة

والمغفرة والتكفير

جاء في الآية 193 من سورة آل عمران:"... **رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا**..."، واللافت في الآية الكريمة أنّ المغفرة تكون للذنوب، والتكفير يكون للسيّئات. وعند استقراء الألفاظ القرآنيّة نجد أنّ المغفرة تكون للذنوب والخطايا، أمّا التكفير فللسيّئات. وقد ذهب جمهور أهل التفسير، عند تفسير هذه الآية، إلى أنّ الذنوب هنا هي الكبائر والسيئات هي الصغائر. وهذا غير دقيق، لأنّ الذنوب منها الصغير ومنها الكبير، وكذلك السيّئات.

جاء في عمدة الحفاظ للسمين الحلبي:" ذنْب: كل معصية صغيرة كانت أو كبيرة، وأصله الأخذ بذنب الشيء... ثمّ استعمل في كلّ فعل يُستوخم عقباهُ... والذَنَب من الدّابة معروف...". وعليه يكون الذنْب كل ما نتج عنه إثم واستحقّ فاعله المؤاخذة. فالمؤاخذة هنا أثرٌ يعقب العمل كما هو الذَّنَب في الدابة. وكل ذَنْب سيِّئة.

أما السيّئة فكل ما يسوء الإنسان، ويقابلها الحسنة. ومعلوم أنّ هناك أموراً تسوء الإنسان ولا يؤاخذ عليها، لأنّها لا تصدر عن نيّة المعصية، كالمصائب التي تحلّ بالناس على الرغم منهم، وبهذا المعنى جاء قوله تعالى في الآية 168 من سورة الأعراف:"... **وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ**

وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ". وهناك أمور سيّئة تصدر عن الإنسان ولا يؤاخذ عليها لعدم وجود نيّة المعصية. وهناك أمور يؤاخذ عليها لوجود نيّة المعصية عند الفعل، وهذه هي الذنوب. وعليه نقول: كلّ ذنب سيّئة وليس كل سيّئة ذنباً. وهذا يعني أنّ مفهوم السيّئة أشمل من مفهوم الذنب.

على ضوء ذلك يصبح معنى الآية 168 من سورة الأعراف:"... **رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا**"؛ اغفر لنا ما كان منّا من أعمال نؤاخذ عليها، وكفّر عنّا كل ما فعلناه مما نؤاخذ أو لا نؤاخذ عليه. وقد يقول البعض: تكفير الأعمال التي نؤاخذ عليها مفهوم، فما معنى تكفير الأعمال التي لا نؤاخذ عليها؟! نقول: هناك سيئات تصدر عن الشخص لا يأثم عليها ولكن يُطلب منه أن يُكفّر عنها، كالقتل الخطأ، وإتلاف أموال الآخرين عن غير قصد...الخ.

جاء في عمدة الحفاظ للسمين الحلبي:" الغفر: الستر والتغطية. ومنه المِغْفَر لأنّه يَسترُ الرأس.."، والمغفر هو زرد حديدي يلبسه المحارب على رأسه تحت القلنسوة، وهو يستر الرأس ويصونه. وعليه فالمغفرة فيها ستر للذنب وصون للمرء من العقوبة. أما الكفّارة فيقول السمين:" الكَفر أصله التغطية والستر"، وعليه فالكفارة ما يستر السيئة. واللافت هنا تقارب المعنى في الغَفْر والكَفْر حتى تظنّ أنّه ترادف، إلا أنّ الغفر فيه ستر وتغطية وصيانة، أما الكَفْر فستر وتغطية. ففي السيّئات التي نؤاخذ عليها نحتاج إلى سترها وتغطيتها ونحتاج أيضاً إلى أن نُحفظ ونُصان

من العقوبة المستحقّة. أما السيّئات التي لا مؤاخذة عليها فنحتاج إلى سترها وتغطيتها.

بالاستقراء ندرك أنّ المغفرة تكون من واحد لآخر؛ فالله يغفر لنا، ونحن نغفر لبعضنا. أما التكفير فيكون من المُسيء لتغطية وستر سيّئته، ومن هنا كانت الكفارة التي يقوم بها القاتل خطأً أو الناكث ليمينه. ويكون التكفير أيضاً من غير المُسيء لتغطية وستر سيّئة المسيء. فالإنسان إذن لا يغفر لنفسه ولكن يمكن أن يُكفّر عن نفسه. وكلّ ما قلناه في معنى الغفران والكفّارة يفيد بأنّ الذنوب والسيّئات بشكل عام لا تمحوها المغفرة ولا تمحوها الكفّارة، وإنّما تسترها وتصون من عقوبتها. فكم من ذنب غُفر وبقيت آثاره في النفس، فلا تُمحى هذه الآثار إلا بفعل الحسنات، انظر قوله تعالى في 114 من سورة هود:" **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ". وكم من سيّئة كَفّر عنها فاعلها أو كُفّرت عنه، وبقيت آثارها في النفس أو في الواقع، كالقتل الخطأ الذي كفّر عنه القاتل.

والمغفرة تكون للذنوب والخطايا. والخطايا هي الذنوب الكبيرة. وقد يشْكل على البعض قوله تعالى في الآية 82 من سورة الشعراء، وذلك على لسان إبراهيم عليه السلام:" **وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**"؛ فإبراهيم عليه السلام ليس له خطيئة، لأنّه معصوم من ذلك. ويجاب عن هذا: من البدهي أن يكون نبيّ كريم، كإبراهيم عليه السلام، حساساً لأيّ تقصير يشعر به تجاه الله تعالى، ومن البدهي أن يكون

مُتّهِماً لنفسه دائماً بالتقصير، ومن البدهي أن يرى أصغر الصغائر كبيرة. هذا على نقيض أهل الفسوق الذين يرون الكبائر صغائر.

كما أنشأكم من ذريّة قوم آخرين

الإنسان كائن مُكرّم، أُسجدت له الملائكة، وسُخّرت له السماوات والأرض، وخُلق خلقاً خاصاً مُنبتّاً عما سبقه من مخلوقات. ويميل المسلمون والنصارى واليهود إلى الاعتقاد بأنّ آدم عليه السلام قد خُلق مباشرة من التراب. من هنا نجدهم يرفضون بشدّة كل المزاعم التي تقول باحتمال أن يكون للإنسان علاقة خَلْقيّة بكائنات دنيا. أمّا اليهود والنصارى فيحملهم على مثل هذا الموقف ما ورد في كتبهم المقدسة عندهم من نصوص تُصرّح بالخلق المباشر من التراب. يُضاف إلى ذلك ما جاء به ملاحدتهم من مزاعم فلسفيّة تقول باحتمال أن يكون القول بالتطور كافياً لتفسير الإبداع في الخلق. والصحيح أنّ القول بإمكانيّة أن يُفسّر التطور ما عليه الكون والكائنات من إبداع هو قول طفولي لم يعد مقنعاً للغالبية العظمى من البشر.

والقول بالتطور شيء، والزعم بأنّ التطور يكفي لتفسير الإبداع في الخلق شيء آخر. ولتوضيح ذلك نضرب مثلاً بخلق الإنسان وتطوّره في بطن أمه طوراً بعد طور حتى يكتمل خلْقه. مثل هذا التطوّر لا يمكن أن يكون من غير خطّة وبَرمجة سابقة موجودة في الحيوان المنويّ والبويضة. ومثل هذه الخطّة البديعة يستحيل على العقل السويّ أن يقبل باحتمال حصولها صدفة، بل لا بدّ أن يكون ذلك كله عن قدرةِ عالمٍ مريدٍ. وما يقال في الإنسان يقال في البذرة التي تشتمل على الخطّة

والبرمجة السابقة، لتتحول هذه البذرة عند توفر الشروط إلى نبتة فشجرة فثمر...

وحتّى يصحّ في العقل القول بإمكانيّة حصول التطوّر لا بدّ أن نقول بوجود الخطّة والبرمجة السابقة، أي لا بدّ من وجود العليم المريد القادر، لأنّ أيّ نظام يقتضي حتماً وجود هذه الصفات الثلاثة. فوصفنا لمراحل تطوّر القصر البديع، مثلاً، لا يعني عدم وجود خطّة وإشراف من قِبل عالمٍ مريدٍ قادر. أمّا القول بالصُّدفة فهو زعم بإمكانيّة أن يكون الإبداع صادراً عن القدرة فقط، وهذا يتناقض مع بدهيات العقول. فمن منّا يستطيع أن يتصوّر قصيدة من الشعر تتألف من مائة بيت، مثلاً، يمكن أن تصدر عن قدرة الريح التي تَخُطّ ذلك في الرمل؟! كل العقلاء يقولون: لا بدّ من قدرة تَخُطّ في الرمل، ولا بدّ من إرادة لفعل ذلك، ولا بدّ من علمٍ بما يُخَطُّ، وهذا بدهي. أما لماذا يوجد من الناس من يفرّ إلى القول بالصُّدفة – أي القدرة العارية عن العلم والإرادة – فليس هذا مقام الخوض في بيانه.

في أيام الشباب، وعندما كنّا نناقش الملاحدة ونذهب معهم إلى درجة مناقشة البدهيّات رغبة منا في هداهم، حصل أن سألنا بعضهم: ما دليلكم على حصول التطوّر في الكائنات؟! فكان الجواب: اكتشف العلماء مُستحثات لكائنات حيّة دنيا في الطبقات الدنيا من التربة، ووجدوا أنّهم كلما صعدوا في طبقات التربة وجدوا هذه الكائنات بالإضافة إلى كائنات أكثر تطوّراً... وهكذا حتى وجدوا الثدّييات العليا– ومنها

الإنسان- في الطبقات العليا من التربة. فكنّا نقول لهم أين وجدوا ذلك؟ فكانوا يقولون في البلد الفلاني في إفريفيا. فكنا نقول لهم: هذه صدفة. فيقولون: ووجدوا ذلك في البلد الفلاني في أوروبا. فكنا نقول لهم: وهذه صدفة. فكانوا يقولون: ووجدوا مثل ذلك في آسيا... فنقول وهذه صدفة. فكان الأمر ينتهي بهم مستغربين يقولون: كيف تقولون صدفة، هل يُعقل أن يكون كلّ ذلك صدفة؟! فكنا نقول لهم: أرأيتم كيف أنه ليس بإمكانكم أن تثبتوا حصول التطوّر إلا إذا آمنتم باستحالة الصدفة. نعم، لا يمكن للعلم أن يسير خطوة واحدة إلى الأمام، ولا يمكن للعلماء أن يثبتوا شيئاً إلا إذا كان منطلقهم القول باستحالة الصدفة. أي أنّ القدرة وحدها لا تكفي لتفسير الإبداع القائم في الكون، بل لا بدّ من العلم والإرادة حتماً.

يُسارع المسلمون إلى تقليد موقف النصارى واليهود من نظريّة التطور، ويُسارع العلمانيّون والملاحدة إلى الأخذ بالنظريّة. وكلٌّ طرف ينطلق من منطلق فلسفي؛ فأكثر الذين يرفضون النّظريّة ينطلقون من تصورات فلسفيّة سابقة، ولا يقدّمون منهجيّة سويّة في الرفض، ولا ينطلقون من وعي حقيقيّ بالمسألة. وأكثر الذين يقبلون النظريّة ينتصرون لها بدوافع فلسفيّة بعيداً عن المنهج السوي في الاستدلال. ومن الصعب أن يكون الإنسان موضوعيّاً في عالم الفرضيّات والنظريّات التي تمسّ الجوانب الفلسفيّة. أما عالم الحقائق فيفرض نفسه على الجميع.

واليوم، وبعد تراجع المدارس المادّية، وانحسار موجة الإلحاد – والتي كانت عارضاً من العوارض وشذوذاً وانحرافاً عن الفطرة السويّة – يمكن

أن يُعاد فتح هذا الملف، من أجل وعي حقيقيّ ومنهجيّة سويّة، إخلاصاً للحقيقة بعيداً عن التحيّز الفلسفي المنافي للحق. ونبدأ بالفصل بين الإنسان وباقي الكائنات، ونسأل الذين يرفضون نظرية التطوّر ويجزمون ببطلانها – وعلى وجه الخصوص المسلمون منهم– لماذا ترفضون النظرية؟! فإن قالوا لم تقنعنا الأدلّة العلميّة والفلسفيّة التي قُدّمت من قِبل المثبتن للنظرية، نقول: فالقضيّة إذن باتت علميّة، يمكن أن تُدحض بالأدلة العلمية والفلسفيّة ويمكن أن تؤيّد، وبالتالي لا نقبل النظريّة ولا نرفضها.

أمّا إذا قالوا نرفضها على أساس ديني، نقول: أين نجد نصّاً في القرآن أو السنة يُصَرِّح بكيفيّة خلق الكائنات الحيّة، غير الإنسان، وأين القول بعدم تطوّر هذه الكائنات، أم أنّ الأمر مجرد ردّة فعل على المنهجيّة غير السويّة للملاحدة والماديّين؟! في المقابل نسأل الماديّين: أين الدليل على أنّ الإنسان هو نتاج عملية تطوّر؟! وإذا كان الأمر كذلك فهل يمكن أن يَصدر ذلك عشوائيّاً من غير خطّة وبرمجة سابقة، فيصدر عن قدرة عارية عن العلم والإرادة! أليس ذلك مخالفاً للبدهيات التي يستند إليها العلم في التدليل والإثبات، أم أنّ ذلك مجرد ردّة فعل على موقف بعض الأديان والفلسفات المناقضة؟!
لم يرد في نصوص القرآن والسنّة ما يُصرّح بتفاصيل خلق الكائنات الحيّة. أمّا بالنسبة للإنسان فهناك نصوص قرآنيّة تعطينا فكرة عن خلق هذا الكائن المُكرّم، ولكنّها نصوص لم تحظ بنظرات عميقة تتناسب مع

جلالها وعمقها. ونحن هنا نحاول أن ندفع أهل التّدبر للتوقّف عند هذه النصوص والتحرر من الأفكار المسبقة التي لا أساس لها.

عندما تتوفر شروط الإنبات للبذرة تتحول إلى نبتة غضّة خضراء، ثمّ تتحول إلى شجرة باسقة. وقد يُقتلع جذع الشجرة فيتحوّل إلى حَطب، وقد يُعالج الحطب فيصبح خشباً يُصنع منه كرسي. وهنا نسأل: هل يصحّ أن نقول إنّ الكرسيّ هو شجرة أو هو نبتة أو هو بذرة؟! بالطبع لا يصحّ ذلك، لأنّ للبذرة أوصافاً وخصائص تجتمع في البذرة فتميّزها عن كل الأشياء، أما الكرسيّ فأوصاف وسمات وخصائص تختلف تماماً عن البذرة وعن النبتة وعن الشجرة... وإنْ كان أصل الكرسي شجرة، وأصل الشجرة نبتة، وأصل النبتة بذرة.

إذا أدركنا هذا نقول:

عندما يقول سبحانه وتعالى في سورة التين، مثلاً:" لقد خلقنا الإنسانَ في أحسن تقويم"، فإنّما يتحدث سبحانه عن الإنسان بعد أن خُلق إنساناً تتوافر فيه الأوصاف والسمات والخصائص التي تميّزهُ عن باقي الكائنات. أمّا ما قبل هذا التكامل والاكتمال والتميّز فلا يصح أن يُسمى إنساناً. ونقول هنا مثل هذا الكلام من أجل لفت الانتباه إلى أهميّة استخدام المنهجيّة السويّة في التفكير والاستنباط عند دراسة النصوص القرآنيّة.

جاء في الآية 59 من سورة آل عمران:" إنّ مثل عيسى عند اللهِ كمثلِ

آدم خلقه من ترابٍ ثمّ قال له كن فيكون". ويلفت الانتباه هنا الأمور الآتية:

أولاً: تمّ خلق آدم أولاً ثمّ قيل له كن إنساناً كاملاً. ومعلوم أنّ ثمّ للترتيب والتراخي.

ثانياً: إذا كان التماثل في خلق آدم وعيسى، عليهما السلام، تامّاً فإنّ هذا يعني أنّ بداية خلق آدم، عليه السلام، كانت من تراب ثمّ انتهت بأن خُلق خلقاً خاصاً على خلاف القانون المعهود في المخلوقات قبله، كما هو الأمر في عيسى عليه السلام، الذي بدأ خلقه بخلق آدم من تراب، ثمّ كان التناسل وفق قانون الزوجيّة حتى كانت مريم، عليها السلام، ثمّ خُلق عيسى، عليه السلام، خلقاً خاصّاً، على خلاف قانون الزوجيّة. وعليه يكون المعنى: إنّ مثل آدم كمثل عيسى، عليهما السلام.

ثالثاً: إذا قيل إنّ التماثل هنا في بعض وجوه الخلق وليس في الكل، نقول: إنّ مقصدنا هنا أن نضع القارئ في صورة احتمالات النصوص، وليس غرضنا إثبات مسألة بعينها. هدفنا- فحسب- أن نوسّع في أفق المسلم، وأن نحضّه على المنهجيّة السويّة في التفكير والاستدلال، وعلى احترام النص الكريم.

جاء في فواتح سورة السجدة:" الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ. ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ...".

وهنا نلاحظ الآتي:

أولاً: الطين كان بداية الخلق، ثمّ كان التناسل وفق قانون الزوجيّة.

ثانيا: معلوم أنّ حرف ثمّ يشير إلى الترتيب والتراخي في الزمن. وهذا يعني أنّ التسلسل عبر التزاوج قد سبق عملية التسوية والنفخ من روح الله. أي سبق وجود آدم عليه السلام.

ثالثاً: الآية 29 من سورة الحجر، وكذلك الآية 72 من سورة ص، تنصّ على أنّ التسوية والنفخ كان لآدم عليه السلام:" وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ". ومن هنا لا يصحّ القول إنّ الآيات من سورة السجدة تتعلق بخلق الجنين لكل فرد من الناس. كما لا يصحّ القول بأنّ في الآيات تقديماً وتأخيراً، ليوافق ذلك أفكارنا المسبقة.

رابعاً: لا يتوهم القارئ أنّ قولنا هذا يوافق أو يخالف نظريّة التطوّر، لأنّ التصوّر النهائي للمسألة لم يتبلور بعد. ونحن هنا في معرض استعراض النصوص بعيداً عن الأفكار المسبقة.

جاء في الآية 11 من سورة الأعراف:" وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ..."، وهنا لنا الملاحظات الآتية:

أولاً: تمّ خلق آدم، عليه السلام، ثمّ تمّ تصويره بالصورة الإنسانيّة.

ثانياً: كغيرها من الآيات الكريمة التي استعرضناها هنا تمّ استخدام الحرف ثمّ الدال على الترتيب مع التراخي في الزمن.

ثالثاً: نصّت الآية الكريمة على أنّ خلق آدم هو خلق لباقي البشر، وهذا مفهوم لأننا نسل آدم، أي صورة مكررة عنه ومنه. من هنا نفهم بشكل أفضل استخدام الفعل المضارع فيكون الدال على الاستمراريّة في قوله تعالى:" إنّ مثل عيسى عند اللهِ كمثلِ آدم خلقه من ترابٍ ثمّ قال له كن فيكون".

جاء في الآية 17 من سورة نوح:" وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا "، وهذا مشعر باحتمال أن يكون النبات مرحلة من مراحل التسلسل الخلقي قبل خلق آدم عليه السلام.

جاء في الآية 133 من سورة الأنعام:" وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آَخَرِينَ".

يقول الرازي في تفسير هذه الآية:

" مَا يَشَاء": فالمراد منه خلق ثالث ورابع. واختلفوا فقال بعضهم: خلقاً آخر من أمثال الجن والإنس يكونون أطوع، وقال أبو مسلم: بل المراد أنّه قادر على أن يخلق خلقاً ثالثاً مخالفاً للجنّ والإنس. قال القاضي:

وهذا الوجه أقرب، لأنّ القوم يعلمون بالعادة أنه تعالى قادر على إنشاء أمثال هذا الخلق، فمتى حُمل على خلق ثالث ورابع يكون أقوى في دلالة القدرة، فكأنّه تعالى نبّه على أنّ قدرته ليست مقصورة على جنس دون جنس من الخلق الذين يصلحون لرحمته العظيمة...".

تعليق:

إذا كان الاستخلاف سيكون لخلق آخر هم من أمثال الجنّ والإنس، أو على غير أمثالهم، فإنّ ذلك يعنى أنّ البشر قد أُنشِئوا من آخرين هم من أمثال الإنس والجنّ، أو على غير أمثالهم، لأنّ الله تعالى يقول:" كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آَخَرِين".

إلا أنّ الرازي يقول:

" كَمَا أَنشَأَكُمْ مّن ذُرّيَّةِ قَوْمٍ ءاخَرِينَ "، لأنّ المرء العاقل إذا تفكّر علم أنّه تعالى خلق الإنسان من نطفة ليس فيها من صورته قليل ولا كثير، فوجب أن يكون ذلك بمحض القدرة والحكمة. وإذا كان الأمر كذلك، فكما قدر تعالى على تصوير هذه الأجسام بهذه الصورة الخاصّة، فكذلك يقدر على تصويرهم بصورة مخالفة لها".

تعليق:

كلام الرازي – كما يلاحظ القارئ الكريم – غير مقنع لأنّ آباءنا لا يوصفون بأنّهم قوم آخرين. ولو كان قول الرازي، رحمه الله، صحيحاً

لكـان الأبلـغ أن يقـال: كمـا أنشـأكم ذريـةً لآبـائكم وأجـدادكم. أو: كمـا انشــأكم مــن أبــائكم وأجــدادكم، أو كمــا أنشــأكم ذريــة مــن آبــائكم وأجدادكم...

ويقول البقاعي في نظم الدرر:

" مـن بعـدكم": أي بعـد هلاككـم. " مـا يشـاء "، أي يبـدع غيـركم مـن الخلـق مـن جنسـكم أو غيـر جنسـكم كمـا أبـدع أبـاكم آدم مـن التـراب والتراب من العدم وفرّعكم منـه" كما أنشأكم من ذريّة" أي نسل " قوم آخرين"، أي بعد أن أهلكهم أجمعين، وهم أهل السفينة وقد كنتم نطفاً في أصلابهم، لم يكن في واحدة منها حياة".

تعليق:

إذا كان الخليفة من غير جنسنا فإنّ ذلك يقتضـي أن نكون قد أُنشِئنا من جنس غير جنسنا، وفق نص الآية الكريمة. إلا أنّ البقاعي وغيره لا يمكنهم أن يتصوّروا ذلك في عصرهم، ومن هنا نجدهم ينتهون إلـى مخارج لا تُخرج من الإشكال.

ويقول الخازن:

" وقال الطبري في قوله " كما أنشأكم من ذريّة قوم آخرين"، يقول كما أحدثكم وابتدعكم من بعد خلق آخرين كانوا قبلكم، ومعنـى مِن فـي هذا الموضـع التعقيب، كما يقال في الكلام أعطيتك من دينارك ثوبـاً، يعنـي

مكـان الـدينار ثوبـاً، لا أنّ الثـوب مـن الـدينار بعـض. كـذلك الـذين خوطبوا بقوله" كما أنشأكم " لم يُرد بإخبارهم هذا الخبر أنّهم أنشئوا من أصـلاب قوم آخرين ولكن معنـى ذلك مـا ذكرنـا أنّهم أنشئوا مكان قوم آخرين قد أهلكوا قبلهم.

تعليق:

يقرّ الطبـري رحمـه الله أنّ الله تعـالى قـد أنشـأنا مـن قـوم آخـرين غيـر الإنس، ولكنّه يفهم مِن بمعنى بعد أو بمعنـى مكـان، أي أنّ الأمـر كـان من قبيل الاستبدال.

ولنرجع إلى تفسير الطبري فننظر قوله:

" يُذهبكم": يهلك خلقه هؤلاء الذين خلقهم من ولد آدم ويستخلف من بعـدكم مـا يشـاء،.. ويـأت بخلـق غيـركم وأمـم سـواكم، يخلفـونكم فـي الأرض "من بعدكم"، يعني: من بعد فنائكم وهلاككم، " كما أنشأكم من ذريَّـة قوم آخـرين "، كمـا أحـدثكم وابتـدعكم مـن بعـد خلـق آخـرين كـانوا قبلَكم.

ومعنـى"مِنْ" فـي هـذا الموضـع التعقيـب، كمـا يقـال فـي الكـلام:"أعطيتك من دينارك ثوبًا"، بمعنـى: مكانَ الدينار ثوبًا، لا أنّ الثوب من الدينار بعضٌ، كذلك الذين خوطبوا بقولـه: " كما أنشأكم"، لم يرد بإخبـارهم هذا الخبر أنّهم أنشئوا من أصـلاب قوم آخرين، ولكن معنـى ذلك مـا ذكرنـا

من أنَّهم أنشئوا مكان خَلْقٍ خلف قوم آخرين قد هلكوا قبلهم ... وأصل الإنشاء الإحداث" انتهى كلام الطبري.

تعليق:

ما كان إمام المفسرين الطبري ليذهب إلى القول بأنّ من هنا بمعنى مكان إلا لأنّه لم يتصوّر احتمال أن يكون الإنسان قد أُخذ من ذريّة قوم آخرين يختلفون عنّا كبشر. لاحظ قوله:" لم يرد بإخبارهم هذا الخبر أنّهم أنشئوا من أصلاب قوم آخرين"، فهو رحمه الله يعلم أنّ هذا الفهم يحتمله النص فأراد أن ينفيه لعلمه أنه المعنى الظاهر من النص الكريم.

جاء في الآية 59 من سورة آل عمران:" إنّ مثل عيسى عند اللهِ كمثلِ آدم خَلقه من ترابٍ ثمّ قال له كن فيكون"، لهذه الآية الكريمة أهميّة خاصة بما يتعلق بأصل خلق الإنسان؛ فهي تنصّ على أنّ آدم، عليه السلام، قد خلق خلقاً خاصاً بعيداً عن قانون الزوجيّة السائد في الكائنات الحيّة، وكذلك كان الأمر في خلق عيسى، عليه السلام. بل ربما كان من بعض حكمة خلق عيسى، عليه السلام، من غير أبٍ أنْ يعلم الناس أنّ الله تعالى قد خلق آدم على خلاف القانون السائد

في الكائنات. ومن هنا جاءت هذه الآية الكريمة لتحسم القول في الجدل القائم بين الناس حول أصل الإنسان؛ فإذا كان قانون التطوّر قد جرى في خلق بعض الكائنات الحيّة أو كلّها، فإنّ آدم عليه السلام قد جاء استثناءً من هذا القانون، ثمّ كان تناسل البشر وفق قانون الزوجيّة بعد خلق حواء من نفس آدم، عليه السلام، كما ينصّ ظاهر الآية الأولى من سورة النساء:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً..."، لاحظ قوله تعالى:".. من نفسٍ واحدة وخلق منها زوجها..". واستثناء آدم عليه السلام من قانون الزوجيّة يجعله خلقاً جديداً لا صلة له بغيره من الكائنات، ويجعله استثناءً من قانون التطوّر، هذا على فرض أننا نُسلِّم بوجود هذا القانون في الكائنات الحيّة.

وهنا نثير سؤالاً: أيّ الصورتين الآتيتين أكرم للإنسان؟:

الصورة الأولى: أن يُخلق الإنسان من التراب مباشرة من غير أن يتسلسل خلقه صعوداً حتى ينتهي الأمر بخلق آدم.

الصورة الثانية: أن يبدأ الخلق بالتراب ثمّ يتسلسل هذا الخلق صعوداً وارتقاءً، وفق العناية والبرمجة الربانيّة، حتى إذا بلغ الخلق مرحلة تتلاءم مع أهميّة هذا الكائن وكرامته يتمّ خلقه وأخذه أخذاً خاصاً منبتّاً عمّا سبقه.

قد يختلف الناس في الإجابة عن هذا السؤال، ولكننا نرى أنّ الصورة الثانية تتلاءم أكثر مع جلالة ومكانة هذا الكائن المُكرّم، الذي أُسجِدت له الملائكة. كيف لا، وموكب مهيب من تسلسلات هائلة تستمر ملايين السنين تكون المقدّمة التي تُعلن عن قدوم المنتظر، الذي سيكون له شأنٌ عظيم، وتُسخّر له السماوات والأرض وما فيهنّ، ثمّ تُبدّل الأرض غير الأرض والسماوات عند قيامةِ هذا الإنسان، ليخلد في عالم لا يعلم جلاله وعظمته إلا الله تعالى.

يتحدث العلماء عن اكتشاف هياكل لكائن يشبه في تكوينه الإنسان، ولكنّ محيط جمجمته أقلّ من محيط جمجمة الإنسان، مما يعني أنّ قدراته العقليّة أقل من قدرات الإنسان. بل ذهب بعضهم إلى القول باكتشاف بعض الآثار التي تدل على تميّز هذا الكائن على باقي الحيوانات. وإذا صحّت هذه المعلومة السائدة في المحافل العلميّة فإنّ ذلك يجعلهم أمام معضلة تحتاج إلى إجابة مقنعة، وهي: إذا كان هذا الكائن على هذا المستوى من البنيان الجسمي والقدرات العقليّة، فلماذا انقرض ولم يبق منه أحد، في الوقت الذي بقيت مليارات الكائنات

الأقل تطوراً ؟!

إذا كانت هذه معضلة تواجه العلم فإنّ حلها موجود في ما تحتمله الآيات القرآنيّة التي استعرضناها؛ فقوله تعالى:"...إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آَخَرِينَ"، يشير بوضوح إلى فناء القوم الذين يُحتمل أن يكون الإنسان قد أُنشئ من ذريتهم. وإذا كان هذا الكائن العاقل، الذي وصل إلى درجة أن يكون بمجموع أفراده قوماً، متواضع القدرات العقليّة بالنسبة إلى الإنسان، فمن المتوقع أن يكون سفّاكاً للدماء، لضعف ضوابطه العقليّة التي تمنعه من التمادي عند الغضب. وقد يفسّر هذا قولَ الملائكة في الآية 30 من سورة البقرة:" وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء...". ويعزز هذا الاحتمال ما كان من مبارزة عقليّة بين الإنسان والملائكة، ليكون تفوق آدم هو الرد على استشكال الملائكة، عليهم السلام. ثم انظر قوله تعالى:" إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِف "، فالكلام إذن عن قضيّة الاستخلاف.

وأخيراً لم نقصد إلى القول بنظريّة التطور، بل قصدنا أن نقول إنّ مسألة التطور هي مسألة علميّة وليست بمسألة دينيّة، كما توحي به ردود فعل العديدين من المسلمين. وقَصَدنا أن نقول إنّ خلق آدم لا علاقة له بالتطور، وإن كان هناك احتمال أن يكون خَلْق الإنسان له علاقة بأرقى حلقات التطور من غير أن يكونَ آخر هذه الحلقات،

لأنه خُلِق خلقاً جديداً مستقلاً. من هنا نجد أنّ نظام الزوجيّة في البشر قد ابتدأ بآدم وحواء التي خُلِقت من نفسه. وهذا الخلق الخاص قد يفسر ما يُقال من أنّ هناك حلقة مفقودة بين الإنسان وباقي الحيوانات. وإن كنّا نعتقد أنْ لا حلقة هناك مفقودة، بل هناك خلق جديد لا يرتبط بمن سبق من الكائنات إلا كما ترتبط هذه الكائنات بالتراب.

وحُرِّم ذلك على المؤمنين

قال تعالى:" الزَّانِـي لا يَنْكِحُ إِلا زَانِيَـةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَـةُ لا يَنْكِحُـهَا إِلا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِين".النور:3

جاء في أضواء البيان للشنقيطي رحمه الله:"... هذه الآية الكريمة من أصعب الآيات تحقيقاً، لأنّ حمل النكاح فيها على التزويج، لا يلائم ذكر المشركة والمشرك، وحمل النكاح فيها على الوطء لا يلائم الأحاديث الواردة المتعلّقة بالآية، فإنّها تعيّن أنّ المراد بالنكاح في الآية التزويج، ولا أعلم مخرجاً واضحاً من الإشكال في هذه الآية إلا مع بعض تعسّف، وهو أنّ أصح الأقوال عند الأصوليّين، كما حرره أبو العباس بن تيمية رحمه الله في رسالته في علوم القرآن، وعزاه لأجلاء علماء المذاهب الأربعة، هو جواز حمل المشترك على معنييه، أو معانيه، فيجوز أن تقول: عدا اللصوص البارحة على عين زيد، وتعني بذلك أنّهم عوروا عينه الباصرة وغوروا عينه الجارية، وسرقوا عينه التي ... وإذا علمت ذلك فاعلم أنّ النكاح مشترك بين الوطء والتزويج، خلافاً لمن زعم أنّه حقيقة في أحدهما، مجاز في الآخر، كما أشرنا له سابقاً. وإذا جاز حمل المشترك على معنييه، فيُحمل النكاح في الآية على الوطء، وعلى التزويج معاً،.... وأكثر أهل العلم على إباحة تزويج الزانية، والمانعون لذلك أقل...". انتهى.

فهي إذن من الآيات التي أشكلت على المفسّرين، بل إنّ الشنقيطي رحمه الله لا يعلم مخرجاً واضحاً إلا مع بعض التعسّف. وهذا القول

هو الذي دفعنا إلى تناول هذه الآية الكريمة، لعلمنا بأنّه يمكن حل الإشكال من غير تعسّف.

قوله تعالى:" الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ": المقصود بالنكاح هنا الزواج، وأخطأ من قال إنّه هنا بمعنى الوطء. لأنّه لا يُعقل أن يُطلق سبحانه وتعالى لفظة النكاح على عملية الزنا، فالزنا ليس بنكاح. ولو كان النكاح هنا بمعنى الوطء لأصبح المعنى:" الزاني لا يزني إلا بزانية..."، وهذا ينافي البلاغة، لأنّ لفظة الزاني تعني أنّ هناك زانية. فإن قيل قد يزني بغير زانية، كحالة الاغتصاب مثلا، نقول هذا رد على من زعم أنّ النكاح هنا هو الوطء، لأنّ الزاني قد يزني بغير زانية.

أما استدلالهم على ورود لفظة النكاح بمعنى الوطء بما جاء في الآية 230 من سورة البقرة:" فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ..."، فإنه استدلال خاطئ، مع إقرارنا بأنّ المرأة المطلقة ثلاثاً لا تحلّ للمُطلِّق حتى تتزوج زواجاً صحيحاً ويدخل بها ثمّ يطلقها أو يموت عنها.

أما لماذا هو استدلال خاطئ؟! فنقول:

لو كان المقصود هنا مجرد الدخول لقلنا إنّ المطلّقة إذا زنت تحلُّ للزوج الأول ولا يُشترط لذلك العقد الصحيح، وهذا باطل. ثمّ ألم يلاحظوا قوله تعالى:" تنكح زوجاً"، فإذن لا بدّ من عقد الزواج أولاً

حتى يصحّ الدخول المُحَلل. وعليه نقول: إنّ لفظة النكاح تُطلق في القرآن الكريم على عقد الزواج، وتطلق أيضاً على الدخول الصحيح الذي يكون عن زواج. أمّا مجرد الدخول فلا يسميه القرآن نكاحاً. وقوله تعالى:" تنكح زوجاً غيره"، بدل قول:" تنكح غيره"، لمنع الاحتمال القائم في اللغة العربيّة.

يضاف إلى ما سلف أنّ الأحاديث التي صحّت في سبب النزول تشير إلى الزواج؛ فعندما أراد مرثد أن يتزوج عناقاً الزانية نزلت الآية الكريمة. أما ما زعمه بعض المعاصرين من أنّ مرثداً استشار في العلاقة المحرّمة فغير وارد تماماً، لأنه رضي الله عنه رفض عرض عناق وأخبرها أنّ الإسلام حرّم الزنا. ثمّ استفتى الرسول عليه السلام في زواجها فنهاهُ.

فإذا كان النكاح هنا بمعنى الزنا فلماذا أضيفت لفظة "مُشْركة"؟! أَمَا كان يكفي أن يقال: الزاني لا ينكح إلا زانية؟! فالمشركةُ إذا زنت تكون زانية، فما معنى اضافة وصف الشرك مع توافر وصف الزنا فيها؟! إلا إذا قلنا إنّ لفظة زانية لا تنطبق إلا على المسلمة التي زنت، وهذا باطل.

" الزَّانِي لا يَنْكِحُ إلا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً، وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إلا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ...": هذا إخبار من الله تعالى يُمهّد للحكم الشرعي القادم. وخلاصة المعنى أنّ الزانية لا يقبل الزواج منها إلا زانٍ مثلها أو

مشرك، وكذلك الأمر في الزاني، فلا يقبل الزواج منه إلا زانية أو مشركة. وفي هذا تنفير للمسلمين من زواج الزواني، كمقدّمة للتصريح بالتحريم. أما لماذا الزاني يقبل بزواج الزانية والعكس، فلأنّ ارتكاب هذه الفاحشة يجعلها مع التكرار مستساغة ومقبولة، وهذا أمر ملاحظ في الواقع. أمّا المُشْرك فمفهوم الحلال والحرام عنده لا يمنعه من ذلك، وهذا ملحوظ في الأمم غير الإسلامية إلا من شذّ.

التبس الأمر على بعض أهل التفسير فتصوّر أنّ القول بأنّ لفظة النكاح هنا بمعنى الزواج يؤدّي إلى القول بجواز تزوج المسلم بالمشركة والمسلمة بالمشرك، وهذا باطل. وهو تصوّر في غير محله، نقول:

الزاني قد يكون مسلماً وقد يكون غير مسلم، وكذلك الزانية. فالزانية – بغض النظر عن عقيدتها– يقبل الزواج منها من كان زانياً أو من كان مشركاً. والزاني – بغض النظر عن عقيدته – يقبل الزواج منه من كانت زانية أو مشركة. وهذا كما تلاحظ لا علاقة له بالحكم الشرعي المتعلق بحرمة الزواج من المشرك أو المشركة. وعلى الرغم من وضوح ذلك نجد من المناسب أن نذكر ما رجّحه الألوسي من أنّ حادثة الإفك كانت في السنة الخامسة للهجرة، مما يشير إلى نزول هذه الآية في السنة الخامسة أيضاً، لأنّ الآيات المتعلقة بحادثة الإفك تأتي مباشرة بعد هذه الآية. أما تحريم الزواج من المشركين فكان بعد صلح الحديبية، أي السنة السادسة للهجرة.

وبعد هذا التمهيد يأتي الحكم الشرعي المتعلق بالزواج من الزناة:" وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِين": وقد زعم البعض أنّ اسم الإشارة هنا يرجع إلى فعل الزنا، أي وحُرّم الزنا على المؤمنين. وهذا غير صحيح لما قدّمنا من أنّ الكلام هنا عن الزواج من الزناة وليس الكلام عن الزنا. وعليه يكون المعنى: وحُرِّمَ زواج الزناة على المؤمنين. والمقصود هنا مَن شأنهم الزنا ولم يتوبوا منه، كما هو أمر الكثير من الغربيّين والغربيّات، الذين لا يجدون غضاضة في الزنا ولا يقيمون وزناً للتوبة.

وإذا كان الزواج من الزاني غير التائب حراماً ابتداءً، فإنّ ذلك لا يعني حرمة الاستمرار في الزواج في حال تمّ الزنا بعد الزواج – وإن عافته النفوس السويّة– لأنّ الدليل قام على حرمة إنشاء الزواج من الزاني غير التائب، ولم يقم الدليل على حرمة الاستمرار، بل لقد قام الدليل على جواز الاستمرار في الزواج. وليس هذا مقام تفصيل ذلك، بل هو مقام إثبات أنْ لا اشكال في الآية الكريمة ولا في دلالتها على الحكم.

مفاتح الغيب

جاء في الآية 59 من سورة الأنعام:" وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا

إلا هُوَ..."، فللغيب مفاتيح، هذا إذا كانت مَفاتح جَمعُ مِفْتَح، وهي الآلة التي يُفتح بها ما أُغلق. وللغيب مخازن، هذا إذا كانت مَفاتح جمع مَفْتَح، وهو المَخزن الذي توضع فيه الأشياء النفيسة ويُفتح عند الحاجة. وعليه يكون المعنى: أنّ مخازن الغيب ومفاتيحها هي مما استأثر الخالق سبحانه بعلمه.

وكان يمكن أن ننتهي عند هذا المعنى لولا ما صحّ عند البخاري وغيره من قول الرسول، صلى الله عليه وسلم:" مفاتح الغيب خمس: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَام، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ". واللافت هنا أنّ الرسول، صلى الله عليه وسلم، قد تلا الآية 34 من سورة لقمان، والتي هي خاتمة السورة. وهذا يعني أنّ خاتمة سورة لقمان هي تفسير لمطلع الآية 59 من سورة الأنعام.

وعليه فقد بات معلوماً أنّ مفاتح الغيب هي: الساعة، والمطر الذي هو غيث، وما يكون في الأرحام، والزمن المستقبلي، والموت. وهذه الخمس إمّا أن تكون مفاتيح توصل إلى الغيوب وتَفتحُ عن المُغيَّبات، وإمّا أن تكون هي مخازن للغيوب. والمعنى الأول هو الظاهر.

إذا عرفنا هذا بات من الممكن أن يكون المقصود بمفاتح الغيب الأمور التي عندها تظهر الأمور المُقدّرة في عالم الغيب، أي

الأمور التي تكون المفاتيح لظهور عالم القَدَر بعد أن كان غيباً في عالم القضاء. وإليك تفصيل ذلك:

الساعة: عندما تأتي الساعة وتقع وتتجلى للناس، تبدأ أسرار هذا العالم الجديد بالظهور بعد أن كانت غيباً خاصاً بهذا العالم. أي أنّ وقوع الساعة كان المفتاح الذي لا بدّ منه لتجلّي هذه الغيوب.

نزول المطر الذي هو غيث: هناك غيوب تتعلق بعالم الحياة يكون الغيثُ مفتاحاً لظهورها، كما هو الأمر بظهور النبات، بعد أن كان غيباً، عند توفّر مفتاحه والذي هو الغيث.

ما في الأرحام: وهناك غيوب تتعلق بعالم الأحياء مفتاحها ما يستقرّ في الأرحام، كما هو الأمر في الأجيال البشريّة التي هي من الغيوب ولا تظهر حتّى تتوافر مفاتيحها، والتي هي ما يستقرّ في الأرحام.

ما يقع في الزمن المستقبل: وهناك غيوب لا تظهر حتى يمرّ الزمن. فكلّ زمن يكون مفتاحاً لغيوب مقدّرة.

الموت: الموت مفتاح لما بعده من الغيوب في عالم البرزخ حتّى تقوم الساعة.

هذه المفاتح الخمس لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى؛ فالساعة من الغيوب التي استأثر الله تعالى بعلمه. ونزول الغيث بكلّ قطراته

ومواقع القطرات وزمن وقوعها وآثار ذلك ونتائجه، غيب لا يعلمه إلا من كان مطلق العلم سبحانه. وأمّا ما يستقرّ في عالم الأرحام بكل تفاصيله واحتمالاته وظروفه ونتائجه، فلا يلمّ بشموله إلا علّام الغيوب. وأمّا ما يُخبّئه مستقبل الزمان وما يُحدثه مرور الوقت، فلا يعلمه إلا من قَضى وقَدّر. وأما المواقع التي يَحدُث عندها الموت فَوِفق ما قضى به سبحانه وتعالى، فيتولاه المَلَك الذي وكّلَ به.

أما ما يَتَحصّلُ للبشر من علم جُزئيٍّ ببعض هذه المُغيّبات؛ فإمّا أن يكون بإخبار الوحي، أو بالرؤيا الصادقة، أو بالإلهام، أو بمقدّمات تُشير وتُعلِن فتصدق أو لا تصدق.

وِلتُصنَع على عيني

يسألُ البعض عن استخدام لفظة "تُصْنَع" في قوله تعالى مخاطباً

موسى، عليه السلام:" ولِتُصْنَعَ على عيني". ويبدو أنّ الاستشكال يرجع إلى كثرة استخدام صَنعَ ومشتقّاتها في عالم المادّة. من هنا يجدر بنا أن نعود إلى دلالة اللفظة في اللغة العربيّة قبل طغيان المعنى الاصطلاحي المتعلّق بعالم الصناعة الماديّة.

عند الرجوع إلى أقوال الكثير من المفسرين وأهل اللغة وجدنا أنّ السمين الحلبي، في كتابه عمدة الحُفاظ، يضع النقاط على الحروف في تحديد المعنى، فيقول:" الصُنعُ: إجادة الفعل، فكلّ صُنعٍ فِعْل، وليس كلّ فعل صُنعاً. ولا يجوز نسبته إلى الحيوانات غير الآدميين، ولا إلى الجمادات، وإن كان الفعل يُنسب إليها... ولا يقال صَنعَ إلا للحاذق المُجيد". بهذا يتّضح أنّ الصنع فيه إرادة تجويد الشيء وتحسينه واتقانه وحذقه. ومن هنا لا يصحّ أن ينسب لغير العاقل.

كون الصانع يريد الشيء على صورة متقنة لا يعني أنّه يفعل ما هو إيجابي؛ فعندما يخطط اللص ويتقن ويُحكم الخطّة يكون عندها قد صنع شرّاً. وعندما يجيد الشاعر اختيار الألفاظ وسبك الشعر يكون قد صنع شعراً، بغض النظر عن إيجابية المعاني أو سلبيتها. وعندما يساعدك الطبيب في العلاج يكون قد صنع لك معروفاً، أي صنع لك خيراً. وحتّى لا يظنّ القارئ أنّ الصناعة لغةً تقتضي دائماً الإتقان ننبه إلى أنّه يكفي وجود الإرادة والقصد إلى الفعل حتّى

نقول إنّ فلاناً قد صنع خيراً أو شراً.

أما التّصنّع ففيه تَكلُّف، كمن يتصنّع حسن الأدب لتحصيل منفعة. والاصطناع فيه مبالغة في إصلاح الشيء وتزيينه وصناعته. والمقصود بإصلاح الشيء: جعله صالحاً لتحقيق المراد. وتستعار لفظة الصنع للدلالة على التربية والتنمية. من هنا يصحّ أن تقول: إنّ التربية الرياضيَة تصنع الأبطال، وإنّ التربية العقليّة تصنع العباقرة...الخ.

بعد هذه المقدّمات نقول: قوله تعالى:" وِلتُصنع على عيني"، يشير إلى أنّ تنشئة موسى، عليه السلام، وتربيته الشاملة كانت برعاية الله تعالى وحفظه وصونه وإحسانه. وقد كان هذا الاصطناع الرباني من أجل أن يحمل موسى، عليه السلام، رسالة الرب المربّي إلى عباده المفتقرين إلى فضله. وهذا يشير إلى كرامة الإنسان وجلالة قدره. من هنا ندرك عِظم خطيئة الإنسان عندما ينحرف ويتدلّى ويذهب بعيداً في معصيته لخالقه سبحانه.

وختم النبوّات لا يعني توقّف رعاية الله تعالى وحفظه واصطناعه لبعض خلقه، نظراً لحاجة الناس المستمرّة إلى من يقوم لله بحجة، وإن لم يكن نبياً يوحى إليه. من هنا يحار المادّيون من ظاهرة انتشار التديّن على الرُّغم من كلّ جهود ومخططات أولياء الشيطان. وستبقى حيرتهم وستعظم خيبتهم، لأنّهم لا يدركون أنّ اللطيف

الخبير يصطنع من خلقه من يشاء رحمة بعباده.

لئلّا يعلم أهل الكتاب

آية تختم فيها سورة الحديد أشكلت على عامة أهل التفسير. والمتدّبر يكتشف أنّ سبب الاستشكال يرجع إلى عدم إدراك المستشكِل للمعنى وظلالِه. وهذا الأمر يتكرر عند أهل التفسير، وهو أمر لا بدّ منه، وذلك لقصور العقل البشري وعدم إحاطته بمرامي كتاب الله العزيز. وهذا يعني أن تستمر مسيرة التفسير والتدبّر فلا تتوقف عند شخص أو جماعة أو عصر من العصور.

جاء في الآيتين 28 و29 من سورة الحديد:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. لِئلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ".

" لِئلّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ": تذهب الغالبية العظمى من أهل التفسير إلى أنّ لا في لفظة لئلّا هي زائدة. وعليه يصبح المعنى: ليعلم أهل الكتاب. والقول بالزيادة غير مقبول في كتاب الله. ومن يذهب إلى القول بالزيادة يكون قد أعلن عن عجزه عن فهم المعنى. بل إنّ الفهم غير الدقيق للمعنى هو الذي يَحمل البعض على القول بالزيادة.

أمّا الأمثلة التي تُضرب للتدليل على وجود الزيادة في بعض ألفاظ

القرآن الكريم فلا تصلح للاستدلال نظراً إلى أنّ مردّها إلى عدم الدقة في الفهم. ومن الأمثلة الشائعة التي تساق للتدليل على الزيادة في بعض الألفاظ القرآنيّة، قوله تعالى في سورة الأعراف، مخاطباً إبليس:" قال ما منعك ألا تسجدَ إذ أمرتك"، فـ لا هنا عندهم زائدة بدليل قوله تعالى في سورة ص:" قال يا إبليس ما منعك أن تسجدَ لما خلقتُ بيدي". والصحيح أنْ لا زيادة هنا، لأنّ عدم السجود قد يكون لمانع مع توفر الرغبة فيه، وفي مثل هذه الحالة يقال:" ما منعك؟". أي ما الشيء الذي منعك أن تسجد؟. أمّا إذا كان لا يريد السجود لأمر في داخله حمله على ذلك، فيقال له:" ما الذي منعك ألا تسجد؟"، أي: ما الذي حملك على أن لا تسجد؟!. وما قلناه هنا قُصد به تأكيد القول بعدم الزيادة، وليس استقصاء الفروق في المعنى.

بالرجوع إلى السياق نجد أنّ الآية 25 من سورة الحديد تتحدث عن إرسال الرسل وإنزال الكتب من أجل أن يقوم الناس بالقسط. وأنّ إنزال الحديد كان من أجل منفعة الناس، ومن أجل أن تكون القوّة الماديّة معززة لقوة الفكرة الحقّة. ثمّ تتحدث الآية 26 عن إرسال إبراهيم ونوح، عليهما السلام، وجَعل النبوّة والكتاب المنزّل في ذريتهما، فكان المآل أنْ انحرف الناس بعد هدى فأصبح أكثرهم فاسقين. ثمّ تتحدث الآية 27 عن إرسال عيسى، عليه السلام، وما آل إليه أتباعه بعد حين فأصبح أكثرهم فاسقين.

أما الآية 27 فهي:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ".

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ": ظنّ البعض أنّ الكفل هو النصيب السّيّئ، وهذا غير صحيح بدلالة هذه الآية. وظنّ آخرون أنّ الكفل هو النصيب، وأنّ السياق هو الذي يحدد إن كان سيئة أو حسنة. والصحيح أنّ الكفل هو النصيب المكفول أي المضمون حصوله، سواء كان في عالم السيّئة أو في عالم الحسنة. وعليه نقول:

كأنّ المعنى: إن اتّقيتم الله وآمنتم برسوله يؤتكم ضمانتين فيهما رحمة، ويجعل لكم نوراً تستعينون به في سيركم إلى الله، ويغفر لكم. الضمانة الأولى من شأنها أن تمنع أهل الكتاب من أن يدركوا حقيقة عجزهم عن نيل فضل الله أو منعه أن يصل إلى أهل الإيمان:" لِئَلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ"؛ فجهل أهل الكتاب بحقيقة عجزهم هذا مطلوب؛ لأنّهم لو أدركوا أنّهم لا يقدرون على منع فضل الله والاستئثار به، لتوقّفوا عن الكيد لأهل الحقّ، لإحساسهم بعدم جدوى ذلك. وهذا يعني أنّه قد تمّ تحييد عامل مهم من عوامل تسريع ظهور الفكرة الإسلاميّة ومن ثَمّ سيادتها بين الناس. فما يقوم به الغرب، مثلاً، من حملات تبشيريّة ودراسات استشراقيّة وحملات تشكيكيّة وهجمات سياسيّة وعسكريّة... كلّ ذلك

له دور كبير في تسريع الوعي وتسريع عودة المسلمين إلى دينهم الحق. ومن يرصد الواقع يجد أنّ المكر الغربي اليوم لا يصل إلى أهدافه، ويجد أنّ الهجمة الغربيّة تأتي بنتائج معاكسة. أما هم ففي حيرة من أمرهم لأنّه لا يعلمون أنّهم لا يقدرون على شيء من فضل الله، ولا يعلمون أنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

فهم إذن يجهلون حقيقة عجزهم، ويجهلون حقيقة أنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء. وفي ذلك ضمانة ثانية أنّ فضل الله ورحمته ستصيب من اتقى وآمن. وعليه يكون المعنى: إذا اتقيتم الله وآمنتم برسوله يؤتكم نصيبين مكفولين هما من رحمته سبحانه؛ ضمانة ينتج عنها عدم قدرة أهل الكتاب على معرفة حقيقة عجزهم عن منع فضل الله أن يناله المؤمنون. وضمانة ينتج عنها جهل أهل الكتاب بحقيقة أنّ الفضل كله بيد الله، وأنه لا بد أن يناله أهل التقوى والإيمان. كيف لا، والتقوى والإيمان الحق هما من فضل الله تعالى. وإصرار أهل الكتاب على شركهم وفسوقهم وظلمهم دليل صارخ على عدم قدرتهم على نيل الفضل الرباني وبالتالي هم أعجز من أن يمنعوه عن غيرهم، وهم يحاولون دائماً أن يفعلوا ذلك، لأنهم لا يدركون حقيقة عجزهم.

وعَلّم آدم الأسماء

لمّا كان الأمر يتعلق بأهليّة الخلافة على الأرض، جاءت القدرة على **تعلّم الأسماء** والنطق بها لتحسم المسألة لصالح المخلوق الذي يملك هذه القدرة. وهذا يعني أنّ القدرة اللّغوية هي الركن الأساس في مسألة الخلافة، وبناء الحضارات. ومعلوم أنّ هذه القدرة لها أساس مادّي، يتمثل بالحنجرة واللسان وما يرافقهما. ولها أساس عقلي، ينمو بنمو الإنسان. ولا يزال الأساس العقليّ سراً من الأسرار، مما يجعلهُ محل جدل بين العلماء المختصّين.

البداية تكون بتعليم الأسماء، ويكون ذلك عن طريق الربط بين الصوت والصورة الحسيّة؛ فإذا أردنا أن نُعلّم الطفل كلمة **كأس**، مثلاً، أحضرنا له كأساً، ثمّ كررنا على مسمعه كلمة **كأس** ونحن نشير إلى الكأس. هنا يقوم الطفلُ بالربط بين الصوت والصورة الحسيّة. فإذا تمّ التّعلم تكوّن لدى الطفل القدرة على لفظ كلمة **كأس**، وذلك عندما يُحسّ أو يتخيّل الكأس. وتكون لديه القدرة على تخيّل الكأس عندما يسمع لفظة كأس؛ فالصورة الحسيّة تستدعي اللفظة، واللفظة تستدعي الصورة،.. وهكذا.

أمّا **تعلّم الحرف والفعل** فهو أكثر تعقيداً، فالحرف **في**، مثلاً، يستلزم عناصر عدّة؛ فإذا أردتَ أن تعلّم الطفل أنّ الماء في الكأس فإنّك تحتاج كأساً، ثمّ تُحضر ماءً، وتسكب هذا الماء في الكأس، ثمّ تقول للطفل: الماء في الكأس. وكذلك الأمر في الأفعال؛ فلكي يتعلم الطفل معنى كلمة **ضرب**، لا بدّ أن يكون هناك ضارب ومضروب وأداة ضرب وفعل ضرب، كمقدمات ضروريّة لتفهيم الطفل معنى كلمة **ضرب**.

جاء في الآيات (31، 32، 33) من سورة البقرة:" **وعلّم آدم الأسماءَ كلّها ثمّ عرضَهُم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إنْ كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علمَ لنا إلا ما علّمتنا إنّك أنت العليمُ الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلمّا أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنّي أعلم غيبَ السماواتِ والأرض، وأعلم ما تُبدون وما كنتم تَكتمون**".

إذا أخذنا بظاهر النص القرآنيّ الكريم يمكن أن نقول إنّ الأسماء، في هذه الحادثة الجليلة، كانت لمُسمّيات عاقلة، وذلك لقوله تعالى في حق هذه المسمّيات:" **عرضهُم.. هؤلاء.. بأسمائهم**". وهذا قد يفسّر لنا المقصود بقوله تعالى:"**وعلّم آدم الأسماءَ كلّها**"، أي أنّ آدم، عليه السلام، قد تعلّم **كلّ** أسماء المسميات العاقلة التي ستكون محل امتحان لآدم وللملائكة، عليهم السلام. وقد استطاع آدم، عليه السلام، أن يخبر بجميع أسماء الكائنات العاقلة التي عُرضت في الامتحان، أي أنّه أنجز **100%** .

وهنا قد يثور سؤال: ولكنّ الله تعالى هو الذي علَّم آدم، عليه السلام، فأين الفضل لآدم في ذلك؟!

نقول: المقصود هنا قابليّة التعلّم والأداء، أي الاستعداد الفطري؛ جسديّاً، وعقليّاً، ونفسيّاً. ويبدو أنّ ذلك لا يتوفر للملائكة في أصل فطرتهم: "**سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا**".

نعم، هذا هو الأساس المطلوب للخلافة على الأرض، وهذا هو الاستعداد الفطري الأوّلي الذي لا بدّ منه، ثم يقوم الإنسان بالإبداع؛

فيفـرّع، ويولّـد، ويسـتنبط،... بحيـث تبقـى اللغـة لديـه مواكبـة لتطـوره وحاجاته.

لقد أدرك الإنسان أهميّة اللغة، إلى درجة أن نجد بعض الفلسفات المعاصرة تبالغ في القول بأهميّة اللغة، فتزعم أن لا تفكير من دون لغة. ويبـدو أننـا بحاجـة إلـى دراسـات أوفـى تعطـي اللغـة مكانتهـا فـي البنـاء الحضاري الإنساني.

زُيّن للنّاس

جاء في الآية **14** من سورة آل عمران: "**زُيِّن للناس حُبّ الشهواتِ من النساءِ والبنينَ والقناطير المقنْطرة من الذهبِ والفضّةِ والخيلِ المسوّمة والأنعام والحرث، ذلك متاعُ الحياةِ الدنيا، والله عندهُ حسن المآب**".

الزّينُ: هو شدّة الحسن، والتزيين هو جعل الشيء زيناً. والكلام في الآية الكريمة يتعلق بما فُطر عليه الإنسان من حب الأمور المذكورة، ولذلك حكمة تتعلق بالحياة الدنيا، وبضرورات إعمار الكون، بل إنّ هذا التزيين هو من أهم أسس التحضر الإنساني. وعليه بعيدٌ ما يقوله بعض أهل التفسير من أنّ المُزيِّن هو الشيطان، بل هي الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها، وهذا ما نجده في كل النفوس، وإن تفاوتت في الإيمان والتقوى. ولا يُذم الإنسان في حبّه وميله إلى هذه المذكورات، ولكن تأتي المذمّة عندما يبالغ الإنسان في اندفاعه، فيخرج عن الطور، ويقوده ذلك إلى الاعتداء وتجاوز حدود الله تعالى.

عندما يتزيّن الإنسان بزينة ما فإنّما يقصد أن يظهر بمظهر هو أحسن من واقعه. والزينة تُوجِد فرقا بين الحقيقة والواقع الجديد، **وكلّما اتسعت الفجوة كانت الزينة أشدّ**. وعليه فإنّ الزينة في الأمور التي ذكرتها الآية الكريمة تتفاوت؛ فتزيين النساء هو أشدّ من تزيين البنين، وتزيين البنين أشدّ من تزيين الذهب والفضة... وهكذا. أي أنّ الآية

الكريمة قد سردت المذكورات تنازلياً. وعندما نقول إنّ تزيين النساء هو الأشدّ بين المذكورات فإنّما نقصد أن نقول إنّ الفارق بين واقع النساء وحقيقتهن، وبين صورتهن في عيون الرجال ونفوسهم هو فارق كبير. وعليه تكون الزينة أشدّ ما تكون في النساء إذا نظرنا إليهنّ بعيون الرجال. أما إذا نظرنا إلى المرأة بعين المرأة فإننا نكون عندها أقرب إلى الواقع، وبالتالي تكون الزينة أقل.

زينة المرأة في عين الرجل أشدّ من زينة الرجل في عين المرأة. وعليه فإنّ الفارق بين حقيقة الرجل في الواقع وصورتهِ في عين المرأة أقل من حقيقة المرأة في الواقع وصورتها في عين الرجل. هذا يعني أنّ خيبة أمل الزوجة بعد الزواج أقل من خيبة أمل الزوج، وذلك في حالة تحييد العوامل الأخرى؛ فالرجل حسّي في نظرته إلى المرأة، وعلى وجه الخصوص عندما يتعلق الأمر بالعين والإبصار. من هنا لا بد أن تعي المرأة أنّها تصبح بحاجة أشدّ إلى الزينة عندما تصبح زوجة. وهذا لا يعني أنّ الرجل لا يحتاج إلى الزينة، ولكننا نقارن بين فطرتين. وقد نصّت الآية الكريمة، كما نلاحظ، على تزيين النساء في نفوس الرجال، ولم تنص على تزيين الرجال في عيون النساء، لأنّ الكلام هنا عن التزيين الأشدّ.

لقد نصّت الآية الكريمة على البنين دون البنات، لأنّ التزيين الفطري في البنين أشدّ منه في البنات، أي أنّ الفارق بين واقع البنين الحقيقي وبين موقعهم في نفوس الآباء والأمهات، هو أكبر من واقع البنات الحقيقي وموقعهن في نفوس الآباء والأمهات. انظر إلى تفاني

الآباء والأمّهات، ثم انظر إلى موقف الأبناء من الآباء والأمّهات، وعلى وجه الخصوص عند الكبر. من هنا كان لا بدّ من التشديد في الوصية: "...**إمّا يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما، وقل لهما قولا كريما، واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة وقل ربِّ ارحمهما كما ربياني صغيرا**" (الإسراء:23،24).

على الآباء والأمّهات إذن أن يدركوا أنّ ذلك حقيقة من حقائق الحياة، وفطرة فطر الله الناس عليها؛ فالدافع الذي يدفع الأب والأم إلى التفاني في رعاية الولد لا توجد قوته عند الولد. هذا لا يعني أنّ الولد لا يتفانى في رعاية الوالدين، ولكنّ دوافع وقوة ذلك تختلف. بل إنّ هذا التفاني المتبادل هو من الأمور التي تميّز الإنسان عن باقي الكائنات الحيّة؛ فأنت تجد القطّة، مثلاً، تدافع بشراسة عن صغارها، ولكنّ هذا الصغير عندما يكبر لا يأبه بالأم، بل قد يعتدي عليها.

أما فيما يتعلّق بالذهب والفضّة والنقود، فإن الفارق أقل بين واقعها النفعي وموقعها من نفس الإنسان؛ أي أنّ الزينة فيها أقل من زينة النساء والبنين، بمعنى أنّ حبّ الإنسان لها هو قريب إلى واقعها من حيث منفعتها وخدمتها له. وتكون الزينة أقل ما تكون في عالم النبات والزراعة؛ فدرجة حبنا وانشدادنا إلى هذا العالم قريب جدّاً إلى واقعه المنفعي.

فهل من مُدّكر

جاء في الآيتين (**137، 138**) من سورة الصافات، وذلك تعقيباً على قصّة إهلاك قوم لوط:"**وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِين، وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ**". معلوم أنّ المرور في وضح النهار أدعى إلى الاعتبار، ومعلوم أنّ المرور بالليل لا يسمح بالنظر والتأمّل، فما السّر إذن في تخصيص الليل والصباح؟ اللافت للنظر هنا أنّ الآية تختم بقوله تعالى:" **أَفَلا تَعْقِلُونَ**"، ولم تختم:" **أَفَلا تُبْصِرُونَ**". وهذا يعني أنّه إذا استخدم العقل أمكن أن يتوصل الناس إلى أسرار هذا الإهلاك وما فيه من آيات لأهل التفرّس الباحثين عن سمات الأشياء وخصائصها:" **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ**" (الحجر: 75)

جاء في الآية **76** من سورة الحجر، عند الحديث عن مدائن قوم لوط:" **وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ**"، فهي إذن تقع في طريقٍ ثابت لم يندرس، وهو طريق مطروق يعرفه العرب في زمن الرسالة. ومعلوم أنّ أكثر الروايات التاريخيّة تشير إلى سدوم التي تقع في فلسطين، جنوب البحر الميت. ويبدو أنها كانت تقع في طريق القوافل المسافرة من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام. والذي يزور تلك المنطقة يلاحظ تضاريس غريبة توحي بحصول قلبٍ للأرض، كما جاء في القرآن الكريم:" **فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا...**" (الحجر:74)

جاء في الآية **37** من سورة القمر في حق قوم لوط، عليه السلام:"**وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ..**" إذن حصل إذهاب للأبصار، وهذا يجعلنا نفهم، بشكل أفضل، الوصية التي أوصت بها الملائكة لوطاً، عليه السلام:".. **فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ...**" (هود:**81**) فالالتفات قد يذهب بالبصر، أمّا زوجة لوط فسوف تلتفت:" **إلا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُم...**". وقد كانت هذه الوصية مشدّدة، بحيث لا بدّ أن يسير لوط، عليه السلام، خلف أهل بيته حتى يطمئنّ إلى التزامهم: " **فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَد..**" (الحجر:**65**). وحتى لا يكون ذهابهم إلى الجهة غير الصحيحة، جاء في تتمة الآية:" **وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ**"، إذ يبدو أنّ العذاب كان يتعلق **بإشعاعات تذهب بالأبصار**، ومن هنا لا يجوز الالتفات، ولا بد من الذهاب سريعاً، وقبل طلوع الفجر، خلف المناطق الجبليّة، بحيث تصبح الجبال حاجزاً يمنع من وصول هذه الإشعاعات في حال التفات البعض خطأ.

جاء في الآية **81** من سورة هود:" **إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْح**"، فالصُّبح هو موعد نزول العذاب بقوم لوط، أمّا شروق الشمس فسيكون موعد قلب المدينة ودفنها بمن فيها:" **فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِين، فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا...**"(الحجر:**73،74**) يبدو أنّ من حِكَم هذا القلب دفن وطمر تلك المواد المشعّة التي تشكل خطراً على الناس الذين يمرّون بالمنطقة. ويمكن التدليل على ذلك بقوله تعالى في الآية **38** من سورة القمر:" **وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ**"، فهو إذن عذاب له استقرار في

الأرض واستمرار، بل لقد بقيت العلامات الواضحة ذات الدلالات البيّنة:" **وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**"(العنكبوت35) فاستخدام العقل ومعطيات العلم يمكن أن يقودنا، على ضوء الآيات القرآنية الكريمة، إلى التوصل إلى تلك التفاصيل التي جاءت بها الآيات القرآنيّة، ليكون ذلك إعجازاً تاريخياً.

من أراد أن يبحث عن تلك المواد **المشعّة المدفونة**، فعليه أن يستخدم أجهزة القياس بالليل، أو في الصباح قبل شروق الشمس، لأنّ الشروق قد يجعل أشعّة الشمس تطغى على تلك الأشعة محتملة الوجود. وقد يلزم الحذر بالليل وعند الصباح، لأنّ فعالية ذلك الأمر المجهول كانت أصلاً في الصباح قبل طلوع الشمس:"**وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ**". معلوم أنّه في الصباح قبل طلوع الشمس تكون حدقة العين متّسعة تسمح بدخول كميّة أكبر من الأشعّة. واللافت للنظر أنّ القرآن الكريم نصّ على أنّ قوم لوط قد أمطروا بحجارة من **طين**، ثمّ نصّ على أنّ هذه الحجارة هي من **سجيل**، وأنّ هذا السّجيل **منضود**، ثمّ إنّ هذه الحجارة **معالجة** لعقاب أمثال أولئك الذين أسرفوا في المعاصي.

ذهب الكثير من المفسرين إلى أنّ **سجيل** تعني الطين المتحجّر، وجعلوا ذلك من تفسير القرآن بالقرآن. والذي نراه أنّ هذا قد يكون غير صحيح، لأنّ كل آية تلقي ضوءاً على معنى جديد. ولا يبعد أن يكون الكلام هنا عن مواد صلبة ذات إشعاع مستمر مسترسل، وذات إدرارٍ لا يتوقّف؛ لأنّ من معاني **السّجل** في اللغة العربية **الإرسال** وكذلك **العطاء**، بل إنّ بعض أهل الاختصاص قالوا إنه مثل الشيء الرَّسِل، أو مثل

العطية في الإدرار. وهذه المواد الصلبة المشعة قد تكون مغلفة بطين عند سقوطها من السماء، ثمّ هي مكونة وفق نظام يحقق فعاليتها بدليل قوله تعالى:"**سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ**"، ثم هي معالجة لتُحقّق الأهداف:"**مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ**".

جاء في الآية **83** من سورة الأعراف:" **فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ**". تكررت كلمة **الغابرين** في القرآن الكريم سبع مرّات، وذلك عند الحديث عن امرأة لوط، التي هلكت مع من هلك. وكلمة **غَبَر** هي من الأضداد؛ فهي تعني **ذَهَبَ**، وتعني أيضاً **بَقي**، وهي هنا بمعنى **بَقِي**. ويمكن أن يشير ذلك إلى حقيقة بقاء قوم لوط في صيغة مستحثّات في باطن الأرض. نعم إنها إشارات نرى أنها تستفز أهل الاختصاص من أصحاب العقول. وقد يحسن أن نختم بما خُتمت به قصة قوم لوط في سورة القمر:" **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ؟!**".

يأجوج ومأجوج

جاء في الآية **13** من سورة الحجرات:"..**وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**..."، وهذا يعني أنّ انقسام البشر إلى قبائل وشعوب وأمم هو أمر صحّي وإيجابي، بغض النظر عن العوارض السلبيّة لهذا الانقسام. والذي يهمنا هنا هو الإشارة إلى ماضي البشريّة الذي ساعد على تشكّل الشعوب والأمم، إلى درجة أنْ نجد اليوم الأسودَ والأبيض، والأصفر وغيره، بحيث يسهل التمييز، لاختلاف الأشكال والألوان والصور واللغات. ويبدو أنّ الانعدام النسبيّ لوسائل الاتصال في القديم ساعد على عزل الناس بعضهم عن بعض، وبالتالي ساعد على تشكّل الخواص المميزة للأمم والشعوب. وهذا يعني أننا نسير اليوم في الاتجاه المعاكس، نظراً لتطور وسائل الاتصال، وسقوط الحواجز بين البشر شيئاً فشيئاً.

يتحدث القرآن الكريم، في خواتيم سورة الكهف، عن قصة ذي القرنين، الحاكم القوي التقي العادل، الذي يجوب الأرض حاملاً رسالة الخير إلى الناس، فهو على خلاف ما عهدته البشريّة من حكم الجبابرة والمتسلطين. ويجدر أن نلفت الانتباه هنا إلى أنّنا لا نقصد بذي القرنين الإسكندر المقدوني، بل هو عبد صالح تضاربت الأقوال في اسمه وزمانه، ويرجّح البعض أنه كورش الفارسي. وما يهمنا هنا أن نلفت الانتباه إلى ما قام به من بناء عظيم يفصل بين أُمّتين، ويكون بذلك قد

ساعد الأمّة الضعيفة على النمو بعيداً عن إفساد أمّة يأجوج وأمّة مأجوج. وبهذا العمل يكون قد ساعد، **عن طريق العزل**، على تشكّل وتبلور شخصيّة أكثر من أمّة. واعتبر ذلك في حينه رحمة؛ جاء في الآية **98** من سورة الكهف:"**قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي**". ولكن مشيئة الله وحكمته أن لا يدوم هذا العزل:" **فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ، وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً** ".

عندما يأتي وعد الله باندكاك السدّ الحاجز تُترك الأمم ليختلط بعضها في بعض، جاء في الآية **99** سورة الكهف:"**وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ**..."، أي يُترك الناس في زمن معين ليختلط بعضهم في بعض، في صيغة موجات، أي يتمّ التداخل بين الأمم، ولكن بعد أن يكون لكل أمّة شخصيتها المتميّزة، أي مع احتفاظ كل أمّة بأسس شخصيتها التي تميّزها عن غيرها؛ **فالتنوّع في الأمم هو من أسرار التحضّر البشريّ، وهو من أسس اللقاء بين الناس.**

في البداية كان الناس أمّة واحدة، ثمّ كان الانفصال والانعزال والاختلاف، فتبلورت شخصيّات الأمم، ثمّ عاد الناس إلى الاختلاط والتعارف، وسقطت الحواجز، ويبدو أنّ هذا الاتجاه سيستمر إلى يوم القيامة، حيث جاء في الآية **99** من سورة الكهف".. **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً**"، ويبدو أنّ المقصود هنا مجموع البشر.

على ضوء ذلك يمكن تلخيص تاريخ البشريّة في مراحل ثلاث:

أ. مرحلة الأمّة الواحدة، وهذا في فجر البشريّة.

ب.مرحلة الاختلاف والتفرّق والانعزال وتبلور شخصيّات الأمم.

ج. مرحلة العالميّة، والتي تعني سقوط الحواجز والتقاء الأمم. وتستمر هذه المرحلة، على ما يبدو، إلى بدايات مرحلة التمهيد لعالم الآخرة .

يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم:" **وكان كلّ رسولٍ يبعثُ إلى قومه خاصّة، وبعثتُ إلى الناس عامّة**"، فالمرحلة الأولى والثانية تقتضيان أن يكون لكل أمّة رسول، **أمّا المرحلة الثالثة فاقتضت أن تكون الرسالة العالميّة العامّة، وذلك ببعثة الرسول، صلى الله عليه وسلم، ونزول الرسالة الإسلاميّة**، التي تستمر إلى قُبيل نهاية التاريخ البشري على الأرض. ثمّ تظهر العلامات الكبرى لبداية النهاية وقيام الساعة. ومن هذه العلامات انفتاح وانتشار شرور يأجوج ومأجوج، وذلك في صورة زحف يتّجه من الشرق إلى الغرب حتى يصل فلسطين، الأرض المقدسة، والتي شاء الله تعالى أن تتطهر، بين الحين والآخر، مما يلابسها من دنس وشرّ، فلا يُعمَّر فيها ظالم.

جاء في الآية **96** من سورة الأنبياء:"**حتى إذا فُتِحَت يأجوج ومأجوج...**"، كلمة **فُتحت** لا تحتمل لغة أن يكون ما سيفتح هو السدّ، كما توهّم الكثير من أهل التفسير محكّمين فهمهم في حقيقة اللغة. وكان أسلم لو قالوا إنّ قبائل يأجوج ومأجوج تنفتح بالشرّ. مع ملاحظة أنّ السدّ لم يرد ذكرهُ في السياق.

هناك احتمال أن يكون زمان ذي القرنين مُغرقاً في القِدم. ويبدو أنّ مهمّتهُ كانت تتعلق بإعطاء دفع لتطور الأمم المختلفة، والتي هي في مرحلة التبلور، وليس هناك ما يدل على اقتصار مهمّتهُ على الأمم الثلاث التي أشير إليها في سورة الكهف. ويتّضح لمن يتدبر الآيات

الكريمة أنّ كلّ أمّة من هذه الأمم كانت تختلف عن الأخرى؛ فالأولى بلغت من النضوج مبلغاً يجعلها مؤاخذة بأعمالها، والثالثة لا تكاد تفقه قولا، وهي مستضعفة ومعتدى عليها من قبل أُمّتين أصلهما واحد، بدلالة تقارب الاسمين، يأجوج ومأجوج، وبدلالة تحالفهما في العدوان على هذه الأمّة الضعيفة. إنّها أمّة تحسُّ بضرورة وجود حاجز يحفظها من عدوان الأقوياء، ويتيح لها أن تبلور شخصيتها بعيداً عن الآخرين. جاء في الآية 94 من سورة الكهف:" **قالوا يا ذا القرنينِ إنّ يأجوجَ ومأجوجَ مفسدونَ في الأرض، فهل نجعلُ لك خَرْجاً على أنْ تجعلَ بيننا وبينهم سدّاً**".

قام ذو القرنين بإيجاد الحل الناجح والناجع، والمحقق لبعض أهداف تجوالهِ وجَوبِه في الأرض؛ فهذا الحل يعزل الأمم عن بعضها فيُتيح تبلور شخصيّاتها في تلك المرحلة، التي سيليها مرحلة اختلاط الأمم، وهذا في حينه سيكون رحمة من الله تعالى بالناس:"**قال هذا رحمةٌ من ربيّ**..."، وفي الوقت الذي يفقد فيه الردم الحاجز وظيفته لا بدّ أن يزول:"..**فإذا جاء وعد ربّي جعلهُ دكاءَ**.."، وهذا لا بدّ أن يحصل، لأنّهُ تقدير ربّ الناس ومربّيهم:".. **وكان وعد ربّي حقّاً**"، وسيكون هذا الاندكاك متزامناً مع بدايات المرحلة الأخيرة، والتي هي مرحلة اختلاط الأمم وموج بعضها في بعض، كما ألمحنا.

جاء في الحديث الشريف أنّ الرسول، صلى الله عليه وسلم، استيقظ من نومهِ فزعاً وقال:" **ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب؛ فتح اليوم من ردم يأجوج**..."، وهذا يشير إلى تزامن بدايات انهيار السدّ مع بداية

مرحلة العالميّة واختلاط الأمم، والتي جاء الإسلام ليحققها. ولا شكّ أنّ كلمة (يختلط) لا تفي هنا بالغرض، بل (يموج)، لأنّ الاختلاط لا يدل على الكثرة الهائلة، ولا يشير إلى التداخل مع الاحتفاظ بالخصائص المُميّزة، وكل ذلك بعض إيحاءات كلمة **يموج**. أما كلمة (تركنا)، في قوله تعالى:" **وتركنا بعضهم يومئذٍ يموجُ في بعض**..."، فتوحي **بالمنع** السابق.

تستمر مرحلة موج الأمم في بعضها إلى يوم القيامة:" وتركنا بعضهم يومئذٍ يموجُ في بعض، **ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً**"، ولكنّ هذا الموج لا يذهب بخصوصيّات الأمم وتميّزها، بدليل أنّ يأجوج ومأجوج الذين أفسدوا في مرحلة تبلور خصوصيّات الأمم سيعاودون الكرّة فيكون إفسادهم من العلامات الكبرى لقيام الساعة. وبدليل وجود العرب الذين يصيبهم البلاء الشديد عند خروج يأجوج ومأجوج كما جاء في الحديث الشريف. وفي الوقت الذي تقترب فيه وظيفة الدين الدنيويّة من نهايتها تقترب نهاية وظيفة العرب أيضاً.

خلاصة الأمر أنّ الأمم التي تبلورت قديماً ستبقى متميّزة، على الرغم من اتجاه البشريّة نحو العولمة، فاختلاط الناس إلى يوم القيامة لن يذهب بالأسس المميزة لشخصيّات الأمم العريقة. وسيبقى التميّز والتنوّع من أهم أسس التحضّر البشري. وستبقى الأمم هي المحضن الذي يُلهم قيم الانتماء، ويؤسس في النفوس معاني الالتزام. وستخفق كل مخططات الشرّ التي تريد أن تجعل من العولمة وسيلة لإفساد الناس،

ومسوغاً للاعتداء على خصوصيّات الأمم، من أجل تحويل البشريّة إلى قطعان يسهل السيطرة عليها واستغلالها. وصدق الله العظيم:".. **إنّ كيدَ الشيطانِ كانَ ضعيفاً**".

وكيف تصبر؟!

هل يُضير الرسول أو ينقص من قدره أن يكون تابعاً في طلب العلم؟! هذا موسى، عليه السلام، يسعى إلى العبد الصالح يطلب عنده المعرفة: "**قال له موسى هل أتبعك على أنْ تعلمن مما عُلمتَ رُشداً**" (**الكهف:66**) ولكنّ العبد الصالح يعلم أنّ ما لديه من علم ربّاني تقصر عنه الحكمة البشريّة، فيقول لموسى، عليه السلام:".. **إنّك لن تستطيعَ مَعِيَ صبراً، وكيف تصبرُ على ما لم تُحط به خُبراً** "، إذن ليس من السّهل أن يَصبر موسى، عليه السلام، لأنّه لن يدرك مرامي أفعال العبد الصالح، بل إنّ صبره عندها سيكون عجيباً:" **وكيف تصبر؟!**" وهذا ما حصل فعلاً، فقد بادر، عليه السلام، بالاعتراض، وتكرر منه ذلك حتى بعد أن تمّ تذكيرهُ أكثر من مرّة:" **قال ألم أقل لك إنّك لن تستطيع معي صبراً**".

ليس من السهل إذن أن يصبر الإنسان حتى يدرك الحكمة. ويكون كمال الصبر عندما يتحقق كمال الإحاطة، والذي لن يكون في عالم القصور البشري. من هنا يكون النجاح للعقائد والأفكار التي تقدّم المعرفة والبرهان، ويكون النجاح للمربي الذي يغرس في العقول والقلوب القناعات الأقرب إلى الحقيقة، ويكون النجاح للقائد الذي نؤمن به قائداً في عالم الفكرة، فنخلص له بمقدار ما يخلص هو للحقيقة.

هذا إبراهيم، عليه السلام، يدعو ربّه:".. **ربّ أرني كيف تحيي الموتى، قال أولم تؤمن؟! قال بلى ولكن ليطمئنّ قلبي..**" (البقرة:260) وهذا موسى، عليه السلام، يرجو ربه:"**ربّ أرني أنظر إليك**"، ولكن أنّى لبشر أن يطيق ذلك في قانون الدنيا. ومن هنا لا بد من تقريب هذه الحقيقة إلى موسى، عليه السّلام، ليقتنع ويطمئنّ قلبه:".. **قال لن تراني، ولكن انظر إلى الجبل فإنْ استقر مكانه فسوف تراني**" (الأعراف: 143)، فالاستسلام الحقيقي هو استسلام العارفين، والانقياد الجوهري هو انقياد المقتنعين، ولا فلاح لمنهج ولا فكرة لا تقيم بناءها على أساس من المعرفة والاقتناع. ونحن هنا نهدف إلى لفت الانتباه إلى حاجة الناس إلى البرهان، وحاجتهم إلى معرفة الحكمة من وراء التشريع، حتى في الشعائر التعبديّة. أمّا قول العلماء إنّ العبادات لا تعلل، فإنّها قضية أخرى لا علاقة لها بالحكمة. وحتى عندما يعجز العقل البشري عن إدراك الحكمة فإنّه بالإمكان تقديم الدليل على هذا العجز، وعندها تتحقق القناعة المطلوبة، كما حصل عندما طلب موسى، عليه السلام، أن يرى الله تعالى .

حتى أولئك الذين يستسلمون بمجرد التحقق من الدليل الشرعي، المستند إلى القرآن الكريم والسنّة المشرّفة، نجد أنّ استسلامهم يقوم على أساس من القناعة التي نسميها إيماناً، ولكنّ هذا الاستسلام تشوبه شوائب الحيرة والتساؤل عندما يتعارض ظاهر الأمر مع أساسيّات الدين، كما حصل في قصة موسى، والعبد الصالح؛ حيث لم يصبر موسى، عليه السّلام، واستنكر قتل الصبي، وخَرْق السفينة، لأنّ ظاهر هذه

الأفعال يتناقض مع الإصلاح الذي أمر به الدين. إنّ ما فعله العبد الصالح كان بوحي ربانيّ، لذلك قال:" **وما فعلتُه عن أمري**". ولا ننسى أنّ اتّباع موسى، عليه السلام، للعبد الصالح ابتداءً كان بوحي ربّاني .

إذا كنّا بحاجة دائمة إلى استجلاء الحكمة من وراء النص الديني، وإذا كان استسلامنا لله الخالق لا يعني استسلامنا لكل ظواهر النصوص، وإذا كانت الملائكة قد تساءلت عن الحكمة:" **أتجعلُ فيها من يفسدُ فيها ويسفك الدماء**"، فماذا يمكن أن نقول في أولئك الذين يريدون أن يجعلوا من الشعوب أغناماً تُقاد، وماذا نقول في الديكتاتوريّات التي ابتليت بها الأمّة فكانت صوراً مكررة لفرعون وهو يقول:" **ما أريكم إلا ما أرى**"؟!

لأَقتُلنّك

جاء في الآية 27 من سورة المائدة:"**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**".

لم يبق الأمر في دائرة التهديد، بل تعدّى ليصل بابن آدم الأول إلى أن يقتل أخاه، وذلك حسداً له أن اختاره الله تعالى وتقبّل منه**!!** ومن قبل هذا الحدث وجدنا إبليس يعصي أمر ربّه، فقد عَظُم عنده أن يختار الله آدم ونسله للخلافة؛ فالسجود لآدم، عليه السلام، يعني الاعتراف والإقرار والقبول بتأخُّر عالم الجن لصالح تقدّم البشر ممثلين بآدم، عليه السّلام. وقد كشفت هذه الحادثة عن مرض الكِبر المتمكن من نفس إبليس. ومعلوم أنّ إبليس لا ينفرد بهذه النقيصة، بل إنّ الكِبر هو الدافع الأقوى في صد الناس عن طريق الحق والحقيقة.

اختار الله تعالى إبراهيم، عليه السلام، واصطفاه، ثم اصطفى من نسله إسماعيل وإسحاق، عليهما السلام، واصطفى من نسل إسحاق يعقوب، عليه السلام، الذي انتظر بلهفة أن يصطفي الله من نسله أحدَ أبنائه، إلى أن جاءه يوسف، عليه السلام، يقول:"**إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**"، فأدرك يعقوب، عليه السلام، أنّ الله تعالى قد اختار يوسف على سائر إخوته، فحرص على كتمان الأمر، لاحتمال أن يؤدّي ذلك إلى حسد

وتباغض، فقال:" **قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ للإنسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ**"، فاختيار يوسف الصغير على باقي إخوته مظنّة الحسد لدى بعضهم، وعلى وجه الخصوص الكبار منهم، والذين يتوقون أن يختار الله تعالى أحدهم. ولا ننسى أنّ الروايات تذكر أنّ يوسف، عليه السلام، كان أخاهم لأبيهم، أمّا هم فيغلب أن يكونوا أشقّاء.

انتظر اليهود طويلاً بعد موسى، عليه السلام، آملين أن تكون الرسالة الخاتمة فيهم، وأن يكون الرسول الخاتم منهم. فلمّا بُعث عليه السلام في العرب، دفعهم الحسد والكِبر إلى الصدّ والتكذيب، بل إنّ الاعتقاد اليهودي بعقيدة الشعب المختار دفعهم إلى أن يكونوا الأشد عداوة للرسالة الإسلاميّة، وهم في ذلك يماثلون إبليس في موقفه من آدم، عليه السلام، وفي عداوته للبشر. ويبقى الكِبر هو الدافع الرئيس لكبار المعاندين، وأكابر المجرمين، أمّا أصحاب النفوس الزكيّة من أهل التواضع فيَعجَبون من مواقف أهل الكِبر، ولا يزالون حائرين، لا تطيق أفهامُهم مسلك أهل الحسد.

واليوم يَعجبُ المسلمون من الموقف الغربي من الإسلام، فقد خُدِعوا طويلاً بشعارات الحريّة والمساواة وحقوق الإنسان، ثمّ هم اليوم يقفون أمام الحقيقة؛ فحرية الاعتقاد يُقصد بها إذن حرية الإلحاد، فهم يفضلونك علمانياً أو حتى ماركسياً، أمّا أن تكون مسلماً فهذا غاية الاستفزاز، لماذا؟! نقول : لقد بات معروفاً أنّ علاقة المسلم بدينه تُميّزهُ عن سائر الناس؛ فنظرته للدين تختلف، وتصديقه يختلف، ويقينه

يختلف، بل لقد بلغ هذا اليقين درجة جعلته يعتقد جازماً أن لا حقيقة غير الإسلام، لذا فهو وحده المتّهم بأنّه يدّعي ملكية الحقيقة، وهذا لأنّ سلوكه تجاه دينه، وتجاه الآخرين يُصرّح بذلك، وهو لا يرى وجود أكثر من دين حق. إنّه الوحيد الذي لا يهمّه إن وصَفَتْه الأديان الأخرى بأنّه كافر، فهو لا يأبه بذلك، لأنه لا يشكّ لحظة أنّه على الحق. وهو الذي يطلب منه الآخرون أن لا يصفهم بالكفار، ثمّ هم يحاورونهُ من أجل أن يؤخذ منه التصريح والاعتراف. وهو وحده الذي يرى أنّ الإيمان يكون بالعقل والقلب، وبالتالي لا بد من الدليل. إنّه الوحيد الذي يعتقد جازماً بوراثته للدين الحق، وبأحقيّته بالقيادة الدينية. **كل ذلك لأنّه يملك الدليل والبرهان.**

بعد كلّ ما قلناه، كيف لا يُستفزّ الغربي من الإسلام ومن الصحوة الإسلاميّة؛ فالغرب يرى نفسه الأول في هذا العالم، ويرى أنّه المُلهِم للبشريّة، والوصي على الإنسانيّة، وتراه يشمخ عندما يرى الناس يتهافتون على صناعته، ويتلقّفون إنتاجه. ولكن عندما يصل الأمر إلى عقيدته وثقافته، تستفزه نظرة المسلم الفوقيّة، والتي تُشعره بتهافت تلك العقيدة وسخافتها. نعم، إنّه الدافع الذي دفع ابن آدم الأول أن يقول لأخيه: "**لأقتُلنّك**".

ثمّ ادعُهنّ

جاء في الآية **260** من سورة البقرة:" **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ، قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي...**"، واضح في السياق أنّ إبراهيم، عليه السّلام، يطلب أن يرى كيفيّة إحياء الموتى. فهو إذن يؤمن بأنّ الله تعالى يحيي الموتى، ولكنّ نفسه، عليه السلام، تتوق إلى معرفة كيفيّة هذا الإحياء. ولكن أنّى لبشر أن يرى الكيفيّة في جوهرها. وحتى لو دبّت الحياة في ميّت والناس ينظرون، أو اجتمعت الأجزاء المتفرقة وهم يبصرون، فهل يعني ذلك أنّهم قد عرفوا كيفيّة إحياء الموتى؟! إنّ جوهر الكيفيّة هو من الأسرار التي تزال تحيّر العقول، ولا تدركها الأبصار. وعليه كيف يمكن أن نُقرّب مثل هذه الحقيقة إلى الأفهام؟!

لقد جاء الرّد في الآية نفسها من سورة البقرة:".. **قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً...**" قال بعض أهل التفسير إنّ معنى كلمة **فَصُرهُنّ** أي قطّعهنّ، وهذا عجيب، لأنّ الصّر فيه معنى الضّم، والتقطيع فيه تفريق. ويبدو أنّ الذي حملهم على هذا قوله تعالى:" **ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً** "، ومعلوم أنّ الواحد هو جزء من الأربعة، والأربعة الطيور يمكن أن تكون أربعة أنواع يكون مجموعها أكثر من أربعة، وقد ورد في سورة الحِجر:"**وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ، لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ**

مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ "، فهل المقصود **بالجزء** هنا بعض إنسان أم عدد من النّاس؟! وعليه فلا داعي لأن تُصرف لفظة **فصرهنّ** عن ظاهر معناها الذي هو الضّم والتقريب.

" **ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً**"، لو كان المقصود تفريق قطع الطيور الميتة على الجبال، كما يقول البعض من أهل التفسير، لكان هذا من أعجب العجب، لأنّ المطلوب هو رؤية كيفيّة الإحياء وتجميع الأشلاء، ويكفي، لتحقيق المطلوب، طير واحد، ولا بد أن يكون قريباً وتحت النّظر. أمّا تفريق الأبعاض على الجبال فلا يجعلنا نبصر كيفيّة الإحياء. وما يُدرينا عندها أنّها الطيور نفسها التي قُطّعت؟! وحتى لا نقع في مثل هذه التناقضات لا بُدّ أن نأخذ المعاني وفق الدلالات الظاهرة.

لقد طُلب من إبراهيم، عليه السلام، أن يأخذ أربعة من الطير، أو من أنواعها، ثم **يضمّها إليه حتى تألفه**، وبعد أن تتحقق الألفة المطلوبة يفرّقها في رؤوس الجبال، التي لا ندري عددها ولا ندري مدى بعدها وقربها، وبعد تفريقها يقف ويدعوها إليه، وسيجد أنّها تأتيه طائعة مسرعة. وهذه صورة أصبحت اليوم مألوفة ومتكررة، وعلى وجه الخصوص لدى أهل الخليج الذين يُعَلّمون الصقور كيف تطير في جو السماء ثمّ تعود مسرعة عندما تُدعى وتنادى باللغة التي ألفتها واعتادتها.

معلوم أنّ الطيور هي الأشدّ نفوراً بين الكائنات التي تعايش الإنسان في الأرض، بل لقد عَدّ بعضهم اقتراب الطير من إنسان بعينه نوعاً من الكرامات. إلا أنّ هذه الفطرة في الطير يمكن أن تتغيّر بالألفة.

وبهذا ينكشف لنا بعض أسرار استغراب الناس إحياء الموتى؛ فهم يعجبون من غير المألوف، ولا يعجبون من المألوف، على الرغم من أنّ الإعجاز في الخلق يتجلى في كل مظاهر الكون. فلماذا لا يعجب الناس، مثلاً، من تكوّن الجنين، ونزوله طفلاً كاملاً؟! **إنّها الألفة.** ولو كان الموتى يعودون إلى الحياة لأصبح ذلك واقعاً مألوفاً لا يدعو إلى العجب. وإذا كان واقع الطير أنّه شديد النفور، فقد أمكن تغيير هذا الواقع، وأصبح الأمر في دائرة الممكن غير المستغرب. إنّ في الموت تحللاً وتفرّقاً، أمّا الحياة فتآلف واجتماع. وليس هذا في الكائنات الحيّة فقط، بل نجده في الاجتماع البشري؛ فتحلل المجتمع وتفرّق النّاس نذير موت لهذا المجتمع، أمّا التآلف والاجتماع فمن أبرز مظاهر الحياة فيه.

جاء في الآية **16** من سورة ق:" **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**"، وجاء في الآية **25** من سورة الروم:".. **ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ**". لقد طُلب من إبراهيم، عليه السلام، أن يُقرّب الطيور وأن يضمها إليه، وبعد أن تحصل الألفة تكون الدعوة فيكون الاجتماع:" **ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً** ". وهذا سرٌّ آخر؛ **فالقرب الشديد الذي ينتج عنه تآلف يجعل من السهل العودة بعد التفرّق**، فكيف بالله القدير الذي هو أقرب إلينا من حبل الوريد!!

إنّ الموت تفرق وتنافر على مستوى الجسد المادّي، وعلى مستوى علاقة الروح بهذا الجسد. أمّا الحياة فإنّها تآلف وانجذاب على مستوى الجسد ومكوناته، وعلى مستوى علاقة الروح بهذا الجسد

المتآلف، وكلما ازداد القرب ازداد الانجذاب، وكلما ازداد الانجذاب ازداد القرب، وعندما يكون هناك تآلف في عالم المعنى لا يضر البعد في عالم المادّة.

إنْ لبثتم إلا عشراً

جاء في الآية **52** من سورة الإسراء:"**يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنّون إن لبثتم إلا قليلاً** "، وجاء في الآية **112** و **113** من سورة المؤمنون:" **قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين، قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم...**"، وجاء في الآية **45** من سورة يونس:"**ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم**". هذه الآيات وغيرها تكشف عن حقيقة الشعور الإنساني يوم القيامة بسرعة انقضاء الحياة الدنيا، وسرعة مضي عالم البرزخ، فالذاكرة البشريّة يومها تكون مشغولة بما هو أهم وبما هو أخطر، ثمّ إنّ مدّة الدنيا وعالم البرزخ في قانون الآخرة لا تزيد عن وحدة صغيرة من الزمن، كيف لا، والنهائي لا يذكر في جانب اللانهائي!!

ثلاث آيات من سورة طه تطرح نسبيّة الزمن في الإدراك البشري، ليس فيما يتعلّق باللبث الدنيوي، ولا فيما يتعلّق بمدّة عالم البرزخ، بل تتعلّق بيوم الحشر الذي لا ندري كم يستمر، وإن كانت الأحاديث الشريفة تنص على طول ذلك الموقف، ولكنه في النهاية ينقضي ليكون الخلود الذي لا يتناهى، وعلى وجه الخصوص في عالم السعادة.

جاء في الآيات(**102،103،104**) من سورة طه:" **يوم يُنفخ في الصّور ونَحْشُر المجرمين يومئذٍ زُرقا، يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا**

عشراً، نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقةً إن لبثتم إلا يوما".
تتحدث الآيات الكريمة عن حشر المجرمين وما فيه من ضيق ومعاناة إلى درجة أن تَزرقّ الجلود، وهذا، في حدود علمنا، ينتج عن نقص الأكسجين، ويزيد ذلك في معاناة المحشورين. وعند بعض أهل الاختصاص ينتج ذلك عن الخوف الشديد في المواقف التي ينعدم فيها الأمل في النجاة، مما يجعل الدم يندفع باتجاه الجهاز الهضمي بدلاً من أن يندفع إلى الجلد والعضلات. مثل هذا الواقع المضني يجعل الإنسان حساساً تجاه الأصوات والكلام، لذا فهم:"**يتخافتون بينهم**"، فكل واحد منهم يطلب من الآخر أن يغضض من صوته. وعلى الرغم من ذلك فإنّ هناك قضيّة في غاية الأهميّة تجعلهم يتساءلون بينهم بأصوات خافتة؛ فطول الموقف ورهبته وشدّته تجعلهم يتساءلون عن طول أمد موقفهم، وكم مضى من الوقت على معاناتهم. وهنا يتّضح أنّ أقوالهم متضاربة، ومتفاوتة تفاوتاً كبيراً، عندها يتدخل البعض، ليحسموا المسألة بظنّهم، فيقولون:"**إن لبثتم إلا عشراً**"، فلم تزد المدّة عندهم عن هذا الحد. وإذا كان الحديث يتعلّق هنا بمفهوم النسبيّة، نتيجة التفاوت في الشعور البشري، فإنّ معرفة متعلّق العشر المذكورة لا يلزم.

إنّ الله تعالى هو الأعلم بأقوالهم هذه ومدى مطابقتها للواقع: "**نحن أعلم بما يقولون**": فهذه الأقوال كلها مجافية للواقع، ولكن أقلهم إجراماً، وبالتالي أمثلهم طريقةً وسلوكاً في عالم الحياة الدنيا، يذهب إلى أنّ لبثهم لم يتجاوز مقدار اليوم، يقول:"**إن لبثتم إلا يوماً**". وبذلك يتبين لنا سر اختلافهم في تقدير زمن لبثهم؛ فقد ظهر أنّ إحساس النّاس

بالوقت يوم الحشر يتفاوت بتفاوت أعمالهم في الدنيا، وبمدى صلاحهم أو فسادهم. وهذا يعني أنّ هول الموقف يتعلق بمدى صلاح الإنسان، أي أنّ هناك تناسباً عكسيّاً بين الصلاح والشعور بهول الموقف ومداه. على ضوء ذلك يمكن أن نفهم بشكل أفضل الأحاديث الشريفة التي تتحدّث عن أهوال الموقف يوم القيامة.

القِوامة حقٌ للمرأة

جاء في الآية **34** من سورة النساء:"**الرّجالُ قَوّامونَ على النساءِ بما فَضّل اللهُ بعضَهُم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم...**".

"**الرجال قوّامون على النساء**":

القوّام: هو من يكثرُ من القيام، ومن هنا نقول:" فلان صوّامٌ قوّامٌ"، أي كثير الصيام وكثير القيام. وعليه فإنّ من أهم وظائف الرجال الأساسيّة كثرة القيام على شؤون النساء. واللافت هنا أنّ الصيغة هي صيغة تقرير مُشْعِرةٌ بأنّ الأمر قانون فطري.

"**بما فَضّل اللهُ بعضَهُم على بعض**":

الكثير من أهل التفسير يذهبون إلى أنّ المعنى: بما فضلهُم عليهنّ. وهذا مذهب تدعو إليه الأفكار المُسبقة لدى الكثيرين والمتعلقة بنظرتهم الخاصّة إلى المرأة. أمّا النّص القرآني فهو في غاية الوضوح، حيث يقول سبحانه وتعالى:" **بما فَضّل اللهُ بَعضَهُم على بعض**"؛ فالرجل مُفضّل على المرأة، والمرأة مفضّلة على الرجل. ومعلوم أنّ **الفضل في اللغة هو الزيادة**. ولا شكّ أنّ لدى الرجل زيادة شاءها الخالق الحكيم لتتناسب مع وظيفته، ولدى المرأة زيادة تتناسب مع وظيفتها. وعليه لا نستطيع أن نُفاضل بين الرجل والمرأة حتى نُحدّد الوظيفة، تماماً كما هو

الأمر في الطبيب والمهندس؛ فإذا كان المطلوب بناء بيت فالمهندس أفضل، والطبيب أفضل عند مقاومة الأمراض... وهكذا.

إذا كان الأمر كذلك، فلماذا إذن يُكثِر الرجالُ من القيام على شؤون النساء؟! والجواب هنا: أنّ الفضل الفطري لدى الرجال اقتضى واجباً عليهم تجاه النساء، وفضل النساء اقتضى حقاً لهنّ على الرجال؛ ففضل الرجل أنتج واجباً، وفضل المرأة أنتج حقاً. ولا شك أنّ بعض جوانب فضل الرجل الفطرية (زيادته) جعلته الأقدر على الكسب في الواقع الاقتصادي، أمّا فضل المرأة فقد أعاق قدرتها على الكسب، لذا فقد أنتج فضل الرجل في هذا الجانب واجباً، في حين أنتج فضل المرأة حقاً. وبناءً على ذلك كان الرجل هو الأكثر قياماً على شؤون المرأة، لما أنتجه فضلُهُ من واجبات، ولما أنتج فضل المرأة لها من حقوق.

اللافت في الاجتماع البشريّ أنّ القيام بالواجب يُنتج حقاً يُكافِئ القيام بهذا الواجب. واللافت أنّ كلّ وظيفة في المجتمع يقابلها من الحقوق ما يكافئها ويساعد على القيام بها؛ فرئيس الدولة، مثلاً، هو أعظم الناس مسئوليّة وبالتالي هو الأعظم حقاً. وبقدر تحمّلِه للمسئوليّة يقابله الناس بمردود من الحقوق تساعده على القيام بوظيفته. والشُرَطيّ هو صاحب مسئولية تَفرضُ حقوقاً تساعده على القيام بواجبه، وطاعته من قبل الجماهير مفروضة اجتماعيّاً. وفي الوقت الذي يشعر فيه الناس بتفريطه وتقصيره بواجبه يقابلونه بالعصيان والرفض والاحتقار. أمّا الطاعة والقبول والاحترام فلأولئك الذين يُخْلِصون ويقومون بواجبهم خير قيام.

فإذا كان الرجل قوّاماً يؤدّي واجباته ويمارس وظيفته، فلا بدّ أن يقابل ذلك ما يُكافئه من الحقوق. والعجيب أنّ معنى القِوامة عند الكثيرين يُرادف معنى الحق الذي هو للرجل على المرأة، في حين أنّ معنى القِوامة في اللغة يشير بوضوح إلى الواجب الذي هو على الرجل تجاه المرأة، أي أنّه حقّ المرأة وليس حقّ الرجل. أمّا حق الرجل فهو الأثر المترتب على قيامه بواجبه، وهو المردود المتوقّع نتيجة القيام بالوظيفة.

إذ تسوّروا المحراب

"وهل أتاكَ نَبأُ الخصمِ إذ تسوّروا المِحراب. إذ دخلوا على داودَ ففزِعَ منهم، قالوا لا تَخفْ خَصمانِ بَغى بَعضُنا على بعض، فاحكم بيننا بالحقّ ولا تُشطط واهدنا إلى سواء الصراط. إنّ هذا أخي له تسعٌ وتسعونَ نعجةً ولِيَ نعجةٌ واحدةٌ فقال أكفِلنيها وعَزّني في الخِطاب. قال لقد ظلمكَ بسؤالِ نَعجتِك إلى نِعاجه، وإنّ كثيراً من الخُلطاء ليبغي بعضُهم على بعض، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وقليلٌ ما هم. وظنَّ داودُ أنّما فَتنّاهُ فاستغفرَ ربّه وخَرّ راكعاً وأناب. فغفرنا له ذلك، وإنّ له عندنا لزُلفى وحُسنَ مآب. يا داودُ إنا جعلناكَ خليفةً في الأرضِ فاحكم بين الناس بالحقِّ ولا تتبعِ الهوى فَيُضِلَّكَ عن سبيل الله. إنّ الذين يَضِلُّون عن سبيل الله لهم عذابٌ شديدٌ بما نَسوا يومَ الحِساب" (ص: **21- 26**).

تفسير هذه الآيات الكريمة يصلح مثالاً صارخاً على مجافاة بعض أهل التفسير لظاهر النص القرآني جرياً وراء الإسرائيليات التي ألقت بظلالها السلبيّة على أفهام الكثير من القدماء والمعاصرين. ونحن هنا نفترض أنّ القارئ على دراية بمسلك المفسرين عندما يفسرون هذه الآيات الكريمة. وما نهدف إليه في هذه العُجالة هو إلقاء الأضواء على

جوانب هي في رأينا مفاتيح تساعد في فهم بعض دلالات كلام الله الحكيم.

"**وهل أتاكَ نبأ الخَصْمِ إذ تسوّروا المحراب**": واضح في النص الكريم أنّ المتخاصمين هم جماعة وليس فقط الأخوان، بدليل قوله تعالى: " **إذ تسوّروا... إذ دخلوا**"، وبدليل قولهم: "... **خصمان بغى بعضُنا على بعض**...". فهُم جماعة منقسمة إلى قسمين متخاصمين، وهذا يعني أنّ الإشكال لم يكن مقتصراً على الأخوين.

"**إذ تسوّروا المحراب**": هذه من العبارات المفتاحيّة، والتي تساعد على فهم حقيقة ما جرى؛ فهناك جماعة مضطرة أن تأتي البيوت من ظهورها، وهذا يدل على عدم إمكانية أن يدخلوا من الباب. أما ذكر المحراب فيشير إلى أنّ داود، عليه السّلام، كان قد اختلى بنفسه ليعبد الله تعالى، وقد جاء في الحديث الشريف أنّ داود، عليه السّلام، كان أعبدَ الناس.

"**إنّ هذا أخي له تسعٌ وتسعون نعجة ولي نعجةٌ واحدةٌ فقال أكفلنيها وعَزّني في الخطاب**": من المستبعد أن يطمع الأخ الغنيُّ بنعجة أخيه، ولا يحصل مثل ذلك إلا في حالات شاذّة ومَرَضِيّة. والأقرب إلى ظاهر النص الكريم أنْ نقول إنّ الأخ الغني قد طلب من أخيه أن يَضُم نعجته إلى باقي النعاج لترعى معها، لأنّ ذلك أصلح لها، وأرفق به أن يجعلها مع باقي الغنم. ومثل هذا الأمر متوقع أن يكون بين الأخ وأخيه، بل هذا ما تفرضه أدنى درجات الأخوّة وصلة الرحم.

"**فقال أكفلنيها**": هو إذن يريد أن يجعلها في كفالته، ولا يوجد في النص الكريم ما يشير إلى أنّه كان يريد أن يتعدّى على حقّ أخيه فيغصبها. ومتى كانت الكفالة في اللغة تعني الأخذ والاغتصاب؟! أمّا في القرآن الكريم فلم ترد الكفالة إلا بمعنى الحفظ والرعاية والضمانة، من مثل قوله تعالى، في حق مريم، عليها السّلام: "**وكفّلها زكريا**...". ويبدو أنّ الأخ الغني كان حَريصاً على مصلحة أخيه فألحَّ عليه في طلب ضمّ النعجة إلى باقي النعاج لتكون في كفالته:"**وعَزّني في الخطاب**".

من هنا كانت البداية، وهي صورة تتكرر في المجتمعات الإسلاميّة؛ فأنت تجد دواعي الأخوّة تمنّع الكثيرين من اقتسام الميراث، بعد وفاة المُورِّث، مما يؤدي إلى تداخل الحقوق وتشابكها، بحيث يصعب فيما بعد الفصل في هذه الحقوق من غير إلحاق ظلم بطرف من الأطراف. وبمرور الوقت تدخل أطراف أخرى مثل الزوجات والأحفاد والأصهار وغيرهم، وتكون الشحناء والبغضاء وقطع الرحم، في حين أنّ الدوافع الأصليّة كانت الرغبة في صلة الرحم.

"**قال لقد ظلمَكَ بسؤالِ نعجتِكَ إلى نعاجه**": نعم، هذا هو الأصل الذي ولّدَ الظُلم؛ فعندما طَلَبَ منك أن تضُمّ نعجتك إلى نعاجه، باسم الأخوّة، كان ظالماً لك، لأنّ ذلك أدّى إلى اختلاط الأمور وتداخل الحقوق، ودخلت في الخُصومة أطراف أخرى.

يمكن تصوّر ما حصل على الصورة الآتية: الأخ الغني يطلب من أخيه، رحمة به، أن يَضُمّ نعجته إلى نعاجه الكثيرة. ومضت الأيّام، وبما أنها نعجة أنثى فمن المتوقع أن تكون قد توالدت وتكاثرت، ولا يبعد

أن يكون هناك رعاة يرعون الغنم على قِسم، كما هو عادة الكثير من القدماء. وبما أنّه لم يتم ابتداءً الاتفاق على تفاصيل الأمر، أهو مشاركة أم هو مجرد كفالة تطوعيّة، فقد نشأ نزاع بين عدّة أطراف. وهذا التصوّر يساعدنا في فهم كونهم جماعة متنازعة:".. **بغى بعضُنا على بعض**"، "... **وإنّ كثيراً من الخُلطاء ليبغي بعضُهم على بعض...**".

"**يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق...**": من كان في مثل هذا الموقع يكون مسئولاً عن الفصل بين الناس، ومن قَبلِ ذلك يكون مسئولاً عن هدايتهم إلى سواء الصراط، وهذا يقتضي أن يُنفق معظم وقته في إرشاد الناس وتعليمهم ووعظهم، والفصل بينهم فيما أشكل عندهم. ومعلوم أنّ إنفاق الوقت في تعليم النّاس وقضاء حوائجهم والقيام على مصالحهم مُقدّم على التفرّغ لعبادة الصلاة. أمّا أن يُكثر داود، عليه السلام، من التعبد في محرابه، حتى يضطرهم إلى أن يتسوّروا المحراب ليصلوا إليه، فأمر يحتاج إلى تذكير وتنبيه. وقد كانت هذه الحادثة هي المُنبّه لداود، عليه السلام، فسارع إلى الإنابة والاستغفار.

"**وظنّ داودُ أنّما فتنّاه**": نعم، هذه الحادثة جعلت داود، عليه السّلام، يتنبّه إلى بعض وجوه التقصير التي يمكن أن يكون قد دفعه إليها حبّه التفرّغ للعبادة، فأدرك، عليه السّلام، أنّه قد امتحن من أجل تنبيهه إلى الأولويّات التي يجب أن يتنبّه إليها.

"**وظنّ داودُ أنّما فتنّاهُ فاستغفرَ رَبّه وخَرَّ راكعاً وأناب، فغفرنا له ذلك...**" إنّ مقام النبوّة يقتضي حساسية شديدة تجاه أي تقصير، أو حتى

أدنى غفلة عن الأولويّات، وإن حصلت مثل هذه الغفلة فلا تلبث أن تزول، ولا يلبث النبي أن يُنيب إلى الله تعالى. ولا يجوز هنا أن يذهب بنا الخيالُ مذاهب، فنتصوّر أنّ النبي يستغفرُ من كبيرة، بل إنّ الاستغفار هو ديدن الأنبياء، فهذا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يستغفر الله تعالى في اليوم مائة مرّة. وصدق من قال:"حسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المقرّبين"، فشتّان بين دواعي استغفارنا ودواعي استغفارهم، عليهم السّلام.

نظرات في سورة يوسف

- الرؤى تصنع الأحداث
- وقطّعن أيديهنّ
- وأعلمُ من الله
- نحن عُصبة!!
- اجعلني على خزائن الأرض
- وَجَاء بِكُم مِنَ الْبَدْوِ
- ألفاظ ودلالات
- من أسرار البلاغة القرآنيّة

الرؤى تصنع الأحداث

القضاء هو علم الله السابق بحصول الأشياء قبل حصولها. والرؤيا الصادقة هي إطلاع الإنسان على القضاء قبل أن يتحقّق فيصبح قدراً. أي أنّ الإنسان يمكن أن يطّلع في منامه على الغيب المستقبليّ. ويبدو أنّ ذلك من لَمّة المَلَك أثناء النوم. وتُعتبر الرؤى الصادقة الدليل القاطع على وجود القضاء؛ أي العلم بحصول الشيء قبل حصوله، وهي رحمة ربانيّة تُقرّبُ فكرة القدر إلى العقل البشري القاصر عن إدراك كُنه العلم الإلهي المطلق. ومن رحمته تعالى أن جعل الرؤيا الصادقة منتشرة في المجتمعات البشريّة كافّة، ولا تقتصر على المؤمن دون غيره، وهي من الانتشار بمكان، بحيث لا يمكننا قبول الزعم بحصولها على وجه الصدفة.

تُستهل سورة يوسف برؤياه عليه السلام:" **إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأبيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**"، ويدركُ الأب النبيّ أنّ هذه الرؤيا ترمز إلى اصطفاء ولده يوسف، عليهما السلام، وأنّ سلسلة النبوّات، التي بدأت بجده إبراهيم، عليه السلام، ستستمر في نسله. وهو يدرك أيضاً أنّ هذا الفتى سيكون رسولاً، لأنّ سجود والده له يعني أنّ مرتبته فوق مرتبة أبيه النبي، أي أنّه سيكونُ رسولاً نبيّاً. واللافت أنّ الرؤيا قد تحققت حسّاً ومعنى، انظر ما

جاء في خواتيم سورة يوسف:" **وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً...**"، فالصورة الحسّيّة للسجود المُعبِّر عن الاحترام والاعتراف بالفضل قد تحقّقت كما ورد في الرؤيا. ولم يحصل هذا السجود إلا بعد تحقّقهم من فضل يوسف، عليه السلام، وذلك عند ظهور حقيقة الاجتباء الربّاني، الذي كان يعقوب قد استيقنهُ عندما قصّ عليه يوسف، عليهما السلام، رؤياه.

ومما يلفت الانتباه أيضاً أنّ رؤيا يوسف، عليه السلام، قد كشفت عن غيب مستقبلي يكون بعد سنين طويلة. وقد أدّى هذا الكشف إلى أن يُميّز يعقوب، عليه السلام، ولده يوسف في المحبّة والمعاملة والحرص، وأصبح يخاف عليه أن يفقده، وظهر ذلك في سلوكه، مما أدّى إلى تآمر إخوته عليه، فكان ذلك كله المقدّمة المُفضية إلى تسلسل الأحداث التي انتهت بتحقق الرؤيا على أرض الواقع. والعجيب هنا أنّ الرؤيا، التي هي إطلاع على حوادث المستقبل قبل وقوعها، قد **تحوّلت إلى مقدمة أدّت إلى تحققّها.**

جاء في الآية **36** من سورة يوسف: " **وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَان قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** ".

قام يوسف، عليه السلام، بتأويل رؤيا السجينين، وبذلك تمّ إطلاعهما على المستقبل قبل حصوله. واللافت هنا أنّ تأويل هذه الرؤيا

كـان سـبباً فـي خروجـه، عليـه السـلام، مـن السـجن، وبـذلك نكتشـف أنّ إطلاع السجينين على مصيرهما المستقبلي كان من حكمته أن يكون هذا الإطلاع مقدّمة لخروج يوسف، عليه السلام، من السجن.

وجـاء فـي الآيـة **43** مـن السّـورة: " **وَقَـالَ الْمَلِـكُ إِنِّـي أَرَى سَـبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ** ".

إنهـا رؤيـا جـاءت بخيـر عظـيم، مـن أجـل مجتمعـات توشـك أن تتعرّض للقحط والمجاعة، لذا لا بدّ من الاستعداد، واستغلال الوفرة قبل القحط. وشاء الله تعالى أن تكون هذه الرؤيا سبباً لخروج يوسف، عليه السلام، من السجن، وتوليّه أعلى منصب في الدولة بعد المَلِك. ومثل هذا التمكين يساعده، عليه السلام، في نشر رسالته، في المجتمع المصري.

لا بـدّ أن تكـون الرؤيـا لأعلـى سـلطة، ألا وهـي الملـك، وذلـك ليتحقق ما تحقق من خير. وبإمكاننا أن نتصوّر الأثر الضئيل وغير الملموس لتلك الرؤيا على المجتمع المصري، وغيره من المجتمعات، لو كانت لواحد من عامّة الناس؛ إذ عندها ستبقى الرؤيا مجرد إطلاع على المستقبل، بل لن يكون من السهل معرفة ما وراءها من رموز دالة على هذا المستقبل. أمّا عندما تكون الرؤيا هي رؤيا الملك، وعندما تتكرر لديه (**إنّـي أرى**)، فإنّ في ذلك ضمانة للفت انتباهه وجلب اهتمامه. كلّ

ذلك من أجل أن يعلم تأويلها، فتتم نعمة الله على المجتمع المصري وغيره من المجتمعات، التي كانت تحت سلطان الهكسوس الذين حكموا بلاد الشام وشمال مصر في تلك الحقبة.

لقد كشفت هذه الرؤيا عن واقع سيكون بعد سنين طويلة، فأدّى كشفها هذا إلى تدارك ما سيحلُّ من أخطار؛ أي أنّ الرؤيا كانت ابتداءً كشفاً لواقع مستقبليّ، ثم تحوّلت إلى مقدّمة أدّت إلى تحقّقها، وهذا جدل يجب أن يدفعنا إلى تدبّر أعمق لحقائق القضاء والقدر.

لقد كانت رؤيا الملك مُجلّية ومُسَرِّعة لظهور تأويل رؤيا يوسف، عليه السلام. أمّا رؤيا السجينين فكانت المفتاح لتفعيل رؤيا الملك. وتبقى رؤيا يوسف، عليه السلام، هي البداية والنهاية، أي أنّها المقدّمة والنتيجة لذلك كله.

يبدو أنّنا بحاجة إلى إعادة النظر في فهمنا للرؤيا الصادقة، وفلسفتها، ودورها في الواقع الإنسانيّ.

وقطّعن أيديهنّ

جاء في الآية **31** من سورة يوسف:"**فلمّا سمعت بمكرهنّ أرسلت إليهنّ وأعتدت لهنّ مُتكأً وآتت كلّ واحدةٍ منهنّ سكِّيناً وقالت اخرج عليهنّ، فلما رأينه أكبرنه وقطّعن أيديهنّ، وقلن حاشَ لله ما هذا بشراً إنْ هذا إلا مَلَكٌ كريم**".

اللافت في الآية الكريمة أنّ امرأة العزيز أعطت كلّ واحدة من النساء سكِّيناً، وهذا يعني أنّ النساء يعرفن الهدف من توزيع السكاكين عليهنّ كلهنّ. أمّا القول بأنها قدّمت لهن فاكهة فهو غير مقبول من وجوه:

أ- لم تُذكر الفاكهة في الآيات الكريمة، وليس المقام هنا مقام تكريم للنساء اللاتي أسأن لسمعة زوجة العزيز واغتبنها.

ب- لو كان المقصود الفاكهة والإكرام لذكر القرآن الكريم ذلك بإشارة أوضح. وذِكْرُ السكّين، التي هي أداةٌ تُقشّر بها الفاكهة وتستخدم في أغراض مختلفة، ورد في سياق الحديث عن تجريح الأيدي ولم يرد في سياق الحديث عن كَرَم الضيافة، فَلِمَ التّزيُّد؟!

ج- العادة أن يتم وضع الفاكهة ومستلزماتها أمام الضيف، وليس هناك من عادة ولا مسوّغ لتوزيع السكاكين، وليس هناك من داع لتوزيع السكاكين على كل واحدة، بل يترك الأمر في العادة لتقدير الضيف وحاجته.

د- كانت النتيجة أن جَرّحت النساء أيديهنّ، وهذا يدلّ على أنّ توزيع السكاكين كان من أجل تحقيق مثل هذه النتيجة، وليس من أجل تقشير الفاكهة، فليس المقام مقام إكرام.

أمّا القول بأنّ تجريح الأيدي كان نتيجة الدهشة والذهول، وذلك عندما رأت النساء يوسف، عليه السلام، فهو مردود من وجوه:

1. لو كانت النساء منشغلات بأكل الفاكهة لكان ذهولهنّ واندهاشهنّ لجمال يوسف، عليه السلام، صارفاً لهنّ عن الاستمرار في الأكل والتقشير، فهذه طبيعة الإنسان؛ أنّه إذا انشدّ إلى شيء ذَهَل عن الأشياء الأخرى.
2. لو كانت النساء تأكل على إيقاعٍ موسيقيّ يقوده (مايسترو) لأمكن تصوّر أن يتمّ جرح أيدي النساء كلهنّ في وقت واحد، أمّا أن تُجرح كل يد بأكثر من جرحٍ في آنٍ واحد فغير مُتصوّر.
3. يفترض عند أوّل جرح أن يتمّ التنبّه، أمّا أن يكون هناك أكثر من جرح ثمّ لا يتم التنبّه، فهذا أمر غير متصوّر، بغض النظر عن درجة الاندهاش. ومعلوم أنّ الاندهاش لا يكون عند النساء بدرجة واحدة. أمّا الدليل على حصول أكثر من جرح في كل يدٍ فقوله تعالى:" **وقطّعن**"، فهذه صيغة مبالغة وتكثير للفعل.
4. وجود السكّين مسبقاً دليل على أنّ التجريح مقصود ومتعمّد، وليس نتيجة ذهول واندهاش.

5. يقول يوسف، عليه السلام، لرسول الملك:"**ارجع إلى ربك فاسأله ما بالُ النسوةِ اللاتي قطّعن أيديهنّ؟**"، فهذا يدل على أنّ يوسف، عليه السلام، يريد أن يرسل إلى الملك برسالة مختصرة تجعله يدرك حقيقة ما حصل قبل سنوات؛ فتجريح الأيدي لا بدّ أن تكون له دلالة يفهمها الملك، لذا نجد أنّ الملك، وبعد وصول الرسالة، يقول للنساء:"**ما خطبكنّ إذ راودتن يوسف عن نفسه**"، وهذا يشير إلى أنّ تقطيع الأيدي له دلالة عُرفيّة شائعة في ذلك الزمان. ولم يكن مجرد صدفة عجيبة.

فما سرّ تقطيع (تجريح) الأيدي؟!

لا نستطيع هنا أن نقدّم التصور الحقيقي للدافع الكامن وراء تجريح الأيدي، ولكن سنحاول أن نقدّم تفسيراً نراه أقرب إلى النص القرآني، وأقرب إلى العقل والواقع.

ترجع قصة يوسف، عليه السلام، إلى زمنٍ مغرق في القِدم، أي ما يقارب **3600** سنة، على أقل تقدير. وهذا يعني احتمال وجود عادات وتقاليد هي اليوم مندثرة، وعلى وجه الخصوص عندما نعلم أنّ الحكّام في عهد يوسف، عليه السلام، هم الملوك الرعاة الهكسوس، الذين هم من ملوك البدو. بل إنّ يوسف وإخوته قد عاشوا في مجتمعات بدويّة، بدليل قوله تعالى، على لسان يوسف، عليه السلام، مخاطباً أهله:"**وقد أحسنَ بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو**". وهذا يعني أنّ احتمال وجود العادات الغريبة، المجافية للتحضّر، هي أكبر.

العزيز صاحب أعلى منصب بعد الملك، ومجموعة من النساء تذكر زوجته بسوء، وهُنّ مقتنعات بأنّ هذه الزوجة ضالّة، وضلالها بيّن:"**إنا لنراها في ضلال مبين**". تقوم زوجة العزيز صاحبة النفوذ والسلطان باستدعاء النساء الطاعنات بها وبسلوكها، لتقدّم لهنّ العذر المستدعي للاعتذار. ولا أدلَّ على عذرها ذلك من ردّة فعلهنّ عند رؤية يوسف، عليه السلام.

النساء يعرفن عادات المجتمع وتقاليده، ويعرفن واجبهنّ تجاه المنصب الرفيع؛ فكلامهنّ في غيبتها **جرحٌ معنوي لمقام رفيع**، وهذه جُرأة لا بدّ من الاعتذار عنها بما يليق؛ فالجرح المعنوي لهذا المقام لا يغفره إلا **جرح حسيّ**. والاعتذار يكون في العادة أشدّ عندما تظهر البراءة. من هنا لم تكتف النساء بجرح واحد، بل كررن ذلك، لمزيد من الاعتراف والأسف. وعندما رأت زوجة العزيز ذلك سارعت إلى القول:"**فذلِكُنّ الذي لُمتُنني فيه**" .

إضافة إلى الاعتذار الحسيّ عن الجرح المعنوي يمكن أن يكون مثل هذا السلوك، عند تكراره، يدل أيضاً على رغبة في **المشاركة**. ومما يُعزّز مثل هذا الاحتمال:

1. قوله تعالى على لسان الملِك:"**ما خطبكنّ إذ راودتنّ يوسف**".
2. قوله تعالى على لسان يوسف:"**ربّ السجن أحبّ إليّ مما يدعونني إليه، وإلا تصرف عنّي كيدهنّ...**".

فالمراودة لم تعد مقتصرة على زوجة العزيز، بل حصل نوع من التواطؤ بين النسوة، وكأنّه الحلف. وقد رأينا في بعض عادات البدو اليوم

أنّهم إذا أراد شخص أن يعاهد شخصاً على التعاون والوفاء يقوم كلّ منهما بجرح أصبعه، ثمّ يجعلان الدمّ على الدمّ، ليتم اختلاط الدماء، كرمز لقوة التحالف بين الشخصين. فإذا كان ذلك يحصل إلى اليوم، فكيف بنا لو رجعنا إلى ما قبل ستة وثلاثين قرناً؟!

وخلاصة الأمر أنّ الاحتمال الأقوى عندنا أن تكون النساء قد قدّمن الاعتذار بجرح الأيدي وإشهار ذلك أمام زوجة العزيز، ثم كرّرن الجرح ليُعلِنّ عن التعاطف والمشاركة. وإذا كان الإنسان المتحضّر اليوم يقبل بالاعتذار اللفظي عن الجرح المعنوي، فإن الإنسان القديم لم يكن ليرضى بأقل من الممارسة السلوكية المعبّرة عن الأسف الحقيقي. ولا ننسى أنّ المقامات العليا في نُظم الحُكم القديمة كانت تتلبّس بلباس القداسة، ولها منزلة مستمدّة من الدين، وهذا يجعل الاعتذار ممارسة فيها مثل هذه القساوة.

وأعلمُ من الله

جاء في الآية **4** من سورة يوسف:"**إذ قال يوسف لأبيه يا أبتِ إنّي رأيتُ أحدَ عشرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتُهم لي ساجدين**".

وجاء في الحديث الصحيح أنّ أول ما بُدِئ به الرسول، صلى الله عليه وسلم، من الوحي الرؤيا الصادقة. ولا يبعد أن يكون ذلك سُنّة في الأنبياء. وإذا صحّ هذا الفرض فإنّ أول ما بُدِئ به إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، عليهم السلام، من الوحي هو الرؤيا الصادقة. وهذا يعني أنّ يعقوب، عليه السّلام، كان ينتظر بشغف أن تستمر سلسلة النبوة في نسله، كيف لا، وهو نبيّ، وأبوهُ نبيّ، وعمُّهُ نبيّ، وجدّهُ نبيّ ؟!

ولكن في أيّ الأبناء ستكون النبوّة، وفي أيّهم ستكتمل النّعمة الرّبانية ؟! بإمكانك أن تتصور بعض ما في قلب يعقوب، عليه السلام، من شوق وتلهّف لمعرفة المصطفى من بين أبنائه الإثني عشر. وبإمكانك أن تتخيّل يعقوب، عليه السّلام، وهو يوصي أبناءه أن يسارعوا إلى إخباره بما يرونه في مناماتهم. ويدفعنا إلى ترجيح مثل هذا الاحتمال ما نلمسه من مسارعة يوسف، عليه السلام، في عرض رؤياه على والده:"**يا أبتِ إنّي رأيتُ**". وتظهر المسارعة في قوله **رأيت** بصيغة الماضي. أمّا الملك، الواردة قصّته في السورة، فقد تريّث قبل أن يعرض رؤياه على الملأ:"**وقال الملك إنّي أرى**"، والفعل المضارع **أرى** يدلّ على

تكرار الرؤيا لدى الملك قبل أن يعرضها على المستشارين. وكذلك الأمر في رؤيا صاحبي السجن:"..**قال أحدهما إنّي أراني أعصرُ خَمراً، وقال الآخرُ إنّي أراني أحملُ فوق رأسي خُبزاً...**". (يوسف: 36)

إذا كان تأويل الرؤى من خصائص االنبوّة، فمن البدهيّ أن يَعلمَ يعقوب، عليه السّلام، من سياق الرؤيا، أنّ استمرار سلسلة النبوّة سيكون في يوسف، عليه السّلام. بل إنّ الرؤيا لتُخبر بأنّ يوسف هو أكثر من نبيّ، إنّه رسول. ويظهر ذلك جلياً في سجود يعقوب النبيّ لابنه يوسف، عليهما السّلام:"**والشمسَ والقمرَ رأيتُهم لي ساجدين**"؛ فالشمس تَرمز إلى والده، والقمر يرمز إلى أمّه، والكواكب ترمز إلى إخوته، كما ظهر عند تأويل الرؤيا بعد سنين طويلة:"**ورفعَ أبويهِ على العرش، وخَرّوا لهُ سُجّداً، وقال يا أبتِ هذا تأويلُ رؤيايَ مِن قبلُ قد جعلها ربّي حقّا...**". يبدو أنّ هذا ما فهمه يعقوب، بمجرد استماعه لرؤيا يوسف، عليهما السّلام، فقال:"**وكذلك يَجتبيكَ ربّك، ويُعلّمكَ مِن تأويلِ الأحاديث، ويتمّ نعمتهُ عليكَ وعلى آل يعقوبَ، كما أتمّها على أبويكَ مِن قَبلُ إبراهيمَ وإسحق، إنّ ربكَ عليمٌ حكيم**". فرؤيا يوسف، عليه السلام، تدل بوضوح على أنّ الاجتباء المنتظر سيكون له، وفيه سيكون تمام النعمة، التي كانت في إبراهيم وإسحق، ويعقوب، عليهم السّلام.

بإمكاننا أن نتخيّل مشاعر يعقوب تجاه يوسف، عليهما السلام، فقد بات يعلم أنّ هذا الفتى الصّغير هو الرسول المختار. فهل يلام، عليه السّلام، بعد ذلك في حبّه له ؟! إنّه الحبُّ في الله، الذي هو في الأنبياء فوق حبّ الأهل والأبناء، وفوق كل حُبّ يكون لمخلوق. مِن هنا

يظهر خطأ من يجعل حبّ يعقوب ليوسف، عليهما السلام، وما نتج عنه درساً في دعوة الآباء إلى عدم التمييز بين الأبناء. فحاشاه، عليه السلام، أن يُفرّق في سلوكه وتعامله الدنيويّ؛ فهو الأعلم بما يجوز، وما لا يجوز، ولكنّه كما قال:"**وأعلمُ من الله ما لا تعلمون**".

لقد شاهد يعقوب، عليه السلام، أحداث المستقبل في رؤيا ولده. كيف لا، وهو النبي الذي علمه الله تعالى تأويل الأحاديث:"**وكذلك يجتبيك ربك ويعلّمك من تأويل الأحاديث**..."؟! ومن كان عنده مثل هذا اليقين كيف يُصَدِّقُ أنّ الذئب يأكل من سيكون الرسول المصطفى، وكيف لا يبكي حتى تَبيضّ عيناهُ من الحزن على فراق صبيٍّ صغير تجلّت فيه إرهاصات الرسول الكريم، وكيف لا يناديه صباح مساء، وهو يعلم أنّه حيّ في مكان ما ويجهل حاله؟! لم يكن ما كان من يعقوب، عليه السلام، ضعفاً بشرياً، بل قوة روحانيّة، نُعْذَر نحن في عدم قدرتنا على تصوّرها، وإن كنّا ندرك أنّ من كان مُخلَصاً لله تعالى اشتد تَعلّقه بكل ما يُذَكّر به سبحانه. وشتّان بين حبّ مَن هم مِن أهل الدنيا، وحبّ مَن هم مِن أهل الآخرة.

ونحن عُصبة!!

جاء في الآية **8** من سورة يوسف:"**إذ قالوا ليوسفُ وأخوهُ أحبُّ إلى أبينا منّا ونحن عُصبة، إنّ أبانا لفي ضلال مُبين**".

ترجع هذه القصة إلى ما يقارب الـ **3600** سنة، بل أكثر. وكان المجتمع آنذاك مجتمعاً بدويّاً، بدليل قوله تعالى، على لسان يوسف، عليه السّلام:"**وقد أحسنَ بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو...**". وفي مثل هذه المجتمعات تُحَدّد قيمة الفرد على أساس ما يقدّمه لمجتمعه من حماية، وفعاليّة في الكسب، لذا فقد كان غريباً أن يُقَدّم الأب أبناءه الصغار على الكبار الأشدّاء، الذين يشكّلون عُصْبة تأوي إليها القبيلة:"**ونحن عُصبة!!**". وهم يرون في ذلك إساءة لهم، وضلالاً واضحاً، لمخالفته الصريحة قيم المجتمع:"**إنّ أبانا لفي ضلال مبين**". ولأنّ المجتمع سيعتبر تقديم الصغار على الكبار العصبة احتقاراً لهم، وتصغيراً لشأنهم، وإهمالاً لهم، وهذا يُحْرجهم أمام الناس، لذا وجدناهم يجتمعون لمناقشة الأمر، كيف لا، وهم الأشدُّ حساسيّةً تجاه القيم؟!

لم يكن باستطاعة يعقوب أن يُخفي حبّه الشديد ليوسف، عليهما السلام؛ فقد استيقن بعد رؤيا ولده أنّه الرسول المُجتبى، الذي ستكتمل فيه النعمة على آل يعقوب. في المقابل كانت لديه المسوِّغات التي تحمله على كتمان هذا الخبر:"**قال يا بُنيّ لا تَقصُص رؤياك على**

إخوتك...". واللافت هنا أنّ أخوة يوسف قد ظنّوا أنّ يعقوب، عليه السلام، يُقدّم يوسف وأخاه. وقد يشير هذا إلى أنّ يعقوب، عليه السلام، كان يُكثر من التردد على الخِباء الذي يسكن فيه يوسف وأخوه مع أمّهم. ثم إنّ الحرصَ الشديد من يعقوب،عليه السلام، على ولده المصطفى، ورغبته الشديدة في حمايته والاحتفاظ به، جعلهم يستيقنون أنّه يخرق قيم المجتمع؛ فيقدّم الصغار على الكبار الذين هم عُصبة، وفي ذلك إهانة لهم. ولو كشف لهم يعقوب، عليه السلام، عن حقيقة الأمر لعلموا أنّ ما يفعله، عليه السّلام، هو عين الحقّ، فليس الأمر أمر صغير أو كبير، وليس هو اختيار بشر لبشر، بل هو اختيار ربّاني، وتقديم إلهي.

ولكن لماذا لا يكشف يعقوب، عليه السّلام، عن هذه الحقيقة، فتهدأ النفوس، ويعلم الناس حقيقة الاختيار الربّانيّ؟!

إنّ توقّع الجميع استمرار سلسلة النبوّة في نسل يعقوب، عليه السّلام، يجعل كلّ واحد من أبنائه ينتظر أن يتمّ اختياره دون إخوته؛ فهذا شرف يطلبه كلّ واحد، ولا يلام من يطلبه لنفسه دون غيره. ويبدو أنّ يعقوب، عليه السّلام، قد توقّع نوعاً من ردود الفعل لدى إخوة يوسف، وإن كانت هذه الردود تحتمل وجوهاً. وتوقّع عليه السلام، أن تكون معرفتهم بالأمر مدخلاً لوسوسة الشيطان، الذي هو عدوٌ للإنسان يستغل حالات ضعفه وجهله. من هنا نلاحظ التنكير في قول يعقوب، عليه السلام:"**يا بنيّ لا تَقصُص رؤياكَ على إخوتك فيكيدوا لك كيداً، إنّ الشيطانَ للإنسانِ عَدوٌ مُبين**". نعم، إنّها الخيبةُ التي ستكون آثارها عميقة في تلك النفوس التي استشرفت طويلاً أن يختارها الرّب. ولا

يسهل توقّع ردّ الفعل عند حصول الصدمة. وقد يكون من الرحمة بهم أن يتمّ تأخير خبر الاصطفاء إلى وقتِ وقوعه، حيث يكون معظمهم قد غادر سن الشباب ودخل طور النضوج والاتزان. وإذا كان سنّ الأربعين هو سن الاختيار في الغالب، فإنّهم سيعلمون الحقيقة قبل اختيار يوسف، عليه السلام. ثمّ إنّ إخبارهم بالخبر قبل الأوان ليس من الحكمة، ولا يترتّب عليه فائدة تُرجى.

ولكنّها الحكمة الربانيّة، أن يعلم يعقوب، عليه السّلام، باصطفاء ولده قبل سنين من الاصطفاء، فيترتب على ذلك غِيرة شديدة لدى الأبناء، الذين يرون في قربهم من أبيهم مقياساً لصلاحهم، وذلك في نظر أنفسهم، وفي نظر المجتمع أيضاً:"**اقتلوا يوسفَ أو اطرحوهُ أرضاً يَخلُ لكم وجهُ أبيكم وتكونوا من بعدِه قوماً صالحين**". فإذا لم يكن أبوهم قد انتبه إلى مأزقهم، ولا إلى الحرج الذي هم فيه، وفق تصوّرهم، فما عليهم إلا أن يُغَيّبوا يوسف، وبذلك يزول الحاجز، ويقتربوا من والدهم، الذي يمنحهم بقربه المكانة الاجتماعيّة. فتآمرهم، إذن، لم يكن من جهة فسادهم، بل كان من جهة شعورهم بالإقصاء، ورغبتهم في القبول، وهذه حالة من حالات الضعف البشريّ التي يمكن أن تسيطر على الشباب أكثر من الشيوخ الناضجين. من هنا نجد أنّ القرآن الكريم قد أشار إلى موقف متميّز لكبيرهم:"..**قال كبيرُهُم ألم تعلموا أنّ أباكم قد أخذ عليكم مَوثِقاً من الله، ومِن قَبلُ ما فرّطتم في يوسف، فلن أَبرَحَ الأرضَ حتى يأذنَ لي أبي أو يَحكُم اللهُ لي، وهو خيرُ الحاكمين**". (يوسف: 80)

إنّ الحكمة الربّانية في كشف غيب الاصطفاء تَجلَّت في المآلات التي آلت إليها الأمور؛ فالله، سبحانه وتعالى، يريد يوسف رسولاً إلى أمّة عظيمة ومتحضّرة. فانظر إلى عجيب القدَر، وكيف أنّ الإلقاء في البئر كان مقدمةً لإكرام مثوى يوسف،عليه السلام، يقول سبحانه تعقيباً على هذا الحدث:".. **وكذلك مَكنّا ليوسفَ في الأرض، ولِنُعلّمه من تأويل الأحاديث...**". ثم انظر كيف كان السجن هو المقدمة للتمكين في الأرض:"**وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض يتبوّأ منها حيث يشاء...**"، وبإمكانك بعد ذلك أن تتصور التأثير الكبير الناتج عن كون الرسول الكريم يتبوأ منصب العزيز في بلد كمصر.

اجعلني على خزائن الأرض

جاء في الآية **55** من سورة يوسف:"**قال اجعلني على خزائنِ الأرض إنّي حفيظٌ عليم**".

استدل بعض المعاصرين بهذه الآية على جواز طلب الإمارة، وجواز إعطائها لمن طلبها. وناقشوا، وهم في معرض تفسيرها، مدى شرعية تولي المناصب العليا في دولة لا تحكم بشريعة الله. وليس هذا مقام مناقشة الحكم الشرعي في المسألتين، وإنما هو مقام مناقشة صحّة استدلالهم بهذه الآية. والذي نراه أنّ الاستدلال بهذه الآية على القضيتين المذكورتين لا يستقيم، وهو استدلال في غير محلّه.

أمّا فيما يتعلق بطلب الإمارة فإنّ ذلك لم يحصل ابتداءً من يوسف، عليه السّلام، ولكنّه بعد أن أطلق الملك يده في التصرف، فضّل، عليه السّلام، أن يُشرف على إدارة أخطر قضية ستواجه المجتمع المصري. كيف لا، وهي تتعلق بأرواح الناس؟! بل لقد يسّر الله تعالى لهم يوسف، عليه السّلام، من قَبلُ لتعبير رؤيا الملك، رحمةً بهم. انظر قوله تعالى في الآية **54**:"**وقال الملك ائتوني به استخلصه لنفسي، فلمّا كلّمه قال إنّك اليوم لدينا مكين أمين**"؛ فقد أراد الملك أن يجعله، عليه السلام، أخلص خلصائه، وبعد تكليمه جعله في مكانة تمكّنهُ من فعل ما يشاء، وهو المؤتمن عنده على كل شيء. وعليه، فالمبادرة بعرض المنصب كانت من الملك، فرأى يوسف، عليه السّلام، أن يجعل الأولويّة

للقضيّة الاقتصاديّة المُلحّة:"**قال اجعلني على خزائن الأرض...**". بهذا يتضح **أنّ يوسف، عليه السلام، لم يبادر إلى طلب الإمارة.**

أما التساؤل حول دلالة قبول يوسف، عليه السلام، منصب العزيز، والذي هو أكثر من وزير، في دولة لا تحكم بشريعة الله تعالى، فإنه تساؤل في غير مَحلّه أيضاً، وذلك للأمور الآتية:

أولاً: لم تكن تشريعات الأمم القديمة مدوّنة في صيغة قانون، بل هي أعراف وتقاليد، جزء منها ينبثق من العقيدة الدينيّة. وعلى فرض أنّ تلك القوانين كانت مدوّنة، فما أدرانا أنّها تتعارض مع شريعة يعقوب، أو مع شريعة يوسف، عليهما السّلام.

ثانياً: واضح في الآيات الكريمة من سورة يوسف أنّ القوم كانوا على عقيدة الشرك، ولكن ليس لدينا أيّة فكرة عن تشريعاتهم تمكّننا من الجزم بتناقض تلك التشريعات مع شريعة الله تعالى.

ثالثاً: جاء الإسلام إلى الناس كافّة، من بعثة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وإلى يوم القيامة، لذا كانت شريعته، عليه السلام، كاملة، وهذا يعني أنّ حكم الله تعالى بعد نزول الإسلام أصبح ينحصر في شريعته. أمّا قبل نزول الإسلام فقد كانت الشرائع متعددة، بحيث كان لكل أمّة رسول، أي لكل أمّة شريعة تتلاءم مع واقعها.

رابعاً: لا يُتصوّر في الجانب الإداري، المتعلق بإدارة الإقتصاد في حينه، أن تتعارض إدارة يوسف، عليه السلام، مع شريعة يعقوب الخاصّة، والمتعلقة بمجتمع بدوي؛ حيث جاء في الآية **100** من سورة يوسف: "**وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو...**". ومن

الواضح أنّ الملك قد أطلق يد يوسف، عليه السلام، في التصرف، وجعله أميناً على كل شيء.

خامساً: في الوقت الذي تعارضت فيه شريعة الملك مع إرادة يوسف، عليه السلام، في استبقاء أخيه عنده، وجدناه يدبّر للأمر، بحيث يتمّ تحكيم شريعة أبيه. وإلى هذا أشارت الآية **76** من السورة:"**.. كذلك كِدنا ليوسفَ، ما كان ليأخُذَ أخاهُ في دينِ الملكِ، إلا أن يشاءَ الله، نرفعُ درجاتٍ من نشاء، وفوق كلِّ ذي علمٍ عليم**".

على ضوء ما سلف، ونظراً لتطرّق الاحتمال، فلا يصحّ الاستدلال بهذه الآية الكريمة على جواز أو عدم جواز تولية طالب الإمارة، ولا يصحّ أيضاً الاستدلال بها على حكم تولّي المناصب العليا في دول لا تُحَكّم شريعة الله تعالى.

وجاء بكم من البدو

قال تعالى:"**وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ**". (يوسف: 58)

عندما دخل إخوة يوسف ،عليه السلام، عليه لأول قدوم لهم إلى مصر، عرفهم ولم يعرفوه. وهذا متوقّع لأكثر من سبب:

1. كان يوسف،عليه السلام، صغيراً عندما ألقاه إخوته في البئر وهو الآن كبير، ثمّ إنّ بُعد العهد يُنسي.
2. المقام الذي فيه يوسف،عليه السلام، يجعل الأمر بعيداً عن الذهن، حتى لو وجد الشبه.
3. تختلف الهيئة في بلاد الحضر عنها في بلاد البداوة، فكيف بنا ويوسف،عليه السلام، في مقام السّلطان.

أمّا كيف عرفهم،عليه السلام، فهذا أيضاً متوقع لأكثر من سبب:

1. دخولهم بشكل جماعي يجعل الأمر سهلاً، بل وأقرب إلى الحتميّة، فهؤلاء عشرة، لا يسهل نسيانهم مجتمعين.
2. كونهم أكبر سناً من يوسف،عليه السلام، على تفاوت بينهم في ذلك، يجعل التغيّر في هيئاتهم ضئيلاً بالمقارنة مع التغيّرات التي تطرأ على الفتى الصغير عندما يكبر.
3. هيآتهم البدويّة تجعل من السهل معرفة أنّهم غرباء، وتساعد لهجتهم في التذكير بهم.

4. لا شك أنّ إلقاء الفتى يوسف،عليه السلام، في البئر يُشكّل صدمة له وهو يراهم مجتمعين يتآمرون عليه، وإنّ مثل هذه الصورة لا تُمحى من الذاكرة.
5. وحتى لو شكّ،عليه السلام، عندما رآهم، أنّهم إخوته، فيمكنه أن يستدرجهم في الكلام، فيعرفهم معرفة يقينيّة.

وهنا يثور سؤال: ما الحكمة في تريّث يوسف،عليه السلام، قبل أن يكشف لهم عن شخصه؟!

إنّ الحكمة وبعد النّظر وهيمنة العقل على القلب، كلّ ذلك جعل يوسف، عليه السلام، يتريّث من أجل أن يُحقق أموراً يرى فيها الخير لأهله. ونحن هنا نحاول أن نستكشف بعض وجوه هذه الحكمة، مع إقرارنا بأنّ حكمة الرسل، عليهم السلام، تبقى فوق قدراتنا على الفهم والإدراك، كيف لا، وهم ينهلون من معين الوحي الرّباني؟!

كان أهل يوسف،عليه السلام، يعيشون في مجتمع بدوي، وقد صرّح القرآن الكريم بذلك: "**وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم منَ الْبَدْوِ**...". ومعلوم أنّ من مقاصد الدين نقل الناس من طور البداوة إلى طور التحضّر؛ فأنت تجد الإسلام، مثلاً، يُحرّم الرجوع إلى البداوة بعد التحضّر، بل يعتبر ذلك من الكبائر. وعليه فمن المتوقّع أن يعمل، عليه السلام، على انتقال أهله إلى حاضرة مصر، وهو بذلك يُحسِن إليهم. انظر قوله يخاطب أباه، عليهما السلام:"...**وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ**..."، فهو، عليه السلام، يعتبر مجيء أهله إلى مصر من نِعَم الله تعالى عليه.

ولكن كيف يمكن ليوسف، عليه السلام، أن يحقق ذلك الهدف؟!

1. ليس من السّهل على إخوة يوسف، عليه السلام، أن يقبلوا الرحيل إلى مصر عند أول زيارة. وعليه فلا بدّ من جعلهم يألفون مصر بكثرة ترددهم عليها.
2. عندما تسوء حالتهم الاقتصاديّة، وذلك نتيجة استفحال القحط، يصبح من السهل إقناعهم بترك وطنهم والقدوم إلى مصر. من هنا نلاحظ أنّ يوسف، عليه السلام، بادر إلى الكشف عن شخصه عندما شعر بأنّ إخوته قد بلغوا حالة الفقر الشديد. انظر قولهم لدى دخولهم الثالث عليه:" **فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ**".
3. بادر يوسف، عليه السلام، إلى إحضار أخيه الصّغير واحتجزه عنده، فكان في ذلك ضمانة لرجوعهم إليه، كما وسبق له أن ردّ إليهم بضاعتهم سِرّاً ليضمن رجوعهم، وهو بذلك كُلّه يرسل الرسائل إلى أبيه، بدليل قول يعقوب، عليه السلام:" **يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ**..."، بل إنّ حزن يعقوب العميق كان بسبب علمه بوجود يوسف، عليهما السلام، فقد أدرك أنّ ولده الصغير موجود عند يوسف، عليه السلام، فأثار ذلك حزنه. انظر قوله تعالى على لسان يعقوب،عليه السلام:" **وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ**"، ولم يقل: "يا أسفى على بنيامين"، لأنّ فقدان بنيامين ذكّره بيوسف، عليه السلام. ثمّ انظر قوله تعالى: "**يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ**

مِـــن يُوسُـــفَ وَأَخِيـــهِ...". وأخيـراً انظـر قولـه تعـالى علـى لسـان يعقوب،عليه السلام:" **قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**".

ألفاظ ودلالات

دراهم معدودة:

جاء في الآية **20** من سورة يوسف:"**وشَروهُ بثمنٍ بَخسٍ دراهمَ معدودة وكانوا فيه من الزاهدين**".

في هذه الآية الكريمة إشارة إلى المستوى الحضاري للمجتمع المصري في حينه؛ فقد كانوا يستخدمون الدراهم، أي أنّهم يصكّون العملة الفضيّة كوحدة للتبادل التجاري. في حين نجد أنّ إخوة يوسف القادمين من البدو يعرضون بضاعةً ليشتروا المواد التموينيّة. انظر قوله تعالى:" **وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رِحالهم**"، وانظر قوله تعالى:"**فلمّا دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مَسَّنا وأهلَنا الضُّر وجئنا ببضاعةٍ مُزجاة ...**".

السقاية والصواع:

جاء في الآيات (**70–72**) من سورة يوسف:" **فلما جَهّزهُم بجَهازِهم جَعلَ السقايةَ في رَحل أخيه ثمّ أذّن مؤذن أيتها العيرُ إنّكم لسارقون. قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون. قالوا نفقد صواع الملك، ولمن جاء به...**".

اللافت في الآيات الكريمة أنّ يوسف، عليه السّلام، عندما جهّز إخوته جعل **السقاية** في رحل أخيه الأصغر، وعندما أذّن المؤذّن

قالوا:"نفقد **صُواع** الملك"، فلماذا عُبّر عن **السقاية بالصواع؟** ولماذا هو صُواع الملك؟.

يبدو أنّ الكيل، في التعامل التجاري، كان هو السائد في المواد التموينيّة، أمّا اليوم فيغلب فيه الوزن. وسواء تعاملنا بالكيل أو بالوزن فإننا نحتاج إلى مقياس مرجعيّ نرجع إليه عند الاختلاف لضبط المكاييل والموازين، وتكون هذه المرجعيّة رسميّة، وتنسب إلى السلطة العليا في البلد. وبما أنّ يوسف، عليه السّلام، كان في أعلى هرم السلطة المُشْرِفة على الجانب الاقتصادي، وعلى توزيع المواد التموينيّة في فترة القحط، فقد وجدنا أنّ المكيال المرجعيّ يوجد لديه:" **قالوا نفقِد صُواع الملك**". وهذا يشير إلى المستوى الحضاري للمجتمع المصري في ذلك الوقت؛ فهناك سلطة مركزيّة تشرف على أدق الأمور بما فيها المكاييل.

لم يكن المكيال مقتصراً على المحاصيل الزراعيّة، كالقمح والشعير... بل كان يستخدم أيضاً في المواد السائلة، وعلى وجه الخصوص الزيت والحليب. من هنا نجد أنّ المكيال المستخدم كان يصلح لضبط كيل المحاصيل الزراعيّة، وكذلك كيل المشروبات السائلة. **فهو إذن صواع، وهو أيضاً سقاية.**

سيّدها:

جاء في الآية **25** من سورة يوسف:"**واستبقا الباب وقدّت قميصه من دُبر وألفيا سيّدها لدى الباب...**"، وجاء في الآية **30**:" **وقال نسوةٌ**

فـي المدينـة امـرأتُ العزيـز تُـراودُ فتاهـا عـن نفسـه..."، فهو إذن سيدها وهي امرأته، فكيف يمكن أن يجتمع الوصفان في آن واحد؟!

يقول التاريخ إنّ الملوك الرعاة الهكسوس قد احتلوا شمال مصر وطردوا ملوك الفراعنة إلى الجنوب، وبقيت سيطرتهم على الشمال المصري ما يقارب القرنين من الزمن. وكان أن وُجِد يوسف، عليه السلام، في مصر في زمن الهكسوس. من هنا نجد أنّ سورة يوسف، كما ألمح البعض، تخلو من ذكر الفرعون، بل: (**الملك و العزيز**)، في حين أنّ إرسال موسى، عليه السّلام، بعد ما يقارب الخمسة قرون، كان إلى **الفرعون**.

إنّ سيطرة الملوك الرعاة الهكسوس على الشمال المصري لا يعني طرد الشعب الفرعوني، بل كانت وراثتهم لنظام الحكم والسيطرة. وقد اعتادت الشعوب القديمة أن تتفاعل مع القادم الجديد في حالة فرض سيطرته. ومن المتوقّع أن يقع في قبضة الهكسوس عند اقتحامهم لمصر بعض السبايا من الفرعونيّات. وإذا كانت السبيّة ذات نسب وجمال فإنّ فرصتها في العتق وفي الزواج من عِلية القوم تكون أكبر. ويبدو أنّ امرأة العزيز كانت سبيّة، أو مملوكة، ساعدها شبابها وجمالها، أو نسبها، على الزواج من العزيز، وهذه صورة مألوفة في العصور القديمة. وعليه فالعزيز (سيدها) باعتباره المُعتِق لها، وهي (امرأة العزيز) باعتبار واقعها بعد الإعتاق.

وكون المرأة سبيّة يجعل إخلاصها للزوج أقل، لأنها امتُلِكت عُنوة، بل قد تُسبى وهي زوجة لرجل آخر، وعليه لا ينتظر منها أن تكون مخلصة

كالحرّة. ومن هنا جاء وصف العفيفة بالحرّة. وهذا الوصف هو من تراث الماضي، وذلك عندما كان أغلب الزنا من شأن الإماء. وقد يكون من مؤيّدات هذا الفهم والاستنباط أنّ ردة فعل العزيز لم تكن بالحدّة المنتظرة من زوج حُرّة:".. **قال إنّه من كيدكنّ إنّ كيدكنّ عظيم. يوسف أعرض عن هذا، واستغفري لذنبك إنّك كنت من الخاطئين**". وعلى الرغم ممّا حصل فقد بقيت امرأة العزيز في عصمته، بل واستمرت في ممارسة سلطانها المستمد من سلطانه، وبقيت تتصرّف تصرّف الآمن من المؤاخذة:".. **ولقد راودتُهُ عن نفسه فاستعصم، ولئن لم يفعل ما آمره ليُسجننّ وليكوناً من الصاغرين**"، فانكشاف أمرها لم يضعف من مكانتها. كل ذلك يعني أنّ الحدث لم يكن بالنسبة للعزيز مفاجأة غير متوقّعة.

من أسرار البلاغة القرآنيّة

من المعلوم عند أهل اللغة أنّ حرف **الفاء** يدل على الترتيب والتعقيب؛ فعندما نقول:"جاء أحمد فمحمود"، فإننا نقصد أن نقول: جاء أحمد وجاء بعده محمود، بغير فارقٍ زمنيّ طويل. فحرف **الفاء** يشير إلى العلاقة الترتيبيّة والزمنيّة بين الفعلين: (جاء و جاء)، وعليه لا بدّ أن يأتي في اللفظ بين الفعلين. أمّا حرف **الواو** فلا بدّ أن يأتي أيضاً بين الفعلين، ولكن لا يدلّ بالضرورة على ترتيب ولا تعقيب.

ما نطرحه الآن هو استقراء لتكرار كلمة **لمّا** في سورة يوسف، وذلك عندما يسبقها حرف الفاء، أو حرف الواو. وقد خرجنا بنتيجة نظن أنّها لم ترد عند أهل اللغة، ولا مانع من ذلك، لأنّ قواعد اللغة العربيّة هي في الأصل استقرائيّة.

جاء في سورة يوسف:

" وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ..." 95

" وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ..." 65

" وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ..." 94

" وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ..." 69

" فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ..." 63

" فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ..." 70

" **فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرّ**" **88**
" **فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ...**" **99**

اللافت في الآيات الأربع الأولى أنّه تمّ استخدام **ولمّا**. أمّا في الآيات الأربع التالية فقد تمّ استخدام **فلما**. وقد وردت **ولمّا** في سورة يوسف **6** مرّات، في حين وردت **فلمّا** في السورة **12** مرّة. وفي محاولة لاستنباط القاعدة في استخدام الفاء والواو مع لمّا نقوم باستعراض الآيات السالفة:

" **وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ** ".

هناك فارق زمنيّ بين تجهيز حمولة أخوة يوسف ووصيّة يوسف، عليه السلام، لهم، لأنّ الرحيل في العادة لا يكون بعد التجهيز مباشرة، وإنما كان يرتبط بالوقت المناسب لرحيل القوافل. ولا تكون الوصيّة في الغالب إلا عند اقتراب الرحيل، أو عند وداع المسافرين. من هنا، ونظراً لوجود فارق زمنيّ بين الفعل **جَهَّزَ** والفعل **قَالَ** ، ناسب أن ترد **الواو** مع الأداة **لمّا**.

" **فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ** ".

جاءت **الفاء** هنا مع الأداة **لمّا** لعدم وجود فارق زمنيّ كبير بين الفعل **جَهَّزَ** والفعل **جَعَلَ**، لأنّ يوسف، عليه السلام، عندما أراد أن يضع صُواع الملك في رحل أخيه الصغير اختار أن يكون ذلك عند تجهيز الرحال.

" **وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ** ".

استخدمت **الواو** مع الأداة **لمّا** هنا نظراً لوجود فارق زمنيّ بين الفعل **دَخَلُواْ** والفعل **آوَى**، لأنّ يوسف، عليه السلام، لم يكن قد كشف عن شخصه لإخوته، وبالتالي لم يكن بالإمكان أن يخلو بأخيه الصغير فور دخولهم، بل كان لا بدّ له من الحيلة وانتهاز الفرصة أو افتعالها، لينفرد به ويعرّفه على نفسه.

" **فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ** ".

جاءت **الفاء** هنا مع الأداة **لمّا** لعدم وجود فارق زمنيّ بين الفعل **دَخَلَ** والفعل **آوَى**، وذلك لأنّ يوسف، عليه السلام، كان ينتظر حضور أبويه على أحرّ من الجمر، فكيف لا يسارع إلى ضمّهما وإيوائهما إليه بمجرّد دخولهما؟!

" **وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ** ".

جاءت **الواو** مع الأداة **لمّا** هنا نظراً لوجود فارق زمنيّ بين الفعل **فَتَحُواْ**، والفعل **وَجَدُواْ**، وذلك لأنّ اكتشاف البضاعة المُخبّأة داخل أكياس القمح، أو غيره من المواد التموينيّة، لا يتمّ بمجرد فتح هذه الأكياس، بل لا بد من مرور بعض الأيام، وعلى وجه الخصوص، في ذلك الزمن، الذي كانت فيه أساليب الطحن بدائيّة، فيتمّ الأخذ من الأكياس شيئاً

فشيئاً. في المقابل لا يُتوقّع أن تُجعل بضاعتهم، التي قدّموها كثمنٍ للمواد التموينيّة، في فم الأكياس:" **وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ...**"، والجعلُ في الرحال فيه معنى الإخفاء في الداخل. وقد يَحسُن هنا أن نلفت الانتباه إلى أنّ إخوة يوسف، عليه السلام، كانوا يعيشون في مجتمع بدوي مما يعني أنّ بضاعتهم يمكن أن تكون من المنسوجات أو المصنوعات، وعلى وجه الخصوص الحليّ المختلفة.

" **وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ** ".

وردت **الواو** مع الأداة **لمّا** هنا نظراً لوجود فارق زمنيّ بين الفعل **فصل** والفعل **قال**، لأنّ القوافل تقترب شيئاً فشيئاً، وعندما تقترب تبدأ بالانفصال يميناً وشمالاً، كلٌ يقصد قبيلته، ويستغرق ذلك زمناً. وقد استشعر يعقوب، عليه السلام، ذلك، ووجد في نفسه قرب لقاء يوسف، عليه السلام. ويتكرر الوجدان لديه ويقوى إلا أنّه يكتم ذلك، خشية التكذيب:"**وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ**"، فاستخدام الفعل **أَجِدُ** يدل على تكرار واستمرار الوجدان، ولمّا قوي لديه، عليه السلام، ذلك صرّح به، وطول الكتمان تشير إليه لَوْلاَ؛ أي لولا معرفته، عليه السلام، بموقفهم المُكذّب، لسارع إلى الإخبار بما وجده من إشعار ربّاني.

" **فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ** ".

أمّا هنا فجاءت **الفاء** مع الأداة **لمّا** وذلك لعدم وجود فارق زمنيّ كبير بين الفعل **رَجَعَ** والفعل **قال**، وهذا يشير إلى مسارعة إخوة يوسف،

عليه السلام، لإخبار أبيهم بأنّهم قد مُنعوا من الرجوع إلى مصر. وهذه المسارعة كانت بمجرد لقائه، كيف لا، وهي مسألة في غاية الأهميّة في مجتمع بدوي يعاني من القحط الشديد؟! ويضاف إلى ذلك أنّهم قوم من البدو البسطاء، والمسارعة إلى عرض المشكلات لديهم من الأمور المتصوّرة في مثل هذه الحالات. وقد يكون من مقاصد القرآن الكريم هنا أن يكشف عن هذه الحقيقة النفسيّة.

" **فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ** ".

جاءت **الفاء** هنا مع الأداة **لمّا** لعدم وجود فارق زمنيّ كبير بين الفعل **دَخَلَ** والفعل **قالَ**، لأنّ أخوة يوسف، عليهم السلام، قد جاءوا وهم في حالة شديدة من الضنك والمعاناة، كما هو ظاهر في النص الكريم. ومن المتصوّر عندها أن يبادروا لعرض مشكلتهم بمجرد دخولهم على العزيز. وفي هذا تشخيص بليغ لواقعهم النفسي الناتج عن واقعهم الاقتصادي. ولا عجب عندها أن يبادر يوسف، عليه السلام، إلى الكشف عن شخصه!

من هنا ندرك أنّ البلاغة ليست مجرد قدرة على التلاعب بالألفاظ، بل هي القدرة على البيان عن الواقع وتشخيصه في أصدق وأجمل صورة.

الخاتمة

هي كما رأيتَ ...

وهي ثمار أراها:

حَصاد نظر، ونظرات بشر،

جُهد المقل في زمن الانصراف عن كنوز الحقيقة،

حَنين الدارج في المعارج، يحدوه حادٍ لا ينتهي بالقافلة عند حد،

شَوق الغوّاص إلى الدرر الكامنة في أعماق بحر المعارف والأنوار،

مُلهمات لمن استلهم، لعله يأتي بما لم تأتِ به الأوائل، فيكون خير خلف لخير سلف.

تمّ بحمد الله في مدينة البيرة – الثلاثاء– 1 محرم 1435 هـ الموافق 5 تشرين ثاني 2013 م

مراجع ومصادر

يلاحظ القارئ الكريم أننا لم نستخدم الهوامش للإشارة إلى المراجع، لأننا أشرنا إلى هذه المراجع في متن النص على خلاف المتعارف.

كما يلاحظ أننا لم نقيّد أرقام الصفحات أو أسماء دور النشر أوسنة الطباعة، إلا قليلاً، وذلك لأنّ الغالبية العظمى من المراجع التي جاءت في متن النص هي كتب تفسير أو معاجم؛ فيكفي معرفة اسم السورة ورقم الآية حتى يتيسّر الرجوع إلى النص في أي طبعة. أما المعاجم فيكفي معرفة جذر اللفظة.

كتب التفسير التي وردت في المتن، بالإضافة إلى كتب تفسير نكثر من النظر فيها:

أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري.

البحر المحيط، أبو حيّان الأندلسي.

التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور

تفسير ابن كثير.

تفسير البيضاوي.

تفسير الرازي.

تفسير السعدي.

تفسير الطبري.

التفسير الكبير للطبراني.

روح المعاني للألوسي.

تفسير ابن عثيمين

أضواء البيان للشنقيطي.

المنار، لمحمد رشيد رضا

تفسير أبي السعود

فتح القدير للشوكاني

نظم الدرر للبقاعي

اللباب لابن عادل الحنبلي

المحرر الوجيز لابن عطيّة

تفسير الماوردي

تأويلات أهل السنّة للماتوريدي

صفوة التفاسير للصابوني

فتح القدير للشوكاني.

في ظلال القرآن لسيد قطب.

الكشاف للزمخشري.

محاسن التأويل للقاسمي.

المحرر الوجيز لابن عطيّة.

كتب أخرى وردت في المتن وأخرى ننصح بها:

شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي.

صحيح مسلم.

من إعجاز القرآن، رؤوف أبو سعدة.

المفردات للراغب

الجمهرة والاشتقاق لابن دريد

لسان العرب لابن منظور

مقاييس اللغة لابن فارس

معاني القرآن للزجاج

الدر المصون للسمين الحلبي

غريب القرآن للسجستاني

كتاب العين للفراهيدي

الصحاح للجوهري

مختار الصحاح، الرازي

كتاب الحياة ترجمة تفسيرية، ترجمة العهد القديم والعهد الجديد.

ط4، 1988م

مجلة nature العدد 311 سنة 1984